التفسير الموضوعي
لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

المجلد الرابع
إبراهيم - طه

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد
أ.د. عيادة أيوب الكبيسي
أ.د. أحمد محمد الشرقاوي
أ.د. ناصر سليمان العمر
أ.د. أحمد عباس البدوي
أ.د. محمد أحمد عيد الكردي
أ.د. مساعد مسلم آل جعفر
أ.د. شحادة احميدي العمري
أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

سورة إبراهيم

بين يدي السورة

سورة إبراهيم مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر، وقال ابن عباس وقتادة إلاّ آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان وهما قوله تعالى:﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾. نزلت بعد سورة نوح.[١]

جاء ترتيبها في المصحف العثماني السورة الرابعة عشرة. عدد آياتها اثنتان وخمسون آية **موضوعها:** الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وذكر القيامة وأهوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية. **اشتملت:** على ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لكفار قريش حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم.

ولجو السورة: من بيان حقيقة نعمة الله على البشر، وزيادتها بالشكر نصيب ملحوظ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران، وفيها يعدد الله عز وجل نعمه على البشر مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، طائعهم وعاصيهم لعلهم يشكرون، ورد فيها تشبيه الإسلام بالكلمة الطيبة والكفر بالكلمة الخبيثة.

وتيسيراً لتفسيرها موضوعياً روعي في تقسيمها إلى سبعة مقاطع، يحتوي كل منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبر التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة والقياس، مع بيان ما ترشد إليه من هدايات، وتوضيح وجه ارتباط كل مقطع بغيره مما تقدم أو تأخر.

وتشكل مقاطع السورة قالباً واحداً يمكن تصنيفها على النحو التالي:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري: ٢/ ٥١٦.

- المقطع الأول ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤.
- المقطع الثاني ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ٨.
- المقطع الثالث ويمتد من الآية ٩ إلى الآية ١٧.
- المقطع الرابع ويمتد من الآية ١٨ إلى الآية ٣١.
- المقطع الخامس ويمتد من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤.
- المقطع السادس ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١.
- المقطع السابع ويمتد من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٢.

ومحور السورة هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بالقرآن الكريم على يد النبي ﷺ مصداقاً لقوله تعالى:﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، وهذا مكرور في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويقدم محور السورة التعريف بمكانة الكتاب ووظيفة الرسول، ونصر الله للمؤمنين المستخلفين في الأرض، لأجل عمارتها على قواعد الهدى الرباني في نظم الحياة كافة، وبيان وحدة تكامل الرسالات السماوية إلى أن بلغت النضج في القرآن الكريم خاتمة الكتب الربانية وهذا بالكلية من أصول قواعد التوحيد.

ومما تجدر ملاحظته في مناسبة السورة مع غيرها تناغم العلاقة ووجه الارتباط بين سورة إبراهيم وسورتي الرعد التي قبلها والحجر التي بعدها.

فهذه السور مكية افتتحت بحروف التهجي التالية ﴿ الٓمٓر ﴾ في سورة الرعد و﴿ الٓر ﴾ في سورتي إبراهيم والحجر. كما جاء فيها تسمية القرآن بالكتاب. جمعت ضوابط القرآن المكي وخصائصه الموضوعية وتشابهت هذه السور في المقاصد التالية:

- الإشارة إلى آيات الله في الكون لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام من خلال إعمال

العقل والفكر.

- ذكر بعض صفات الله تعالى وآثار قدرته ورحمته.
- بيان غاية خلق الله للإنسان في تحقيق العبودية والاستخلاف في الأرض ومسؤولية الإنسان عن أعماله التي تفضي به بإلطاف الله للهداية أو الضلال.
- عرض الأدلة العقلية على وجود الله تعالى بالبراهين والحجج القوية.
- تسرية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعاب بما اتفق للأنبياء قبله مع أقوامهم.
- القدح في سلوك الكفار المذموم لإثارتهم الشبهات ضد رسلهم وانتحالهم ألواناً من الشرك.
- الإخبار عن مصير الماضين من الأمم والشعوب للعظة والعبرة.
- توصيف جانبٍ من سمات شخصية المشركين وتنكرهم للإيمان بالرسل.
- الاستشهاد بضرب الأمثال للوعد والوعيد والترغيب والترهيب وللتحبيب أو الإكراه في الشيء.
- بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.
- وصف أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم لو كانوا مسلمين.
- التأكيد على إقرار الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله عز وجل.
- التأكيد على إقرار العبودية لله عز وجل الوحيد المستحق للعبادة فهو الخالق الرازق المحيي المميت المعز المذل.
- بيان أن القرآن حجة على الخلائق فيه المنهج القويم والصراط المستقيم.

- دعوة الناس كافة إلى تدبر معاني القرآن الكريم وفهم أحكامه.
- التذكير بنعم الله على الإنسان، وبيان أن النعمة إذا استأنست من صاحبها الشكر تأهبت بإذن الله تعالى للمزيد من المنح المبارك فيها والعطايا والمكرمات تعظيماً لشكرها. وإن النعمة إذا وقعت من صاحبها موضع الريبة والشك والجحود والنكران تكون مجلبة للنقم، فمن قام بشكرها دخل الجنة ومن أنكرها أو ردها أو كفر بها دخل النار.
- دعوة الكفار للاتعاظ بما أصاب من قبلهم من الأمم بسبب كفرهم، ودعوة المؤمنين للثبات على دينهم وعدم الوهن والضعف في مواجهة قوى الكفر والشرك.

وانفردت سورة إبراهيم عليه السلام، ببيان أن محمداً وموسى عليهما السلام قد بعثا بالقرآن والتوراة لأجل الهداية شأن الرسل كلهم، وتكفلا بما أنزله الله عليهما لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد فصلت مقاطع السورة لخاتم الأنبياء والمرسلين ما لم تفصله لأولي العزم من الرسل الوارد ذكرهم في السورة كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، وهذا من أسلوب العرض القرآني، فقد يصرح في مقطع بأشياء ما لم يصرح به المقطع الآخر، والمثال ذاته ينسحب على السور، وحكمة هذا التفصيل هنا أن الله عز وجل قد فضل بعض الرسل على بعض في مراتب ودرجات كما فضل بعض الكتب على بعض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وعليه فإن أجلهم وأرفعهم منزلة عند الله محمدٌ ﷺ، لأجل هذا خصته العناية الإلهية ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وللناس كافة إلى قيام الساعة. وأعظم الكتب السماوية منزلة القرآن الكريم، فقد تكفل الله بحفظه من التحريف والتصحيف مصداقاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وأنبياء الله إلى الناس رسلاً كثيرين، ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين رسولاً منهم، وطلب منا الإيمان بهم جميعاً دون أن نفرق بين رسولٍ ورسول، وهؤلاء الرسل هم: (**آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وأيوب وذو الكفل**

وموسى وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام). أمرنا الله تعالى أن نؤمن بهم، فلا يصح إيمان المسلم إلا إذا آمن بجميع هؤلاء الرسل الذين خصهم الله بالذكر، وغيرهم مما لم يأت القرآن على ذكرهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

لم تذكر كتب أسباب النزول سبباً في نزول سورة إبراهيم ﷺ إلا في الآيتين المشار إليهما آنفاً ٢٨ و٢٩، فقد نزلتا في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وبسط لهم العيش الكريم وبعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وقيل نزلتا في قتلى المشركين يوم بدر. (١)

والمناسبة بين افتتاحية السورة في مقطعها الأول والمقطع السابع الأخير قوية إذ في كليهما دعوة للتوحيد، وقد جاء هذا الارتباط إلزاماً للحجة، وكررت لتكون أبلغ في التحدي والتبكيت والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، كأن السورة قد غلفت بسياج التوحيد لله تماماً كإحاطة السوار بالمعصم. وفي الختام سنورد مزيداً من المناسبات بين محور السورة ومقاطعها وبين المقاطع بعضها ببعض عند الحديث عن المقاطع استقلالاً.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٦٤، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٤، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٣٤، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي: ص٢٥.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الأول

ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤

(ويفيد بيان منزلة القرآن الكريم وحجيته على العرب والخلائق جميعاً بصرف النظر عن أجناسهم ولغاتهم)

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

افتتحت السورة بقوله تعالى ﴿ الٓر ﴾ وتُقرأ ألف لام راء، لم يكن هذا مألوفاً في افتتاح الكلام عند العرب، وقد حاول العلماء معرفة أسرار هذه الفواتح للكشف عن الحكمة في استهلال بعض السور بها، ولهم فيها مذاهب شتى من الاجتهادات أقواها حجة أنها مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني، ليكون في غرابتها أبلغ الأثر في قرع أذن السامع لحمله على الإصغاء والانتباه إن كان من أهل الإيمان. وهي من المتشابه الذي على المسلم أن يؤمن بظاهر الآية ويكل المضمر الخفي فيها إلى الله عز وجل لأنها غير واضحة الدلالة.

والاستفتاح في هذا الضرب من الحروف الهجائية﴿ الٓر ﴾ لم يقتصر على سورة إبراهيم فحسب، بل جاء في سور يونس وهود ويوسف والحجر.

وقد بيّن الله تعالى بعد هذا الاستفتاح أن هذا الكتاب العظيم الخالد على مر الأزمان والدهور إلى قيام الساعة، أنزله الله على نبيه ﷺ ليخرج البشرية كلها ابتداءً بقومه، من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى، ولم تقتصر هذه الحقيقة الإيمانية على سورة إبراهيم بل انتظمت غير مرةٍ في العديد من السور تعضيداً لمنزلة القرآن الكريم كقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد: ٩] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وبعد بيان وظيفة القرآن في إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر، ومذموم الخلق، وخوارم المروءة، وضروب المعاصي، إلى نور العلم والهداية والإيمان، والخلق الحسن المحمود الذي يفضي إلى جادة الصواب في القول والعمل والسلوك، نرى توعد آيات المقطع بالدليل والبرهان أهل الكفر والشرك بالويل (وهي كلمة تقال للهلكة والعذاب الشديد والموت لأنهم يولولون من عذاب نار جهنم ويقولون يا ويلاه). (١)

وهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واطمأنوا إليها وقدموها عن الحياة الآخرة التي تنكبوا طريقها إما إنكاراً وجحوداً وإما غفلة، فهؤلاء هم أهل الضلالة الذين استبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير، وسعوا في الأرض فساداً بإثارة الشبهات حول رسل الله وتشكيكهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونفيهم للبعث والحساب والجنة والنار، ونابذوا ربهم بالعداوة والمحاربة، وهذه صفات من ضل وأضل وشاقّ الله ورسوله، فأي ضلالٍ أبعد من هذا؟؟

وقد وصف الله تعالى الكافرين بصفات ثلاث: **الأولى** أنهم آثروا الحياة الدنيا بلذاتها القصيرة الفانية على نعيم الآخرة، حيث تناسوها وتركوها وراء ظهورهم بالإيثار والاختيار الطوعي فكانوا من أهل ظلمات الكفر والضلالة والجهل.

والثانية إصرارهم على منع الناس عن شريعة الله وانتحلوا لذلك ألواناً شتى من المكابرة والعناد التي لم يسبقهم إليها سابق إشباعاً لرغباتهم وأهوائهم.

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥١٦.

والثالثة سعيهم المشبوه في تحويل شريعة الله عن مرادها الصحيح التي تنزلت لأجله، لتكون معوجة لا استقامة فيها لينفروا الناس منها، لأجل هذا فهم أهل ضلالة لا يرجى منهم صلاح لا في حاضرهم ولا في الغد من أيامهم ولكن الله لهم بالمرصاد لمكرهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]، وهو الهادي لمن قُدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث للناس كافة، فالله عز وجل هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، لا يضره من خالفه ولا من خذله، وهو العزيز الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أفعاله فيُضل من يستحق الإضلال، ويهدي من كان أهلاً للهداية بتيسيره وتسهيله وتوفيقه ولطفه.

وفي الآيات شهادة من الله عز وجل بتأييد رسوله ﷺ، وإقراره عز وجل أنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله مما يجعل الآحاد منهم محموداً في أموره الدنيوية حسناً في خاتمة عاقبته الأخروية، ومن لم يتبعه فله النار وعليه سخط الله، وهذا وذاك لا يحصل إلا بإرادة الله الحكيم في أحكامه وتدبيره وتقديره لأمور الخلائق.

ثم ذكرت آيات المقطع أن من صفات أهل الإيمان أنهم يؤمنون بأركان الإسلام، ويستحبون الآخرة على الدنيا غايتهم في حياتهم تحقيق الاستخلاف في الأرض على مراد الله وشريعته في نظم الحياة كافة، يدعون إلى سبيل الله في حلهم وترحالهم ليل نهار، ما انفكوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وأبرزت آيات المقطع أيضاً خطاباً للنبي ﷺ، أن من لطف الله عز وجل بعباده أنه ما أرسل رسولاً من رسله الكرام الوارد ذكرهم في القرآن الكريم إلا بلسان قومه ليقيم عليهم الحجة أمراً ونهياً بألسنتهم.

ويستدل من هذا الخطاب أن الرسول الذي يبعث بلسان قومه لحملهم بالإيضاح والتفسير للعمل بحقائق دعوة شريعته أنه مع عظيم دعوة رسالته إلا أنه لا يقدر أن يهدي أحداً، فالمضل والهادي هو الله، فليس على الرسول هدايتهم، فالله تعالى يضل من يشاء لعدم سلوكه سبل

الهداية، ويهدي من يشاء لفتح قلبه لنور الهداية، فقلوب الناس بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء، حسب إقبالهم، أو صدهم.

واشتمل المقطع على ثلاث صفات لله عز وجل وهي العزيز والحميد والحكيم، للدلالة على أن الله عز وجل لا يهدي ولا يضل إلا لحكمة، وهو القوي الذي لا يغلب على مشيئته، له التفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب، فالله عز وجل لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا على مراد حكمته، وعلمه الأزلي بسلوك خلقه، وهذا من تمام قدرته وعدله، فحقت بذلك كلمته سبحانه وتعالى على أهل الإيمان من عباده بأن مصيرهم الجنة، وأهل الشرك مصيرهم النار.

ويفيد اسم **العزيز**: الغالب الذي يغلب لكمال قوته وقدرته.

والحميد: الموصوف بجميع الصفات التي يحمده بها الأولون والآخرون، وهو المحمود بعظيم صفاته سبحانه، وهو **الحامد** يحمد أهل طاعته من عباده، ويثني عليهم بما هم عليه من خير وحسن الخاتمة.

ويفيد اسم **الحكيم**: الحاكم الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه فإنه يضع الأحكام في مواضعها بعلمه وحكمته وتدبيره وتقديره، بصورة موافقة للحكمة والرشاد. ولعل حكمة اشتمال المقطع على هذه الأسماء يعزى إلى بيان أن ما خفي عنا من الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى، فذلك من قصور نظرنا وضيق تفكيرنا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الله عز وجل وصف نفسه في آخر المقطع حكيماً، وحكمته سبحانه وتعالى تنافي كونه خالقاً للكفر مريداً له، وفي هذا يعلق الفخر الرازي قائلاً: (لقد وصف الله عز وجل نفسه عزيزاً بمعنى الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع عدم قدرة الكافر على ذلك لما سمي عزيزاً غالباً). [1] والعزيز هنا إشارة إلى كمال قدرته سبحانه وتعالى وعدله.

وأخيراً فإن المناسبة بين افتتاحية المقطع الأول وخاتمة السورة في المقطع الأخير، خير شاهد على وحدة هدف ومحور السورة. ففيهما أصول دعوة التوحيد بإخراج الناس من الظلمات إلى النور على يد النبي ﷺ.

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٤.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من المقطع الأول

١- افتتحت آيات المقطع الأول بقوله تعالى: ﴿ الٓر ﴾ وهي ثلاثة حروف هجائية مقطعة، تلفظ: ألف، لام، راء. ابتدأ الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات عند سماعها لأجل الإصغاء لما سيرد بعدها. وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من هذه الحروف التي يلفظ بها العرب كلامهم.

تعددت آراء العلماء في جواز أو حرمة تأويلها إلى قولين:

- جماعة ترى وجوب تدبر آيات القرآن الكريم بما فيها فواتح السور من الحروف المقطعة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

ويعتقد أنصار هذا الرأي أنه كلما تقدم العلم الإنساني كشف عن بعض وجوه إعجاز القرآن التي لم يقف عليها الأوائل.

ولقد أورد صاحب البرهان عشرين رأياً اجتهاداً جمعها من أقوال علماء علوم القرآن والتفسير الذين سبقوه، ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي محمد ﷺ. ومن أشهر وجوه تفسيرها أنها مفاتيح لأسماء الله الحسنى، وكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، ومثاله في قوله تعالى ﴿ الٓر ﴾ فالألف مفتاح اسم (الله) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد) والراء مفتاح اسمه (الرزاق)[1].

- وبالمقابل فإن جماعة ثانية من العلماء ترى حرمة الخوض في تأويلها وهي من المتشابه نقيض المحكم. علم مستور وسر محجوب استأثر الله به وهو العالم بمراده منها، وهي من أسرار القرآن التي لا يدركها البشر حتى قيام الساعة.

- وترى طائفة منهم ليس من الدين في شيء أن يجترئ أحد من الخلق على تفسيرها خشية

(١) للمزيد انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني: ١/ ٢٧.

الزلل في الاجتهاد. [1]

ومما تجدر ملاحظته هنا أن فواتح السور من الحروف المقطعة وردت كآيات مستقلة في تسع عشرة سورة هي: (البقرة وآل عمران والأعراف ومريم وطه والشعراء والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة ويس وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف)، وجاءت غير مستقلة مدرجة مع سياق الافتتاح في عشر سور هي: (يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنمل وص وق والقلم).

ويعزى ذلك إلى الاختلاف بين البصريين والكوفيين حول اعتبارها آيات مستقلة أم لا، فالبصريون لم يصنفوها آيات منفردة بذاتها، أما الكوفيون فقد صنفوا بعضها آيات مستقلة دون بعضها الآخر.

والاستفتاح بالحروف المقطعة ورد في القرآن الكريم في تسع وعشرين سورة كلها مكية عدا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان.

وتباينت فواتح السور من حيث عدد الحروف، فبعضها مؤلف من حرف واحد ومثاله ص، ق، ن، ومن حرفين ومثاله حم، طس، طه، يس. وبعضها مؤلف من ثلاثة أحرف ومثاله (الم) و(الر) و(طسم)، ومنها ما ورد من أربعة أحرف ومثاله (المر) و(المص) كما ورد بعضها من خمسة أحرف ومثاله (كهيعص) و(حم عسق).

واللافت للانتباه أن عدد أحرف فواتح السور من الحروف المقطعة أربعة عشر هي: (ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، ه، ي). وقد جاء في كافة السور التي استهلت بالحروف المقطعة التأكيد على الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله تعالى.

وإتماماً للفائدة فيما يلي جانبٌ من وجوه اجتهادات العلماء في تأويل فواتح السور من

(١) يعد كتاب الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح، لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤هـ من أشهر المؤلفات التي أفردت لفواتح السور ومعرفة أسرارها.

الحروف الهجائية أو المقطعة أو النورانية، الأربعة عشر حرفاً المشار إليها آنفًا، والتي يجمعها تسهيلاً للحفظ قولك (نصٌ حكيمٌ قاطعٌ له سِرٌ)، وهي في عرف البعض أجل وأشرف من النصف الآخر المتروك من حروف اللغة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أقوال العلماء ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وإنما يغلب عليها الظن الاجتهادي، ليس فيها إجماع وليس أحدها بأولى من الآخر، وفيما يلي جانب من أقوالهم:

أ - هي أسماء للسور ولا يمانع أصحاب هذا الرأي تسمية السور المتشابهة في فواتحها بمسمى واحد غير أسمائها المعروفة به، كسورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر ونحو ذلك في البقرة وآل عمران في مقطع﴿ الٓمٓ ﴾.

ب - اسم من أسماء الله الأعظم.

جـ- قسم أقسم الله به أسماءه تعالى إذ يدل كل حرف منها على اسم من أسمائه أو صفة من صفاته.

د - استفتح بها لأجل التحدي والإعجاز اللغوي، وكررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة، ولهذا فإن كفار قريش عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من جنس الحروف التي يتخاطبون بها، ومن أنصار هذا الرأي القرطبي والرازي والزمخشري وابن تيمية، وهو أكثر الأقوال قبولاً وهذا المذهب عليه إطباق أكثر المفسرين قديماً وحديثاً.

هـ-أنها دالة على معرفة المُدد التي يستخرج منها أوقات الحوادث ومددها الزمنية، ويقاس عليها أيضاً استخراج كل كلمة من كلمات القرآن، فالألف تفيد واحد واللام ثلاثون والميم أربعون، وهذا حساب فواتح البقرة﴿ الٓر ﴾، ١+٣٠+٤٠=٧١.

وفيما يلي حساب الأرقام عند العرب وقيمة كل رقم العددية في نظام حساب الجُمَّل:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠
س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ولإيضاح حساب الجمل في قوله تعالى:﴿ الٓمٓصٓ ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه تمثل إحدى وثلاثين ومائة.

وفي قوله تعالى:﴿ الٓر ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان، فيكون هذا المقطع في حساب الجمل إحدى وثلاثين ومائتين.

وفي قوله تعالى:﴿ الٓمٓر ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فيكون هذا المقطع في حساب الجمل إحدى وسبعين ومائتين.

وتعطي كلمة القرآن العدد ٣٨٢ وتعطي كلمة الكتاب العدد ٤٥٤ وكلمة الحق ١٣٩ وكلمة الإنسان العدد ١٩٣ وهكذا.

غ- الله أعلم بمراده منها، وباعتقادي أن القول بهذه العبارة أجل من الاجتهاد في إخضاع القرآن إلى حساب الجمل، وهي في منزلة شطحات لأرقام جوفاء. (١)

ك- ومن الدراسات الجديدة حول فواتح السور محاولة د. رشاد خليفة إبراز الإعجاز العددي للرقم ١٩، فقد وجد أن عدد أحرف البسملة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ هو تسعة عشر حرفاً، له علاقة وثيقة بالحروف المقطعة التي استهلت بها بعض السور القرآنية، إذ اكتشف أن كل سورة افتتحت بحرف أو أكثر من هذه الحروف قد تكرر في السورة نفسها، وفقاً لعدد دقيق

(١) للمزيد حول فواتح السور انظر: تفسير الطبري والقرطبي وابن عطية الأندلسي والزمخشري والرازي وابن كثير في تفسير (الم) من سورة البقرة. وانظر أيضاً: الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤هـ. والبرهان للزركشي.

هو عبارة عن مضاعفات للعدد ١٩.(١)

٢- إن في قوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في منزلة الإنعام عليه من حيث أنه فوض الله إليه هذا العمل العظيم لحمل الناس كافة على الإسلام لكونه خاتم الأنبياء والمرسلين، والكتاب الذي نزل عليه خاتمة الكتب السماوية. وإنعاماً على الخلق أيضاً من حيث أنه أرسل إليهم صفوة رسله ليخلصهم من ظلمات الكفر، ويرشدهم إلى نور الإيمان، وخصه دون غيره بالعموم والعالمية في رسالته.

ويعد هذا الإنعام للنبي ﷺ هو الأفضل والأكمل خلاف من سبقه من الرسل، ومن الآيات الدالة على عالمية شريعته وعموم دعوته للبشرية قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]. ويستفاد من ذلك أن الشرائع التي تقدمت رسالة محمد ﷺ كانت محصورة في أقوام معينة وأزمان محددة، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]. في حين كانت رسالته ﷺ عالمية لصلاحيتها لكل زمان ومكان، فلا نبي بعده ولا كتاب سماوي بعد القرآن الكريم، وبموته انقطع وحي السماء عن الأرض، وبهذا يكون الدين عند الله الإسلام بمنطوق الرسالة والدعوة والشريعة التي تنزلت على محمد ﷺ. ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم هو أشرف الكتب السماوية، أنزله الوحي على أشرف رسول بعثه الله في أهل الأرض، نزل في أقدس بقعة لأفضل وخير أمة، إذا التزمت شرع الله وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

وبهذا فإن عملية الإخراج من الظلمات إلى النور لا تتم إلا بالقرآن الكريم، أصل كل هداية ومنبع كل نور. وأضيف الفعل في قوله تعالى﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمنذر

---

(١) في تاريخ القرآن وعلومه، د. محمد الدسوقي: ص١١٧.

الهادي بأمر ربه.

٣- تقرر آيات المقطع عدم استواء الظلمات والنور، وأن نعمة الإيمان هي أجلّ نعمة في الوجود.

وبمناسبة قوله تعالى﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ [إبراهيم: ٣]، جاء وصف الضلال بالبعد مع أن البعد للضال، لأنه هو الذي يباعد صاحبه عن طريق الحق، وفعل الضلال ملازم له لا يفارقه.

وهذا التعبير القرآني يدخل في باب الإسناد المجازي في التمثيل، ويندرج في سياق الإعجاز البلاغي واللغوي. [١] ودليله في المقطع أيضاً أن الظلمات والنور، استعارتان للضلال والهدى كناية عن الكفر والإيمان، وهذا محمول على التمثيل لأن الكفر بمنزلة الظلمة والإسلام بمنزلة النور[٢].

وقد جاء تشبيه الجهل والكفر والباطل بالظلمات وهي على صيغة الجمع، وبالمقابل عبرت الآيات عن الإيمان بالنور والهداية بلفظ المفرد، مما يدل على أن طرق الجهل كثيرة وطريق الإيمان واحد. [٣]

٤- إن من لطف الله عز وجل اختصاص كل رسول بلغة قومه، ليكون إدراكهم لمضمون الخطاب في الدعوة أسهل، ووقوفهم على أوامر الأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد والثواب والعقاب أكمل، بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، لأجل أن يكون فهمهم للدعوة أعمق حتى لا يكون لهم حجة على الله، منعاً لقولهم لم نك نفقه لغة ما خوطبنا به.

وعلى خلفية هذا فإن القرآن الكريم وإن نزل بالعربية فقد جاء للعالم كله، ولا حاجة هنا لنزوله بجميع الألسن واللغات لأن الترجمة تنوب عن ذلك، فاستوجب على المسلمين ترجمته إلى لغات العالم كله، فتعلمه بمعانيه وعند ترجمته يتشعب عنه جلال الفوائد وعظيم المنافع لغير الناطقين بالعربية، فيلزم عندئذ كل من بلغه ترجمته حجته، وخاصة إذا ما علمنا

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥١٧، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٧٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٣٨.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٥٨.

أن أكثر من ثلثي سكان العالم وثنيون، يحتاجون إلى ترجمة تفسيرية معنوية للقرآن الكريم، لأن إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام، وما يتوقف على تفعيل هذه الدعوة من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها فواجب، كما أن مخاطبة أهل الكتاب من الغرب بلغتهم فواجب كذلك، لإيضاح أسس الدعوة إلى الله وإظهار مصداقية الرسول ﷺ في دعوته، ومقارعتهم بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وحرفوه من مواضع الكلم في كتبهم.

٥- إن استحباب الحياة الدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أجلها ليصل بها إلى الآخرة كجسر موصل للجنة، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق الاستخلاف في الأرض على مراد الله فلا يكون مذموماً.

أما إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته، فهذه المحبة مذمومة لمخالفتها قول الله عز وجل ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

(ومن كان موصوفاً بحب الدنيا فهو ضال، ومن منع الخير عن نفسه وحبس الآخرين عن فعله فهو مضل). [١] ومن فعل ذلك كان غافلاً عن الحياة الآخرة وعن معايب الحياة الدنيا الزائلة، وحسبك أن القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من حيث قيمتها الحقيقية وعلاقتها بما وراءها، وما يجب أن تكون عليه حالة الإنسان تجاهها ومدى ما ينبغي أن يستفيده منها حسب ما تقتضيه مصالحه وسعادته، فالحياة الدنيا من حيث قيمتها فانية، معبر إلى الحياة الأبدية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والمتأمل للنصوص القرآنية يرى أن الله عز وجل قد سخر ما في الأرض خدمة للإنسان لإسعاده شريطة ألا تكون همّه الأول مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٣.

﴿مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

ويحذر الله عز وجل من معارضة الفطرة الإنسانية بعدم الانتفاع من متع الحياة الدنيا وطيباتها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

وهكذا يأمر الله الإنسان بالإقبال على الحياة الدنيا بشروط للتمتع بطيباتها للإفادة من نعيمها وعدم الاغترار بمظهرها، وهذه نظرة القرآن للإنسان في الكون والحياة. (١)

٦- إن كل من أدخل بدعة محرمة ودعا إلى منكر من قول أو عمل أو سلوك، وحمل الناس على اتباع ذلك بالترغيب أو الترهيب ليصرفهم عن الدين الحق كإشاعة الفن الهابط وتدشين الفضائيات المشبوهة، ومحاربة الدعاة إلى الله والاستقواء بالأجنبي والدعوة للسفور وملاحقة صيحات الأزياء ونحو ذلك، داخل بالكلية في مضمون قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: ٣].

وصفة أهل هذا الضرب من الناس أنهم في ذهاب عن الحق بعيدون عنه عليهم وزر من عمل بها كما ورد في الحديث الشريف: (من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيءٌ ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده كتب عليه مثلُ وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء). (٢)

٧- إن في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] دعوة للإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، ولا يكتمل إيمان الإنسان إلا به، ولا مسوغ في الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله ثم يتعذر بالقدر، لأن الله عز وجل خلق للإنسان عقلاً وإرادة تجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر والكفر والإيمان والظلمات والنور.

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢٥٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، حديث رقم: ٤٨٣٠.

وقد انقسم الناس في القضاء والقدر إلى ثلاث جماعات:

- طائفة ترى أن الإنسان مخير دائماً وهي جماعة القدرية، وقد نفت هذه الفئة تأثير القدر على الإنسان.

- طائفة ترى أن الإنسان مسير دائماً لأنه لا إرادة له وأن الله وحده هو الفاعل لكل شيء وهم جماعة الجبرية.

- جماعة ترى أن الإنسان مخير في أموره الإرادية ومسير في أموره اللا إرادية التي لا تدخل في نطاق قدرته، وترى هذه الجماعة أن القدر لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله كما يمكن رده في الأمور الإرادية للإنسان، أما الأمور اللا إرادية كالموت مثلاً فهذا خارج عن نطاق قدرته، وأهل هذا الضرب هم الأرجح صواباً.

- وعلى خلفية هذه التوطئة في القضاء والقدر نقول: إن الفعل في الكفر واقع باختيار الكافر وإرادته، لأن الله تعالى لم يرد الشر ولم يأمر به، بل أراد الخير للإنسان وأمر به، ولم يسلبه القدرة على الانتقال من الظلمات إلى النور وأنه لو أعمل العقل لفعل ذلك.

- ولا صحة لمن يزعم أن الله عز وجل هو الذي يجبر عباده ويقرر أزلاً من سيكون منهم مؤمناً ومن سيكون كافراً، ومما يعضد هذا القول اتفاق الشرع والعقل على تقرير أن الإنسان فاعل حر ومختار لأموره الإرادية، بدليل أن الشارع قد دفع المسؤولية عن المكره ومن لم يبلغ الرشد والمجنون.

وفي آيات المقطع دلالة على إبطال القول بالجبر ويعضد ذلك قول الفخر الرازي في تفسيره: (إن الله تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب المنزل.... ومن حق الكافر على سبيل الافتراض القول هنا إذا كان الله خالق الكفر فينا فكيف يصح للرسول إخراجه منّا). (١)

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٥٧.

ومما يدلل على أن أهل الكفر والإضلال اختاروا كفرهم بإرادتهم قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٤]. فلو شاء الله لحملهم على الإيمان عنوة وقسراً إلا أن حكمته سبحانه وتعالى قد قضت وقامت حجته ألا يحمل أحداً من خلقه على الإيمان قهراً، تاركاً لهم حرية الإيمان الاختياري، فإن استمروا على كفرهم كانوا من أهل النار، وإن كانوا من أهل الهداية شملهم الله بلطفه وعنايته وهدايته فكانوا للحق والإيمان أقرب وأبعد عن الباطل والغي والضلال بفضل الله، وفق ما قدره من سنن وأسباب، فترك الضال على إضلاله وأخذ بيد المهتدي بعناية لطفه.

يتضح مما سبق أن الإصرار على الكفر والضلال والشرك لا توجب حصول لطف الهداية للضال من رب العالمين، ويعلق الإمام الفخر الرازي على هذه الجزئية قائلاً: (إن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، مع امتناع أن يكون الضلال والشرك حاصلاً بخلق الله تعالى، وإلا حق للكافر أن يسأل: ما جدوى القرآن والرسول إذا كتب الله علينا الكفر، وهذا يلزم أن يكون الرضا بالكفر إرادياً). (١)

٨- تقرر آيات المقطع عدم استواء الهداية والضلال، فالهداية: سلوك الطريق الذي يوصل الإنسان إلى غايته وهو اتباع شرع الله تعالى، وسمي اتباع شرع الله تعالى هداية لأنه يرشد الإنسان إلى الحق، ويرشد إلى اتباع كل خير والتحذير من الشرور ما ظهر منها وما بطن. ومن رحمة الله تعالى بعباده أن هيأ لهم سبل الهداية، وهي السبل التي تقود المرء إلى الهداية وترشد إليها إذا اهتدى بهديها وسلك وفق ما يرشد إليه ومنها: الاستعدادات الفطرية، والعقل، وإرسال الرسل.

والضلال: هو الانحراف عن شرع الله تعالى بما فيه من تيهٍ وضياع وانحراف، وسمي الانحراف عن شرع الله تعالى ضلالاً والمنحرف عنه ضالاً بسبب مجانبته للحق والهداية.

وأما الضلال فقد جعل الله تعالى له سبلاً، ومن سُبل الضلال اتباع الشهوات والانصياع

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٤.

لوساوس الشيطان وغوايته. وقد فطر الله تعالى الإنسان على الاستعداد للإيمان وعلى استعداد للغواية، وجعله قادراً على اختيار الهداية أو الضلال، وبناءً على اختياره هذا يثاب أو يعاقب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣] وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾[التكوير: ٢٧-٢٨] وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨]. فالإنسان حسب منطوق الآيات حكَمٌ على نفسه مسؤول عن اختياره وقراره ولا يجازى إلا بما قدم لنفسه من خير أو شرٍّ ومن هُدى أو ضلالٍ.

والشيطان في الضلال يزين للإنسان الكفر بما يثيره من شكوكٍ وشبهاتٍ. وبما يثيره في النفس من قنوطٍ ويأسٍ وتزيين الشهوات وتهوين أمرها.

ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالعقل الذي به تعرف الأشياء ويميز بين الخير والشر، فمن أعطي نعمة العقل كان مكلفاً مسؤولاً عن تصرفاته.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الثاني

ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ٨

(دعوة الرسل في الإخراج من الظلمات إلى النور)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

علاقة هذا المقطع بسابقه خير شاهد على تكامل أساليب الدعوة لله بها يخدم هدف السورة ومحورها في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفي المقطعين من أدبيات الدعوة والعبر والعظات والدروس التربوية للأمة، ما يحملها على صدق الإيمان وحسن الاستخلاف في الأرض لو التزمت مسارب الهدايات الربانية.

يخبر الله تعالى في هذا المقطع أنه أرسل موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل وآل فرعون بحججه وبراهينه العظيمة الدالة على مصداقية رسالته، بالآيات التسع كالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى، وقيل أيضاً أن المراد بهذه الآيات: العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات. (١)

وأمره بما أمر الله به خاتمة رسله محمداً ﷺ، وبما أمر به جميع رسل الله كافة، أن يخرج قومه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، مع خلاف جوهر دعوة موسى عليه السلام الخاص بقومه ودعوة الرسول ﷺ للناس كافة على وجه العموم والعالمية غير المحدد بزمان ومكان.

ويذكّر الله تعالى موسى عليه السلام أن أخبر قومك بأيام الله ونعمه عليهم ووقائعه بالكافرين ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه، فنعم الله وأياديه عليهم كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى والتذكير بها واجب نظراً لما ينطوي عليه من عبر ودلالات دالة على عظمة التوحيد لله وكمال قدرته، لا يقف على جوهرها إلا من كان كثير الصبر على المحن والمنح، وهذه من صفات كل عبد أواهٌ منيب صابر على البلاء في الضر شاكراً للنعماء والأعطيات في السراء.

ويُراد بأيام الله إنجاء القوم من عذاب وذل واستعباد فرعون لهم وعبودية القوم له، وقتله لأولادهم الذكور بسبب حلم فسره الكهنة له أن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكه على يديه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٤١، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٤.

ومن كرم الله على القوم تطبيق سننه فيهم في مداولته للأيام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، فانتقل حالهم من محنة وبلية إلى منحة وعطية، ومن شدة في الحياة إلى الرخاء والراحة، ومن الشعور بالخوف إلى السلامة والأمان.

وقد خص الله عز وجل الصبّار الشكور بالذكر في هذا المقطع، لأن أهل هذا الضرب من المؤمنين أكثر الناس انتفاعاً بآيات الله هذه وبأيامه في السراء والضراء، وما التذكر بأيام الله إلا لأخذ العبرة والعظة من باب التسرية والترغيب والترهيب وهي موجبة لمحبة الله تعالى، ومقام هؤلاء أعلى مقامات الصديقين. إذ ليس خافياً على أحد أن عنوان السعادة كلها ومنبعها السير على صراط الله، حتى يصبح حب الله مقدماً على كل شيء ويكون حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى نعمه وهذه صفة كل صبار شكور من المؤمنين.

كما أخبرت الآيات أن موسى ﷺ أعلم قومه بالتصريح العلني أن الاشتغال بشكر نعم الله يوجب تزايدها في الدنيا والآخرة، والانصراف عنها بكفرها يوجب العذاب الشديد الذي يعود على صاحبه بالضرر في آجله وعاجله.

وتفصل الآيات أنكم إن شكرتم هذه النعم، فإن الله يزيدكم نعمة إلى نعمة، وإن كفرتم بها بالشر والجحود فإن عذاب الله شديد.

وكفر النعمة يكون على أوجُهٍ منها: عدم شكرها أو إنكارها أو استخدامها بالبطر والكبر.

أو توظيفها في شهوات الدنيا الزائلة، أو الزعم أن الآحاد منهم قد احتصل عليها بعلمه وعلى مراده. وحول هذا الشأن يعلق سيد قطب قائلاً: (إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يجب أن يشكر وهذا هو جزاؤه الطبيعي عند أصحاب الفطرة السليمة المستقيمة، والنفس التي تشكر الله على نعمته هي النفس التي تراقب التصرف بهذه النعمة، بلا بطر وبلا استعلاء وبلا استخدام لها في الشر والفساد). [1] والصبار الشكور هو

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٣٩.

الذي يكون الصبر والشكر من سجاياه ويدرك هذه الآيات وما وراءها من عبرة وعظة، لتكون نافعة له في حاضره ومستقبله في الدنيا والآخرة.

ويستمر موسى ﷺ في بيانه وتذكيره لقومه، فدعاهم إلى وجوب تدريب النفس على الشكر وعلى طاعة الله، مع التحذير من كفر النعمة الجماعي المنذر لها بالزوال بالكلية، لأن من يكفر بأنعم الله فإن الله سيذيقهم ألواناً من العذاب الشديد بدءاً من زوالها إلى عذاب نار جهنم الشديد، وقد لوحظ تركيز موسى ﷺ في هذا المقطع على شكر النعم والتحذير من الكفران والعصيان، وكلمة الكفر هنا عامة تصرف على الكفر الذي يقابل الإيمان وعلى الكفران الذي هو عكس الشكر.

ويختم المقطع بقول نبي الله لما أيقن كفر قومه: لئن كفرتم أنتم وجميع الخلق فلن تضروا الله شيئاً، وهو غنيٌّ عن شكر عباده مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن لم يحمده من كفره، فهو الغني عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، فلا ينتفع بشكر من شكر ولا يتضرر بضرر من كفر، وكل منها محبوس على صاحبه من السلب والإيجاب وما يوجبه من رضا الله أو غضبه.

وفي هذا الشأن يعلق الفخر الرازي قائلاً: (الله واجب الوجود لذاته بحسب جميع صفاته، فهو المستحق للحمد، وهذه المعاني من لطائف الأسرار، فالله غني عن العالمين في جلاله وصفاته)[١].

ويعلق الزمخشري على الآية الأخيرة في المقطع﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٨]، قائلاً: (والله مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه وإن لم يحمده الحامدون). [٢]

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

(١) التأكيد على أن المقصود من بعثة الأنبياء واحد، وهو سعيهم إلى نقل أقوامهم من دياجير التخلف ووهدة الضلالة وظلمة الجهالة إلى نور الهدى بتوحيد الألوهية والربوبية

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٧.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢٠.

والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار، ولا يتأتى نقلهم من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات الربانية، إلا بالحكمة في الدعوة والرفق واللين في الخطاب، مع مراعاة القدرة العقلية للمخاطبين واختيار الوقت الملائم للمدعوين، واختيار الألفاظ الواضحة اللينة التي لا تثير المدعوين ولا تهيج مشاعرهم، مصداقاً لقوله تعالى مخاطباً رسوليه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم أكثر من الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ليشوق المدعو من الاستجابة لدعوة الحق، وتحذيرهم من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أساليب ذلك تذكير المدعوين بما هم عليه من نعم، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: ٦٩].

وهذا يتطلب من الداعية المران والدُربة على أساليب الدعوة للنجاح في دعوته وتحقيق غايته، وفي مقدمتها الابتعاد عن الاستعلاء على الناس واحتقارهم وإظهار فضله عليهم، وأن يكلمهم بروح الناصح المخلص المتواضع الذي يدلهم على ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، بالجدال المحمود الحسن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التزام الأدلة المقنعة وتجنب الغضب والصخب في أثناء المجادلة.

(٢) تقرر آيات المقطع أن من وظائف رسل الله:

أ- إرشاد الناس إلى معرفة ربهم معرفة حقة وتحريرهم من العبودية لغير الله مصداقاً لقوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، ويتحصل هذا عبر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ب- تنظيم حياة الناس وفق شريعة كل رسول حسب وما ورد فيها من أحكام.

جـ- إقامة حجة الله تعالى على الناس بأن دينه وشرائعه قد بلغتهم على ألسنة رسلهم والدعاة إلى الله تعالى من بعدهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥].

د- تصويب ما أعوج من المجتمعات البشرية وتحريرها من الرذائل ومذموم الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هـ- إصلاح النفوس البشرية بجميع أبعادها الروحية والعقلية والوجدانية والإنسانية.

و- تحقيق الهداية والرحمة المقصودة من إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

ز- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من أعظم قواعد الإسلام، والمقصود الأكبر من بعثة رسل الله، وقد حث عليها القرآن والسنة، ووعد الله تعالى من قام بهما بخير الجزاء وتوعد من تركهما وتهاون فيهما بالعذاب الشديد، فهما خصلتان من أهم خصال المؤمنين، وقد شهد القرآن بالصلاح لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعد إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٤]. والتخلف عنها يجلب سخط الله وعقابه، ويحول دون استجابة الدعاء ولو كان صادراً عن أناس مؤمنين(١)، ما داموا لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر مصداقاً للحديث الشريف: (**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**). (٢)

(٣) بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥]، فإن للعلماء في تأويلها اجتهادات منها أن اليوم مفرد أيام، ويبدأ اليوم من طلوع الشمس إلى غروبه، ويعبر عن الأيام في لغة العرب مجازاً بالوقائع العظيمة مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]. والمراد منها حصول العبرة بأحوال المتقدمين، ومثاله في المقطع ما نزل بقوم نوح

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٧٨١.

(٢) سنن الترمذي، حديث رقم: ٢٠٩٥.

وعاد وثمود من الإهلاك لكفرهم. كما يفيد معنى الأيام هنا أن حياة الإنسان لا تستقر على وتيرة واحدة من صعود تارة وهبوط تارة أخرى، في تداول من محنة وابتلاء، إلى نعيم ورفاه وهكذا، ومن الحكمة إن جرى الوقت على ما يلائم طبع الإنسان أن يكون شكوراً، وإن جرى بما لا يلائم طبعه وجب عليه أن يكون صبوراً، فالبلاء والابتلاء من أسماء الأضداد[1] في اللغة العربية قد يكون بالنعمة تارة وبالمحنة تارة أخرى، [2] والنعمة هنا اسم جامع للمال والنفس وصحة البدن وحواسه وغير ذلك مما سخره الله للإنسان في الكون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وللابتلاء مراتب ودرجات قدرها الله لأجل التمحيص للاختبار أو الامتحان والتطهير من الذنوب أو الاصطفاء والتزكية ونحو ذلك.

كما ويحتمل معنى أيام الله الواردة في المقطع نعم الله، ويدخل في هذا الباب نعمه على قوم ونقمه على قوم آخرين بالحدث نفسه، فنعمة الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون رافقها نقمة الله على فرعون، [3] ومما يعضد هذا القول ما ذهب إليه ابن عباس: (بأن أيام الله نعماؤه وبلاؤه، فأما نعماؤه فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر وأما بلاؤه فإهلاك القرون). [4] وهذا داخل في العظة والاعتبار بما سلف من أيام الماضين بما كان فيها من النقمة والمنحة.

(٤) بمناسبة قوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

---

(١) لا يعني البلاء نزول النوائب والعاديات القارعة بالإنسان فحسب، من مرض عضال أو موت عزيز أو خسارة تجارةٍ أو فقدان رياسة أو مديونية لا قبل له عليها، أو فشل مكرور في حياةٍ زوجية ونحوه، فإن لم تكن المصائب كذلك فإن عقوق الأبناء أو فشلهم أو تعاطي المخدرات أو الكحول حتى السجائر وما يتصف به الإنسان من مذموم الخلق وغيره من الصفات القادحة، كله ضرب من ضروب أنواع البلاء وإن تعددت وتفاوتت بالآحاد من البشر في شدتها وقسوتها.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٤٢.

(٤) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥١٩.

ما يفيد أن الاشتغال بالصبر والشكر يوجب انفتاح أبواب الخير على صاحبه في الدنيا والآخرة والصبر لا منتهى لأجره. فالصبار هنا صيغة مبالغة للمؤمن كثير الصبر، والصبر خلق إسلامي يبعث على تحمل المشاق والتعب والأذى في سبيل الله، والرضا بقضائه عند وقوع المصائب وعدم التظلم والتشكي والتذمر مما وقع من بلاء. وقد امتدح الله تعالى الصابرين في الدنيا ووعدهم بالظفر والتأييد كما أعد لهم ثواباً عظيماً في الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾[الإنسان: ١٢].

ومن صفات الصبار الشكور هنا:

- الصبر على الطاعة وتحمل المشاق في سبيلها.
- الصبر على المعاصي كمقاومته للشهوات والمغريات طلباً لرضوان الله تعالى.
- الصبر على المصائب، فالصبار الشكور هو المؤمن الذي يواجه مصائب الدنيا وآلامها في النفس والمال والولد وغير ذلك بصلابة واقتدار وشجاعة، حتى يكون من الفائزين برضوان الله تعالى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]. والصبار الشكور يكون مؤمناً بأن أمور الحياة كلها بيده سبحانه وتعالى، مما يجعله راضياً بقضاء الله تعالى، يتحلى بالطمأنينة والرضا، لأنه يعلم أن الصبر طريق النصر وطريق مرضاة الله تعالى، مع الأمل بالله تعالى أن يرفع الشدة في الدنيا ويعطي الثواب في الآخرة.

والصبار هنا صيغة مبالغة للتدليل على صفات المؤمن كثير الصبر على طاعة الله وعن معاصيه، شكور لأنعم الله إذا أُعطي شكر وإذا ابتلي صبر، مصداقاً للحديث الشريف: (عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمرَه كله خيرٌ وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له). [1]

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمرؤ، حديث رقم: ٥٣١٨

ومما تجدر ألإشارة إليه أن الصبر لا يعني الاستسلام للمصائب إذا كان الإنسان قادراً على مواجهتها وتغييرها، فإن لم يفعل مع قدرته على ذلك فإنه آثم، ومما يعضد هذا القول مع أن القدر لا مفر منه إلا أنه لا يعني أن الإنسان مجبر على القيام بالأعمال أو الاستسلام للواقع في حدود إرادته، فلو صح ذلك لبطلت التكاليف وبطل الثواب والعقاب المترتب عليها ولوقف مستسلماً لكل ما يعصف به من نوازل، فالقدر يمكن رده فيما يتعلق بالأمور الإرادية للإنسان لأنه صاحب إرادة وعقل وفكر يدرك بها الأمور ويميز بينها، إضافة أن الله تعالى خلق للحياة سنناً لا بد للإنسان من أن يسير عليها، وهذه السنن هي أقدار أو أسباب أودعها الله في الأشياء، وهذه الأقدار أو الأسباب يمكن ردها عن طريق بعضها البعض بإذن الله الذي خلقها.

فالهزيمة العسكرية تدفع بقدر إعداد الأمة للجهاد، والتخلف يدفع بقدر إعداد الأمة للتنمية في مجالاتها كافة، تماماً كالمرض قدر يدفع بقدر العلاج، والرسوب من الامتحان قدر يدفع بقدر الاجتهاد وليس أدل على مصداقية ما أشرنا إليه آنفاً من النقاش الذي حدث بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة، حين قرر العودة إلى المدينة بعد تسلمه مفاتيح بيت المقدس حين سمع بطاعون عمواس، وقال له أبو عبيدة: أتهرب من قدر الله يا عمر؟ فأجابه لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ثم قال نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله.

(٥) كشفت الآيات أن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم على الدوام لطغوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الدعوة والصبر عليها والأخذ بأسبابها.

لهذا كان يمنحهم بالسراء والضراء، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالدعاء والاستغاثة للاعتصام بحبل الله. وليعلم بالبلاء والمحنة منازلهم عند الله، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان، ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة، لهذا جعل سبحانه وتعالى الحياة دولاً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه.

(٦) قررت الآيات أن حكمة الله تعالى شاءت في دعوات الأنبياء والرسل أن تكون

واحدة في فلسفة تكاملها وجوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها وتناسقها، وتكامل السابق منها باللاحق، حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ، لأجل هذا برزت عظمة الرسالة ومنزلة القرآن فيها وعموم عالميتها.

(٧) يحسن بنا إتماماً للفائدة تطبيق منهجية التفسير الموضوعي لقصة موسى عليه السلام المكرورة في القرآن الكريم لأجل أخذ العبرة والعظة منها بشكل شمولي على النحو التالي:

تُعد قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكراً في القرآن الكريم، سواء ما انتظم من قصته مع فرعون الطاغية، أو قصته مع قومه بني إسرائيل قبل الخروج وبعده. فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة من قصة موسى عليه السلام، وقد ورد ذكره في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة. [(١)] وعدد السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وفي سورة الشعراء وحدها ثماني مرات. أمّا أخوه هارون عليه السلام فقد جاء ذكره تسع عشرة مرة، منها مرتان في سورة الشعراء. وورد اسم فرعون أربعاً وسبعين مرة، وفي الشعراء وحدها ست مرات.

كما تكرر لفظ (بني إسرائيل) إحدى وأربعين مرة، منها أربع مرات في سورة الشعراء. [(٢)]

وأكثر السور حديثاً عن موسى عليه السلام وأخيه هارون وبني إسرائيل وفرعون هي: (البقرة والأعراف ويونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والنازعات).

أما السور التي عرضت لقطاتٍ مجملةٍ من قصته فهي (سور النساء والمائدة وهود وإبراهيم والإسراء والأنبياء والمؤمنون والأحزاب والصافات والزخرف والذاريات والصف).

وبقراءة شمولية وبنظرة تحليلية فاحصة للقصص القرآني التي عرضت لقصة موسى عليه السلام نرى أن جذوره في مصر تعود إلى يوسف عليه السلام، حين أصبح حاكماً على خزائن الأرض فيها في عهد الملوك الرعاة أو الهكسوس، فاستدعى أبويه وإخوانه للإقامة معه في مصر، حسب ما ورد

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٧٧٧-٧٧٨.
(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢/ ٢٧٠.

في سورة يوسف.

وقد أشارت الآيات القرآنية في غير موضعٍ أن سلطان مصر من الهكسوس زمن قصة يوسف عليه السلام، كان يلقب بالملك وهم قوم موطنهم الأصلي جنوب بلاد الشام، وفدوا مصر واحتلوها عنوة لمدة قرنين ونيف تقريبا حسب تقديرات المؤرخين،[1] أذلوا أهلها ورحبوا بكل غريب وافد إليها، فكان وقتئذٍ قدوم بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلهم معززين مكرمين مما حمل المصريين على نبذهم وكرههم.

ثم مرت السنون تليها السنون وبنو إسرائيل في توالد مستمر، وبتوالي الأيام استجدت تطوراتٍ ضد الغزاة الهكسوس بقيادة (أُحمس) مؤسس السلالة الثامنة عشرة. الذي قام بثورةٍ داخليةٍ لطرد المحتلين فكان له ما أراد، وتم طردهم نهائياً من مصر بعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن، وبتغير السلطة استبدل مسمى كل من حكم مصر من ملك إلى فرعون.

وفي العهد الفرعوني الجديد عاش بنو إسرائيل معذبين مضطهدين، فتفرعنوا عليهم وتكبروا وتجبروا بسبب اتهامهم أنهم كانوا عيوناً للهكسوس الغزاة، ومن أشهر فراعنة مصر حسب أقوال المؤرخين (أُحمس) الذي تقدم ذكره و(أخناتون) الذي حمل المصريين على توحيد ديانتهم بإلهٍ واحد هي (الشمس) وأطلق عليها اسم الإله (أتون)، ورمسيس الثاني فرعون موسى عليه السلام، الذي ولد في عهده وعاش في بلاطه وهو صغير وهرب منه بعد قتله للفرعوني ولقب بفرعون الاضطهاد، وقد مات أثناء إقامة موسى عليه السلام في أرض مدين، (ومنبتاح أو منفتاح) ابن رمسيس الثاني الذي حكم بعد وفاة أبيه، وهو الذي قابله موسى وأخوه هارون عليهما السلام وعرضا عليه دعوة الإيمان والتوحيد، فأنكر دعوتهما وطاردهما وكان من المغرقين ولقب بفرعون الخروج.[2]

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ص١٦٨.

(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢/ ٣٩٣.

وقد سجلت آيات القرآن الكريم في العديد من السور مظاهر كفر فرعون ودعوته لقومه إلى تأليهه وعبادته، وادعائه الألوهية والربوبية. فتغطرس وتجبر وسعى إلى إذلال خصومه واستعبادهم واحتقارهم.

واختتمت قصة موسى عليه السلام في العديد من السور بغرق فرعون وقذفه إلى الشاطئ ليكون للناس آية وعظة على مر الأزمان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس: ٩٢]. وتصور مشاهد الآيات في السور المختلفة قلة المؤمنين برسالة موسى عليه السلام من قوم فرعون ومن أبرزهم آسية امرأة فرعون التي قالت لزوجها الفرعون عند مشاهدتها لصندوق موسى بعد قذف أمواج اليم به باتجاه القصر الفرعوني:﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص: ٩].

وقد ورد في القصص دعوة فرعون لها بالكفر فأبت فعذبها ولم يزل في تعذيبها حتى فارقت الحياة. وكان منها أن دعت الله عز وجل أن يبني لها بيتا في الجنة. ومن القلة المؤمنة أيضاً برسالة موسى عليه السلام: الرجل الصالح مؤمن آل فرعون، الذي قدم الموعظة والمشورة والحجة لقومه بشأن رسالة موسى عليه السلام وهو الذي نصح له بالخروج لئلا يقتل عندما فر إلى أرض مدين. ولعله كان متأثراً بدعوة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وكان من القلة المؤمنة أيضاً السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون وسجدوا لله وقالوا لفرعون: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه: ٧٢]. وقولهم في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[الشعراء: ٥١].

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن الإله الذي كان أنبياء بني إسرائيل يدعون لعبادته هو الله رب العالمين، وديانتهم هي ديانة الإسلام بالمعنى العام في توحيدهم للعبودية والألوهية لله الواحد القهار، فقد جاء على لسان يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢]، وعن يوسف عليه السلام قوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] وجاء على لسان موسى عليه السلام:﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٨٤]،

وعن حواريي عيسى ﷺ: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ولعل من المفيد الإشارة هنا أن الله رب العالمين هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة والتلمود.

وتعود تسمية (يهود) على جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر ونسبةً إلى مملكة يهوذا فإله اليهود المزعوم (يهوه) ابتدعه كتبة التوراة المحرفة، في السبي البابلي بعد ثمانمائة عام من وفاة موسى ﷺ، فطرأ عليها التحريف والتصحيف والتبديل باعتراف آيات القرآن. فكان إلههم (يهوه) لا غاية له من العالم سوى اليهود شعبه المختار، الذين خصهم بالخيرية والتمجيد والاصطفاء وجعل النبوة قاصرة عليهم إلى قيام الساعة.

ولعل الناظر في التوراة والتلمود يرى دعوة (يهوه) لقومه الجنوح للبطش والقسوة والشر والمكر والخديعة والعدوان والتدمير وتعطشه للدماء، وله من صفات البشرية من مأكل ومشرب ومنام وحب وكراهية وغير ذلك الشيء الكثير، فأي إلهٍ هذا ؟ ولله المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن القرآن الكريم فرق بين مصطلحين هما (بنو إسرائيل) وهم ذرية يعقوب ﷺ الذي كثرت النبوة في نسله، فكان منهم يوسف وموسى وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام. وبين كلمة (اليهود) التي وردت تسع مرات في القرآن الكريم. ثلاث منها في سورة البقرة، وأربع مرات في سورة المائدة، ومرة واحدة في سورتي آل عمران والتوبة.

ونرى من بديع إعجاز القرآن أنه يطلق اسم بني إسرائيل على قوم موسى ﷺ في مواضع الرضا في أغلب الحالات، كالذي نراه في ذكر اصطفاء الله لهم، وخصهم بالرسالة وإسباغ الحكمة والنبوة فيهم.

وبالمقابل يطلق اسم اليهود على بني إسرائيل في مواضع السخط عليهم، والتنديد بقبح أعمالهم.

أو عند التحدث عن تمردهم على أنبياء الله ورسله، وما أصابهم جزاء ذلك من الذلة والعبودية لفساد طويتهم.

أو عند تحذيرهم لغلو منكر القول الذي أدخلوه في كتبهم وقالوا هذا من عند الله وكفرهم بأنعمه. وقد اقترن اسم اليهود في آيات القرآن الكريم في غير موضع بالسوء والفحش واللعن والانحراف والشدة في عداوة المؤمنين(١) لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[المائدة: ٨٢].

وبنظرة فاحصة لسلوك اليهود في القرآن والسنة نرى أنهم أصحاب الباطل، ما انفكوا يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم بعضاً، تأبى طبيعتهم العظة والاعتبار. استكبروا على موسى ﷺ في سيناء وكانوا قوماً مجرمين. استحوذ عليهم الشيطان فأضلهم طريق الرشاد الذي جاءت به الرسل، أتتهم رسلهم بآيات الله فلم ينظروا إليها بعين الاعتبار لغفلتهم، وهم قوم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها، لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج. مشهود لهم بالكبر والمكابرة والعناد، عقيدتهم فاسدة لا تخضع لأي منطق سليم يتفق وفطرة الإنسان. وأنبياء بني إسرائيل بريئون منهم ومما يعبدون من دون الله، وإنهم وإن علا شأنهم اليوم، فإن مصيرهم الهلاك والدمار في مستقبل الزمن.

ومما تجدر الإشارة إليه في نهاية المقطع أن الآيات الواردة فيه ركزت على التحليل النفسي لقوم موسى ﷺ من بني إسرائيل، فكشفت سلوكهم وأزاحت الستار عن خباياهم، واختلافهم من بعد ما جاءهم من الحق فضلوا وأضلوا، بسبب كفرهم بأنعم الله عليهم وتمردهم على نبيهم وانتحالهم من ألوان الكفر والضلال مذاهب شتى، ولم يكن لأيام الله في أخبار الماضين من الأمم الهالكة عندهم عبرة وعظة، فانسحب عليهم مثل الله عز وجل في الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ص٤٦٣.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الثالث

ويمتد من الآية ٩ إلى الآية ١٧

(استفتاح الرسل بالنصر على أعدائهم سلوك ملزم للدعاة في كل عصر)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾

يخبر الله تعالى في هذا المقطع على وجه العموم ما وقع بالأمم المكذبة لرسلها من عقاب يستحقونه على سبيل الترهيب لأخذ العظة والعبرة، وهذا ضرب من ضروب القرآن الكريم في عرض الدعوة لله إذ يجمع بين الترهيب والترغيب، فبعد التهديد والوعيد يميل إلى الترغيب حتى يتدارك الإنسان تقصيره في الإيمان ويرجع إلى هداية الشرع وجادة الطريق ليجنب نفسه مصارع السوء وسوء العاقبة.

ويحتمل أن يكون استهلال المقطع﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ خطاباً من موسى ﷺ إلى بني إسرائيل ضمن سياق التذكير بأيام الله، وهذا رأي الطبري.

ويعتقد أيضاً أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى لأهل قريش تحذيراً لهم عن مخالفة أمره، والى هذا يميل ابن كثير وهو أولى القولين بالصواب.

وخصت الآية الأولى ذكر ثلاثة أقوام هم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود، وأسقطت الأقوام التي جاءت بعدهم ولا يعلمهم ويحصي عددهم إلا الله، وما يذكره النسابون فيها مجرد توهم ومحض افتراء، بسبب عدم ذكر القرآن لهم واندراس أخبارهم، كما لا يمكن القطع على مقدار السنين بين هذه الأقوام ورسالة موسى ﷺ أو محمد ﷺ، فهؤلاء وهؤلاء استقبلوا دعوة رسلهم بالشك والارتياب والغيظ الشديد، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ليوقفوا رسلهم عن الكلام بسبب كرههم سماع تسفيه آلهتهم.

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٩] فإن للعلماء في تأويلها الاجتهادات التالية:(١)

- أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل وكراهية استماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذا أقوى الوجوه حجة رغم تقاربها في المعنى.

- أنهم لما سمعوا كلام الرسل تملكتهم الدهشة من غريب ما سمعوه فضحكوا على سبيل السخرية والتهكم، وما كان منهم أن ردوا أيديهم على أفواههم كما يفعل من غلبه الضحك فوضع يده على فيه لأنه لا يريد أن يكشف عيب أسنانه للآخرين، ولو كانت أسنانه سليمة لما فعل ذلك.

---

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٤٥، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢١، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٩.

- أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها إما على أفواه الرسل أو على أفواههم هم ليسكتوا الرسل ويقطعوا كلامهم.

- أنهم ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم.

- أنهم جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم.

- أنهم أومئوا للرسل بالأيدي أن اصمتوا.

- أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

- وقيل إنّ الرسل لما أيسوا منهم التزموا الصمت وآثروا أن يضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم، في إشارة منهم للقوم أنهم بلغوا رسالات ربهم، وأنهم لا يبالون بما قد يقع عليهم من أذى القوم جراء دعوتهم ووعظهم وهدايتهم، وفي هذا كناية على تحمل الأذى بالاصطبار على سفاهة سلوك القوم والله ناصرهم وإن طالت طريق الدعوة.

- أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن أحسنوا صنعاً فاصمتوا، فإن التزمتم الصمت والسكوت كففنا عنكم الغلظة في القول، لأننا لا نريد سماع قولكم البتة.

- وقيل: إن الأيدي ههنا تفيد النِّعم، لأن إرسال هؤلاء الرسل بالشرائع نعم للبشرية إلا أنهم كذبوا بأفواههم ما جاءت به رسلهم.

ثم تنتقل الآيات لتخبر عن موقف الرسل من أقوامهم، بعد أن ردوا أيديهم ضجراً وتعنتاً، فأجابوهم على كفرهم: أفي وحدانية الله وألوهيته وربوبيته تشكون على خلاف فطرتكم التي جبلتم عليها؟ أتكفرون بخالقكم وخالق الكون بما فيه من السموات والأرض؟ أتكفرون بالله غفار الذنوب المحيي المميت الفعال لما يريد على مراد حكمته؟ وتساءلوا ما الذي حملكم على معاداة رسل الله؟ فانظروا ما جئناكم به فإن وجدتموه حقاً وهو الحق بعينه فاقبلوه، وإن كان

غير ذلك فردوه بعد مقارعة الحجة بالحجة، فلا تجعلوا بشريتنا سبباً في كفركم وعدم إيمانكم إذ ليس لأحدٍ أن يحجر على الله فضله في اختيار رسله وقد اصطفانا بالرسالة إليكم لهدايتكم من الظلمات إلى النور، وما نحن إلا بشر مثلكم يجري علينا ما يجرى عليكم من المأكل والمشرب والنوم والحياة والموت ونحو ذلك، وهذا أدعى لقبول الرسالة من نزول ملك عليكم حتى نخاطبكم بلسانكم الذي ألفتموه، كما أن في بشريتنا ما يدلل على أن منهج الله قابل للتطبيق في الأرض.

ثم أخبر هؤلاء الرسل أقوامهم اعلموا أن مع شرف اختيار الله لنا في الدعوة، إلا أنه ليس لأحدٍ منا القدرة أن يأتي من تلقاء نفسه بمعجزة خارقة مفحمة، إلا بإذن الله ساعة شاء على مراد حكمته، وهو الذي هدانا إلى سبل الرشاد وجادة الطريق والصراط المستقيم، واصطفانا من عموم خلقه لإزالة الضلال عنكم وهذا أكمل ما يكون عليه التوكل الذي هو مفتاح كل خير، فاعتبروا من حكمة الإرسال إليكم، فالعاقل من اتعظ بغيره والجاهل لا يتعظ إلا بنفسه، وأن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، ودفع مكر وكيد عدوه.

ثم تبين الآيات أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي، فما كان منهم بعد أن أعيتهم الحيلة وعجزوا عن مقاومة الدليل أن قال أهل الرياسة من الكفر لرسلهم:﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وهذا ما انتهى إليه تفكيرهم مع رسلهم، والمشهد هنا متكرر في كل الرسالات، إذ قالوا ليس لكم علينا من فضل بادعاء النبوة والرسالة، فكيف نؤثركم على ديانة الآباء والأجداد. ومن شواهد ذلك في القرآن:

﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقوله تعالى عن قوم لوط:﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[النمل: ٥٦]، وقوله تعالى عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾

[الإسراء: ٧٦]، وقوله:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وفي الآيتين الثالثة عشر والرابعة عشر يبين الله تعالى أنه أوحى إلى رسله أن العاقبة والنصر لهم وإن طال طريق الدعوة، وأن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن يسكن المؤمنين مساكن من أهلكهم الله بذنوبهم، ودليله قوله تعالى:﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإن في هلاك الظالم الكافر، ونصرة المظلوم المؤمن أبلغ ما يكون من الرد على أهل الشرك فخاب بذلك كل جبار متكبر معاند للحق أثيم لأن العاقبة للمتقين.

وتخبرنا الآيات التي تلي ما تقدم ذكرها أن مكر أهل الكفر قد انتهى بهم إلى نار جهنم خالدين فيها، فتصف لنا جانباً من ألوان عذابهم، إذ يسقون من ماءٍ صديد ليس من جنس الماء المألوف فهو غريب في قبحه ولونه ورائحته وكراهة منظره وقذارته وحرارته، يتجرعونه قسراً ولا يكادون يطيقونه أو يسيغون ابتلاعه، ويتمنون الموت وما هم بميتين، رغم أنهم محاطون بأسبابه ليستكملوا درجات عذابهم بمختلف صورها وأشكالها.

وفي قوله تعالى:﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] صيغة مبالغة واستعارة لما هم فيه من البلايا والكرب الشديد يوم القيامة، حيث يتقلبون من عذاب لآخر أشد مما قبله وأغلظ. (والصديد في الآية كل ما يسيل من جلود أهل النار من القيح)[١] وقيل أيضاً: (ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم) [٢].

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٥١.

ويختتم المقطع بضرب الله مثلاً لأعمال الكفر الحسنة في حياتهم كصلة الأرحام وإغاثة الملهوف وكرم الضيافة ومساعدة الفقراء والمحتاجين ونحو ذلك، إن أعمالهم هذه يوم القيامة بسبب كفرهم محبطة غير مقبولة لا يثابون عليها تماماً كالرماد الذي لا يبقى منه أثرٌ بعد احتراق الشيء في يوم عاصف شديد الرياح، فالله يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق. (١)

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث

(١) يخبر الله تعالى عن جهالة الكفار على مدار الرسالات كلها الذين وعظوا فلم يتعظوا وأقيمت عليهم الحجة بالبراهين فلم يستجيبوا لها، بل جاهروا بالإنكار وتأولوا حلم الله فيهم في عدم معاجلتهم بالعذاب لظنهم السيئ، وبدا لهم بتطاولهم على رسل الله أنهم يحسنون صنعاً فقد أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال وجزاؤهم يوم القيامة ألوان من العذاب منها أغلال في أعناقهم يقادون فيها إلى نار جهنم خالدين فيها.

(٢) تقرر الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله، وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم عندئذٍ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال، ويقولون نادمين يا ليتنا أطعنا رسل الله، ويتمنون لو أن لهم كرة أخرى في الدنيا ليكونوا مؤمنين، ولكن هيهات أن يستجاب لهم لأنهم قوم وطنوا أنفسهم على الجحود والعناد مهما رأوا من آيات وبراهين.

(٣) من تمام الحكمة الربانية أن يبعث إلى البشر رسلاً من جنسهم، وهذا من كمال الحكمة ليكونوا حجة عليهم، فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم، وإذ تعجب أهل الكفر ببشرية الرسل فتعجبهم هو الذي يستدعي العجب، فبشرية الرسل أدعى في التأثير والقبول لطول الرؤية

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢٦.

والملازمة له والسؤال عن كل طارئ جديد في مجتمعاتهم، وبهذا تتحقق ملامسة عقول المشركين إلزاماً للحجة ومقارعتهم بها.

(٤) إن الأنبياء والرسل مع اصطفائهم وعلو منزلتهم وعصمتهم. إلا أن الله تعالى لا يأذن لهم بأن تجري المعجزات على أيديهم حسب طلب أقوامهم، وليس استعجال الكفار بالآيات القاهرة موجباً لأن يقدم الله عز وجل ما أخره، مع أنه تعالى فعال لما يريد فهو الذي يدبر الأمور بحسب إرادته وعلمه.

(٥) قررت آيات المقطع على وحدة الرسالة والرسل، ووحدة دعوتهم وحقيقة نعمة الله تعالى على البشر بإرسال الرسل إليهم لهدايتهم، بحيث لو تركوا لأنفسهم لانتحلوا ألواناً من الضلالات وظلمات الجهالة فأعفاهم الله منها.

(٦) تؤكد الآيات الثبات على الصبر، والإيمان بالفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، فالله هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه.

(٧) تفيد الآيات القدح في وحدة سلوك الكفار المذموم بإثارة الشبهات ضد رسلهم. من نوح ﷺ إلى محمد ﷺ، فهذا السلوك المرضي هو دأبهم على امتداد العصور وكر الدهور ومن صور إثارتهم للشبهات نعت الرسل بقوادح القول كالتكذيب والجنون والتلبس بالجن والسحر والسفه والطيش والغفلة. ومعلوم أن من استهزأ بواحد من هؤلاء الرسل فهو في منزلة المستهزئ بجميعها.

(٨) تؤكد الآيات على ذم الاستعلاء في الأرض، لأنه يورث الظلم بكل صوره، وعاقبته الذل والهلاك وهذا ما كان من نبأ أهل الرياسة في قوم نوحٍ وعادٍ وثمود، فالطواغيت في كل زمان ومكان صاغتهم القوة ونسجت حولهم أوهاماً وأساطير، فهؤلاء الطغاة على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون وفي آذانهم وقر لا يسمعون، وقلوبهم غلف لا يعقلون، والمألوف عن أهل الرياسة في الكفر والضلالة أنهم حين يغلبون على أنفسهم ويخشون افتضاح أمرهم ويعوزهم الدليل والحجة عدلوا عن الجدل والمناظرة مع خصومهم، وعمدوا إلى ترهيبهم

إرضاءً لنفوسهم المتعطشة للقتل والثأر والطرد والتهجير، علهم بهذا السلوك الشاذ يسترون عوراتهم ويخفون باطلهم بإخافة الآخرين، ولعل في درس أهل الرياسة في الكفر من قوم نوح وعادٍ وثمود وغيرهم من الأقوام اللاحقة، وثبات الرسل في دعوتهم، درساً للجهر بقول الحق في الدعوة لله، مع تحذير المؤمنين في كل زمان ومكان من الاستسلام لحكم الطواغيت.

(٩) يحسن بنا إتماماً للفائدة واحتراماً لقواعد منهجية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن نربط حلقات ذكر قوم نوحٍ وعادٍ وثمود في سلسلة واحدة للإيضاح والتنوير:

ورد ذكر قصة نوح عليه السلام في مواضع متعددة من سور القران الكريم وقد تفاوتت طولاً وقصراً بما يتفق مع موضوع السورة وسياقها ومشاهد لقطاتها والعبرة المتوخاة منها. وتكرر اسمه في القران ثلاثا وأربعين مرة في ثمانٍ وعشرين سورة[١].

ويلاحظ أن السور التي ذكرت مشاهد طويلة من قصته هي سور مكية هدفها إثبات نبوة محمد ﷺ. وبيان أن القران منزل من الله عز وجل معجز بسرد نبأ الأقدمين من الرسل للعظة والاعتبار[٢].

وقد وردت أجزاء من قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة منها: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر، وأنزلت في شأنه مع قومه سورة بتمامها وأشير إلى مضمون قصته في سور أخرى للعبرة[٣].

وقد تحدثت سورة الأعراف (٥٩-٦٤) عن نبوة نوح ودعوته لقومه، وتفنيد شبهات القوم له. وعجب الملأ من القوم أن يرسل الله بشراً من جلدتهم لهدايتهم.

ثم جاءت سورة يونس (٧١-٧٣) وأبرزت مشاهد من مواجهة نوح عليه السلام لقومه بالتحدي

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٨١٥.
(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ١/ ١٥٦.
(٣) قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل: ص٤٢.

والثبات ومحاججتهم بالحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته وتكذيب القوم له.

ثم جاءت سورة هود (٢٥-٤٩) وعرضت مشاهد مطولة من قصته وأبرزت دعوته لقومه، وعدم تصديقهم له، وطلبهم الاستعجال بإيقاع العذاب بهم فكان الطوفان.

ثم جاءت سورة المؤمنون(٢٣-٣٠) لتبرز أن الله بعث نوحاً إلى قومه نبياً ورسولاً لهدايتهم، وإنكار قومه عليه ذلك مع القدح بدعوته بإثارة الشبهات ضده. واستنصاره بخالقه ودعوته أن يهلك الكافرين من قومه لضلالهم وفسادهم.

ثم جاءت سورة الشعراء (١٠٥-١٢٢) فأخبرت بتوسع أن الله عز وجل أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه السلام لأهل الأرض من قومه. كأول رسول بعثه الله بعد آدم بسبب شيوع الكفر فيهم إذ كان الشرك طارئاً شاذاً غريباً، أول ما تحقق في قوم نوح وكان انحرافهم عبر أجيال متطاولة متعاقبة. انتقلوا خلالها من التوحيد إلى الشرك بالتراخي والتدرج.

ثم جاءت سورة العنكبوت(١٤-١٥) فانفردت دون غيرها من السور، بذكر المدة التي استغرقها نوح عليه السلام، بدعوة قومه وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم جاءت سورة الصافات(٧٥-٨٢) وعرضت اللقطات السابقة التي تقدم ذكرها من بداية الدعوة وحتى الطوفان مع الثناء على نوح عليه السلام لطول صبره وجلده وحسن حججه وقوة براهينه وإعراضه عن استهزائهم في حلم وأناة صابراً على أذاهم صامداً للغوهم.

ثم جاءت سورة القمر (٩-١٧) لتحدثنا عن دعاء نوح ربه﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾وترينا لقطات من مشاهد هلاك القوم كآية باهرة.

ثم جاءت سورة نوح (١-٢٨) فأخبرت أن الله عز وجل أمر نوحاً بإنذار قومه﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وكشفت عن دعوته لهم بالعبادة والتقوى والطاعة، ووعده لهم بالمغفرة إن فعلوا ذلك.

ثم عرضت استخدام نوح عليه السلام مختلف الأساليب في دعوته حتى الكونية منها، فلفت أنظارهم كيف خلقهم أطواراً وأنبتهم من الأرض، وخلق سبع سموات، وجعل القمر نوراً

والشمس سراجاً. (١) وهذا الشاهد مألوفٌ ومشاهدٌ في يومنا هذا، حيث يعمد الدعاة إليه لبيان عظمة الله في الخلق بكشف أسرار الإعجاز العلمي في القرآن ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. حيث اقتضت سنة الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام في القرآن الكريم بلفت العقل إلى النظر والتأمل، بحثاً عن أسرار الكون ومظاهر عظمة الله في الأنفس والآفاق. مع وجوب التفكر في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين.

وذكرت قصة هود وقومه عادٍ في القرآن الكريم، بعد قصة نوح ﷺ. بشكل يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث ولقد فصلت قصته بتوسع مع قومه في عشر سور، وبإشارات موجزة بشكل متفاوت في ثماني عشرة سورة.

وتكررت كلمة (هود) في هذه السور سبع مرات، وكلمة (عاد) أربعا وعشرين مرة، (٢) وفيما يلي موجز لأبرز ما جاء في هذه السور من نبأ هود ﷺ وقومه عاد، لإبراز وشائج الوئام والترابط بينها بما يتوافق ومحور السورة.

ففي سورة الأعراف تُحدثنا الآيات (٦٥-٧٢) عن دعوته لقومه عبادة الله وحده، وهي دعوة الأنبياء كافة لأقوامهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإنكارهم لدعوته، ثم نجاة هود ﷺ والقلة التي آمنت معه. (٣)

وفي سورة هود تحدثنا الآيات (٥٠-٦٠) عن إثبات نبوة هود، واتهام القوم له بالسفه والجنون.

(١) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي، الجزء الأول: ص١٥٦.
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٨٣٠، ٦٠٥.
(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ص١/ ١٢١٨.

وفي سورة المؤمنون تمضي الآيات (٣١-٤١) دون ذكر اسم هود وعاد، وتخبرنا عن إنكار القوم لنبوة بشر من جنسهم، وتقف عند هلاك القوم بالصيحة.

وفي سورة الشعراء تتوسع الآيات (١٢٣-١٤٠) في ذكر قوم هود وتخبر أن عاداً استكبروا في الأرض وبغوا وظلموا، وجعلوا من قوتهم أداة لظلم الآخرين، ثم تبرز إثبات نبوته وتكذيب القوم له، وإنكار نصحه لهم وعدم قبول دعوته، لمخالفتها عقيدة الآباء الأولين، أوعظ أم لم يكن من الواعظين. وتبرز غرابة بناء القوم للأبراج والقصور، وتكذيبهم للبعث.

وفي سورة الأحقاف تحدد الآيات (٢١-٢٥) المكان الجغرافي لأرض القوم في الأحقاف ثم تبرز استعجالهم العذاب، فكان العارض الممطر الذي أهلك القوم بالريح المدمرة.

وفي سورة الذاريات أخبرت الآيتان (٤١-٤٢) عن مكر الله بالقوم لكفرهم، فحبس عنهم المطر وأصابهم بالقحط، وأرسل إليهم ريح العقيم فكان هلاكهم.

وفي سورة القمر جاءت الآيات (١٨-٢٢) لتخبر عن تعذيب القوم وهلاكهم بالريح الصرصر، شديدة الصوت والبرد تارة والحرارة تارة أخرى، مع وصف النحس المشؤوم.

وفي سورة الحاقة أشارت الآيات (٦-٨) إلى هلاك القوم بالريح الصرصر العاتية لشدة سرعتها واستمرارها لسبع ليال وثمانية أيام، فكانت حاسمة لخبرهم وآثارهم.

وفي سورة الفجر تتحدث آياتها (٦-٨) عن قوة القوم وشدة بطشهم، ووصف براعتهم في نحت البيوت والأبراج والقصور الشامخة.

ووردت قصة نبي الله صالح ﷺ في عدة سورٍ، وتكرر اسمه تسع مرات، في حين وردت كلمة (ثمود) ستاً وعشرين مرةً. (١) وتراوحت مشاهد قصته مع قومه في سور القرآن الكريم بصور ولقطات متفاوتة، بين البسط في التفاصيل إلى التوسط والاعتدال إلى الاكتفاء بالإيجاز بإشارات خاطفة أو مجرد الذكر فقط، حسب ما يقتضيه السياق القرآني من الحكمة والاعتبار.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٩٦- ١٩٧ و٥٠٤- ٥٠٥.

ففي سورة الأعراف أخبرت الآيات (٧٣-٧٩) نبأ دعوته لقومه وطلبه لهم عبادة الله وحده. وتقديمه الناقة معجزة له، واستهزاء الملأ من القوم به وبالذين آمنوا معه، وإقدامهم على قتل الناقة. [(١)]

وفي سورة هود أخبرتنا الآيات (٦١-٦٨) عن إثبات نبوته فيهم، وما خصه الله من معجزة الناقة، وإهلاك القوم بالعذاب حيث أخذهم الله بالصيحة.

وأخبرتنا سورة الحِجْر في الآيات (٨٠-٨٤) عن موطن القوم الجغرافي والتي منها اشتق اسم السورة.

وفي سورة الشعراء أخبرتنا الآيات (١٤١-١٥٩) عن دعوته لقومه بتقوى الله وطاعته ولزوم أمره واجتناب نواهيه، وأبرزت مظاهر ترف القوم وطلبهم لمعجزة مادية وعقرهم للناقة.

وفي سورة النمل أخبرت الآيات (٤٥-٥٣) عن دعوته لقومه وتطيُّر الكافرين به وبالمؤمنين الذين معه على قلة عددهم، واستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإبراز مكرهم وما هم عليه من الإفساد في الأرض، فكان عاقبة مكرهم الدمار والصيحة.

وفي سورة القمر أخبرت الآيات (٢٣-٣٢) إلى دعوته في قومه وعقرهم للناقة، ومعاقبتهم بالصيحة.

أما السور التي تناولت إشارات خاطفة لقصته ﷺ فكانت (الإسراء٥٩، فصلت١٧-١٨، الفجر٩-١٠، الذاريات٤٣-٤٥، التحريم٥١). وهي في مجملها تخبر عن نبوته ومعجزة الناقة وأخذهم بالصاعقة، وبالمقابل نرى ورود اسم قومه (ثمود) مجرد ذكر فقط في السور التالية:

(التوبة٧٠، إبراهيم٩، الحج٤٢، الفرقان٣٨، العنكبوت٣٨، ص١٣، غافر٣١، ق١٢ البروج١٨).

---

(١) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ١/ ٢٦٧.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الرابع

ويمتد من الآية ١٩ إلى الآية ٣١

(مقارنة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ
ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى
وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ
مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ
حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ
ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾
قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا
بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ (١)

---

(١) قرأ حمزة والكسائي في الآية ٢٠ (خالق السموات والأرض) والباقون (خلق السموات والأرض) كما في المصحف. قرأ حمزة في الآية ٢٢: (وما أنتم بمصرخي) بكسر الياء المشددة وقرأ الباقون بفتحها كما في المصحف. انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي: ص٢٥.

يخبر الله تعالى في هذا المقطع أهل قريش ألم تعلموا أن الذي خلق السموات والأرض بالحق على مقتضى حكمته، قادر على الخلق من العدم، وإن قدرته على إهلاك الكافرين واستبدالهم بخلق جديد أسهل، فليس ذلك متعذراً ولا ممتنعاً عليه سبحانه وتعالى.

وتتوقف آيات المقطع في الآيتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، لتصوير مشهد رهيب إذ تقف جميع الخلائق بارزة بين يدي الله يوم القيامة برها وفاجرها من الأولين والآخرين. وتقع المناظرة بين الرؤساء والأتباع بما فيها من الجدل والملاسنة، ويقول الضعفاء التابعون من عوام أهل الكفر ممن أسقطوا عقولهم، لأهل الرياسة أكابر جماعة الكفر والغواية، لقد كنا تابعين لكم في تكذيب رسل الله، واقتصر دورنا في الحياة على الائتمار بأمركم عملاً بوعودكم وآمالكم: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١٢٠]. فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من عذاب يوم القيامة؟

وهنا يجيب الذين استكبروا على صغار القوم من الكافرين توبيخاً لهم على جهلهم: لو هدانا الله للهداية لهديناكم وسلكنا بكم طرق النجاة بدلاً من العذاب الذي نجازى به، فليس لنا مهربٌ مما نحن فيه من عذاب جهنم، ولا جدوى من الخصومة والاحتراب بيننا واتهام بعضنا بعضاً في إضلال صاحبه، وسواء علينا أجزعنا أم صبرنا فلا مفر من عذاب الله وإنه آتٍ لا محالة.

وبعد أن يقضي الله الأمر بالعدل بين الخلائق ويذهب أهل النار إلى عذابهم، يقف إبليس بين أتباعه خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم:

إن الله وعدكم وعد الحق في البعث والجزاء والجنة والنار من خلال رسله فأنجزه بعدله ووعدتكم منكراً من القول وزوراً من الإفك تدليساً وتزييناً وعداً باطلاً، أن لا بعث ولا حساب فأخلفتكم وعدي بإضلالي ووسوستي لكم، فما كان منكم أن أسرعتم طوعاً واختياراً لطاعتي، فلا تلوموني على صنيع فعلكم القبيح هذا، بل لوموا أنفسكم على سرعة هرولتكم في الاستجابة لضلالي وشروري، ونحن اليوم جميعاً في نار جهنم مع اختلاف مراتبها ودرجاتها،

وليس لأحدٍ منا القدرة في دفع العذاب عن الآخر.

ثم يصرح إبليس بذلة وانكسار، الآن حصحص الحق فلست أشاطركم الرأي فيما ذهبتم إليه في الدنيا حين أطعتموني في أعمال الشر وإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة وتدبير الكون توهماً منكم، إني أنكر عليكم اليوم طاعتكم لي وأنتم صاغرون أمام وسوستي، فأنتم أهل ضلالة لأنكم عدلتم عما توجبه هداية الله بكم فانحرفتم من الإيمان إلى الكفر، بسبب الميل الحاصل عندكم من تأثير الشهوة والغضب والوهم والخيال، فالكافر منا (والقول ما زال في سياقه لإبليس) إذا أحس بشيءٍ ترتب عليه شعوره توهماً. فقد أقامت عليكم رسل الله الحجج على صدق ما جاءوا به، بيد أنكم خالفتموهم والتمستم طريق الضلالة فما أنا بمنقذكم ولا أنتم بمنقذي، إن كلينا اليوم لكفره له عذاب شديد.

ويرى بعض المفسرين أن خطبة إبليس هذه تكون بعد الفراغ من القضاء وقبل الدخول إلى النار، بسبب ضغط الكافرين عليه وقولهم له لقد أضللتنا وكنت سبباً فيما نحن فيه. (١) إذ يقف الكافرون بين يدي الله تعالى أذلاء خافضين رؤوسهم بسبب كفرهم، بعد أن رأوا بأعينهم أهوال يوم القيامة، وما أعده الله لهم من العذاب فعرفوا أن وعد الله حق وأن الجنة حق وأن النار حق، فينظرون إلى النار التي أعدت لهم فيظهر على ووجوههم آثار الكآبة ويبدو عليهم الحزن والغم ويغشاها الخزي والذل، وعندها يدرك الكافرون أن ما توعدهم الله تعالى به من العذاب الشديد كان حقاً فيتوجهون باللوم إلى إبليس الذي تنازلوا له عن عقولهم وألغوا تفكيرهم لأجل طاعته على غير هدىً وبصيرة منهم لجهالتهم وظلمهم لأنفسهم.

وبعد ذكر أحوال أهل النار تفرد الآيات اللاحقة توصيفاً رائعاً في مشهد جميل لأهل الجنة، وما خصهم الله به من النعيم الأبدي وتحيتهم فيها سلام، فالمؤمنون يحيون بعضهم بعضاً بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٥٦، والكشاف للزمخشري: ٢/ ٥٢٩.

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، والله عز وجل يحييهم بها كذلك[١] لقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس: ٥٨].

وتبرز الآيات أن المؤمن يوم القيامة يكون موضع حفاوة وتكريم، فيدخله الله الجنة وينعم عليه فيها بنعيم دائم، ثواباً على ما قدم من أعمال صالحة في الدنيا، وهذا من تمام عدله سبحانه وتعالى إذ لا يستوي عنده المؤمن والكافر ولا المطيع والعاصي، فيثيب المؤمن على إيمانه ويعاقب الكافر على كفره، وقد جعل لعذاب الكفار ألواناً من صورها شدة الغليان فعندما يطرح الكافرون فيها، يسمعون لها أصواتاً وزفراتٍ مخيفة ويتقلبون فيها وهي تفور من شدة الحرارة، كما تكون النار في حالة غيظ وغضب شديدين يتطاير شررها في كل مكان.

وعندما يلقى الكافرون تباعاً في النار جماعة بعد أخرى، تسألهم ملائكة العذاب لتوبيخهم وتحقيرهم ولتذكرهم بتقصيرهم في اتباع رسل الله، فيقولون لهم ألم يأتكم رسلُ ينذرونكم ويحذرونكم من هذا العذاب الشديد، فيجيب الكافرون وهم متحسرون بلى قد جاءنا رسلٌ من الله تعالى، ولكن كذبنا الرسل وزعمنا أن الله لم ينزل أحداً منهم، فكنا من الضالين المكذبين، وكان علينا أن نسلك طريق الهداية بدلاً من طريق الشقاء والضلال الذي كان مآله نار جهنم، ويقولون بحسرةٍ وألم شديدين ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

وبعد أن أخبر الله تعالى عن أحوال أهل النار والجنة، انتقلت مشاهد المقطع في لطيفة قرآنية إلى تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، في إشارة للكلمة الطيبة بعبارة التوحيد: لا إله إلا الله،[٢] والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشجرة الطيبة بالمؤمن طيب الذكر بفضائل خلقه وحسن عمله الخالص لوجه الله، أما الكلمة الخبيثة فجاءت كناية عن عمله الفاسد الذي لا يراد به وجه الله، وأمره بالمنكر ونهيه عن المعروف. فالكافر لجهله بالله وعمله الفاسد أصل المصائب والابتلاءات والجهالات والشقاوة والفتنة

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٨٩.
(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٢.

والخراب، فلزم اجتثاثه لشركه وفساده كاجتثاث الشجرة التي لا طائل منها، وحكمة هذا التشبيه أن الكلمة الطيبة حاصل النفع بها على الدوام في الدنيا والآخرة، ثابتة في قلب المؤمن تصعد إلى السماء على مدار الوقت ليثاب صاحبها على كريم خلقه، تماماً كالشجرة الطيبة في ثبات جذورها العصية عن الاقتلاع أياً كانت شدة الأعاصير التي تصطدم بها، وهذا الضرب من الشجر جميل في رائحته وثماره ولونه وأوراقه ولحائه وعصائره وجذوره وأزهاره، مع روعة ارتفاعه السامق إلى الفضاء، لهذا جاء تشبيه المؤمن بها لأنه لا يخلو من العطايا ووجوه الخير والبر في الأوقات كلها. (فالمؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيءٍ ينتفع به). [١] ولا يكتمل السرور إلا بحضرته أو عند ذكره، وتبقى أعماله الصالحة صدقة جارية له بعد موته.

وقد أورد الرازي قول أحد الصالحين في مماثلة تشبيه الشجرة الطيبة بالكلمة الطيبة: (إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بتوافر ثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وأغصان عالية، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب وقول باللسان وعمل بالأبدان). [٢]

ويستفاد من ذلك أن الكلمة الطيبة يتأتى عنها كل خير متدفق، ينبغي لكل حصيف فهيم أن يسعى لتحصيلها في أمور حياته الدينية والدنيوية لتكون ملازمة له، والانتقال بها من مقام التنظير في القول إلى مقام التطبيق في العمل، كعمل الشجرة في إنتاج غذاءها بنفسها حسب مراد الله لها في نموها وتحصيل النافع منها، فهي حاضرة في منافعها على الدوام، للإنسان والحيوان والطير والبيئة المحيطة بها.

ولما بيّن الله عز وجل صفة الكلمة الطيبة التي يكون أصلها ثابتاً رسوخ الشجرة في تربتها الصالحة، والكلمة الخبيثة التي تتغيا الشك والفتنة والاقتتال والإفساد في الأرض، بالشجرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٦٠.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٢.

الخبيثة التي لا قرار لها، مثالاً على الكافر الذي (لا حجة لرأيه ولا ثبات لموقفه ولا خير منه وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح). (١)

ثم انتقل الخطاب بعد ذلك إلى بيان أن الثبات على طاعة الله ومحبته في الدنيا، توجب الثبات للميت عند سؤال الملكين له في القبر، حين يسألانه: (من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول إن كان مؤمناً ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ (٢)، (٣) وقد ثبته الله تعالى بهذا القول ولقنه إياه بسبب مواظبته على العبادات وعلى الشهادة، وبعده عن مواطن الغلو والزلل والشهوات والفحش في القول والعمل، وتعطر فمه بذكر الله وبتلاوة القرآن، وبالمقابل فإن الكافر إذا سئل هذه الأسئلة أجاب: لا أدري! وكان في ضلال كبير، والله فعال لما يريد إن شاء هدى وإن شاء ضل، أراد الخير لهم إلا أنهم لم يشاءوا ذلك لأنفسهم فتركهم أحراراً لذواتهم.

ثم جاءت الآية الثامنة والعشرون والتي تليها وقد نزلت في المشركين الذين قاتلوا رسول الله يوم بدر، إلى تخصيص الخطاب لأهل مكة وبيان فضل الله على أهلها، حيث أسكنهم حرمه الآمن واجتثت الكفر منها، ولم يعد المشركون يشاركون المؤمنين في حجهم، ووسع عليهم معيشتهم وأكرمهم بأن أرسل فيهم محمداً ﷺ منهم وإليهم بلغتهم، ومع هذا لم يعرفوا قدر النعمة وبدلوا شكرها كفراً، وجعلوا لله أنداداً فكانت شبهاتهم لرسولهم ومحاربتهم له وما ضربوه من أصنام حول الكعبة وما نحتوه منها خير شاهدٍ على ذلك، وجعلوا من أيديهم معاول هدم لبيوتهم في الدنيا، (فأصابهم الله بالقحط تارة وبالأسر والقتل كيوم بدر تارة أخرى، وأذهبَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٤.

(٢) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عن البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾قال : نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٤.

عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم). [١]

ويختتم المقطع بالتأكيد أن قوماً هذا ديدنهم، فإن عاقبة أمرهم جهنم خير نُزُلٍ لهم، ساءت مستقراً ونُزُلاً.

ومما تجدر الإشارة إليه شدة صلة هذا المقطع بمحور السورة، لاشتماله على أحكام وآداب وأساليب تربوية لا نظير لها لحمل الناس على الهداية، وعدم التيئيس من رحمة الله بفتح باب التوبة للعائدين إلى الله مهما عظمت الذنوب، ومما يعضد محور السورة في الإخراج من الظلمات إلى النور اشتمال المقطع للعديد من التشبيهات والأمثال لأجل العظة والعبرة.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

(١) إن الظاهر من سياق الاستشهاد بذكر أقوام نوحٍ وعادٍ وثمود، هدفها أخذ العظة من أحوال الماضين من الأمم التي كفرت بأنعم الله وبرسالاته، حتى تتحصل لدينا تجنب المزالق في أحوال الدين والدنيا من باب قياس الحاضر بالغائب. وفيها من لطائف الحكمة تقرير أن أحوال الأمم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف وتبدل من حال إلى حال على مر الأزمنة والعصور. كما فيها من العبرة والتسرية لتكون سياجاً للحصيف من كل ضعف وانحلال، تخرجه من الغفلة والنسيان من نعمة الاعتبار هذه، فلربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع لهم من تغير أحوالهم وانقلاب الدهر بهم، واندراس تاريخهم وانتقال الملك إلى غيرهم، ويفوته في ذلك الكثير من الحكم.

(٢) تقرر الآيات ليس للشيطان على الإنسان من سلطان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤٢]، ومن هنا يتبين لنا غلط من يزعم أن للشيطان قوة التأثير بالتهديد والوعيد على مخالفيه من البشر، فقولهم هذا من السفاهة مالا يقوم عليه دليل ولا حجة، وهذا توهم مما أحدثه بعض الناس وابتدعوه ممن تحجرت

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٣٤.

عقولهم. وكل قول لا يعضده حجة زائف باطل دل على فساده بذاته. وقد أقامت آيات المقطع الدليل المشاهد على عجز الشيطان أمام المؤمنين، الذين وطنوا أنفسهم على مخالفته ودليله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فالشيطان في حقيقته مغلوب مقهور مما يعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٧٦]، وقد أعطى الله المؤمن الآيات النافعة على مواجهة الشيطان، ما لا يأتي عليها التعدد والإحصاء كالفاتحة والبقرة والمعوذتين ونحو ذلك. ومما يؤسف له في هذا الزمان استحكام الجهل بالدين، مما أدى إلى ازدياد أعداد المتوهمين بالتلبس في كل طارئ صحي، وإن في ذلك لعبرة لمن كان له عقل يفكر به.

(٣) أفردت آيات المقطع مناظرتين للشياطين.

الأولى بين رؤسائهم وأتباعهم من كفرة الإنس.

والثانية بين إبليس وأتباعه من شياطين الإنس والجن، لأجل بيان أن كليهما يوسوس لصاحبه ويزين له الشر، لقوله تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. ويفيد ظاهر الآية أن الشيطان لا يكون له مدخل على الإنسان إلا في حالة ضعف الوازع الديني المصحوب بظلمات أمراض القلب، المفضي إلى الغضب والطيش والسفه وانقطاع من الآخرة وإقبال من الدنيا مع استغراق طلب شهواتها، ويكون الآحاد من هؤلاء مغلوباً على أمره طعمة لكل مشعوذ ونصاب، وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم، لما فيهم من طبائع التخيل والاستسلام لوساوس الشيطان، فصار لهم التوهم خلقاً والتلبس سجية تنزل فيهم منزلة الطبيعة والجِبِلة، فحصل لهم توهم الانقياد للشيطان بذل وانكسار.

(٤) تبيّن الآيات أن المؤمنين الذين صحت لهم مقام العبودية وأحوال الصِدّيقين، أبعد الناس تأثراً عن أمراض القلب وهوى النفس، وهذا مشاهد ومكرور بين الناس في كل زمان، فالمؤمن أسرع الناس قبولاً للحق لسلامة فطرته التي جُبل عليها. وهذه الصفة ممتنعة وعسيرة على غيرهم

من أهل مرضى القلوب، فالقلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وفشا الخلاف بالباطل بينها، بسبب ما تحمله من طول الأمل في الحياة والتطلع إلى الدنيا وأسبابها من جاهٍ وثروةٍ وسلطان، وهذا مفسد للنفس مورث لسقم الأبدان، ومن كان ديدنه ذلك سارعت وساوس الشياطين إليه، فاستحق أن تنسحب عليه الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة. أما إذا انصرفت القلوب إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله بصدقٍ وإخلاصٍ ذهب عنها التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد بينها بسبب ائتلاف نفوسها، ورسخ فيها العبادة على مقتضى الأحكام الشرعية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦]. وتحقق لها مظاهر استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض، وأهل هذا الضرب هم الذين شبههم الله في المثل بالكلمة الطيبة والشجرة الطيبة.

(٥) بمناسبة قوله تعالى:﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، تفيد هذه الآية أن حال الكافر في الدنيا أياً كانت: من عسر أو رخاء ونعيم، ومن سقم واعتلال أو صحة وقوة ومن بسط أو ضيق، فإنها قياساً بعذاب الآخرة تمتع ونعيم إلى حين،[1] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[الزمر: ٨]، ونظير ذلك في القرآن الكريم كثير منها قوله تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[لقمان: ٢٤]، وقوله تعالى:﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، وقوله تعالى:﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٧٠]. فكل نعيم سوى الجنة حقير وكل عذاب سوى النار هين ميسور. ويفيد ظاهر آيات المقطع أن الله عز وجل لا يغفر الكفر إلا بالتوبة والدخول في الإيمان، فالكافر إذا أسلم صارت ذنوبه مغفورة وجبت ما قبلها، ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

(٦) إن اشتمال المقطع على ضرب الأمثال يفيد أن المثل في كتاب الله يعتبر إما لوناً متميزاً من ألوان التشبيه، أو لوناً خاصاً من ألوان الاستعارة، فإن كان الممثل له مذكوراً في الكلام كان

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٥.

تشبيهاً، وإن كان محذوفاً فهو استعارة (١).

وحكمة ضرب الأمثال في كتاب الله وردت لتحقق هدف تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة والعظة من خلال قياس الحال على الحال.

أو للترغيب في العمل كقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

أو لمدح الممثل كقوله تعالى في تشبيه الصحابة رضوان الله عليهم ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

أو للتنفير والاستقباح، حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢].

أو لإبراز التهديد والوعيد بالأسلوب الذي يليق به، كمعاداة بني إسرائيل لرسالة موسى عليه السلام ومنابذتهم له بالعداوة لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]. ومثاله أيضاً تشبيه شجرة الزقوم وهي طعام أهل النار بأن طلعها كرؤوس الشياطين، لما استقر في النفس من بشاعة الشياطين، (٢) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥]، سيقت هذه الأمثلة للبيان والتقريب لتحمل الناس على التصديق بالعقل والقلب والتفكير والتذكر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧]، ومن العلماء من أفرد لأمثال القرآن بالتأليف كتباً مستقلة كالماوردي، ومنهم من عقد لها باباً في

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢١٠.

(٢) علوم القرآن، د. عدنان زرزور: ص٣١٩.

أحد مصنفاته كابن القيم الجوزية في أعلام الموقعين والسيوطي في الإتقان.

وتقسم الأمثال في القرآن على ثلاثة أنواع: الأمثال المصرحة، التي جاءت بلفظ المثل أو التشبيه، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٧-١٩]، ثم الأمثال التي لم ترد بلفظ التمثيل كقوله تعالى:﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]. وأخيراً الأمثال المرسلة وجاءت بدون التصريح بلفظ التشبيه، لحكمتها أصبحت تجري على ألسن الناس مجرى المثل من باب التدبر والعظة والجدة في القول، [1] ومثال ذلك كثير في القرآن مثل قوله تعالى:﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله تعالى:﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[الحشر/ ١٤].

ومما يجدر التنبيه إليه هنا احتراماً لقدسية القرآن الكريم تحريم القول في هذه الأمثال، من باب الهزل والسخرية والمزاح، كقول أحدهم تهكماً إذا وجد نفسه في بيئة اجتماعية فاسدة من شرب خمر أو عند سماع فساد قولٍ، لحمل الناس على الضحك مداعبة لهم ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]، ويرى الزمخشري أن حكمة ضرب الأمثال في القرآن ما جاءت عبثاً بل: (زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ليتأتى الفهم التام منها). [2]

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ٢٨٦.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٣٢.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الخامس

ويمتد من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤

(عظمة الله في الكون ونعمه على خلقه)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

أعلم سبحانه وتعالى في نهاية المقطع الرابع الحث والتحريض على الإنفاق الخالص ابتغاء مرضاته من غير منٍّ ولا أذى سواء أكان ذلك بالسر لصدقة التطوع والعلن للفرض الواجب منها، ونظير هذه الآية جاء في سور القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣]، ففي المجاهدة بالمال انتفاع لصاحبه في الدنيا والآخرة، قبل أن يدركه الموت فلا انتفاع وقتئذٍ ببيوع تجارةٍ ولا مخالّة لقرابة أو صداقة لأحدٍ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

بعد هذا الإعلام انتقل الخطاب في المقطع الخامس إلى عرض الدلائل الدالة على كمال قدرة الله عز وجل في الخلق والتدبير، مما يؤكد وحدة الترابط بين مقاطع السورة ومناسبتها،

فالمتقدم منها يمهد للاّحق ويؤطر له، وهذا من الأساليب القرآنية في التأكيد على مراد الله من محور السورة.

ففي هذا المقطع يخبر الله عباده أنه خص كل شيءٍ في الكون بنعمة يقف وراء كل منها حكمة مخصوصة كخلق السموات والأرض وإنزال المطر من السماء وتسخير الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، للحكمة والمصلحة، بما يكون فيها صلاح أمر عباده واستقامة شؤون حياتهم وهذه المنافع التي يسخرها الله بالكلية للإنسان، لا تتحصل له إلا بتحمل المشاق في العمل لإعالة النفس في كسب الرزق، وقد شاءت إرادة الله عز وجل أن جعل الأرض بيئة الحياة الكبرى للإنسان وذللها بساطاً له، ووفر له فيها كل أسباب الحياة، وقدر له فيها من الأرزاق ما يفي بحاجته وحاجة كل الأحياء التي على ظهرها، بدءاً من الكائنات الدقيقة وانتهاءاً بالإنسان نفسه أجلّ مخلوقات الله، كما سخر الشمس والقمر دائبين لا يفتران، فحصل منهما مع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس الليل والنهار، فجعل من الأولى سكناً ومن الثانية السعي في أمور العمل والمعايش لعباده، كما تحقق لأهل الأرض الانتفاع من الشمس والقمر الاستضاءة بضوئهما، ومن الشمس ظاهرة الفصول الأربعة إلى غير ذلك من المنافع كالتبخر الموجب للسحب وإنضاج الزروع وسلامة الأبدان والبيئة.

وتوقفت آيات المقطع بذكر جانب من فوائد مياه المطر والبحار والأنهار، فجعل من الأولى غيثاً يصيب الكائنات الحية بالخير من إنسان وحيوان ونبات، فنشأ من المطر صورٌ لحياة متنوعة في أشكالها وأحجامها وأنواعها وأنماط معيشتها في سلسلة غذائية تعتمد بعضها على بعض في علاقة توصف بالآكل والمأكول باستمرارية وتوازن، يلعب فيه النبات والشجر والزروع المتباين في ألوانه وأشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه فيصلاً في حياة الإنسان والحيوان، ولهذا يطلق على النباتات مصطلح المنتجات، لأنها تنتج غذاءها بنفسها بفعل ما سخره الله لها من التربة ومياه المطر وأشعة الشمس، وعلى سواها من الكائنات الحية المستهلكات، لأنها تعتمد في غذائها على الأولى، والعلاقة الغذائية بينها متداخلة تأخذ صورة سلاسل غذائية بحيث ينتقل

الغذاء من المنتج إلى المستهلك الأول فالثاني فالثالث وهكذا تبعاً للبيئة التي تستوطنها الأحياء كل ذلك على مراد الله وحكمته وتدبيره في الخلق، كما جعل الله عز وجل من مياه المسطحات المائية من بحار وأنهار منافع عظيمة، سخرها للإنسان تساعده على الاستخلاف في الأرض ويسر له صناعة السفن بأنواعها لتحمله وأمتعته وتجارته من بلدٍ لآخر يقصده، تجري في المياه بأمره، إلى غير ذلك من منافع مياه الأنهار العذبة في السقاية والري.

وعلى ضوء هذه العجالة في المعنى الإجمالي للمقطع، يتبيّن لنا أن مجمل ضروب نعم الله كثيرة، مما لا يحصى عده لو فصلت تفصيلاً دقيقاً، فالواجب علينا مقابلة هذه النعم بشكرها وتعظيمها آناء الليل والنهار، وتقريع الكافرين الجاحدين بها. فمن كرم الله عز وجل على عباده منذ الخلق الأول، أن ذلل لهم ما سألوه وما لم يسألوه من نعم عامة كخلق السموات والأرض، وما فيها من ظواهر سخرها للإنسان، فلولا السماء لم يصح إنزال الماء منها، ولولا الرياح لم يصح انتقال السحب من مكان لآخر على مراد الله، ولولا الأرض وما عليها من تربة وصخور لم يوجد ما يستقر الماء فيه، ولولا الخيرات الدفينة في باطن الأرض كالبترول ومختلف أنواع الثروات الأخرى لما قامت حضارة، ولولا التربة لانتفت حياة النباتات التي تعيش عليها المخلوقات الأخرى، ولولا الشمس لانعدمت الحياة على سطح الأرض بالكلية، ولو اقتربت الشمس في مسافتها قليلاً أو بعدت قليلاً عن الأرض لما قامت حياة عليها بسبب ارتفاع حرارتها أو برودتها، ولولا دورات الكربون والنيتروجين والماء في الطبيعة وقوانين الحرارة والحركة الالكترونية في الذرات لاستغلقت الحياة على الأرض، ولو كان الأكسجين أكثر من نسبته الحالية في الهواء لاحترق كل شيءٍ على سطحها، ولولا الجبال لتناثرت الأرض أثناء دورانها، وهذا بالكلية قياس على باب النعم العامة جاءت بميزان الحكمة والتقدير والتدبير في الخلق والعلم الأزلي بما ستكون عليه احتياجات الخلائق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]، أما نعم الله الخاصة على الإنسان فهي أكثر من أن يحصيها العباد ويأتي على رأسها نعمة الإسلام والصحة والأمن والولد والمال والنجاح في الحياة، فالولد الصالح نعمة والتفاؤل في الحياة نعمة والصبر على الابتلاء نعمة والزوجة الصالحة نعمة إلى ما سواه

ويمتنع حصره من النعم، مما لا نستطيع له عداً لأنه فوق الحصر والإحصاء، ثم اختتم المقطع بقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤] ما يفيد معنى أن الإنسان رغم وفرة نعم الله عليه إلا أنه ظالم لنفسه شديد الكفران بها، وقد جاء نعت جاحد النعمة على صيغة مبالغة للتشديد والتأكيد في جحوده للنعمة وظلمة لها. وحول هذه الجزئية يعلق الفخر الرازي قائلاً: (لو أن عقول جميع الخلائق ركبت وجعلت عقلاً واحداً، يتأمل في عجائب حكمة الله تعالى في الأفلاك والأنفس وعجائب البحر والبر والنبات والحيوان، لما أدرك منها إلا القليل)[(١)] ثم نراه يقول في موضع آخر: (والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث، دلالة على صحة البرهان القاهر في قوله تعالى:﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.)[(٢)]

وختاماً فإن شكر النعمة هنا هو المخلص من مقام الظلم والكفران والشكوى والجزع والتذمر والمحرر للنفس من ظلم جشعها في جمع المال وحبسه عن الآخرين. وإذا كنت في نعمة فارعها، فإن الله سريع النقم، وإن الذاكر لنعم الله حيٌّ وإن حبست منه الأعضاء، والمنكر لها ميتٌ وإن تحركت فيه الأعضاء، فابشر بفضل الله عليك إن كنت من أصحاب شكر النعم.

ومما يجدر التنبيه إليه هنا: ارتباط العلاقة بين هذا المقطع والمقطع الثاني في وجوب شكر نعم الله على الإنسان وعدم الجحود بها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم: ٧].

وفي هذا التشابه دلالة على وحدة ترابط مقاطع السورة بما يخدم محورها، بدليل قوله تعالى:﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس

(١) تقرر آيات المقطع أن نعم الله على الإنسان كثيرة، فمتى حاول الواحد منا التأمل في بعضها، غفل عن إدراك الباقي منها لأن الآحاد منا مجبول على النسيان، استغراقاً في طلب

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٩٩-١٠٠.

الدنيا، ومثاله إذا تحقق له اليوم نعمة كانت عنه بعيدة المنال بالأمس تجاهل قيمتها، وتطلع إلى غيرها بظلمه ونكرانه وجحوده. ولأجل هذا ورد التأكيد في هذا المقطع على وجوب شكر نعم الله العامة والخاصة بالكلية، ومن يك خلاف ذلك من الخلق فإن مكره عائد عليه. وليس هناك كرامة لإنسان بلا عقل لا يشكر لله نعمائه، ومن ينسحب عليهم كفر النعم عميت بصائرهم عن التأمل، لمرورهم عن آيات الله ونعمه غافلين، لا ينظرون ولا يعتبرون ولا يتعظون، فالآحاد من هؤلاء عاجز عن توظيف عقله وتفكيره على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل، ومما يدعو إلى الدهشة أن أهل هذا الضرب من الناس ليسوا غافلين عن نعم الله المادية والمعنوية فحسب، بل يضيقون ذرعاً في العبادات المخصوصة من صلاة وصوم وزكاة وحج لأنها تذكرهم بنعم الله هذه وتحثهم على شكرها.

(٢) إن في آيات المقطع دعوة التحريض على وجوب النظر والتأمل والاعتبار بدلالات عظمة الله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فعندما يتأمل الإنسان الكون وما فيه من سموات ومجرات وشموس وبروج وكواكب وأقمار، يدرك بعقله أن لهذا الكون خالقاً أحكم نظامه على قاعدة من التوازن الدقيق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان/ ٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٧]. وتتشابه آيات هذا المقطع مع الآيات الكونية التي انتظمت في سورة الرعد التي تقدمتها في الآيات (٢-٤ و١٢-١٣) ففيها إخبار من الله عز وجل عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، في خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا دليلٌ على تكامل سور القرآن ووحدة دعوتها لله بالعقل والتدبر.

(٣) بيان الحكمة الربانية من حركة الشمس ومنازل القمر.

إن الناظر في آيات المقطع يرى أن الله عز وجل قد خص هذا المقطع بذكر الشمس والقمر والأرض، والشمس في عرف علماء الفلك نجم فوق القزمي بقليل قياساً مع النجوم العملاقة

تسير في مدار حول محورها لا تتجاوزه، وسوف تستمر في حركتها إلى يوم القيامة حيث تنتهي وظيفتها، وهذا مما استأثر الله بعلمه وعندئذ يتوقف سيرها وتسكن حركتها وتنتهي طاقتها إيذانا بنهاية الحياة الدنيا. وهي مركز المجموعة الشمسية التابعة لمجرة درب التبانة، تدور الكواكب التابعة لها حولها بفعل الجاذبية، وهي مصدر الحياة على سطح الأرض للكائنات الحية ولولاها لانعدمت الحياة على سطح الأرض. ولقد أقسم الله عز وجل بالشمس في سورة حملت اسمها ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾ في إشارة ربانية إلى مكانتها.

كما قدر الله عز وجل للقمر السير في ثمانية وعشرين منزلاً ينزل في كل ليلة منزلاً يتخطاه لأجل ذلك يتم معرفة الشهور والأيام وتحديد بداية ونهاية الأشهر القمرية. ففي الليلة الواحدة يكون القمر ضئيلاً قليل النور ثم يزداد نوره حتى يكتمل في الليلة الرابعة عشرة. ويأخذ بعدها في التناقص بشكل تدريجي حتى إذا كان في آخر منازله ظهر كغصن النخلة اليابس في دقته وتقوسه بسبب وقوع الأرض بينه وبين الشمس ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ [يس: ٣٩]، وقوله تعالى:﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾. [يس: ٤٠]، يستفاد من ذلك أن دورة الأرض حول نفسها ينشأ عنه الليل والنهار، ودورتها حول الشمس ظاهرة الفصول الأربعة، ودوران القمر حول الأرض الشهر القمري، ومن رؤيتنا للقمر يتم تحديد بدايات ونهايات الأشهر القمرية. وفي هذا برهان قاطع على أن كل أجرام السماء تدور في دوائر خاصة بها، لا تحيد عنه حتى لا يدرك الآخر صاحبه. (١)

(٤) بيان الحكمة الربانية من خلق الأرض وتعاقب الليل والنهار.

لقد انتظم في القرآن الكريم عدة آيات تتحدث عن الأرض وما عليها لتلفت أنظار الناس إلى التأمل في قدرة الله تعالى على الخلق، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص٢٣٣.

مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١١]، اختارها الله عز وجل لتكون الكوكب الذي يفيض بالخير والبركة، أعطيت من الخصائص ما حرمت منه الكواكب الأخرى، اختارها الله عز وجل لآدم وذريته من بعده، وأرسل عليها الأنبياء والرسل فكانت الكوكب الأمثل في الخلق، مرت بحقب وعصور متطاولة في أزمانها حتى أصبحت صالحة للحياة عليها. ثلاثة أرباع مساحتها ماء، تبعد عن الشمس حوالي خمسين ومائة مليون كيلو متر تقريباً، تصل إليها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية. لها دورتان الأولى حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ينشأ عنها تعاقب الليل والنهار، وبمقتضى حكمته سبحانه وتعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل، ودورة ثانية حول الشمس بشكل إهليلجي في فلك محدد مرسوم لها من رب العالمين، بسرعة تسعة وعشرين كيلومتر في الثانية وتكتمل دورتها حول الشمس في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً تقريباً وست ساعات وبضع دقائق تقريباً. ينتج عنها الفصول الأربعة. وقد أحصى العلماء مؤخراً مجموع عناصر الأرض مائة وستة وعشرين عنصراً، وهذه العناصر في مجملها مكون من الذرة ومنها تكون كل شيء في الكون بإرادة الله ومشيئته.

(٥) جاءت كلمة السماء في القرآن الكريم بمدلولات عديدة هي:

- وردت بمعنى السماء الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥].

- احتملت معنى السحب وما يصحبها من مطر وبرق ورعد لقوله تعالى﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ [نوح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾[إبراهيم: ٣٢].

- تفيد معنى العلو والصعود في الفضاء، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

- كما وردت بمعنى السقف لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

- وتفيد كلمة السموات بالجمع الكون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾[البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولقد أورد ابن منظور في لسان العرب أن السماء: اسم مشتق من الفعل سما يسمو بمعنى الارتفاع، وعليه يقال سموت وسميت بمعنى علوتُ وعليتُ، والسماء سقف كل شيء، والسماء أيضاً كل ما علاك فأظلك.[1] والسماء بالمفهوم العلمي: الفضاء اللا متناهي الذي يحيط بمجرات السماء الدنيا من جميع الاتجاهات، ما يرى منها بالعين المجردة وما لم ير إلا بالمراصد الفلكية العملاقة، وما عجزنا عن رؤيته اليوم قد يكشف العلم عنه مستقبلاً من مجراتٍ مجهولة لدينا.[2]

(٦) من عظيم سلطان الله عز وجل في الخلق والتدبير ،أن عَبر بألفاظ صريحة في سور كثيرة ،ما يفيد معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء والقدرة على فعل ذلك من العدم كألفاظ: الخلق والتسخير والإبداع والفطر والجعل والقضاء ومثال ذلك قوله تعالى :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢].

(١) لسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٢١٠-٢١٣.

(٢) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص٩٦.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع السادس

ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١

(نبأ إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء في دعوته)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ
إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً
مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا
نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى
ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ
رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

يخبرنا الله تعالى في هذا المقطع عن جانبٍ من قصة إبراهيم عليه السلام المكرورة في القرآن الكريم لمن أراد أن يتعظ، وما يعتبر بها إلا العقلاء الذين يتدبرون، إذ استهلت الآيات بحكمة أن اذكر يا محمد لقومك من أهل قريش أحفاد إبراهيم عليه السلام الذين انقلبوا عن ملته وقصته في قومه، كمثال الصدع بالحق بالكلمة الطيبة التي أينعت الشجرة الطيبة، فأثمرت كلماته بطيبها هداية نقل الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، وذكِّر أيها النبي قومك عداوة إبراهيم عليه السلام للأوثان والأصنام التي كانت سائدة في قومه، وأخبرهم في طلب دعائه من ربه أموراً سبعة هي:

١- الإنعام بنعمة الأمن للبيت الحرام وما حوله، بمعنى أن يجعل مكة بلداً آمناً ذا أمن حتى يأمن أهلها فلا يخافون من شيءٍ ما داموا نزلاء فيها، وأن يصرف عنهم الخوف من الفقر وكيد الجبابرة والظالمين، ويأمنها من كل خراب أو دمار أو فتنة ومن ألوان الشرك، ونظيره في آيات القرآن قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وحكمة الابتداء بطلب نعمة الأمن في مجمل دعائه دلالة على أنها من أجلّ أنواع النعم وأعظمها

إذ لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، ويرى الرازي في تفسيره أن بعض الحكماء قد فضلها على نعمة الصحة، لأن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد، (١) وقد استجاب الله عز وجل دعاء إبراهيم عليه السلام فجعل البلد آمناً تتقاطر إليه الخلائق للعبادة رغم جاهليتهم، ومن الأسيف أن أهله سلكت طريقاً مغايراً مخالفاً لملته، فكفروا بنعمة الأمن وجعلوا لله أنداداً وصدوا عن سبيل الله، (٢) فكان هذا التذكير لهم.

٢- الطلب من الله عز وجل أن يجنبه وولديه إسماعيل وإسحاق على وجه الخصوص، وعموم أحفاده إلى قيام الساعة فتنة عبادة الأصنام على إطلاق مسماها، وما تحتمله من تأويل سواء كانت تلك الأصنام حجرية أم طواغيت بشرية، إذ جاء ذكر إبراهيم عليه السلام في مختلف كتب التفسير مقروناً بعهد الطاغية الكافر(نمرود)، الذي قال بالإلوهية فعبده قومه إلى جانب عبادتهم للكواكب، حيث أبطل بالعقل مزاعمه مدللاً على ربوبية الله وحده لا شريك له وحكمة تخصيص نفسه في قوله:﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، مع أنه معصوم عن خطأ عبادتها كسائر الأنبياء والرسل، إنما وردت في سياقها (هضماً للنفس وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله)(٣) في كل مطلب له آناء الليل وأطراف النهار. ويعلق سيد قطب في تفسيره على دعاء إبراهيم عليه السلام هذا: (أنه عليه السلام بدعائه أراد التسليم المطلق إلى ربه بالتجائه إليه في أخص مشاعر قلبه، لأجل أن يخرج من القلب ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده فلا معبود إلا الله). (٤) وقد أجاب الله دعاءه في حق بعض ذريته دون البعض الآخر، ودليل ذلك: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ويرى بعض العلماء أن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا خاص

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧٠.
(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧١.

بالمؤمنين من أحفاد ذريته، بدليل قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] وفي قوله ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، لم يكن طلبه في الآية الشفاعة للكافرين، وإنما طلبٌ للمغفرة والرحمة لكل من كان عاصياً دون الكفر والشرك، لأن من مات على الكفر لا شفاعة له. (١) كما يفيد مضمر الدعاء التماسه من الله أن يؤخر قبضهم إليه وعدم تعجيل عذابهم حتى يؤمنوا طواعية، أو يصرف قلوبهم بالإلطاف من الكفر إلى الهداية والتوبة إن كانوا من أهلها، لأجل هذا اتصف إبراهيم عليه السلام أنه حليم أواه منيب متسامح عطوف.

٣- ويمضي إبراهيم في دعائه الثالث فيقول:﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ويذكر فيه إسكانه بعض أبنائه إسماعيل وأمه هاجر في هذا الوادي المقفر من ضروب الزروع وألوان الفلاحة، إذ لم يكن فيه يومئذٍ ماء وليس فيه من الخلائق أحد، فلا أنيس للنزيلين من أهل بيته إلا الله الغفور الرحيم القادر على كل شيء، فالتمس من ربه أن يدركهما بفضله وكرمه، وأن يكلأهما برعايته في آية من آياته فكانت ماء زمزم، ثم جعل الخلق تستوطن هذا الوادي بدءاً بقبيلة (جُرهم) اليمنية التي تنتسب إلى العرب العاربة من أهل قحطان، ومن يومذاك أخذ الناس يتقاطرون إليها، خاصة بعد أن أخذ إبراهيم عليه السلام في زيارته الثانية برفع قواعد البيت وإسماعيل، لحمل الناس على الحج وأداء شعائر العبادات المفروضة. وكان من لطف الله وببركة هذا الدعاء، أن جلبت الخيرات إلى مكة مذ ذاك الزمان إلى يومنا هذا، ولم تزل وفرة الخيرات فيها إلى قيام الساعة بإذن الله. وبمناسبة قوله في الدعاء ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فإن (من) هنا تفيد التبعيض، بمعنى أنه عليه السلام أسكن إسماعيل ولده الأكبر وهو من بعض ذريته في هذا المكان، واحتبس ولده الآخر إسحاق عليه السلام معه في أرض كنعان بفلسطين في بلدة حبرون (الخليل)، ينتظر أمر الله بشأنه، وهذا في غاية التضحية والفداء لأجل الله عز وجل.

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٣.

٤- ويتتابع دعاء إبراهيم عليه السلام في هذا المقطع حتى بلغ مطلبه الرابع في قوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٨]. وحكمة هذا الدعاء ما تضمنه من أدب الإشارة، لقوله أنه ما أنزل بعض ذريته في هذا المكان، لهدف دنيوي يصيبه بل لإقامة شعائر العبادة على مراد الله من خلال وحي الله وإلهامه له بهذا العمل، رغم ما في ظاهره من قسوة الحنو على فراق ولده الأكبر، والله شهيد على طاعته وامتثاله أوامره، العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ونظير ذلك في القرآن مكرور منها قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[غافر: ١٩].

٥- وفي الدعاء الخامس يتضرع إبراهيم عليه السلام بالحمد والشكر لله عز وجل الذي رزقه، بعد أن بلغ من الكبر عتياً واشتعل الرأس شيباً، بولديه إسماعيل من هاجر وإسحاق من سارة، إذ كانت عاقراً لعقود استطال العهد عليها، ومما تجدر ملاحظته من واقع حال بعض الناس أن هبة الذرية مع التقدم في السن بعد طول انتظار، أوقع في النفس، موجب لمضاعفة الحمد والشكر والدعاء للظفر برضى الله على نعمائه، التي لا منتهى لقيمتها في نفس صاحبها بعد أن أدركه اليأس عقوداً، مع العلم بأن لا يأس مع رحمة الله، فالصبر في مثل هذه المواقف أصدق الامتحانات لكشف معادن الناس، والركون إلى اليأس مع فقدان الأمل ليس من الإسلام في شيء. وقد شاءت حكمته تعالى أن يكون الرزق بالذرية، في وقته وسنته ويومه وظروفه وأسبابه، على مراد الله مقدر بترتيب إلهي للحكمة، وبالمقابل قد يجعل من يشاء عقيماً لحكمة ومقدرة عنده سبحانه وتعالى.

٦- ويتوقف عند دعائه السادس بالقول:﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، يفيد هذا الدعاء بالطلب إلى ربه الذي أكرمه بالرسالة أن يثبت قلبه وذريته على الإيمان بالله، وأن يخلع عليهم من ضروب الصبر على الطاعة والصبر عن المعاصي والصبر على المصائب ما يعينه على أداء الرسالة، ويعين المؤمن من ذريته على ديمومة الحفاظ على الشعائر بأوقاتها على مراد الله منها، بعد أن علم بإعلام

الله له أنه سيكون في ذريته المؤمن والكافر.

٧- واختتم دعاءه في هذا المقطع بقوله:﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[إبراهيم: ٤١]، إذ أراد به الالتجاء إليه سبحانه وتعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته، بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً يوم يقوم الحساب، وقصد إبراهيم عليه السلام من دعائه لأبيه حمله على الإسلام، فلما تبين خصومته وعداوته لدين الله تبرأ منه. (ويلاحظ في الدعاء حرصه على استمرار الخير في ذريته، وهذا خلق ينبغي أن يتحقق في كل مؤمن). [١]

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من آيات المقطع السادس

(١) يحسن بنا إتماماً للفائدة وتوافقاً مع قواعد منهجية التفسير الموضوعي التعريف بإبراهيم عليه السلام: إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، أثبت الله نبوته في آيات عديدة من سور القرآن الكريم، وكرمه تكريماً خاصاً، وشهد له بأنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لأنعمه بالحمد والولاء، يذكر اسمه في القرآن والسنة مقروناً بالكرم والدعاء والتضحية، وهو صاحب الفداء بالذبح العظيم، آتاه الله رشده في صغره مذ عقِل، واختاره رسولاً واتخذه خليلاً[٢]، وفضله على كثير من خلقه، متسامح حليم أواه منيب، جاء ربه بقلب سليم، وهو أول من أطلق على ملته المسلمين، وأمرنا الله تعالى باتباع ملته، وجعل في ذريته من نسل هاجر وسارة النبوة والكتاب والحكمة. ويعد حج البيت العتيق من أعظم آثار اتباع ملته، يتفق المؤرخون أن مولده كان في العراق في القرن التاسع عشر ق. م. منذ أربعة آلاف عام. [٣] عاش في قوم اعتادوا عبادة الكواكب السيارة والنجوم كالشمس وعطارد والقمر والزهرة، ومنهم من توجه إلى عبادة الأصنام

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٨١٤.

(٢) ورد في الحديث (يا أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) صحيح مسلم٥٣٢/ ٢٣.

(٣) العرب واليهود في التاريخ : د. أحمد سوسة: ص٧٤، ٤٨٠.

والتماثيل، فأحس بفطرته تفاهتها فأنكرها وأعلن براءته منها وحطمها، وتوجه صادقاً لفاطر السموات والأرض. وهنا بدأ صراعه مع أبيه وقومه، فما كان منهم بعد أن غلبهم في جداله ومناظراته حول آلهتهم المحطمة، أن طرحوه في النار ليقتلوه قصاصاً لفعلته. فأنجاه الله منها وكانت له برداً وسلاماً. وحتى لا يؤذيه بردها، قال تعالى: وسلاماً إذ لو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه لكانت برداً قاتلاً وهذا من لطيف التعبير القرآني، وكان من المفروض أن تنتقم آلهة القوم لنفسها ممن حطمها، ولكنهم حين أرادوا إحراقه لم تحرقه النار وخذلتهم آلهتهم. وتعطل قانون خاصية الإحراق. (وهنا تحجرت قوانين الكون وأصبحت عاجزة أمام قدرة الله وإرادته فكانت المعجزة). [١]

وبعد تلك الواقعة قصد بلدة (حاران) مولياً ظهره لمسقط رأسه بصحبة زوجته سارة، وابن أخيه لوط. ومنها توجه إلى أرض كنعان (فلسطين) فمكث فيها مدة من الزمن، ثم انطلق بعدها إلى مصر وكل حركاته مقدرة له من رب العالمين حسب حكمته ومشيئته، فما لبث أن غادرها عائداً إلى أرض كنعان مع أهله وجاريته هاجر، ونزل في بلدة (حبرون) وهي الخليل اليوم ولعل اسم المدينة مشتَقّ من خليل الله.

ولم يمض وقت طويل حتى رزقه الله ولده الأول إسماعيل من جاريته المصرية هاجر، فأسكنه وأمه مكة وشيد معه البيت الحرام. وعهد الله عز وجل لهما عليهما السلام أن يطهرا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.

ثم ولدت له زوجته سارة لاحقاً ابناً في شيخوخته أسماه إسحاق بعد أن بشرت الملائكة به حين زيارتهم له وإعلامه بمصير هلاك قوم لوط.

ومما يجدر ذكره أن اسم إبراهيم مكرور في القرآن تسعاً وستون مرة في خمس وعشرين

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. الشيخ محمد متولي الشعراوي: ١/ ١٠.

سورة. [١] وكان ذكره في كل سورة يأتي مناسباً لسياقها العام وما يعرض منها يتفق وموضوع كل سورة، ومناسبة الآيات في السورة تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، والمناسبة التي تساق القصة من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والمشهد الذي تعرض له ومدته، ومعلوم أن كل قصة مجملة أم مفصلة أم قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، وقد يذكر في القصة ما لا يرد في غيرها من الصور والمشاهد. كأن يذكر إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الكواكب والأصنام في سورة، ويرد تحطيمه للأصنام ومحاكمته على أعين الناس في سورة أخرى، ومحاججته للملك الكافر المنكر لوحدانية الله وربوبيته وألوهيته وتحديه له أن يأتي بالشمس من المغرب في سورة ثالثة، وطلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى في سورة رابعة، وحمده أن وهب الله له على الكبر إسماعيل وإسحاق وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة وذريته وأن يقبل دعاءه ويغفر لوالديه يوم يقوم الحساب في سورة خامسة. ونجاته ولوط إلى الأرض المباركة في سورة سادسة، والأمر باتباع ملة إبراهيم في سورة سابعة.

ويتضح لنا مما سبق اختصاص كل سورة بحدث معين. والنهج ذاته مكرورٌ في قصص الأنبياء والرسل كافة، مما يتطلب على من يأخذ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن يربط بين مختلف الصور والمشاهد والأحداث المشتركة التي يقتضيها السياق الواحد.

وورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التوسع في ذكر بعض تفاصيل ومشاهد قصته، وتعد سورة البقرة خير دليل على ذلك. إذ ذكر نبأه في الآيات ١٢٤-١٤١ و٢٥٨ و٢٦٠. كما ورد ذكره في آل عمران بشيء من التفصيل أيضاً في الآيات ٣٣ و٦٥ و٦٧-٦٨ و٨٤ و٩٥ و٩٧.

الحالة الثانية: التوسط والإعتدال في بعض المشاهد واللقطات وهذا القول ينسحب على

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي: ص٢-٣.

سور إبراهيم والشعراء والزخرف والحديد.

الحالة الثالثة: الاكتفاء بذكر اسمه بإشارات بسيطة ضمن بعض الأنبياء، وهي كثيرة منها على سبيل المثال: الأحزاب وص والشورى والنجم. وفيما يلي مجمل السور التي ورد فيها ذكر إبراهيم ﷺ حسب العدد: البقرة خمس عشرة مرة، وآل عمران سبع مرات، والنساء وهود والأنبياء أربع مرات لكل منها، والتوبة ومريم والحج والصافات ثلاث مرات لكل منها، ويوسف والنحل والعنكبوت والممتحنة مرتان لكل منها. وورد ذكره ﷺ مرة واحدة في السور التالية بعضها بإيجاز بسيط وبعضها بتفصيل: الشعراء وإبراهيم وص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والأحزاب والحجر والأعلى [(١)].

(٢) بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان. فالتقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، فأهل الكفر والشرك - صم بكم عمي فهم لا يعقلون - صمٌّ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن إجابة رسل الله، عُميٌ عن رؤية آيات الله الباهرة في الكون. [(٢)]

(٣) التأكيد أن لا مجاملة في العقيدة لأحدٍ ولو كان من ذوي القربى. كما حصل لإبراهيم ﷺ حين تبرأ من أبيه لشركه بالله، وما وقع لنوح ﷺ مع ابنه وامرأته عند الطوفان، وما تحقق للوطٍ ﷺ مع امرأته من الشرك قبل الهلاك. فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب. ولقد بينت آيات القرآن عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانوا من أولي القربى. فإبراهيم ﷺ استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه - فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه. وتعد رابطة العقيدة بين المؤمنين إحدى مقومات التربية في الإسلام

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٢-٣.

(٢) روح الدين الإسلامي، عفيف طباره: ص٢٧١.

ولا تقوم صلة بين اثنين إلا على أساسها. (١)

(٤) التأكيد على مكانة البيت الحرام وقدسيته الذي جعله سبحانه وتعالى مثابة للناس وأمناً، فهو أول بيت وضع للناس للعبادة، وتحققت فيه دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فأذِن الله عز وجل لنوره أن يشرق على أرض جزيرة العرب من جديد. فاقتضت حكمته تعالى أن تكون مكة مهداً لرسالة الإسلام، فقد جعل فيها الكعبة المشرفة واختار محمداً ﷺ العربي رسولاً إلى الناس كافة. ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولم تكن رسالة محددة يختص بها جيل من الناس شأن الرسالات السابقة، بل جاءت عامة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. والعرب هم أولاد إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه في توحيد الله وعبادته، وفي تعظيمهم للبيت الحرام وتقديسه وخدمته، ومن الحكمة الإشارة هنا أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب عن سائر الناس في الرسالة، وفضل قريشاً عن سائر القبائل وفضل اللغة العربية على اللغات الأخرى.

(٥) لوحظ في آيات المقطع تكرار توظيف كلمتي (ربنا ورب) في الدعاء تأدباً، ففيهما القول الفصل لمقصد توحيد الربوبية والألوهية والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار، وفي تكرارها التأكيد على سحر فعلها في نقل الناس من الظلمات إلى النور. (٢)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٢٢١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧٤.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع السابع

ويمتد من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٢

(صورٌ من مشاهد يوم القيامة)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ
يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ
أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟
مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ
ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم
مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ
﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾(١)

بعد أن بيّن الله عز وجل في المقطع السادس دلائل التوحيد والتماس إبراهيم عليه السلام من ربه صونه عن الشرك بالله عز وجل، وأن يوفقه للأعمال الصالحة ويخصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة، انعطف الخطاب بعدها في المقطع الأخير إلى التأكيد أن الله عز وجل يمهل الكافر ولا

---

(١) قراءات: قرأ أبو عمرو في الآية ٤٢: (إنما نؤخرهم) بالنون وقرأ الباقون كما في المصحف. وقرأ الكسائي في الآية ٤٦: (لتزول) بفتح اللام الأولى وضم الأخيرة، وقرأ الباقون بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخيرة كما في المصحف. وحجة من قرأ هذه القراءة أنه جعل (إن) بمعنى (ما) وجعل اللام الأولى لام نفي، والتقدير هنا ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، ونظيره في القرآن (ما كان الله ليذر المؤمنين) آل عمران/ ١٧٩، بهدف تصغير مكر الكافرين تحقيراً لهم وشماتة في إهلاكهم. انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي: ص٢٧-٢٨.

يهمله. وللزمخشري هنا تعليق لطيف على افتتاح هذا المقطع إذ يقول: (إن الله عز وجل يتعالى عن السهو والغفلة في عقابهم عما يعملون، ومراد الله من إرجائهم تحقيق الوعيد والتهديد، فهو الرقيب عليهم والحاسب على ظاهر وباطن أعمالهم، وفي هذا الاستفتاح تسرية للمظلوم وتهديد للظالم). (١)

وتمضي آيات المقطع لتبرز بعضاً من مشاهد يوم القيامة التي تحيط بالكافرين إذ يستجيبون لله في تسارع (مهطعين) شاخصة أبصارهم في استطالة التحديق إلى السماء بذهول وانكسار، كل في انتظار تسلم صحيفة حياته الدنيا بشماله، ويرجون الله تعالى أن يردهم للحياة الدنيا في كرة ثانية ليتداركوا ما فرطوا في أمر الله، بسبب ما كانوا فيه من الغفلة واستيلاء الجهل والسفه على عقولهم، ويعملوا الصالحات بعد أن رأوا أهوال هذا اليوم وما أعده الله لهم فيه من العذاب، وشواهد تمنيهم هذا مكرور في آياتٍ عديدة منها: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [المنافقون: ١٠] فيجيب الله عز وجل على مطلبهم هذا توبيخاً وتحقيراً وتهكماً وتبكيتاً، ألم تقسموا غير مرة في الحياة الدنيا أن لا بعث ولا حساب وإن هي إلا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر، ألم تقولوا أن البعث والحشر ممتنع بالكلية، فهذا هو دليل زعمكم: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: ١٠]، كما تبيّن الآيات ما أصاب الأمم السابقة من العذاب بسبب كفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم رسله وإعراضهم عن دينه، وفي هذا تنبيه للعقلاء لأخذ العبرة من إرسال الله على تلك الأقوام ألواناً من العذاب التي أهلكهم بها، ولم يبق منهم إلا آثار تشهد على ما حل بهم من العذاب الأليم وفي ذلك دليل على قدرة الله تعالى، فليعتبر الكافرون بما حدث لمن سبقهم ويتعظوا من عاقبتهم إذ بوأهم منازل تلك الأقوام يستقرون بها.

والمتأمل لسور القرآن الكريم التي تناولت مشهد أهل النار يوم القيامة يمكنه رصد خمس دعوات لهم، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٤١.

﴿ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ [غافر: ١١]، فيجيبهم الله ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢ ﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾ [السجدة: ١٤].

ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويقولون: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبداً، فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ ﴾ [المرسلات/ ٣٥-٣٦][1].

وتتابع الآيات في اتساق هادف تفصيل الله عز وجل شيئاً من عظيم مكر الكفار الذين استفرغوا جهدهم في معاداة رسول الله، وهذا مكرور مع رسل الله كافة، حتى أن مكرهم لشدته ما تزول منه الجبال، ومع هذا فإنه عند الله أوهن من بيت العنكبوت في ضعفه، لأن الله محبط أعمالهم ومفسدها. والله سيجازيهم بمكر أعظم من مكرهم، ويراد بمكر الكافر هنا الشرك بالله ومنابذة رسل الله بالعداوة، والشك في رسالاتهم، بما في ذلك من خسة ونذالة واحتيال وخديعة وإفك في القول. أما مكر الله فهو تقدير وتدبير على مراد حكمة الله عز وجل

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٨٠-٣٨١.

ولله المثل الأعلى وشتان بين المكرين، فمكرهم معول هدم أما مكر الله فأداة بناءٍ لصرح عظيم لنقل الناس من الظلمات إلى النور، وقد ورد تخصيص الجبال لاستحالة زوالها، فالأولى بالقياس عليها استحالة طمس شريعة الله ورسالته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، والعاقبة للمتقين والله لا يخلف وعده بنصر أوليائه، فمن أسمائه أنه عزيز ذو انتقام.

وبعد هذا الوصف لمكر الكفار ينتقل سياق الخطاب ثانية إلى تصوير مشاهد أخرى من يوم القيامة، كتبدل الأرض إلى أخرى مغايرة لها، مبسوطة مستوية كالأديم لا تضاريس لها ولا يرى فيها اعوجاجاً، وتتبدل السموات بتناثر مجراتها وتكوير شموسها، كمقدماتٍ وتوطئة لبروز الخلائق للحساب مؤمنهم وكافرهم في أرض المحشر. ولعل في حكمة تكرار مشاهد القيامة إبلاغ الإنذار والتهديد والوعيد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة (برزوا) قد وردت بصيغة الماضي لتفيد الاستقبال على التأكيد في وقوع هذا المشهد.

كما تنقلت آيات المقطع في لقطاتها فأبرزت صوراً من مشاهد عذاب الكفار، ففي المشهد الأول يكون بعضهم مقروناً بالأصفاد إلى بعضهم البعض مع شياطينهم الذين أضلوهم، وفي مشهد آخر يقرنون بالأصفاد والأغلال إذ تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغللين، وفي مشهد ثالث تدهن جلود الكفار بالقطران فتبدو للناظر ثياباً (سرابيل) يلبسونها، لتضاعف من عذابهم بسبب شدة تفاعلها مع النار وأثرها الحارق على الجلد، مع كراهية رائحتها النتنة باحتراقها على الجسم، فتصبح مصدراً للقيح والصديد، منبع شراب أهل النار، وكلما احترقت أجسادهم وتفحمت أعادها الله إلى سيرتها الأولى ليقاسوا العذاب من جديد بديمومة في عذاب أبدي خالدين فيه، يجزي الله فيه كل نفس كافرة ما كسبت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء: ٥٦]، وصور العذاب هذه وغيرها مما أتى القرآن على ذكرها،

تختلف باختلاف درجات ومراتب أهل النار. وقد خصت الآية في هذا السياق الجلد بذكر الحرق دون سائر الأعضاء مع أن العذاب ممتد إلى الجسد كله، لأجل كشف إعجاز طبي يفيد حقيقة أن الجلد هو المسؤول عن حاسة اللمس والإحساس والألم إلى عموم الجسد وإلى النفس، وبهذا تتم المزاوجة بين عذاب الجسد وعذاب النفس من خلال الشعور بألم الجلد.

كما خص الله الوجه بالذكر في المقطع بقوله تعالى: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه، وهو محط المشاعر والحواس[1]، والإنسان بلا وجه إيماني مظلم قاتم أصمُّ أبكمٌ أعمى كالأنعام أو أضل، ليس له عقل يتعظ به ويتدبر، ومن كان ديدنه كذلك فالنار أولى به، وهذا ضربٌ من ضروب العذاب في النار ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر: ٤٨]، واختتم المقطع الأخير بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، تبيّن هذه الآية الكريمة وجوب الإيمان بأن القرآن الكريم كتاب الله تعالى حق لا شك فيه، أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ ككتاب هداية يدعو الناس إلى الإيمان وعمل الخير ليفوزوا برضوان الله تعالى، ومن سار على هديه أقر الله عينه وأراحه بنعيم دائم في الجنة جزاءً على صدق إيمانه. وفي هذا الخير كله دعوة للاشتغال بالنظر والتأمل والتذكير والموعظة، ليتحرر الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العالمين، ولا يحسن فهم هذا البلاغ القرآني إلا ذوو العقول الراجحة القادرة على التمييز بين الحق والباطل والظلمات والنور.

وبهذا الخطاب انعطف المقطع الأخير ليتحد في هدفه ومحوره مع المقطع الأول في الدعوة إلى الله وتوحيد الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله عز وجل. فهذان المقطعان يؤلفان مع بعضهما البعض وحدة متجانسة فيهما من وشائج الترابط ما يشد عضدهما بمقاطع السورة الأخرى فزادها حسناً وجمالاً، فأكدت هذه الخصوصية أن سورة إبراهيم بمقاطعها السبعة مجموعة واحدة في هدفها وغايتها وإن تعددت مقاطعها، وقد حفل هذان المقطعان بالعديد من

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٨١٩.

الدروس والعظات لأهل مكة بما شمله من التذكر والإنذار والبلاغ، ليس من باب التكرار بل على سبيل التأكيد للوفاء بالغرض الذي سيق من أجله المقطعان.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير

١ - تحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ، لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر، على ما يواجهه من صعاب في قومه، وفيه درس لشحذ همم الدعاة لتقوية عزيمتهم في الدعوة، مهما تعاظمت التحديات التي تواجههم، بهدف الاستماتة في الثبات على مبدأ الدعوة أياً كانت المغريات أو المعوقات.

٢ - أكدت آيات المقطعين الأول والسابع الأخير أن الرسول ﷺ شاهد على أمته في تبليغ الرسالة ونصح الأمة وأداء الأمانة، والناس جميعاً على قدم المساواة بين يدي دعوته، لهذا كان الجزاء أثراً من آثار صفة العدل الإلهي بين الخلائق يوم القيامة.

٣ - مع أن الخطاب في المقطع الأخير خاص بالرسول ﷺ وقومه، إلا أن الله عز وجل تشريفاً لمنزلة رسوله ومكانته عند ربه شاءت حكمة الله مخاطبة رسوله الكريم بمضمر القول، بالتلميح دون التصريح بهمساتٍ رقيقة دافئة المشاعر، تفيد معنى أن إمهاله للكافرين رغم مكرهم يجب ألا يُحمل بالظنون ولو كان عبر حديث النفس من بعض المسلمين، فهذا لا يليق بجلال الله وعظمته مع استبعاد الرسول ﷺ من هذا التوهم لكونه ممتنعاً عليه للعصمة، فهو أكمل الخلق في صفاته وخلقه وصبره وتضحيته، وظنون الغفلة والنسيان محال أن يتصف بها الله عز وجل ولما كان للكلمة في القرآن الكريم وزنها وقدسيتها، فإن أدب الخطاب هنا جاء للمسلمين كافة انطوى على دروس تربوية عظيمة يمكن إجمالها بالنقاط التالية:

أ - في هذا الخطاب تنبيه مبطن للمسلمين وتحذير لهم، من تسلل وساوس الشيطان إليهم بالظن السيئ بالله، أياً كانت النوازل والعوادي التي تعصف بهم جماعات وأفراداً.

ب- أن الدعوة إلى الله مرتبتها عظيمة ليس لأحدٍ بلوغها إلا بقوة العقيدة وما تتطلبه من

الصبر لحصول المقصود منها.

جـ- أن الجهاد بالمال والنفس والكلمة من أصدق الامتحانات لنصرة العقيدة.

د - أن الله عز وجل قد يصيب بعض المسلمين مرارة الضعف والهزيمة تارة وبالغلبة والظفر تارة أخرى جولاتٍ لتدبيرٍ إلهي محض، لكشف معادن النفوس وصلابتها حسب درجات إيمانها، ليثاب كل حسب درجته ومنزلته.

هـ- تقرير أن الصبر في الدعوة والثبات عليها وقت الشدائد من مفاتيح النصر والظفر برضوان الله تعالى.

و- أن السبيل لمعرفة منازل المؤمنين لا تتأتى إلا بالبلاء والمحنة، فيظهر الله بها أهل الإيمان من غيرهم.

ز- التحريض على التروي والتحلي بالأناة احترازاً من العجلة في الحكم على ظواهر الأشياء التي عقباها الحسرة والندامة، لأجل ذلك خلق الله للإنسان أذنين ولساناً واحداً ليستمع أكثر مما يتكلم، ومن خالف فطرته هذه كان من أهل فضول الكلام بمرذوله وقوادحه وجب زجره تأدباً.

حـ- التأكيد على أن العاقبة للمؤمنين وإن استطالت طريقها، بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله.

ط- أن الحكمة من إمهال إهلاك الكافرين لأجل أن يتقرب المؤمنون إليه أكثر بالتضرع والدعاء للاعتصام بحبله.

ي- اقتضت حكمة الله عز وجل أن لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء، فلو بسط لهم النصر على الدوام لطغوا وتواكلوا وتجنبوا الأخذ بالأسباب.

٤- إن وجه الارتباط بين هذا المقطع والمقطع الخامس الذي تقدمه واضحة المعالم والأهداف، فالمقطع الأخير تناول جانباً من الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ

غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. أما المقطع الخامس فقد اشتمل بالكلية على جوانب متعددة من أوجه الإعجاز العلمي في القرآن، وفي هذا من العبرة والعظة دلالة على عظمة الله في الخلق، ما يحمل الإنسان على التأمل بما يراه وما لا يراه وبما خلق الله وما سيخلق وما يجري في الكون من تبدل وتغير وفق سنن ربانية، وفي هذا التشابه بين المقطعين دعوة لتوظيف العقل والفكر والحواس لإدراك حقيقة الكون وظواهره.

٥- إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] دالة على فناء الكون يوم القيامة، ودليل هذا الفناء مكرور في القرآن الكريم في السور التالية: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [التكوير: ١-٢]، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ [الانفطار/ ١-٤].

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الزلزلة: ١-٢]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه: ١٠٥].

﴿ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ [النازعات: ٦-٧].

ولقد أخبر الله تعالى أن بداية هذا الفناء سيحدث بعد النفخة الأولى وفيه تتعطل سنن الكون وقوانينه لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ١-٢].

ثم يعقبها النفخة الثانية وهي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت، ويدل على حدوث هاتين النفختين قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ [النازعات: ٦-٧]، فالنفخة

الأولى هي الراجفة والثانية هي الرادفة، حسب قول ابن عباس.

ودليل ذلك قوله تعالى:﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقد جاء تسمية الصور في القرآن بالناقور.

٦- التأكيد على وجوب الإيمان باليوم الآخر كركن من أركان العقيدة مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

فعقيدة الإيمان بالله تعالى لا تنفك عن الإيمان باليوم الآخر، فمقتضى الإيمان يوجب تصديق الله في كل ما أخبرنا به في وعده ووعيده.

وقد ورد في القرآن الكريم تسمية اليوم الآخر بنيف وعشرين اسماً منها: يوم البعث ويوم القيامة ويوم الدين ويوم الخروج ويوم الحشر ويوم الجمع ويوم الفصل ويوم الحسرة ويوم الوعيد ويوم الخلود والدار الآخرة ودار الخلد ودار القرار والواقعة والقارعة والحاقة والطامة والآزفة والغاشية. ومع أن الإيمان باليوم الآخر من أركان العقيدة، إلا أن الإيمان به ضرورة أخلاقية تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي ليشعر المؤمن بسعادة عدم استواء منزلته مع الكافر يوم القيامة.

٧- انتظم في القرآن الكريم والسنة النبوية طائفة من أوصاف الجنة والنار وأن في الجنة أنواعاً من النعيم المادي والروحاني، لا تخطر ببال أحد من الخلق مصداقاً للحديث الشريف: (قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)(١)، وأن في النار أنواعاً رهيبة من العذاب المادي والروحاني، وأنها دركات ووديان بعضها أشد عذاباً من بعض، (٢) وما سيق في المقطع الأخير من صور العذاب إلا اليسير منه.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله، حديث رقم: ٦٩٤٤.

(٢) العقيدة الإسلامية، د. عبد الرحمن الميداني: ص٦٦١.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بداية اليوم الآخر تكون بنفخة البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت، ثم بالحشر، فبعد البعث يتم حشر الخلائق لموقف الحساب لقوله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾[الزلزلة: ٦].

ثم الحساب والميزان للفصل بين الخلائق لإقامته العدل بينهم، لقوله تعالى:﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾[الغاشية: ٢٥-٢٦].

ثم الصراط وهو طريق يسلكه الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمنون يجتازونه إلى جنة الخلد بسرعات تتفاوت على مقدار تفاوت الإيمان والأعمال الصالحة، أما غيرهم من المنافقين والكفار فيسقطون في نار جهنم، وقد أشار القرآن الكريم إلى الصراط في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾[مريم: ٧١]، وهي المرحلة الأخيرة وفيها الثواب والعقاب،[١] ثم الجنة والنار.

٨ – بمناسبة قوله تعالى في الآية ٤٢ ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ ما يفيد أن الكفار إذا دُعو للحساب امتثلوا لأمر الله مهرولين مسرعين مطأطئي الرؤوس في ذل وانكسار، وشواهد ذلك مكرور في القرآن الكريم في أكثر من آية كقوله تعالى:﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾[القمر: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[ق: ٤٢-٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[المعارج/ ٤٢-٤٤]. وحكمة هذا الشاهد أن هؤلاء الكفار قد سجلوا على أنفسهم التقصير في حق الله وتمنوا لو كانوا على عقيدة التوحيد، منكرين على شياطينهم سبب ما هم عليه من العذاب. ولعل من عجيب

---

(١) المرجع السابق: ص٦٥٩.

اللطائف القرآنية في هذا السياق تشابه بعض الآيات في أرقامها مع اختلاف سورها.

٩- بمناسبة قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لقد ورد في كلمة قطران أربع قراءات هي (قِطْرَانٍ) و(قَطِرَانٍ) و(قَطْرَانٍ) و(قِطْرآنٍ) [1].

تحتمل كلمة القطران معنى الزفت والقار وقد تحتمل أيضاً ما يشتق من ضربٍ من الشجر يقال له الأبهل، يستحلب منه قطرات ثم تطبخ على النار وتوضع بعد ذلك على الإبل وشتى أنواع البهائم المصابة بالجرب، فتحرق جلدها وتقضي على جربها، وهناك من رجح القطران في الآية ما يسكب على الكافر وهو في النار من النحاس المصهور. [2]

وبقراءة تأملية تحليلية في هذه الجزئية نرى أن منطق العقل يقتضي القول أن العذاب بالقطران واقع لا محالة، وهو لون من ضروب عذاب أهل النار حسب منزلة الكافر منها، ونرى أن قطران الآخرة مختلف ومغاير بالكلية عن قطران الدنيا، ولا يجمعها إلا الاسم فقط مع اختلاف في الجوهر، تماماً كعسل الدنيا إذ لا يجتمع مع عسل الآخرة إلا في الاسم فقط، مع اختلافٍ في ماهيته وتكوينه وطعمه ولونه ورائحته وكثافته ولزوجته ونوع نحله وأزهاره، والمثال ذاته ينسحب على الفارق بين ماء الدنيا وماء الجنة، فهذا مما استأثره الله بعلمه، وحكمة ضرب هذا الشاهد: هب أنك اجتمعت إلى إنسان هو لعسل الدنيا كاره، فكيف له بعسل الآخرة إن كان من أهل الجنة وهو له في الدنيا كاره ومنكر، فالجواب على هذا الافتراض يكون مما تقدم ذكره، إن عسل الآخرة وماء الآخرة ولبن الآخرة وكل ما ذكره القرآن من نعيم الجنة معروف لدينا بأسمائه، مغاير له في الطبيعة ولا يجمعه إلا الاسم فقط. ولعل سبب ربط المفسرين عذاب أهل النار بقطران الدنيا سببه القياس على شدة اشتعاله وكراهية رائحته وسرعة نفاده في جوف الجلد، وعلى خلفية هذا القول نرى أن لا قياس في المقابلة والمشابهة بين قطران الآخرة وقطران

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٨٥، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٤٥، والتفسير الكبير، للفخر الرازي: ٧/ ١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٨٧.

الدنيا، وهو من المتشابه الذي استأثره الله بعلمه، وهي من الأمور التي سكت عنها القرآن في تركيبها وشكلها ومضمونها ومحتواها للحكمة والاعتبار.

١٠- وحول قوله تعالى:﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فإن الآية هنا تؤكد على وجوب القدح والتوبيخ الموجب للخلود في النار لإثارتهم الشبهات حول رسول الله ﷺ، فقد أثار الملأ من مشركي قريشٍ لأجل الحفاظ على مكانتهم ورياستهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الافتراءات حول رسالة الإسلام فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن وللرسالة وأثاروا حولها مرذول الشبهات، وزعموا منكراً من القول وزوراً من الإفك، طائفة من الافتراءات نزه الله سبحانه وتعالى رسوله عنها، ومن شبهاتهم التي أثاروها:

- أن القرآن شعر وأن النبي ﷺ شاعر ودليله: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥].

- وقيل إنه ساحر ودليله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس: ٧٦].

- وقيل إفك افتراه أعانه عليه قوم آخرون، ودليله:﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥].

- وقيل كذاب، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ويكفي محمداً ﷺ أن يصفه الله عز وجل بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]. وقد وصفته السيدة عائشة أم المؤمنين بقولها: (كان خلقه القرآن) ووصف رسول الله ﷺ نفسه فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)،[1] ودليل افترائهم هذا ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤]،

(١) مسند أحمد، حديث رقم: ٨٥٩٥.

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر: ٢٥].

- وقيل: إنه مجنون، ودليل ذلك قولهم﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات: ٣٦].

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦].

- وقيل: إن الرسول ﷺ افتعل القرآن من تلقاء نفسه، وجمعه عن أساطير الأولين وكتبهم ودليله:﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المطففين: ١٣].

- وقيل: إن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة يستكتبهم، فأوقعوه أسيراً لهم، ودليله﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥].

- وقيل: إن بعض آلهتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بما لا يعرف ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤].

- وقالوا في تهكم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧].

- وقالوا باستحالة نبوته كبشر، ودليله: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

- ومن صور إثارتهم للشبهات ضد رسول الله ﷺ الاستهزاء به وهو صابرٌ محتسبٌ، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١].

وكانت قريش تستهزئ بالنبي ﷺ وأصحابه، ودليله قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١].

- ومن صوره أيضاً: اتهامه ﷺ أنه مولع بالنساء وقالوا: ما نرى لهذا الرجل من همّ إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً حقاً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الرعد: ٣٨].

- ومن أنماط السلوك القبيح التي أثارها كفار مكة ضد نبيهم ﷺ، أنهم لما سمعوا دعوته لهم بالتوحيد ونبذ الأصنام عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من غلبه الضحك، وهذا الشاهد مكرور مع رسل الله كافة.

وبقراءة تأملية: فإن الإنسان العادي قبل الفطن يرى أن تعدد واضطرابات هذه الشبهات دليل على بطلانها وعدم صحتها، كما أن بداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ قامت كل الحجج على مصداقية رسالته، وما أوردناه آنفاً من بعض صور الافتراءات تشهد على صحة كفر القوم المستحق ليس للتوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد بل الخلود في نار جهنم، إضافة إلى ما أصابهم من العذاب الأدنى في الحياة الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الافتراءات مكرورة في تاريخ الأنبياء والرسل، والرسول ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإن كان حجم الافتراءات والشبهات التي أثارها كفار قريش هي الأكثر، ويعزى ذلك لاستحكام عوائد المكر والحقد والجهل وطبائع الظلم والعدوان فيهم، وخبث طويتهم وفساد سريرتهم، لمحاكاتهم الآباء والأجداد في تقليد وثنيتهم من غير إعمال للعقل والتفكير، فكانوا أشد الناس كفراً، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾[التوبة: ٩٧]، لا يأنسون للهداية ولو كان صاحب الدعوة من ذوي القربى وسيرته فيهم الصادق الناصح الأمين الكيِّس الفطين الصبار الشكور الحليم الرشيد.

الخاتمـــة

إن قراءة تأملية تحليلية موضوعية لما بين يدي سورة إبراهيم ﷺ، بعد هذا التطواف في مقاطعها السبعة، تؤكد تطابق جو السورة وانسجام مقاصدها مع محورها العام وسياقها الخاص. ويراد بالمحور العام هدف السورة وغايتها ومراد الله لها من التنزيل، لتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، إذ بينت السورة بالدلائل القاهرة والبراهين الساطعة أن لا معبود إلا الله. ويراد بالسياق الخاص ما يتفرع من المحور الرئيس من روافد ثانوية، تزيدها بهجة وجمالاً، فهذه بالكلية تمهد للمحور العام وتؤطر له وتؤسس بهدف تجسيد مراد الله من تنزيل السورة إلى واقع محسوس، توطئ له بتوطئاتٍ تدل على عظمة الخالق في خلقه وتدبيره للكون، حتى يكون الناس على الصراط عبر حملهم على التفكر في مظاهر عظمته سبحانه وتعالى وإفهامهم الدين بالعقل والقلب، وقد مر تقرير هذا مراراً في سياق كل مقطع، وفيما يلي مجمل للمحاور الثانوية التي اشتملت عليها سورة إبراهيم ﷺ، التي برزت في عرض سياقها الخاص: محور الرسل والرسالات وموقفهم من أقوامهم وموقف أقوامهم منهم.

أ - محور نعم الله تعالى على عباده وموقفهم منها.

ب- محور مكانة القرآن الكريم وموقف أهل قريش منه.

جـ- محور نموذج إبراهيم ﷺ في الدعوة.

د- محور بيان الإعجاز العلمي فيما اشتملته السورة من الآيات الكونية.

هـ- محور الهدف من ضرب الأمثال.

ز- محور إبراز بعض مشاهد يوم القيامة للوعد والوعيد.

وقد تناولت هذه المحاور الثانوية بالمناقشة والتحليل وما شملته من الدروس والعبر والهدايات المستنبطة كلٌ في مقطعه، وما يميز سورة إبراهيم ﷺ عن غيرها من السور، تناولها للآيات من خلال عرض خاص في عشر صور متقابلة مع عقد المقارنة بينها، لإبراز وجه

العلاقة بينها وغايته وما تحتويه من حكم ولطائف من الترغيب والترهيب وقياس الشيء على نظيره أو أضداده للعبرة والاتعاظ.

وفيما يلي إيجاز لهذه الصور المتقابلة التي عقدت الآيات لها بالمقارنة، وقد عولجت في مواطنها بالإيضاح والتعليق:

تناولت **الصورة الأولى** دور الرسل في إخراج أقوامهم من الظلمات إلى النور، ومقارنة ذلك بدور الشياطين في إخراج الناس من النور إلى الظلمات.

وفي الثانية: وقعت المقارنة بين نعمة الإيمان ونقمة الكفر.

وفي الثالثة: عقدت المقارنة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

وفي الرابعة: تناولت مقابلة فوائد الصبر ومقابلته بالجزع.

وفي الصورة الخامسة: عقدت المقارنة بين التوبة والإصرار على الكفر، وعدم جواز حمل الشفاعة والتوبة للمشرك.

وفي السادسة: توقفت الآيات بإبراز المناظرة بين الملأ من شياطين الإنس والجن مع أتباعهم، ثم خطاب إبليس فيهم وعتبه عليهم جميعاً، ومقارنة ذلك بنعيم أهل الجنة.

وفي الصورة السابعة: عالجت الأمثال المضروبة المقارنة بين الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

أما الثامنة من هذه الصور: فقد قارنت بين مكر الكفار ومكر الله، بما في الأولى من خسة ونذالة وخداع، وما في الثانية من تقدير وتدبير.

وفي التاسعة: عقدت المقارنة بين الهداية والضلال.

وفي العاشرة: استحباب الحياة الآخرة على الدنيا عند المؤمنين، ومقابلتها باستحباب الدنيا على الآخرة عند الكافرين والمشركين والمنافقين، دون أن يعملوا لآخرتهم شيئاً وفي ذلك دروس

وعبر، وقد كان لحكمة هذه الصور في مقابلتها ومقارنتها جليل الفوائد، فقد أكدت بالكلية على حقيقة أن القرآن الكريم أجل خيرٍ ساقه الله للبشرية، وأن الله عز وجل أقام بالحجج دليل مشاهد على صدق ما جاء به الرسل، ومن نازع في ذلك كان أقرب الناس للجنون والطيش والسفه وتفاهة الرأي لملازمة وساوس الشيطان له، ولوقوعه تحت غريزة المحاكاة والتقليد لديانة الآباء الأولين من غير إعمال للعقل والفكر. كما وجهت الأنظار أن نبأ قصة إبراهيم عليه السلام واحدة من القصص التي حفل بها القرآن الكريم، أعلمها الله عز وجل لخاتمة رسله، وكان غير عالم بتفصيلاتها قبل أن تنزل وتخبره مضمون أحداثها، وهذا من أنباء غيب الماضي أوحى الله به إلى نبيه ﷺ ليوظفه في أمور دعوته.

كما لفتت صور التسخير والكلمة الطيبة ونعم الله الأنظار إلى الحكمة من تسخير الكون لهذا الإنسان ليفيد من نعم الله هذه في بناء صروح التقدم الحضاري، والمسلم هنا أولى من غيره في عمارة الأرض فيجب ألا يكتفي من الحضارة موقف المتأثر المتلقي المستهلك، بل المؤثر الفاعل القادر على الابتكار والتجديد والمساهم الفاعل في اكتشاف قوانين الكون وظواهره وثرواته، إذ لا يجوز للمسلمين ألبتة تحت راية القرآن أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، وليس أدل على أمر الله للأمة الآخذ بأسباب العلم وقوانينه من اشتمال السورة على ألفاظ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾ ثلاث مرات﴿ وَإِذْ ﴾ مرتان﴿ وَسَخَّـرَ لَكُمُ ﴾ أربع مرات، وكلها ألفاظ دالة على إعمال العقل بالبحث والتنقيب والتمحيص والتطور في جوانب الحياة كافة، وجاء التخصيص لأولي الألباب إعلاءً لشأن من يقيم شرع الله في الاستخلاف على مراد الله وفيها تحريض على العلم النافع وجهاد في سبيل الله ونحو ذلك. ومع أن لفظ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾يفيد التعجب والخطاب فيه للأمة، إلا أن العجب العجاب والعجيب العاجب أن الأمة بتخلفها وجمودها وانقيادها لغيرها موقفها سلبي في البناء الحضاري، مع أن لهم في تاريخ حضارتهم ما يُقتدى به. فالله عز وجل لا يريد للأمة أن تنزل طائعة مختارة لغيرها من الأمم عن سلطان العلم وأسبابه.

وفي قراءة تأملية فلسفية يمكننا القول أن لفظ ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾ تفيد الرؤيا البصرية والمنامية

والعلمية والتدبر والاتعاظ، فكيف إذا حمل معنى التسخير على تأويل المعاني كلها، ففي ذلك حث للأمة على كل خير ديني ودنيوي مادي ومعنوي لتستقيم حالها وتكون كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس.

ولا يفوتنا التنويه هنا أن بُعد الأمة عن العلم النافع داخل في منزلة تبديل نعمة الله كفراً، وما سبب انقياد الأمة اليوم لغيرها ما كان ليتحقق إلا لأن النفس عند حبسها عن العلم مع اغتراب في الدين تعتقد على وهم منها أن القوة والذكاء وقفٌ فيمن غلبها فتنقاد إليه على غير هدىً وتسلم الراية له. ويا لقبح حال الآمة إذا مرت الأيام والسنون ولم يزل العلم ممتنعاً عنهم فإن كان كذلك لا سمح الله وهذا محال بإذن الله، استوجب الذم والتعزية فيها، لتقصيرها في متابعة كل ما هيأ الله للأمة من أسباب الحياة على أكمل وجه ومنحهم كل ما سألوه وما لم يسألوه، والله قادر على أن يستبدلهم بقوم آخرين أطوع منهم لله في عبوديته والأخذ بأسباب ونواميس ما أودعه لهم في الكون من قوانين، فلله في ذلك سنن وأسباب، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وقد جاء حمل آيات التسخير الواردة في السورة على عموم أحوال التأويل، لصرف الأمة عن مذمومات المحاكاة والتقليد للغرب، وأخذهم بممدوح العلم وما يتطلبه من القضاء على جيوب الجهل، في كافة أحواله لما في ذلك من المصلحة والاعتبار، خدمة لرسالة الإسلام بما ينسجم وعظمة هذه الرسالة.

سورة الحـــجر

أولاً: بين يدي السورة

أ- اسم السورة:

تسمى هذه السورة سورة الحجر، وذلك لورود هذه اللفظة ضمن آياتها في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾، والحجر اسم وادٍ بين المدينة المنوَّرة والشام كانت تسكنه ثمود قوم صالح ، وتسمية هذا المكان بهذا الاسم لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال الحجرية لقوله تعالى:﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾، أو لأنها كانت محاطة بالحجارة كحِجْر الكعبة[1]، ولا مانع من الجمع بينهما.

ب- فضائل السورة:

لم يرد في فضل هذه السورة حديث خاص، وما ذكره بعض المفسرين في فضلها فهو جزء من حديث موضوع في فضائل السور[2].

ج- وقت نزول السورة:

هي سورة مكيَّة، نزلت على الرسول ﷺ قبل الهجرة بالإجماع[3]، إلا أن بعض المفسرين[4] استثنى من ذلك الآيات الآتية:

١- قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣١٩.

(٢) ذكر البيضاوي وأبو السعود أحاديث في فضل السورة عن ابن عباس، انظر ما قاله السيوطي فيها الإتقان، ص١١٢٩.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١٢/ ١٦، الخازن ٣/ ٤٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٥٧.

(٤) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٤٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠١.

٢- قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾

٣- قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وأما استثناء الآية الثانية:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ فبناءً على ما جاء عن الحسن من أن معنى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾. هي الفاتحة وأنها مدنية، والأصح أنها مكيّة فلا وجه لما قالوه[١].

وأما استثناء الآية الثالثة:.﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ فبناء على تفسير المقتسمين بأهل الكتاب وأن المقصود بهم يهود المدينة، وهو باطل لما سيأتي من عدم تلاؤمه مع السياق[٢] وبذلك يبقى الإجماع على أنها مكيّة بأكملها.

د-عدد آيات السورة:

عدد آياتها تسع وتسعون آية بلا خلاف في ذلك بين أنواع العدِّ[٣].

هـ- أسباب النزول:

هذه السورة من سور القرآن التي نزلت ابتداءً بمجملها دون أن يكون لنزولها سبب خاص.

وقد ذكر بعض المفسرين[٤] أسباباً لنزول بعض آياتها، كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾، وقوله تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾، وقوله تعالى:﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾، وسيأتي الحديث عن ذلك عند بيان معنى الآيات.

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٢١٣.

(٢) انظر تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠١، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٤٩.

(٤) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص ١٨١-١٨٣.

و- الناسخ والمنسوخ:

هذه السورة بجملتها محكمة لا منسوخ ولا ناسخ فيها، إلا أن بعض المفسرين قال بأنَّ فيها خمس آيات نسخن بآية السيف، وهنَّ:

١- قوله تعالى:﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

٢- قوله تعالى:﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾

٣- قوله تعالى:﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

٤- قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾

٥- قوله تعالى:﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وسيأتي الكلام على ذلك، وبيان أن جميع هذه الآيات محكمة غير منسوخة، عند بيان معاني الآيات.

ز- محور السورة:

محور سورة الحجر الرئيس هو: إبراز المصير المخوِّف الذي ينتظر الكافرين المكذبين. ويدور السياق حول هذا المحور بعدة أشكال، سواء في ذكر سنن الله في المكذبين، أو إبراز عظمة الله وقدرته في ما يشاهد من الكون، أو وصف مشاهد يوم القيامة، أو ذكر قصص السابقين وعاقبتهم كقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، وما تخلل ذلك كله من تعقيبات والذي يرجع إلى المحور الرئيس ويدور حوله[1].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٤٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٥٨.

ح- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الصلة بين اسم السورة ومحورها هو أن اسم السورة يشير إلى ذكر أصحاب الحجر الذين كذبوا المرسلين بتكذيبهم لصالح عليه السلام، وكيف كانت عاقبتهم، وهو نموذج يمثل محور السورة الذي يدور حول إبراز مصير الكافرين المخوف الذي ينتظرهم.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تحدثت بداية السورة ونهايتها عن كيفية التعامل مع الكافرين ففي بدايتها قال تعالى:﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وفي نهايتها جاء قوله سبحانه:﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾(٨٥) .

كما اشتركت البداية والنهاية بالحديث عن القرآن الكريم ففي بدايتها تحدثت عن حفظ الله عز وجل للقرآن، وهو قوله عز وجل:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، وفي النهاية قال سبحانه وتعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[١].

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه الصِّلة بين افتتاحية سورة الحجر وخاتمة السورة التي قبلها- وهي سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام- هو: أنَّه سبحانه وتعالى لما قال في خاتمة سورة إبراهيم في وصف يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥٠]، قال هنا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أخرجوا من النار تمنوا لو كانوا في الدنيا من المسلمين[٢].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٩٩.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، ١/ ١١١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٦.

كما أن طرفي السورتين تشابها إذ إن سورة إبراهيم اختتمت بوصف الكتاب بأنه كفاية للناس في العظة والعبرة والتذكير وهداية الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، نجد أن هذه السورة افتتحت بذكر القرآن وبوصفه أنه كتاب بيّن الهداية وظاهرها لمن تأمله، وذلك في قوله تعالى:﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾[1].

٤ – المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

وجه المناسبة بين مضمون هذه السورة لسورة إبراهيم التي قبلها أن في كليهما وصف للسماوات والأرض، وإيراد جزء من قصة إبراهيم عليه السلام، وبعض قصص السابقين، تسلية للرسول ﷺ عما تعرض له من أذى قومه بتذكيره بما تعرض له الأنبياء من قبله[2].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة

المقطع الأول: ١-١٥: سنّة الله عزَّ وجلَّ في إرسال الرسل

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥ ﴾

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾تفتح السورة بهذه الحروف الهجائية

---

(١) المرجعين السابقين.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٥، تفسير المراغي، المراغي ١٤ / ٣.

المقطعة، وهي إشارة إلى لغة القرآن وكلامه التي هي بمتناول الجميع والتي يتكون منها ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي القرآن المبين الواضح المميز بين الحق والباطل[١]، وعلى الرغم من كونه بحروف وكلام عربي واضح إلا أن الناس عجزوا عن الإتيان بمثله.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ ثم بيّن الله تعالى حال الكفار من قريش وغيرهم يوم القيامة بأنهم سيندمون على كفرهم ويتمنون لو كانوا مسلمين، وذلك إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار أو إذا ما رأوا الجهنميين يخرجون من النار إلى الجنة[٢]. كما جاء في ما روي عن الرسول ﷺ: «إن أناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وانتم معنا في النار؟! فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين» وفي رواية أخرى قريبة المعنى عن الرسول ﷺ « فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا»[٣].

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ ويخاطب الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يدعهم يأكلوا ويتمتعوا في الدنيا حالهم حال الأنعام،﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ أي يشغلهم آمالهم الكاذبة عن إتباع النبي ﷺ، وعن التوبة والإنابة،﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وبال فعلهم ذلك في وقت لا ينفع فيه الندم[٤]، وفي هذا تهديد لهم[٥].

وقيل إن هذه الآية منسوخة[٦]، وبالتحقيق نجد أنها تهديد ووعيد كما مرّ، وذلك لا ينافي

---

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٥، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٥٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٣.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٥، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٥٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٦٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤.

قتالهم، فلا وجه للنسخ.

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ۝٤ ﴾ يبين الله سبحانه أنه لم يهلك أهل قرية من القرى السابقة إلا بعد أن حان الأجل الذي كتب لهم أنهم سيبلغونه[١].

﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾ دون تقديم لذلك الأجل أو تأخير.

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦ ﴾ أي قال المشركون للرسول ﷺ الذي أنزل عليه الذكر-أي القرآن-على وجه الإنكار والاستهزاء،﴿ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦ ﴾ في دعواك النبوة والرسالة وإنزال القرآن عليك، وفي توهمك أننا سنتبعك[٢].

﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ ﴾ يعنون هلا جئت بالملائكة يشهدون على صحة وصدق ما تدعيه.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾ هذا جواب من الله تعالى لما يطلبونه من شهادة الملائكة بأنها لا تنزل إلا بالحق وهو الرسالة أو الموت وعذاب الاستئصال، ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾ ولو نزلت الملائكة كما طلبوا أو أنزلناها نحن لما أمهلوا ولما أخروا. لأنها لو نزلت حال التكذيب لما أتت إلا بالعذاب، وهو ما يستحقونه في تلك الحالة[٣].

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ يعقب الله أنه يريد لهم خيراً مما في أنفسهم مما طلبوه من إنزال الملائكة التي تأتي بالعذاب بأنه أنزل لهم ما هو خير من ذلك وهو القرآن[٤] المحفوظ من التحريف والتبديل، وقد يكون المراد بقوله:﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ أي الرسول

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ . ٥٤٣

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٥.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ١٩٤.

يحفظه الله سبحانه من كيد المشركين وأذاهم[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك الرسل في الأمم السابقة وفرقهم.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ بإخباره أن هذا هو حال الأمم السابقة مع أنبيائهم ومن أرسل إليهم، بأنهم كانوا يستهزئون بهم لأنهم يستبعدون ما دعوهم إليه ويستنكرونه، حتى توهموا أنه مما لا يكون ولا يصح، لمخالفته ما وجدوا عليه آباءهم[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ إشارة إلى إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء في الأمم السابقة. ﴿ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ندخل الذكر في قلوب الكفار من أهل مكة بإلقائه فيها وتفهيمهم إياها. مقروناً بالاستهزاء كحال الأمم السابقة[٣]، وقيل: نسلك الشرك في قلوب الكافرين[٤]، وهذا لا يتناسب مع قوله تعالى بعدها﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾إذا لو كان الأمر كذلك وأنهم لا يؤمنون بالشرك لكانوا ممدوحين على فعلهم، ولكنَّ الآية وردت على سبيل الذم لهم[٥].

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي مضت طريقة الأمم المتقدمة في تكذيب المرسلين عند دعوتهم إياهم إلى الحق[٦]أو قد علم ما فعل الله تعالى بمن كذَّب رسله من الهلاك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٦، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٨.
(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٨، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٦.
(٥) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩.
(٦) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩.

والدمار، وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم.[١]

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ هنا يذكر سبحانه ما تقدم من اقتراحهم إنزال الملائكة بأننا لو فعلنا ما هو أكثر من ذلك بأن فتحنا لهؤلاء المشركين باباً من أبواب السماء يصعدون فيه[٢]، أو ينظرون إلى الملائكة وهي تصعد وتنزل من ذلك الباب.[٣]

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي لنفوا ذلك وما صدقوا به ولقالوا: سكرت وسدت وغطيت أبصارنا، بل سحرنا، فلا ننظر ببصرنا حقيقة وإنما سحرنا ساحر فيخيَّل إلينا ذلك، وهذا بيان لشدة كفرهم وعنادهم.

وعلاقة مضمون هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يتضمن بيان سنة الله عز وجل التي لا تتخلف في إرسال الرسل والرسالات وإيمان الناس وتكذيبهم بها، ومحور هذه السورة يتحدث عن تلك الطائفة من الناس الذين كذبوا الرسل، ووجه صلة هذا المقطع بمحورها ظاهرة للعيان.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٥٤٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٠، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩.

المقطع الثاني: ١٦-٢٥: إقامة الحجة على الكافرين

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ
﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ
وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

لمّا بين الله سبحانه في المقطع الأول سنته التي لا تتخلف في إرسال الرسل والرسالات والإيمان والتكذيب بها، وكيف كذَّب المشركون رسول الله ﷺ، ولما كانوا بهذا التكذيب يستحقون العقاب، كان لابد من إقامة الحجَّة عليهم ببيان صدق الدعوة وما فيها، ومن أجل هذا جاء المقطع الثاني يعرض بعض آيات الله في الكون ودقَّة نظامه، وأن كل شيء مرجعه إلى الله لعلهم يعودون عن تكذيبهم.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ أي منازل للشمس والقمر ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ بالكواكب الثوابت والسيارة النيِّرة لمن نظر وتأمل ذلك(١) من أجل التفكر والاستدلال بذلك على وجود الله عزّ وجلّ وقدرته.(٢)

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أي حفظنا السماء من دخول كل شيطان ملعون إليها.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ والاستثناء هنا إمّا أن يكون منقطعاً بمعنى حفظناها من دخول الشياطين إليها ومن استراق السمع أي اختلاس المعلومة اليسيرة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٠.

منها فمن حاول منهم ذلك ردّ خائباً بشهاب مبين، وهي نار ممتدة ظاهرة لأهل الأرض- لشدة ضوئها- تحرق الشيطان أو تخبله أو تقتله فلا يتمكن من السَّماع أو إذا سمع لا يتمكن من إبلاغها لغيره[1].

وقد يكون الاستثناء متصلاً والمعنى حفظنا السماء من كل شيء إلا من استراق الشياطين السمع منها فمن فعل أحرقته الشهب أو خبلته. وبالقول الأول قال القرطبي[2] والرازي[3] وبالثاني قال الطبري[4] والبيضاوي[5].

بعد أن ذكر الله سبحانه السماء وما فيها من الأدلة اتبعه بذكر ما في الأرض من أدلة فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ ﴾ أي بسطناها، وهي من نعم الله بأن جعلها مبسوطة ومهيأة لعيش الإنسان ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ أي جعلنا فيها جبالاً راسخة تجعلها ثابتة غير مضطربة أثناء دورانها السريع[6].﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾أي أنبتنا في الأرض ما أنبتناه مقدراً بقدر وحكمة، بحيث لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، فيطغي بعضه على بعض[7].

﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي وصيرنا في الأرض من أسباب الطعام والشراب الذي يعتاش ويتغذى به الإنسان[8]. ﴿ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ وكذلك هيأنا لكم فيها من العبيد والإماء والدواب والأنعام لمصلحتكم، ورزق هؤلاء ليس عليكم وإنما على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٣٤.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٣ / ٢٠.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٤.
(٦) الأساس في التفسير، سعيد الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٦٨.
(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٢، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٦٨.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٥.

الله سبحانه وتعالى، ولكم منهم المنفعة(١).

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ وليس من شيء ينبت من الأرض أو ينزل من السماء (٢)، وغير ذلك(٣)،﴿ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾أي مالكوه أو مالكو مفاتحه أو قادرون على إيجاده.﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ بحكمة وبحسب مصلحة العباد وحاجتهم أو بحدٍّ معلوم عندنا ومقدر، لا يزيد عنه ولا ينقص(٤).

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي أجرينا الرياح ملقَّحةً-أي محملة- بالسحاب(٥)، وليس أنها تحمل اللقاح من شجرة إلى أخرى لأن السياق لم يجر فيه ذكر للنبات(٦)، ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي أنزلنا من السحاب لأن كل ما على الإنسان فهو سماء، مطراً فجعلناه شرباً لكم ولأنعامكم وأرضكم تنتفعون به متى شئتم(٧)، لا أنه أنزل من أجل سقياكم منه مرّة واحدة كما لو كان التعبير به فسقيناكموه التي تدل على ذلك(٨). ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾وما أنتم أيها الناس بحافظين له بل الله هو الذي يحفظه ثم يخرجه من الأرض بقدر الحاجة فلا يستطيع أحد أن يحرز ما يحتاج إليه من الماء في موضع(٩)، أو أن المعنى وما أنتم بخازني ما أنزلت من الماء فتمنعوه من أسقيه لأن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٥.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٣.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٧٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٦٨.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٢٧.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ١٩٨ في الهامش.

(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢.

(٨) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٠.

(٩) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٠، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٣.

ذلك بيدي وإليّ أسقيه من أشاء وأمنعه من أشاء[١]، وكلا المعنيين صحيح.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فيه تأكيد على أن إحياء الموتى وإماتة الأحياء كلها بيد الله ومشيئته[٢]، وقدرته على ذلك[٣]، ﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾يرث الله الأرض ومن عليها بإماتتهم فلا يبقى سواه عزّ وجلّ[٤].

وهذه الآية إخبار منه سبحانه عن علمه تمام علمه بهم أولهم وآخرهم[٥]، فهو سبحانه يعلم المستقدمين منكم ولادة وموتاً والمستأخرين ولادة وموتاً[٦]، وهو بيان لكمال علمه بعد بيان كمال قدرته[٧].

وما قاله بعض المفسرين من إن المستقدمين هم من تقدم في الطاعات والمستأخرين هم المتخلفين عنها، أو من أنها نزلت بشأن صفوف الصلاة لا يتناسب مع السياق كما نرى[٨]، إذ إن السياق يتحدث عن الإحياء والإماتة، والرواية بشأن الأخير ضعيفة بل منكرة كما تقدَّم عن ابن كثير.

إلا أن تكون الآية تنبيهاً على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فيدخل فيه القولان الأخيران فلا نخص حالة دون أخرى[٩].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٩) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٢.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ يجمع المتقدم والمتأخر[١]، أي يوم القيامة بعد أن أماتهم من أجل الحساب[٢]. ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فالحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر من أجل الحساب[٣]، وهو العالم بما استحق كل واحد منهم[٤].

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يعرض بعض آيات الله في السماء والأرض وما بينهما، وتقديره لذلك بحكمته، وأن كل شيء مرجعه إلى الله عز وجل.

وبما أن محور هذه السورة يتحدث عن مصير الكافرين المخوف، وما سيقع لهم من العذاب، وبما أن العذاب لا يكون إلا بعد إقامة الحجة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] جاء هذا المقطع ليقيم الحجة على الكافرين ببيان مظاهر قدرة الله عز وجل في الكون الدّالة على وجوده والداعية إلى الإيمان به سبحانه وتعالى[٥].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٥.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٤.

(٥) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٧٤.

المقطع الثالث: ٢٦-٤٨ :بيان أصل الغواية والهداية

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ
ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ
مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على الكافرين جاء المقطع الثالث ليبين أصل الغواية التي لحقت بالكافرين فأدت إلى تكذيبهم ومصدرها إبليس، على الرغم من قيام الحجة عليهم ووضوح الأدلة أمام ناظريهم، وأصل الهداية وهي العبودية لله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ فيه إخبار عن أصل خلق الإنسان، وأنه مخلوق﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾وهو الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة أي صوتاً متردداً[(١)]. ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾طين متغيِّر نحو السواد[(٢)]، أي أن الصلصال من طين[(٣)]. ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.

مصبوب على هيئة الإنسان كما تفرغ الجواهر في القوالب[١]. وقيل بمعنى أملس[٢]، أو متغير[٣]، ولا مانع من الجمع بينهما فإذا صُبَّ في القوالب تغيرت هيأته وأصبح أملسا.

﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ المقصود به إبليس﴿ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ ﴾أي من قبل خلق الإنسان المبدوء بخلق آدم عليه السلام. ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾من نار لها ريح حارة تقتل[٤] وسميت ريحها بذلك لأنها تنفذ إلى مسام الجلد للطفها[٥].

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ ﴾ المعنى واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة أني سأخلق بشراً، والمقصود آدم عليه السلام، وسمي بذلك أي بشراً لأنه ظاهر الجلد لا يواريه صوف ولا شعر[٦].

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ بإتمام خلقته وإكمال خلقه[٧]، على الصورة الإنسانية والبشرية[٨].﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ أجريت فيه من روحي التي هي ما يحيا بها الإنسان[٩]، وإضافة الروح إلى نفسه تعالى تكريماً للإنسان وتشريفاً[١٠] وهي من باب إضافة الملك إلى المالك، كقوله (ناقة الله) (وبيتي)[١١].﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي خروا ساجدين

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٧.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٨.

(٦) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٨) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٤.

(٩) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٤.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(١١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩.

له تحية وتكريماً لا سجود عباده(١).

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ كلهم تنفيذاً للأمر الإلهي. ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تدل على اجتماعهم في السجود فلم يتأخر أحد(٢).

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ استثناء متصل فإذا كان من جنس الملائكة فالاتصال ظاهر، ومنقطع إذا لم يكن من جنسهم وكان فرداً مغموراً بينهم وكان داخلاً في الخطاب على وجه التغليب(٣)، وعلى أي حال فلا شكَّ أنه كان مأموراً بالسجود(٤).

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي ما منعك أن تكون من الساجدين، وهو تعالى يعلم سبب عدم سجوده لكن ليقيم الحجة عليه وليعلمنا بالسبب.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهذا جواب إبليس، فعلل عدم السجود بأن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون، فاقتصر هنا على الإشارة الإجمالية إلى إدعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاءً بما صرح به حين قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢](٥).

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي عاقبه الله بإخراجه من الجنة أو السماء أو زمرة الملائكة، مطرود من كل خير وكرامه(٦).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ وهذا الطرد والإبعاد سيمتد أمره إلى يوم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٥.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٩١.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦

القيامة[١]، وفيه إشعار بتأخير عقوبته إلى ذلك اليوم[٢].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي أخر موتي إلى يوم القيامة، وذلك لئلا يموت إذ يوم القيامة لا يموت فيه أحد[٣].

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فأخّره الله عز وجل إلى آخر أيام التكليف المنتهية بالنفخة الأولى حين يموت الخلائق، فيموت إبليس معهم ثم يبعث[٤]، فلم يتحقق له ما أراده من النجاة من الموت كما دلَّ عليه ظاهر الآية السابقة.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ يقول إبليس مقسماً بإغواء الله تعالى له[٥]، أي بإضلاله له، فالباء فيها للقسم[٦]، وقد تكون الباء سببيه، والمعنى بسبب ما أغويتني وأضللتني[٧]. ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأُحسننَّ لهم معاصيك ولأحببنها إليهم في الأرض[٨]. ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولأضلنهم أجمعين[٩]، عن طريق الهدى[١٠].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ استثنى من الغواية والإضلال عباد الله الذي

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٨.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٩١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٠، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٨.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٩.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٢، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٢.
(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩.

أخلصهم الله لطاعة، وطهَّرهم من الشوائب لأن كيد إبليس لا يعمل فيهم[١].

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ أي حقٌّ عليّ أن أراعيه لا انحراف عنه وهذا الحق هو ما تضمنه الاستثناء السابق من تخليص من إغواء الشيطان[٢]، أو أن الإخلاص السالف الذكر هو طريق يؤدي إلى ثواب الله وإكرامه[٣].

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي عباد الله الذين قدَّر لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم لإغوائهم[٤].﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الاستثناء إما أن يكون منقطعاً بمعنى أن إبليس ليس له على أحد من الناس سواء من المخلصين أو الغاوين من سلطان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ويكون منتهى تزيينه التحريض والتدليس[٥].

أو أن يكون الاستثناء متصلاً بمعنى إن لإبليس سلطان على الغاوين فقط دون المخلصين واختار القول الأول غير واحد من المفسرين[٦].

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي موعود إبليس ومن اتبعه جميعاً[٧].

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ سبعة مداخل يدخلون منها بحسب

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.

(٢) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.

(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٩٥.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.

أعمالهم[١]، أو أن لها سبع أطباق واحدها فوق الآخر[٢]، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي لكل مدخل من هذه المداخل أو الطبقات قسماً ونصيباً معلوماً من الغاوين[٣].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ سبب نزول الآية هو ما أخرجه الثعلبي عن سلمان الفارسي أنه لَمَّا سمع قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فرّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ، فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فوالذي بعثك بالحق لقد قطَّعت قلبي، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ فبعد أن ذكر سبحانه عقاب الغاوين اتبعه بذكر ثواب المخلصين[٤]، وأنهم في بساتين فيها عيون ماء وخمر وعسل ولبن[٥].

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يقال لهم ذلك يوم القيامة أي ادخلوا الجنان بسلامة من العقاب[٦]، ومن كل خوف وفزع[٧]، ومن الآفات والمكاره والمضرات[٨]، ومن الموت[٩].

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي أزلنا ما في قلوبهم من حقد على بعضهم كان في الدنيا[١٠]. وقيل إن سبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه ابن أبي

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٢.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤/ ٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٥٤٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٠.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٦.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٨.
(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٠.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤.
(١٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٠.

حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قيل: وأي غلّ؟ قال: غلّ الجاهلية، إنَّ بني تيم، وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابُّوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة (وهو مرض يصيب صاحبه بالوجع في خاصرته) فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

وهذه الرواية لها نظائر أخر منها: ما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنها نزلت في أهل بدر، وأخرى أنها نزلت في أبي بكر وعمر، وأخرى أنها نزلت في علي وطلحة والزبير، وغير ذلك[١].

وفي كون هذه الأحداث سبباً لنزول الآية نظر إذ أن الآية تتحدث عن أمر يقع في الجنة وهو نزع الغل، كما أنها سورة مكيَّة نزلت قبل الهجرة أي قبل غزوة بدر، وقبل النزاع الذي حدث بين علي وطلحة والزبير الذي وقع بعد تمام نزول القرآن، ولا يكون السبب متأخراً عن المُسَبَب أي الآية، ولو كانت تتحدث عن نزع الغل في الدنيا لكن أقرب الأقوال في سبب نزولها هو ما قيل إنها نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ولكنَّ ظاهر الآية لا يدل على ذلك.

وهذا ما يدل على أنها تنزيل أو تطبيق من الرواة أو المفسرين على هؤلاء المذكورين لا أنها أنزلت بسببهم[٢].

﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ فيكونون بعد نزع الحقد كالإخوان المتوادين جالسين على سرر ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ ينظر بعضهم إلى وجوه بعض[٣]، وهي أشرف الأحوال[٤]، أي مقابلة الإنسان أخاه بوجهه لا بظهره.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ لا يلحق بهم في الجنة مشقة ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٩، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ١٠٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٢/ ١٧٦.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١.

(٤) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٣.

أذى ولا تعب[١]. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بيان لتمام النعمة بالخلود في الجنة بلا زوال وبقاء بلا فناء[٢].

وعلاقة مضمون هذا المقطع بمحور السورة هي:

إن هذا المقطع جاء ليعرض قصة البشرية، وأصل هداية من اهتدى وغواية من غوى، في تركيبها وأسبابها، ومصير المهتدين والغاوين في النهاية المتمثلة بيوم القيامة.

ولهذا علاقة بمحورها الذي يدور حول مصير قسم من الناس، وهم الكافرون المكذبون فجاء هذا المقطع ليوضِّح محور السورة ويبيِّن سبب كفرهم وتكذيبهم، مكملاً له ببيان مصير المهتدين، وهذا من أساليب القرآن التي توازن بين الترغيب والترهيب.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٣، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.

المقطع الرابع: ٤٩-٨٤ مصارع الغابرين

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ
عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا
تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ
أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾
فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا
لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا
مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه مصير الكافرين والمتقين في المقطع السابق ذكر سبحانه وتعالى في هذا المقطع نماذج دنيوية على ذلك كله، فذكر ترغيباً: رحمته إبراهيم ﷺ ببشارته بالولد، وتخليصه لوطاً ﷺ وآله من العذاب، وليذكر في المقابل ترهيباً ما وقع للكافرين من العذاب كقوم لوط وشعيب وصالح، ليكون ذلك أبلغ في الترغيب والترهيب.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

(٥٠) سبب نزول الآية هو ما أخرجه الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون فقال: «أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم؟!» فنزلت هذه الآية: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وأخرج ابن مردويه من وجه أخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطّلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر، ثم رجع القهقرى، فقال: «إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر جاء جبريل فقال: يا محمد إنَّ الله يقول لك: لم تقنِّط عبادي؟ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ[(١)] ﴿٥٠﴾ ﴾.

ومعناها أخبرهم يا محمد- ﷺ- أن الله كثير المغفرة والعفو والستر لذنوب المؤمنين، وكثير الرحمة لهم[(٢)]، وأخبرهم عن شدَّة عذابي، وروى أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه»[(٣)] أي أملكها. والمعنى لا تعولوا على محض غفراني ورحمتي، وخافوا عقابي[(٤)].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي وأخبرهم يا محمد ﷺ عن ضيوف إبراهيم عليه الصلاة والسلام[(٥)].

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي إذ جاءوا عليه فسلموا عليه سلاماً على وجه التحيَّة، فبيَّن لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام خوفه منهم، وقيل أن خوفه

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ١٠٢.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠.

عليه الصلاة والسلام لأنهم دخلوا عليه بغير إذن[١]، أو لأنه أنكر منهم السلام فلم يكن يُعرف في بلادهم[٢]، أو أنه قال ذلك بعدما قدَّم إليهم العجل المشوي فلم يأكلوا منه[٣]، والقول الأخير هو الأولى بالصواب لوجود الدليل عليه من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠].

﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي لا تخف، ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ بيان وجه نهي الملائكة له عن الخوف؛ فإن المبشِّر لا يُخاف منه[٤]. ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ أي ولد، وهو إسحاق ﵇، ﴿ عَلِيمٍ ﴾ أي يكون عليما إذا بلغ[٥].

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ وهذا تعجب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من البشارة، التي تخبر بأنه سيولد له مع كبر سنه[٦]. ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ أي فبأي شيء تبشرون فان البشارة تكون بما يتصور وقوعه عادة، فإذا كانت بغير ذلك كانت بشارة بغير شيء[٧].

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي بأمر واقع لا محالة ولا رجعة فيه[٨]، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ أي لا تكن من الآيسين من ذلك[٩].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.
(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٦، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ جواب إبراهيم عليه الصلاة والسلام لهم على وجه الاستفهام والاستنكار[١]، وكأنه يقول لهم إنه استبعد الولد لكبر سنه لا لأنه قانط من رحمة الله[٢]، فذلك لا يكون إلا من المخطئين الذين لا يعرفون سعة رحمة الله[٣].

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي فما الشأن الخطير والمهم الذي أرسلتم به سوى البشارة، وذلك لأن البشارة لا تحتاج إلى هذا العدد[٤].

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ يعنون بذلك قوم لوط عليه السلام، ووصفوهم بالإجرام ذماً لهم[٥].

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فلم نرسل إليهم لأنهم ليسوا بمجرمين[٦].

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾لمُخلِّصوهم من العذاب جميعاً.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ استثنيت من آل لوط، ﴿ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾أي قضينا أنها تهلك مع الهالكين[٧].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ أي وصلوا إلى داره.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي تنكركم نفسي وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٧.
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٢.
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٧، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٤.

بشر[١]، أو بمعنى إني لا أعرفكم[٢].

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعد به قومك، وكانوا يشكون فيه[٣].

﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي وجئناك بالصدق واليقين من عذابهم ونحن صادقون فيما نقول[٤].

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ هذا بيان لكيفية نجاتهم من العذاب بأن يسير بأهله ليلا [٥]، ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾أمروا لوطاً عليه السلام بأن يكون خلفهم ليطلع عل أحوالهم، ويحثهم على المسير[٦]، فلا يتخلف أحد منهم فيكون أحفظ لهم[٧]، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾أي لا ينظر أحد منكم وراءه فيرى من الهول ما لا يطيق، فيصيبه ما أصابهم من العذاب[٨]، ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾إلى المكان الذي أمركم الله بالانتقال إليه[٩].

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي وأوحينا إليه الأمر بأن قومه سيتأصلون في وقت الصباح[١٠].

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
(٤) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٤.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
(٩) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(١٠) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٥.

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ المدينة هي سدوم (في غَوْر الأردن، ويقع فوقها اليوم البحر الميت) جاءوا مبشرين بعضهم بعضا فرحين، طامعين أن ينالوا الفجور منهم[١]، لِما علموا من صباحة وحسن وجوههم[٢].

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ ﴾ أي قال لهم لوط عليه السلام إن هؤلاء أضيافي فلا تفضحوني بفضيحة ضيفي فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه[٣]، والفضيحة هي إلزام العار والشنار بالإنسان[٤].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ ذكرهم بتقوى الله بعدم ارتكاب الفاحشة[٥]، ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ وتلحقون بي الخزي بسببهم[٦]، بالإنقماع بالعيب الذي يُستحيى منه[٧].

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي ألم ننهاك أن تجير أحداً من الناس، وتحول بيننا وبينه، فقد كانوا يتعرضون لكل من مرَّ بهم، وكان لوط يمنعهم بقدر استطاعته، أو بمعنى ألم ننهك ونمنعك من ضيافة الناس[٨].

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ إشارة إلى نِساء قومه فهو بمنزلة الوالد لهن[٩]

---

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥١.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٥.
(٩) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦.

أو إلى بناته من صلبه[١]، وهنَّ داخلات في القول الأول، وذلك ليدلهم على الطريق المباح بتزوجهن[٢].

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾يقسم الله سبحانه بحياة النبي ﷺ - تشريفاً له- أي وحياتك يا محمد، ومدة بقائك حياً[٣]،﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾أي في ضلالهم وغيِّهم، ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون، فكيف يسمعون نصحك[٤].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ هذا إخبار عن كيفية هلاك قوم لوط بأنهم أخذتهم الصيحة؛ وهي الصوت العالي الهائل حال شرق الشمس[٥].

﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾أي قلبت مدينتهم بمن فيها رأسا على عقب،﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾أي أنزلنا عليهم من أجل تعذيبهم، ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي من الطين المتحجر[٦].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي إن في سماع تلك القصة، وما حلَّ بقوم لوط عليه السلام من العذاب عبرة وعظة للمتفكرين المتفرسين الذين يمعنون النظر في الأمر حتى يعرفوا حقيقته[٧].

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي وإنَّ المدينة تقع على طريق ثابت يسلكه الناس فيرون آثار

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٧، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣١٧.
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.
(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.

ذلك[١]. والتي تحولت إلى بحيرة مالحة تعرف اليوم باسم البحر الميت.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ ﴾ أي دلالة واضحة لمن كان يؤمن بالله ورُسُله، وخصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بها[٢].

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨ ﴾ يخبر سبحانه وتعالى أن أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب[٣] عليه السلام- والأيكة الشجر الكثيف الملتف المجتمع[٤]- يخبر أنهم كانوا ظالمين، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان[٥].

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩ ﴾ أي فعاقبناهم على أفعالهم بتعذيبهم وإهلاكهم في يوم الظُّلَّة؛ وهو أن الله سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام ثم بعث سحابة - فالتجئوا إليها يطلبون الرَّوْح والبرودة فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم[٦]. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنَّ سدوم- قرية لوط عليه السلام- والأيْكة قرية شعيب عليه السلام، أوالأيكة ومدين- وهما القريتان اللتان بعث إليهما شعيب[٧] عليه السلام، لبطريق واضح ظاهر يؤم ويسلك ويتبع[٨]. (وهي تقع اليوم في الأردن إلى الجنوب من عمَّان العاصمة، وتبعد عنها ١٤٠ كيلو متر، وإلى الجنوب الشرقي من سدوم البحر الميت اليوم، ويبعد عنه ٥٠ كيلو مترا).

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ ﴾ ويخبر سبحانه عن تكذيب أصحاب الحجر

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٥٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٢.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٧.
(٧) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٧.
(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.

وهم ثمود قوم صالح له ﷺ، ومن كذَّب نبياً واحداً فكأنما كذَّب الجميع[١]، والحجر وادٍ بين المدينة والشام، كما مرَّ في مقدمة السورة.

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾وقد كان الله آتاهم الحجج والبراهين والأدلة على صدق الأنبياء والرسل[٢]، ومنها الناقة التي أخرجها الله سبحانه لهم من الصخرة الصماء بدعاء صالح [٣]ﷺ، فأعرضوا عن التفكير فيها والاستدلال بها[٤]، وعن العمل بما تقتضيه[٥]من الإيمان.

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾أي يصنعون لأنفسهم بيوتاً من الجبال الصخرية بنحتها لشدة قوتهم، آمنين من أن تسقط عليهم[٦].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾أي فأهلكوا بالصَّيحة في أوَّل الصباح[٧].

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ فما دفع عنهم العذاب ما كانوا يتخذونه من البيوت الوثيقة المحكمة، والأموال الوافرة والأعداد المتكاثرة[٨]، ولا ما أعطوه من القوة[٩].

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:-

أن هذا المقطع يتضمن الحديث عن مصارع بعض الغابرين الكافرين المكذبين، وهم قوم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٢، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٩.
(٥) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣١٩.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٠.
(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٨) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٨.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠.

لوط عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام(أصحاب الأيكة)، وقوم صالح عليه السلام(أصحاب الحجر)، ويبين رحمة الله سبحانه وتعالى لإبراهيم ولوط عليهما السلام.

ولما كان المحور يدور حول بيان مصير الكافرين، فقد اتصل به هذا المقطع ببيانه لنماذج دنيوية لما حلَّ بالكافرين من العذاب، كما جاء فيه نماذج دنيوية لمن غشيهم الله برحمته كإبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام وآله، مبيناً في ذلك أسلوب القرآن في الموازنة بين الخوف والرجاء.

المقطع الخامس: ٨٥-٩٩

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ
ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾
لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ
إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾
إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يأتي المقطع الخامس ليبين أن ما سبق من إرسال الرسل وإقامة الحجج، وبيان مصير الكافرين والمتقين، وعرض نماذج على ذلك هو ما يقتضيه الحق الذي من أجله خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وليوجه الخطاب لرسوله الكريم بالمضي بأمر الدعوة، وبيان ما ينتظر الناس وأن لا يلتفت إلى ما يقوله المكذبون، فهذا هو ديدنهم كلما جاءهم رسول يبين لهم طريق الحق والنجاة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ

﴿ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي ما خلقنهما عبثاً بل بما تقتضيه الحكمة، وهي تعبُّد أهلها ثم مجازاتهم بما عملوا[١]، ومما تقتضيه الحكمة عدم استمرار الفساد ودوام الشر، ولذلك أهلك أمثال هؤلاء[٢].﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾لكائنة وواقعة لا محالة، ولا شك في ذلك.﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾وهنا يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيَّه الكريم ﷺ ويأمره بالإعراض عنهم إعراضا جميلاً لما فيه من الحلم الإغضاء[٣]، أو الخلو من العتاب[٤].

وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهي: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [النساء: ٩٠]، وقد ذكر القرطبي القول بأنها ليست منسوخة، وأنه أُمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم[٥]، وقال الزمخشري: يجوز أن يراد به المخالفة، فلا يكون منسوخاً[٦]، فالمقصود إظهار الخُلق الحسن بالعفو والصفح، وهي أمور لا تنسخ[٧].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي إنَّ الله سبحانه الذي خلقك وخلقهم وخلق الأشياء كلها عالم بحالك وحالهم، فاترك الأمر له ليحكم بينكم[٨].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾أي ولقد أعطيناك يا محمد ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ سبع آيات هي سورة الفاتحة أو سبع سور وهي الطوال ﴿ ٱلْمَثَانِى ﴾ مأخوذ من التثنية أي الذي يكرر قراءته في الصلاة، أو من الثناء أي التي يُثْنى فيها على الله سبحانه بما

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣٠.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٤.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣٠، لروح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠.
(٦) الكشّاف، الزمخشري ٢/ ٣٩٧.
(٧) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٤، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢٠.
(٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٨، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢١.

هو أهله[١]، ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم، وقد وصف بالعظيم لأنه يتضمن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين بأوجز لفظ وأحسن نظم وأتم معنى[٢]، وعطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أنها جزء من القرآن من باب عطف الكل على البعض أو العام على الخاص[٣]، وفي ذلك دلالة على امتياز هذا البعض أو الخاص على الكل أو العام كأنه غيره[٤]، تنويهاً بشرفه وفضله[٥].

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ يأمر الله سبحانه نبيَّه بأن لا ينظر نظر الطموح والراغب[٦]، إلى ما أنعم به على أصناف الكفار من زينة الدنيا وزخرفها، ولا تغبطهم عليها[٧]، فلقد أنعم عليه بما هو أفضل من ذلك كالنبوة والقرآن والإسلام[٨].﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ إن لم يؤمنوا بك[٩].﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن جانبك لهم[١٠]، وتواضع لهم وأرفق بهم[١١].

وقيل إن الآية منسوخة، وقد ردَّ ابن الجوزي القول بنسخها، لأن المعنى: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وقيل: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا، ولا وجه للنسخ[١٢].

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٨.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣١.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨.
(٤) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٥.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٩.
(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣١.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨.
(١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣.
(١١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٣٨.
(١٢) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ص ١٨٤.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) ﴾ أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للناس بأنه النذير الواضح الإنذار للناس من عذاب أليم يحل بهم[١]، إنْ هم أصروا على التكذيب.

قال ابن الجوزي: زعم بعضهم أن معناها نسخ بآية السيف لأن المعنى عنده اقتصر على الإنذار، وهذا خيال فاسد لأنه ليس في الآية ما يتضمن هذا، ثم هي خبر فلا وجه للنسخ[٢].

﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾ اختلف المفسرون في معنى هاتين الآيتين، والذي أراه أن معناها: قل يا محمد أنذركم عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين الذين اقتسموا طريق مكة ليصدوا عن السَّماع لرسول الله ﷺ والإيمان به، وكانوا ستة عشر رجلا[٣]، فأنزل الله عز وجل بهم عذاباً فماتوا شرَّ ميتة. ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾ صفة للمقتسمين، وهي أنهم جعلوا القرآن أجزاء؛ فقالوا عنه: إنه سحر، وبعضهم قال: إنه أساطير الأولين، وبعضهم قال: إنه مُفترى.

وهذه الآية تجعل القول بأن المقتسمين هم أهل الكتاب لأنهم قسَّموا كتبهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾، أو أنهم قوم صالح لأنهم تقاسموا على قتله عليه السلام لما جاء في قوله تعالى إخباراً عن قوم صالح: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ لا يتناسب مع السياق إذ أن أهل الكتاب فرقوا كتبهم ولم يفرقوا القرآن، كما أن السورة مكية نازلة في أوائل البعثة ولم يبتلى الإسلام يومئذ باليهود والنصارى ذلك الابتلاء[٤]، حتى يجري ذكرهم هنا، وأما قوم صالح عليه السلام فلم يتعرضوا للقران أصلا بعينه.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) ﴾ يقسم الله سبحانه بربِّ محمد ﷺ- تشريفا له- أنه سيسأل جميع أصناف الكفرة سؤال توبيخ وتقريع، ويدخل فيه دخولاً أولياً المقتسمين الذين

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٤.

(٢) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ص ١٨٤.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣١.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٢/ ١٩٣.

جعلوا القرآن عضين[1]، وذلك يوم القيامة.

﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾عن أعمالهم التي كانوا يقومون بها في الدنيا من الكفر والمعاصي وتكذيب الرسل.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ يخاطب الله سبحانه نبيه ﷺ آمرا إيَّاه بإبلاغ ما بعث به[2]، جاهراً ومُفرِّقاً به بين الحق والباطل[3].﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدُّوك عن التبليغ، ولا تهتم باستهزائهم ولا تبالي بقولهم[4].

وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، والراجح أنها غير منسوخة لأن معنى الإعراض هنا ترك المبالاة[5]، وليس ترك قتالهم.

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ سبب نزول الآية ما أخرجه البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال: مرّ النبي ﷺ على أناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل. فغمز جبريل بإصبعه فوقع مثل الظفر(أوالطَّفر) في أجسادهم، فصارت قروحاً حتى انتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله:﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[6].

ومعناها أن الله سبحانه بعد أن أمر نبيَّه بالإعراض عنهم بين له أنه سيكفيه المستهزئين منهم بتوالي أمرهم وبمنعهم عن أذاه، وذلك بقمعهم وإهلاكهم، لكي يستطيع الرسول ﷺ الجهر بالدعوة كما أمر دون خوف من شرهم وأذاهم.

---

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٦.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٦.
(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٧١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٦، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ١٠٨.

والمستهزئون هم نفر من قريش اختلف المفسرون في عددهم وأسمائهم وكيفية استهزائهم، ولا حاجة لنا إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورئاسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه[١].

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ وهذه صفة أخرى لهم غير الاستهزاء بالرسول وهي الشرك بالله، وذكر هذه الصفة لهم تسلية للرسول ﷺ وتهويناً للخطب عليه بإعلامه أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به بل إنهم اجترءوا على الإشراك بالله[٢]. ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة[٣]، وهذا تهديد ووعيد لهم[٤].

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾وإنا لنعلم يا محمد أنه يحصل لك ضيق صدر وانقباض من أقوالهم[٥]، كالشرك والطعن في القرآن والاستهزاء[٦].

﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فافزع إلى الله فيما يحصل لك من ضيق الصدر بالتسبيح والتحميد فإنَّ الله سبحانه يكفيك ويكشف عنك الغم[٧]، وقد يكون المراد بذلك الصلاة فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس، وهو ما يناسب نهاية الآية من قوله: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ [٨] ﴾.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[٩].

---

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٧١.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٢.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٦.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٩٠.
(٧) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٧.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٧.

وقد يكون المعنى إذا سمعت ما يقولون من الشرك فنزِّه الله عما يقولون حامداً له على هدايتك للحق[١]، وكلها معان متقاربة.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي استمر ودُم على ما أنت عليه من العبادة حال حياتك[٢] إلى أن يأتيك الموت الذي أنت موقن به[٣].

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يكشف عن الحق الكامن من خلق السماوات والأرض المنتهي بقيام الساعة، وما يليها من ثواب المطيعين وعقاب العاصين، والمتصل بالحديث عن دعوة سيدنا محمد ﷺ، وهذا يتناسب مع محورها التحدث عن مصير الكافرين بأن ذلك حق وواقع بقيام الساعة فيثاب المطيع ويعاقب الكافر، وليس للرسول ﷺ في ذلك سوى الإنذار والتحذير والتبشير.

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١.
(٢) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٣.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٨٩.

سورة النحل

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

سميت سورة النحل بهذا الاسم لاشتمالها على قول الله تعالى:﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ النحل/ ٦٨، ففيها العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق وتدلُّ على الوحدانية بهذا الصنع العجيب. [(١)] وسميت بسورة النعم؛ لأن الله ذكر فيها من النعم الكثيرة التي امتن بها على العباد [(٢)]. فمن الملاحظ أن كثيراً من سور القرآن جاءت تسميتها بالأمر المهم الوارد فيها؛ ليتفطن إلى الغرض الذى يرمى إليه من إنزال تلك السور، « فمثلاً سميت سورة الجمعة بهذا الاسم؛ لأهمية الاجتماع الأسبوعي، والعنكبوت والنحل، للتفطن إلى صغار الحيوانات الحكيمة الصنع». [(٣)]

ب - فضائل السورة:

بما أن سورة النحل تعد من أكثر السور التي ذكرت نماذج عدة من نعم الله، وهى بحق تسمى سورة النعم، فإنها تصلح مثالاً جامعاً لسائر نعم الله عز وجل الواردة في سائر سور القرآن الكريم. وما اشتملت عليه من أمثال وحقائق، جامعةً لما ذكر في السور الأخرى أو قريبا من ذلك.

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتثبيت المؤمنين إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام، والرد على المشركين، وقد نزلت آياتها منجمة حسب

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٨٣ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ج ٣ / ص٣٧٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ج ٦ / ص ٣٤٩.

الوقائع والأحداث. ويوجد أسباب نزول لبعض آيات في السورة سيعرض لها في حينها إن شاء الله.

د - مكية السورة أو مدنيتها:

جميع آيات السورة مكية ما عدا آخر ثلاث آيات فهي مدنية نزلت بعد غزوة أحد، بين مكة والمدينة «[1]وهي من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ١٢٦ - ١٢٨ جاءت تعقيباً على غزوة أحد، والغزوة وقعت بعد الهجرة، وجبل أحد في المدينة، فعلى هذا تكون هذه الآيات مدنية حسب المعايير التي اعتمدها العلماء عند تقسيمهم للمكي والمدني من حيث اعتبار الزمان والمكان والموضوع. وفي رواية هي: مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة وهي: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ٩٥ - ٩٧، وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات: آخر ثلاث آيات من السورة والآيتان: ٩٦ -٩٧ وقال ابن السائب: هي مكية ماعدا آخر ثلاث آيات وآيتان رقم ٤١ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ورقم ١١٠﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ بينما قال مقاتل: سبعة وأضاف إلى الثلاث الأخيرة: رقم ١٠٩ و ٤١ و١١٢ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ وانفرد جابر بن زيد بقوله: إنّ سورة النحل أنزل من أولها أربعون آية مكية وبقيتها مدنية»[2].

---

(١) الطبرى، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آى القرآن، م٧/ ص٦٦٤.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي ٤ / ٤٢٥ - ٤٢٦.

هـ - عدد آيات السورة:

وأما آيات السورة فعددها هو مائة وثمان وعشرون آية باتفاق العلماء وقد نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف وقبل سورة نوح عليه السلام فهي السورة التاسعة والستون من حيث النزول»[1] إلا أن ابن عاشور قال إنها نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب النزول [2]ولعله استند إلى الرواية التي وردت في الإتقان إذ ذكر السيوطي من رواية جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة نوح وليس قبل السجدة» [3] فاتفقا على نزولها بعد سورة الأنبياء واختلفا في السورة التي بعدها.

والحق أنه من خلال الإستقراء تبين أنها نزلت قبل سورة نوح؛ لأن السيوطي عقب على الرواية التي ذكرها بقوله: « هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن» [4].

و - محور سورة النحل:

يدور المحور الرئيس للسورة حول أصول العقيدة الإسلامية، وهي الوحدانية والألوهية والوحي والبعث. ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة وأقامت الحجج والبراهين الدالة على ذلك.

وورد في السورة العديد من الإشارات الكونية التي صيغت صياغة علمية غاية في الدقة والشمول والكمال مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق ، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشى، ج١ / ص٢٨٠-٢٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١٤ / ص٩٣.
(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطى،، ج١ / ص٨١.
(٤) السيوطى، الإتقان في علوم القرآن، ص٨١ -٨٢.

وكان للتركيز على ذكر النعم في هذه السورة أكبر الأثر في الدفاع عن العقيدة، وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد، لذا تعرضت السورة لمدح إبراهيم عليه السلام بسبب ثباته على التوحيدالخالص(1).

وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر والعفو عمّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله.

ز - المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

النحل مخلوق من مخلوقات الله ومنه يستخرج العسل كما سيرد عند تفسير الآية ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ففي خروج العسل من بطونها مختلف ألوانه.. معجزة دالة على قدرة الله ووحدانيته والسورة تتحدث عن الوحدانية فبينهما ترابط وتناسق .

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة بالحديث عن اليوم الآخر ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ فأمر الله آت لا محالة فلا بد من اتباع دينه والدعوة إليه لذا ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾مع الصبر على تبليغ الدعوة (واصبر وما صبرك إلا بالله) لتكون معية الله مع الموحدين نصراً وتأييداً وهو المحور الرئيس الذي افتتحت به السورة ليتناسب مع ختامها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ووعد الله قريب فالنصر إن شاء الله قريب.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

يظهر الترابط بين آخر آية من سورة الحجر قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩]. وهو صالح لموت الكل ولكشف الغطاء عنهم بعد الموت بإتيان ما

---

(١) ، بتصرف. - الظلال، سيد قطب ١٢/ ٢١٥٧.

يوعدون به، لذا ابتدأ سورة النحل بهذا المعنى الذي ختم به سورة الحجر، فقال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١].

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

المناسبة بينها وبين سورة الحجر التي سبقتها؛ كلاهما تشتركان في موضوع واحد حيث نزلت سورة الحجر في وقت اشتد فيه أذى المشركين على الرسول ﷺ والمسلمين، وبلغ العناد والصدود مبلغاً كبيراً، فنزلت الآيات تسليه وتواسيه، وتحثه على الصبر. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤]. فهي تتحدث عن توحيد الألوهية والبعث والرسل واليوم الآخر وقضايا العقيدة عموماً.

ونلمس الترابط بين السورتين من قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢] وفي هذا إشارة إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عمّا أجرموه في دار الدنيا ومن قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١]، وهو يوم القيامة [1].

٥ - المناسبة بين خاتمة سورة النحل وافتتاحية السورة التي بعدها:

أشار الله في ختام سورة النحل إلى معيته سبحانه وتعالى مع المتقين وحفظه لهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل/ ١٢٨. وافتتح سورة الإسراء بمعجزة الإسراء والمعراج المنحة الإلهية لسيد المرسلين ﷺ والتي دلت على معية الله معه ونصرته له تأكيدا لما ذكرته سورة النحل.

هذا وسنعرض لمناسبات أخرى أثناء تفسير السورة، وهي: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها في نهاية كل مقطع. و بين مقاطع السورة بعضها مع بعض في بداية كل مقطع.

---

(١) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، ص٧٩.

٦ - تقسيم السورة إلى مقاطع كالآتي:

المقطع الأول: إثبات وحدانية الله: (الآيات ١ - ٢)

قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾

سبب نزول الآية:

كان المشركون يستعجلون ما وعدهم الرسول ﷺ به من قيام الساعة، أو حكم الله بهلاكهم، ويقولون إن صح ما يقوله فالأصنام تشفع لنا، وتخلصنا منه، فنزلت الآية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ فسكنوا. [١]

التفسيرالإجمالي للمقطع الأول:

تتحدث هذه الآيات عن قرب قيام الساعة، وينبه إلى عدم الاستعجال، فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ﷺ وأتى الخطاب بصيغة الماضي، إشارة إلى أنه واقع لا محالة، «لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاءك الغوثُ فلا تجزع، وعبر باسمه الأعظم الجامع لجميع معانى الأسماء لأن ذلك أليق بمقام التهديد، وعبر عن الآتى بالماضى إشارة إلى تحققه تحقق ما وقع ومضى وإلى أن كل آت ولابد قريب» [٢]. وفسر بعض المفسرين ﴿ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾: «يعني القيامة وقيل النصر على الكفار وقيل عذاب الكفار في الدنيا ووضع الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوع الأمر ولقربه وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله ﷺ قائما فلما قال ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ سكن». [٣]

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٨٣.

(٢) الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ٢ / ١٥٢ابن جزي.

والآيات تنزّه الله وتقدسه عن شركهم وعبادتهم غيره من الأنداد والأوثان. لذا شاءت إرادة الله أن ينزّل الملائكة بالوحي والنبوة على من يصطفي من خلقه، وسمّى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان، لينذروا أنه لا معبود إلا الله.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

١ - جاء مطلع السورة حاسما جازما: أتى أمر الله. وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه؛ فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته، لا يقدمها استعجال. ولا يؤخرها رجاء. فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر في علم الله لا يستقدم ساعة ولا يتأخر؛ فلا يجوز لمسلم أن يستعجل عذاب الله أو يدعو على نفسه بل يدعو بدعاء الرسول ﷺ: « لا يتمنين أحدكم الموت من مرض أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي »[1]. من أجل مخالفة مشركي مكة الذين كانوا يستعجلون الرسول ﷺ ليأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة استهتاراً. ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته بهم، ولم يحاولوا تدبر آياته في الكون وآياته في القرآن.

٢ - يجب تنزيه الله عن الشريك: عن الولد والوالد، والأوثان والأنداد، والتنزيه يقتضي إثبات الوحدانية والقدرة المطلقة لله.

٣ - التنزيل والنزول للوحي لا يكونان إلا بأمره تعالى، وأن الوحي إلى رسل الله لا يكون إلا بواسطة الملائكة؛ فيجب الإيمان بالوحي واتباع الهدى، وانكاره كفر لأن الله ينزل على الناس من السماء ما يحييهم وينجيهم: فهو لا ينزل من السماء ماء يحيي الأرض والأجسام وحدها بل ينزل ما يحيي به القلوب؛ فالوحي حياة ومبعث حياة وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس، وأول النعم التي يمن الله بها على العباد.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم/ ٦٣٥٧.

٤ - الإنسان بحاجة إلى الإيمان لتستقيم الحياة فلا قيمة لعيش الإنسان بجسده إذا كان قلبه ميتا، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]، والحياة الحقيقية لا تكون إلا بالهداية، فمصدر الهداية الحقيقية من عند الله سبحانه.

مناسبة المقطع الأول لمحور السورة:

افتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحور؛ فذكر الساعة والملائكة والأنبياء من أجل التركيز على الوحدانية وهو محور السورة الأساس، لذا ذكرها بترابط وتناسق « حيث بدأ سبحانه بذكره ثم أتبعه بذكر الملائكة؛ لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة وذلك الوحي هو الكتب التي يوصلونها إلى الأنبياء والرسل فكان الترتيب متناسباً متدرجاً موضحاً رتبة الملائكة والأنبياء الذين أرسلوا للدعوة إلى وحدانية الله. »(١).

المقطع الثاني: أدلة إثبات وحدانية الله تعالى، الآيات: (٣ - ١٦)

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٨٧.

وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ
ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

بعد أن قرر الله سبحانه أن الألوهية له وحده في المقطع الأول أقام عليها الأدلة في المقطع الثاني، يعرضها فوجا فوجا، ومجموعة مجموعة وهي أدلة متعددة ومتنوعة يقف العقل أمامها حائراً، ولا يملك إلا التسليم المطلق لله تعالى كما يأتي بيانه:

التفسير الإجمالي للمقطع االثاني:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾. الحق قوام خلقهما، والحق قوام تدبيرهما، والحق في تصريفهما؛ فما خلق الله شيئاً عبثاً، إنما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر في النهاية إليه. ﴿ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تعالى عن شركهم، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذي خلق السماوات والأرض، وخلق من فيهما وما فيهما فلا أحد وليس شيء شريكا له وهو الخالق الواحد

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشراً تاماً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا أعجب بنفسه ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلى طور حتى صار عاقلا متكلما، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي

أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ يمتن الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام لمنافعهم ومصالحهم، ومن جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب والفرش والبيوت، وغيرها من المنافع الأخرى كالركوب ونقل المتاع، وخص وقت راحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها بالذكر، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ «وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، وخص الله هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب والإياب وفي ذلك مفاخرة بالقطيع يذكر بنعمة الله على الإنسان، وقدّم الرواح على الذهاب؛ لأن الفائدة فيها أتم فمجيئها يدل على الشبع وكثرة الحليب مما يملأ النفوس بهجة وسروراً والعين متعة، فهي عنصر للغذاء وأداة انتاج في الاقتصاد»[1].

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ «والله ذللها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة،، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره»[2].

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى ذكر في كتابه ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره: كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٢]، فكذلك هنا ذكر ما نعرفه

(١) التفسير المنير، الزحيلي ج١٤ / ص٩٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ر، ج٤ / ص٤٢٩.

من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله، ونهى عن الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة مع أن الله قادر أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين ولكنه كرمهم فجعل لهم الاختيار، فهدى الذين اهتدوا كرما منه وفضلا، وأضل الضالين، حكمة منه وعدلا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ والماء ينزل من السماء وفق إرادة الله وهو نعمة من نعم الله للشراب وللمراعي التي تربون فيها السوائم، وذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها، ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾وكل هذا يدفعنا لمعرفة تدبير الله لهذا الكون، ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، موافقة لفطرته، ملبية لحاجاته.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾وسخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك

من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهيأة له مستعدة تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ فيما خلق الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

هو وحده لا شريك له ﴿ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة، كأكل السمك والحوت الذي يصطادونه منه واستخراج الحُلي التي تزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم، ولتركبوا السفن والمراكب ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ تمخر في البحر العجاج الهائل حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ خلق الله الجبال العظام لئلا تميد بهم الأرض وتضطرب، وليتمكنوا من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهارا على وجه الأرض، وأنهارا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلا، أي: طرقا توصل إلى الديار المتنائية ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ السبيل إليها حتى إنك تجد

أرضا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين. فأما الجبال الرواسي فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التي يذكرها القرآن هنا.

وفي مقابل الجبال الرواسي يوجه النظر إلى الأنهار الجواري، والسبل السوالك والأنهار ذات علاقة طبيعية في المشهد بالجبال ففي الجبال في الغالب تكون منابع الأنهار، حيث مساقط الأمطار والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار، وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال، ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات، وفي السماء من النجم الذي يهدي السالكين في البر والبحر سواء.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

١ - التفكير في مخلوقات الله أمر تعبدي؛ فالذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين الظواهر الكونية كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار، والبحر وما يحتويه، وسائر الظواهر وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره. أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الظواهر وهم غافلون، لايتفكرون ولا يعتبرون.

٢ - خلق الله السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، ووحدانيته، وقدرته، ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا يجب تنزيه الخالق عن شرك المشركين به.

٣ - من نعم الله على المسلم أن جعل له من مخلوقاته ما يبعث في نفسه السرور والارتياح كالنظر إلى الأنعام؛ لأن الناظر لها يرى جمال خلق الله، صنع الله الذي أتقن كل شيء. « فالجمال عنصر أصيل وليس الأمر متوقف على تلبية الضرورات من الطعام والشراب والركوب وسائر وجوه الانتفاع. وفي مقابل هذا يجب على المسلم أن يذكر الله ويشكره.

٤ - الركوب نعمة تستوجب الشكر لأنها توفر كثيراً من الجهد والتعب، «وإذا نظرنا إلى الخيل نجد أن لها أثراً كبيراً في الجهاد، ونشر دعوة الإسلام، والدفاع عن الأوطان وعن الحرمات والأعراض، وكانت من وسائل نصر المسلمين على أعدائهم» (١).

وأما من حيث جواز أكل لحومها وعدمه؛ فهي مسألة فقهية مختلف فيها: فمالك وأبو حنيفة قالا: بعدم الجواز لأن الاية ذكرت الركوب والزينة، ولم تذكر الأكل، وللحديث « نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير... الحديث» (٢) وقال الإمام القرطبي: يجوز أكل لحومها، لأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة، وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، للحديث «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل»(٣) وأرى أنه يجوز أكلها، وإن كان الأولى تركها لأن مهمتها أعظم من جواز ذبحها وأكلها.

٥ - - الله أباح الزينة في حدود الحلال وهذا يدل على أن المسلم لا يجوز أن يتمتع بالزينة الحرام لأن الله جعل له بديلا عنها بالزينة الحلال وتجاوز الحلال يدل على السلوك المنحرف الذي ينبغي أن يتنزه عنه المسلم. فمن مظاهر الإنتفاع التزين بهذه الأنعام « فالتزين ضمن الحدود المشروعة أمر مباح»(٤).

٦ - وتعلم الحكمة في الخطاب مع الناس فالآيات لم تذكر وسائل التنقل غير الموجودة لئلا يكذب الناس فالحكمة هي مخاطبة الناس بما يعقلون ولكنها حثتهم على العلم والاستكشاف لقوله تعالى:﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾فحدثهم بما هو موجود في بيئتهم وترك لهم آفاقاً يكتشفونها في المستقبل، وليظل المجال مفتوحا في التصور البشري، لتقبل

(١) الخيل والفروسية، سلامة، محمد أحمد، ص٩٨.

(٢) رواه أبو داوود والنسائي والداراقطني وفي مصنف ابي شيبة ج٧، برقم ٣٩٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠ / ٧٦ - ٧٧.

(٤) التوحيد والشكر في سورة النحل، طهماز ص١٦.

أنماط جديدة، من أدوات النقل والحمل والركوب والزينة، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة وخارج حدود الزمان الذى يظلهم، فوراء الموجود في كل زمان ومكان صور أخرى يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد، أو حين تكتشف، فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها، والإنتفاع بها(1).

وهذا كله من فضل الله على الناس ليشكروه.

٧ - الآيات تعلم إكتساب الموعظة والعبرة؛ فإذا كانت الأنعام التي سخرها الله لخدمة الإنسان تطيعه ولا تتمرد عليه فكذا حري بالإنسان أن لا يتمرد على الله ومن أجل هذا جاء التعبير بلفظ العبرة لنتعلم الطاعة لله ولا نعصيه البتة.

٨ - مما يدل على كمال قدرته سبحانه: نزول المطر لأن الماء سبب الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مذللات لمعرفة الأوقات، والزروع والإهتداء بالنجوم في الظلمات، وتسخير البحر ومافيه من الأسماك والكنوز آيات للعباد، وتسخير الأرض مافيها وما عليها كل ذلك يدل على الخالق وحده لا شريك له.

(١) في ظلال القرآن، سيد، قطب، ٤/ ٢١٦١.

المقطع الثالث: الله الخالق المنعم القادر وعجز المعبودين من دونه (١٧ – ٢١)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد استعراض آيات الخلق، وآيات النعمة، وآيات التدبير في المقطع الثاني يعقب السياق عليه في هذا المقطع بما سيق هذا الاستعراض من أجله. فقد ساقه في صدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتنزيهه عما يشركون، وهي من خصائص الألوهية: الخلق والإبداع، وعلم السر والعلن، والحياة الدائمة، وناسب أن يذكر أسباب الشرك مع أن أدلة التوحيد التي سبقت في المقطع السابق ظاهرة وقوية لا يزيغ عنها إلا هالك.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

الله سبحانه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له لذا قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلبا فيه أولو العلم شبيها بها.

والمراد بمن لا يخلق: كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلبا فيه أولو العلم منهم أو الأصنام وأجروها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق، أو للمبالغة وكأن قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر، والتفات جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد [1] « فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قلت: فيه أوجه:

(١) تفسير البيضاوي، للبيضاوي ٣/ ٣٩١.

أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

والثاني المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والثالث أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده»[1].

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ ﴾ عددا مجردا عن الشكر ﴿ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ فضلا عن كونكم تشكرونها فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون أكثر من أن تحصى، والتعبير جاء بلفظ نعمة ولم يقل النعم بالجمع؛ ليدل على أن النعمة الواحدة يتفرع منها نعم كثيرة فإن كانت النعم بالجمع لا تحصى فكيف بالفروع لذلك عقب الله بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير لأنكم لا تطيقون شكرها.

وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم، ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿ وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟» ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره.

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾ أَمْوَاتٌ أي هي أموات غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ يعني الأصنام أَيَّانَ متى يُبْعَثُون عَبّر عنها كما عبّر عن الآدميين وقيل ومايدري الكفّار عبدة الأوثان متى يبعثون[2] فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين.

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢ / ٥٦٠.

(٢) تفسير الثعالبي، للثعالبي ج٦: / ١٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

١ - لا يجوز لإنسان أن يسوي في حسه وتقديره بين من يخلق ذلك الخلق كله ومن لا يخلق مثقال ذرة ؟ فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها.

٢ - الإنسان قد يتعرض للنسيان فهو بحاجة للتذكير فليجعل القرآن خير مذكر له، وأكثر النعم لا يذكرها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها. وهذا تركيب نفسه ووظائفها لا يشعر بما فيه من النعم إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال لفقد بعض النعم، فما يسعه إلا غفران الله لتقصيره ورحمته لضعفه. لذا يجب شكر الله في السراء والضراء.

المقطع الرابع: ذم المتكبرين ومدح المتقين الآيات (٢٢ - ٣٥)

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ
رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ
بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ
فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا

خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

تم في المقطع الثالث استعراض آيات الخالق في خلقه، وفي نعمته على عباده، وفي علمه بالسر والعلن، بينما الآلهة المدعاة، لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة. ولا تعلم شيئاً، بل هي ميتة لا تنتظر لها حياة. وهي لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء وهذا وذلك قاطع في بطلان عبادتها، وفي بطلان عقيدة الشرك كافة. وفي هذا المقطع تعلل الآيات عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة وتمدح المتقين الذين اهتدت قلوبهم لمعرفة الحق، فشتان بين المؤمن والكافر.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

يقرر الله وحدانيته ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد. فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة، وأما الكافرون الذين أنكرت قلوبهم الإيمان بالله جهلاً وعناداً وتكبراً ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ حقا لا بد أن الله يعلم جهرهم وسرهم، و يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم.

وإذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون ؟ فيكون جوابهم أقبح جواب، فيقولون عنه: إنه ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها.

وسبب نزول الآية: أنه كان النضر بن الحارث قد اتخذ كتاب تواريخ وكان يقول إنما يحدث محمد بأساطير الأولين وحديثي أجمل من حديثه. [1]

وبهذا الافتراء حملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيئا» [2]، «وقال مجاهد يحملون أثقال ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً» [3]

ووصف الله مكرهم برسلهم واحتيالهم بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة، ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ فصار ما بنوه عذابا عذبوا به، « يعني مكر نمروذ بن كنعان وهو الذي حاج إبراهيم في ربه» [4]

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ

---

(١) التفسير الكبير ج٢٠ / ١٠٦-١٠٧.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، رقم / ٢٦٧٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ابن كثير ٢ / ٥٦٧.

(٤) فسير مجاهد، مجاهد ١:/ ٣٤٦.

إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

ثم يسألهم لماذا تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله ؟ فلم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم والشهادة على أنفسهم وساعتئذ يقول المؤمنون، العلماء الربانيون حين يرون خزي الكفار: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ وَٱلسُّوٓءَ ﴾ أي: العذاب ﴿ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ عليهم لا علينا [1] وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه.

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. عندها استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فيقال لهم لا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم، فيدخلوا نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتَّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

لما ذكر الله قول المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا لها ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب،

---

(١) فسير الواحدي، الواحدي ١/ ٦٠٤.

وأمن وسرور.

﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ مهما تمنته أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه،﴿ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم لا بحولهم وقوتهم. «قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك، فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ويبشرك بالجنة. ويقال لهم في الآخرة: ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون بعملكم»[1]

ويعود السياق للمستكبرين، يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا،

(١) تفسير النسفي، النسفي ٢ / ٢٥٥.

وذكِّروا فلم يتذكروا، ﴿ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم، ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ﴾ إذ عذبهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي: نزل ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

ثم يجادل المشركون في ربهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ ﴾ احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئا من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله. فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بها كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

١ - كل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة، وهي وحدانية الله (إلهكم إله واحد)؛ فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة تنقصهم البراهين، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم. فقلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات ،وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول. فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم.

٢ - كشفت الايات عن سبب شرك المشركين وهو تحجر قلوبهم، فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات، وهم مستكبرون، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم. بينما المؤمن يسارع إلى التصديق بربه. وفساد في تفكيرهم لأن الأصنام مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها، فهي لا تضر ولا تنفع فكيف تتخذ آلهة ؟ وبسبب إنكارهم لنعم الله وإحسانه لهم، والأجدر بهم شكرها.

٣ -الخالق يعلم ما خلق في السر والعلانية مما يوجب على المسلم أن يعبده كأنه يراه لأن الله يراه. والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث وهو علم استأثر الله به، فينبغي الإعداد والاستعداد لأنه قريب.

٤ - جمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة. بل جعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء؛ فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء، تعذيب الكفار يوم القيامة ليس ظلماً من الله بل هم ظلموا أنفسهم فأهلكهم الله، وجازى المتقين المحسنين بإحسانهم .

٥ - ظهور الإعجاز في أسلوب القرآن من خلال تشبيه الذنوب بأحمال ذات ثقل، وساءت أحمالا وأثقالاً؛ فهي توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور، وهي تثقل القلوب، كما تثقل

الأحمال العواتق، وهي تتعب وتشقي كما تتعب الأثقال حامليها بل هي أدهى وأنكى ! وهذا كله من أجل التنفير من الذنوب والمعاصي.

٦ - وصف الكفار للقرآن بأنه أساطير الأولين لما يحويه من قصص الأولين بعيد عن الحقيقة لأن القرآن الذي يعالج النفوس والعقول، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل. وورود قصص الأولين في القرآن لأخذ العبرة والموعظة.

٧ - ذكر عاقبة الكفار وجزاء المؤمنين أسلوب من أساليب الترغيب والترهيب يستحسن أن يوظفه الداعية في الدعوة إلى الله؛ فمن أساليب القرآن: ضرب المتقابلات المتعاكسة كذكر صفات الكفار ومقابلتها بصفات المتقين، وكذكر الجنة والنار.... الخ.

المقطع الخامس: عاقبة المكذبين بالرسل وباليوم الآخر وجزاء المؤمنين بهما (٣٦ - ٥٠)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ
هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا
قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ
الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ

يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع الرابع:

تم في المقطع الرابع بيان موقف كل من المشركين والمؤمنين تجاه القرآن الكريم وجزاءهما عن موقفهما وفي هذا المقطع يقارن بين موقفيهما تجاه الرسل، وذكر الرسل مناسب بعد ذكر القرآن، لأن الرسل هم الذين كلفوا بتبليغ الكتب.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

يخبر الله تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ فاتبع سبيل الغي.

فناسب أن يوجههم إلى السير في الأرض لأخذ العبرة ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك. ولكن الجاحد ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، شريطة أن يبدأ الإنسان باسباب الهداية وإلا فلا ناصر لهم ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

ويخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، فيؤكد الله أنه سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ لا يخلفه ولا يغيره، ولكن الناس من جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء.

وهذه الأية لها سبب نزول: قال الربيع بن أنس: عن أبي العالية: « كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله هذه الآية»» [1]. وذكر الجزاء والبعث من المسائل التي بين الله حقائقها.

ويخبر الله عن أحوال الكافرين حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر وتتناثر النجوم، فيتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، لا حول لها ولا قوة. يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته الذين تعرضوا للأذية والمحنة من قومهم، ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابا عاجلا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عيانا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة. ﴿ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿ أَكۡبَرُ ﴾ من أجر الدنيا، وورد أنهم هم الذين: «عذبوا وأوذوا في الله نزلت في بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وجبير وأبي جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وقال قتادة هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين لنبوئنهم في الدنيا حسنة وهو أنه أنزلهم المدينة روي عن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية وقيل معناه لنحسنن إليهم في الدنيا وقيل الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون وقوله لو كانوا

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ١٢٩.

يعلمون ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه»[١] .

ثم ذكر فضل الصبر، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية في سبيل الله وعلى المحن، وزادهم هو التوكل على الله لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

والله يذكر بالصبر تسلية لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وهذا حال الرسل السابقين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء. ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، وذكر﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ الكتب السابقة ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله رجالاً ؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، في كل شيء، بالتفكير في آياته؛ لأن القرآن دستور الحياة ثم ناسب أن يخوف الله من يعرضون عن القرآن فإنهم لا يأمنون مكر الله، وهذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

(١) تفسير البغوي، البغوي ٣/ ٦٩.

« أو يأخذهم على تخوف فيه وجهان: أحدهما: أن معناه على تنقص أي ينتقص أموالهم وأنفسهم شيئا بعد شيء حتى يهلكوا من غير أن يهلكهم جملة واحدة ولهذا أشار بقوله فإن ربكم لرؤوف رحيم لأن الأخذ هكذا أخف من غيره وقد كان عمر بن الخطاب أشكل عليه معنى التخوف في الآية حتى قال له رجل من هذيل التخوف التنقص في لغتنا.

والوجه الثاني: أنه من الخوف أي يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا هم ذلك فيأخذهم بعد أن توقعوا العذاب وخافوه ذلك خلاف قوله وهم لا يشعرون»[1] ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة لعلهم يرجعون.

ولكي يوقنوا بقدرته على إنزال العذاب بهم دعاهم للنظر فيما حولهم إلى جميع مخلوقاته وكيف تتفيأ أظلتها، عن اليمين والشمائل، كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده. لذا مدح الله عباده الخاضعبن له بالسجود ومنهم الملائكة الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم، لذا مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، ومدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره يمتثلون لأمره، طوعاً واختياراً.

وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان:

سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره.

وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ١٥٤.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

١ - إن بعثة الرسل في كل الأمم عامة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى الله وحده، وترك عبادة الطواغيت، والناس أمام دعوة الله فريقان: فريق اهتدى وفريق اختار الضلال.

٢ - شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم بعد ذلك العقل ليهتدوا به، فهو مناط التكليف، ووضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر، صواب تقديره أو خطئه.

٣ - لم يجعل الله الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان، ففريق استجاب، وفريق سلك طريق الضلال .وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله، وكلاهما لم يقسره الله قسرا على هدى أو ضلال، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه، بعد أن هداه الله النجدين؛ فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه، بل وظيفته البلاغ.

٤ - إثبات بشرية الرسل؛ فهم بشر ليسوا ملائكة، ليسهل الاقتداء بهم لأن صفات الملائكة غير صفات الرسل، وكانوا رجالاً لتحمل مشاق الدعوة.

٥ - فندت الآيات شبهات المشركين حول البعث وبيان حكمته ؛ فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور، فوعد الله لا يتخلف بحال من الأحوال فهو يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء.

٦ - مدح الله أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله.

٧ - الله سبحانه يكرم المؤمنين المصدقين، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال، في الله، وفي سبيل الله. جزاء المهاجرين الذين ضحوا بأموالهم وديارهم جزاء عظيم، ومنزلة حسنة، لذا على المسلم أن يبحث عن المكان الذي يتمكن فيه من عبادة ربه وأما إن كان وجوده في ديار الكفر فيه منفعة لصالح دعوة الإسلام فله البقاء بل قد يجب لتبليغ دعوة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٨ - من سنن الله سبحانه أنه يمهل ولا يهمل، فيجب الخوف من مكر الله الذي لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو نهار، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة،، وإذا لم يرجعوا إليه فإنه يأخذ العاصين أخذ عزيز مقتدر، فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

٩ - يجب مشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسبيحه ؛ فالأرض كلها ساجدة لله، ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة، والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار، وامتلأت بالخوف من الله، والطاعة لأمره بلا جدال . فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر وكل ما حوله يحمد ويسبح، وأعجب العجب في البشر أن يد الله تعمل من حولهم وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يغني عنهم مكرهم وتدبيرهم، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم.

المقطع السادس: أدلة أخرى على توحيد الألوهية الآيات: (٥١ - ٦٤)

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا
هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا
بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ
نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا
يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ
مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن
دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ
الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾

المناسبة بين المقطع السادس والمقطع الخامس:

تم التأكيد في المقاطع السابقة على وحدانية الله واثباتها وفي هذا المقطع يعرض مزيداً من الأدلة لتأكيدها وليستيقن الذين كفروا ويزداد المؤمنون إيماناً.

التفسير الاجمالي للمقطع السادس:

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه « وقد قيل إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية والإفراد في إله قد دل على الوحدة فما وجه

وصف إلهين باثنين ووصف إله واحد فقيل في الجواب إن في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله وقيل إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها وإنما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال فإياي فارهبون أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون لا غيري»[1].

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوا له. لأنكم إذا عبدتم غيره فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعاً، فحين يمسكم الضر تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة؛ فيجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر -نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

وقالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله وأبقوا لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم إذا بشر بالأنثى أصابه الحزن والأسف لدرجة أنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣:/ ١٦٨.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشّر بها هل يتركها من غير قتل على إهانة وذل أم يدفنها وهي حية ؟ وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين، ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه؛ فنسبوا له أقل القسمين نفعاً في المهمات الجسام، وهو الإناث اللاتي يأنف العرب بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

وردت الآيات بأن هذا المثل الناقص والعيب التام لهم، والله سبحانه له كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه. لأنه هو الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه. « ولما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه بخلقه وصبره عليهم مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، تبعا لإهلاك بني آدم ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً»(١) فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه. وأخبر تعالى عن فساد معتقد المشركين ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم -وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ في حين أنهم يزعمون أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، والله يقرر أن لهم النار قادمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدا.

بيَّن تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب بل أرسل من قبله رسلا يدعون إلى التوحيد، فكذبوهم قومهم، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير ٢ / ٥٧٤.

فأطاعوه واتبعوه وتولوه، وتولوا عن ولاية الرحمن، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

١ - لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين، إنما هو إله واحد لا ثاني له. ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير. ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض.

٢ - الآيات تبرز قيمة العقيدة الإسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية؛ فهذه الآيات تصحح نظرة المجتمع للمرأة، فالأنثى نفس إنسانية، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم، ووأدها قتل للنفس البشرية، وإهدار لشطر الحياة، ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة.

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها من جديد؛ فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الناس، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام . وهذه وثنية جاهلية في إحدى صورها، نشأت من الانحراف الذي أصاب الناس في عقيدتهم، ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية - في مسألة المرأة . في حين أن الإسلام أمر بالإحسان للبنات ففي الحديث «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار»[(١)]، وقال ﷺ «واستوصوا بالنساء خيراً»[(٢)].

٣ - اقتضت حكمة الله أن يؤخر العذاب إلى أجل. لعلهم يهتدون، والله قادر أن يأخذ الناس

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٤٣.

(٢) رواه البخاري رقم/ ٥١٨٥، ومسلم برقم/ ١٤٦٨.

بظلمهم الذي يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميراً.

٤ - جعل الله موقفا خاصا للرسول ﷺ شاهداً على قومه، شفيعاً للمؤمنين، فالله أنزل معه الكتاب تبيانا لكل شيء فلا حجة بعده لمحتج، ولا عذر معه لمعتذر؛ فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتي اليوم المرهوب، فلا عذر ولا عتاب للذين كفروا .

٥ - وظيفة القرآن والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم. إذ الأصل هو التوحيد، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور، ومن تشبيه وتمثيل. كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه. وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه . وإنزال الكتاب - هو خير ما أنزل الله للناس لأن فيه حياة الروح - فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام والروح أهم.

المقطع السابع: نعم دالة على الوحدانية تتمة النعم التي ذكرت في المقطع الأول (الايات من ٦٦ - ٨٩)

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ
﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ
يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

(٧٣) فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ
عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ
كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٧٧) وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٧٨) أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ
ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٧٩) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ
سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا
وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ
يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٨٢) يَعۡرِفُونَ
نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٣) وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ
لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا
هُمۡ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا
نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٨٦) وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٨٧) ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا
كَانُواْ يُفۡسِدُونَ (٨٨) وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (٨٩) ﴾

المناسبة بين المقطع السابع والسادس

لما ذكر سبحانه افتراء أهل الجاهلية على الله بنسبة الأنثى إليه، ووأدها ناسب أن يذكر في هذا المقطع أدلة تفرده سبحانه وتنزيهه عن الشريك والولد.

التفسير الإجمالي للمقطع السابع:

تعود الآيات للتذكير بنعمه لستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وأنه على كل شيء قدير وسخر الأنعام لمنافعكم ولتستدلوا بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصاً أي: سهلا في الشرب لا يشجى به شاربه ولا يغص وقال بعضهم سائغا أي: لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم »[1] فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنا خالصا سائغا للشاربين ؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات، واستبدلها بالطيبات من أنواع الأشربة اللذيذة المباحة. « قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما حل من ثمرها»[2] وهذا كله دليل كمال قدرة الله حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك. وتقييد الرزق بالحسن وعدم وصف السكر به دليل إباحة الرزق وتحريم المسكرات.

وفي خلق النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه «وقيل لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء أو لكلها بضميمته إلى غيره أقول وبدونها بنيته

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ج٤ / ٤٦٣ .

(٢) تفسير الصنعاني ج ٢ / ٣٥٧ .

وقد أمر به ﷺ من استطلق عليه بطنه، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون في صنعه تعالى»[١].

ثم أخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره إلى أرذل العمر أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، فالله سبحانه قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤].

« والله فضل الخلق في الرزق بعضهم على بعض، فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق لا يردون ما رزقهم الله غلى عبيدهم، ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى ؟ وهذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها، لما أشركوا به أحداً»[٢].

ويخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها من جنسكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت وإليك نسعى ونحفد .

«واختلف في الأحفاد، فقيل: هم الأختان على البنات وقيل أولاد الأولاد وقيل أولاد المرأة من الزوج الأوّل وقيل المعنى وجعل لكم حفدة أي خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم، كأنه قيل وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون

(١) تفسير الجلالين ج١:ص٣٥٥.

(٢) تفسير السعدي ج١:ص٤٤٤.

وهم حافدون أي جامعون بين الأمرين»[١]، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها. فهل بعد هذا يؤمنون بغير الله ؟

وأخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً، ولا رزقا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟

«وجمع الضمير فيه وتوحيده في لا يملك لأن ما مفرد في معنى الآلهة ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئا من ذلك فكيف بالجماد»[٢].

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

١ - تؤكد الآيات على وحدة الألوهية الواحدة التي لا تتعدد، يبدأ فيقرر وحدة الإله، ووحدة المالك، ووحدة المنعم في الآيات الثلاث الأولى متواليات، تأكيداً لما سبق في الآيات المتقدمة وهي دلائل الألوهية لا سواها: فالله أنزل من السماء ماء فاحيا به الأرض بعد موتها فالذي يحول الموت إلى حياة والذي يسقي الناس لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم. ببديع صنع الله العجيب، فالله الذي خلق هذه الشياء كلها هو الذي يستحق أن يكون إلها.

٢ - وصف الرزق بالحسن وعدم وصف الخمر به، فيه توطئة لما جاء بعد من تحريمها، وإنما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب، وليس فيه نص بحلها، بل فيه توطئة لتحريمها .

٣ - العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب . شرحاً فنياً. وهو ثابت

---

(١) الكشاف ج٢:ص٥٧٩.

(٢) تفسير البيضاوي ج٣:ص٤١١.

بمجرد نص القرآن عليه. وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استنادا إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله؛ كما أثر عن رسول الله. وروى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال له رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً» فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال:يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا. قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال:يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً. فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرئ[1]. ويروعنا في هذا الأثر يقين الرسول ﷺ أمام ما بدا واقعاً عملياً من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه. وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية. وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله. مهما بدا في ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها. فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، الذي ينثني في النهاية ليصدقها.

٤ - القرأن يدعو الإنسان إلى التفكير، حينما يرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة. هذه الصورة قد ترد النفس إلى شيء من التأمل في أطوار الحياة، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته؛ لأن العلم الشامل الأزلي الدائم لله، وأن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله. وأن علم الإنسان إلى حين، وقدرته إلى أجل، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان.

٥ - الله فضل بعض الخلق على بعضهم في الرزق وجعلهم متفاوتين فيه، وفق الأسباب الخاضعة لسنة الله وقد يكون الإنسان مفكراً عالماً، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة، لأن له مواهب في ميادين أخرى. وقد يبدو غبياً جاهلاً ساذجاً، ولكن له موهبة في الحصول على المال وتنميته، ومن الرزق الأزواج والأبناء والأحفاد، وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً. ويجعلون له الأشباه والأمثال وأنتم لا تساوون أنفسكم مع أصنامكم التي تعبدونها من دون الله

(١) البخاري

فلماذا تساوون بين الله وعباده ؟

٦ - كشفت الآيات عن ظلم العباد لأنفسهم لأن الله خلقهم، ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجاً لا يعلم شيئاً. والله فضل بعضهم على بعض في الرزق وجعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة. وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض ولا يقدرون على شيء، ويجعلون لله الأشباه والأمثال.

المقطع الثامن: ضرب الأمثلة لاثبات الوحدانية لله: الآيات (٧٤ - ٧٧)

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع السابع

لما ذكر سبحانه أن المشركين ساووا بينه وبين الأصنام في الرزق والملك ناسب في هذا المقطع أن يضرب لهم الأمثال الدالة على وحدانيته والتي تبين عجز الآلهة المزعومة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

« التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيئاً والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون فإن ضرب المثل

مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤون»[١] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه.

أحدهما عبد مملوك أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا.

والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً.

هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير ممكن استواؤهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟

ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوَّى المشركون آلهتهم بالله؟ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني: ضرب مثلين أحدهما أخرس وهو الصنم لا يقدر على شيء من مال ولا منفعة وهو كل على مولاه أي ثقل على وليه وقرابته يعني الصنم عيال ووبال على عابده أينما يوجهه لا يأت بخير أي حيث يبعثه لا يجيء بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل يعني بالتوحيد وهو على صراط مستقيم، يدل الخلق إلى التوحيد ويقال هذا المثل للكافر مع النبي ﷺ يعني الكافر الذي لا يتكلم بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالتوحيد ويدعو الناس إليه وهو على صراط مستقيم يدعو الناس إليه وهو على دين الإسلام وقال السدي المثلان ضربهما الله لنفسه وللآلهة»[٢].

---

(١) تفسير أبي السعود ج٥/ ص ١٢٨.

(٢) السمرقندي، تفسير السمرقندي ٢:/ ٢٨٣.

يخبر الله غن قرب الساعة في قرب كونهاإلا كلمح البصر إذ قال له كن فيكون أو هو أقرب بل هو أقرب إن الله على كل شيء قدير

وسبب نزول قوله تعالى نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء (١) فهو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

١ - ضرب الأمثال في هذه الآيات أكد بشكل قاطع الوحدانية لله وأبرز عجز المدعوين من دونه، ذات إيقاعات عميقة، تؤثر في النفس، وينبغي أن يكون المثل المضروب مأخوذاً من واقع الناس لتقريب الفهم.

٢ - قضية البعث إحدى قضايا العقيدة التي لقيت جدلا شديدا في كل عصر، ومع كل رسول. وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه. وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا وقت الساعة؛ ليعملوا ويعبدوا في كل وقت.

المقطع التاسع: نعم دالة على وحدانية الله تتمة للنعم المذكوة في المقطعين الأول والسابع الآيات (٧٨ - ٨٣)

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ

(١) تفسيرالبغوي، البغوي ٣/ ٧٩.

أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع الثامن:

لما ذكر الله في الآيات السابقة الأمثال للدلالة على وحدانيته وذكر أن مرد علم الساعة إليه، ذكر لهم في هذا المقطع نعماً يرونها ولكنهم لا يدركون سرها وكنهها فكيف بما هو غيبي ؟ فالأولى لهم التوحيد والطاعة وعدم إنكار نعم الله بدلاً من الافتراء على الذات الإلهية ووصفه بالنقص والتعدد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وذكر هذه النعم في هذا المقطع يكون تأكيداً وتتمة لما ذكر في المقطعين الأول والسابع.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء «وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

الثاني لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء.

الثالث لا تعلمون شيئا من منافعكم وتم الكلام ثم ابتدأ فقال وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة أي تعلمون بها وتدركون لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته وقد قيل في ضمن قوله وجعل لكم السمع إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق»[1]،

(١) تفسير القرطبي ج١٠: ص١٥١.

وذلك لأجل أن يشكروا الله.

ودعاهم للتفكر في الطير: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ألم ينظروا إليها مسخرات مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة له، [(١)]

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ يُذكّر تعالى عباده نعمه ومنها: السكن في الدور والقصور ونحوها تكنُّكم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، تصنعونها إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

وتكون خفيفة الحمل في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، «وجعل لكم من الأنعام من الصوف والشعر والوبر مما هو شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك مما تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله». [(٢)]

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ جعل لكم مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ظلالاً، وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ جعل لكم ألبسة وثيابا تقيكن الحر ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم

---

(١) تفسير أبي السعود ج٥: ص١٣٢.

(٢) السعدي / ٤٤٥.

وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾. وقيل: لم يذكر البرد لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً وقيل ما يقي من الحرّ يقي من البرد فدل ذكر الحرّ على البرد .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ إذا لم يستجيبوا للرسول ﷺ فليس عليه من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك، فحسابهم على الله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾فإنهم يرون الإحسان ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها وهذه الآية لها سبب نزول: «فروي أن أعرابياً أتى النبي صلى الله فسأله، فقرأ عليه: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ قال الأعرابي نعم، ثم قرأ عليه: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ ثم قرأ عليه كل ذلك، وهو يقول: نعم حتى بلغ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات لفساد مشاعرهم، وسوء قصودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسله» (١).

الهدايات المستنبطة من المقطع التاسع:

١ - من نعم الله السمع والأبصار والأفئدة والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية، وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعقل، وهذه النعم تستوجب الشكر، وأول الشكر الإيمان بالله الواحد.

٢ - ضرب الله لهم من أمور الدنيا التي يرونها ولكنهم لا يعلمون من أسرارها شيئاً فكيف بما لا

(١) الكشاف، الزمخشري ٢ / ٥٨٤.

يرونه ؟ فهذه أطوار الجنين قد يراها الناس، ولكنهم لا يعلمون كيف تتم ؟ لأن سرها هو سر الحياة المكنون، وطيران الطيور الدال على كمال قدرة الله لا يمسكهن إلا هو، والعلم الذي يدعيه الإنسان ويتطاول به ويريد أن يختبر به أمر الساعة وأمر الغيب، علم حادث مكسوب.

٣ - المؤمن يزداد إيماناً وتوحيداً، بتأمله في مخلوقات الله؛ فمشهد الطير مسخرات في جو السماء يزيده تعظيماً وتسبيحاً لله وحده الذي لا يمسكهن في جو السماء إلا هو.

٤ - والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريبا عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر. والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

٥ - تستعرض الآيات النعم التي تلبي الضرورات فيذكر المتاع إلى جانب الأثاث، والمتاع يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح: وللنفس في الظلال راحة وسكن، ولها في الأكنان طمأنينة، ولها في السرابيل التي تقي الحر من الأردية والأغطية راحة وفي السرابيل التي تقي البأس من الدروع وغيرها وقاية . . وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها؛ فهذه نعم معروفة لا ينبغي لعاقل إنكارها.

المقطع العاشر: من مشاهد اليوم الآخر، الآيات (٨٤ - ٨٩):

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا
شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ
إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع التاسع:

لما ذكر في المقطع التاسع إنكار الكفار لنعم الله، وتكذيب الرسول ﷺ ناسب أن يبين في هذا المقطع حالهم يوم القيامة والجزاء الذي ينتظرهم، لأن الرسول ﷺ قد أدّى وظيفته فبلغهم ما أنزل إليه من الهدى والرحمة.

التفسير الإجمالي للمقطع العاشر:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الكافرون في يوم القيامة لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء، لذا جعل الرسل عليهم شهوداً ثم الذين إذا شهدوا، ثم لا يؤذن لهم فيعتذرون وذلك حين تطبق عليهم جهنم لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً.

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ عند معاينة العذاب لا يجدون من يخففه عنهم أو ينقذهم منه، ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يوم القيامة عندما يرى المشركون شركاءهم ويعلمون بطلان كون الشركاء آلهة فإنهم يلقون باللوم على شركائهم فيقولون هؤلاء الذين كنا نعبدهم أو نطيعهم «ولعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم» فيرد شركاؤهم إليهم القول: إنكم لكاذبون، فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص من غائلة مضمونه وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم (بل كانوا يعبدون الجن) ويطيعونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام[1].

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ واستسلموا له وفي

(١) تفسير أبي السعود، ٥ / ١٣٤.

المشار إليهم قولان: «أحدهما: أنهم المشركون. قاله الأكثرون، ثم في معنى استسلامهم قولان: أنهم استسلموا له بالإقرار بتوحيده وربوبيته أو: أنهم استسلموا لعذابه.

والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلهم قال الكلبي والمعنى أنهم استسلموا لله منقادين لحكمه.

وفي قوله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: بطل قولهم أنها تشفع لهم.

والثاني: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان أن لله شريكا وولدا ردت عليهم شركاؤهم قولهم فقالت لهم: { إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } حيث جعلتمونا شركاء الله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم» [1].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾وذم الله الذين كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في الأرض.

وبعث الله في كل أمة رسولاً ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا﴾ على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمته. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة [2] ما يحتاجونه في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم فهو هدى ورحمة وبشرى.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٨١.

(٢) تفسير الجلالين ١ / ٣٥٨.

الهدايات المستنبطة من المقطع العاشر:

١ - الرسول شاهد على الجميع ولا شفاعة للكفار وهم واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب. ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل.

٢ - يتلاوم الكفار فيما بينهم يوم القيامة، ويكذب بعضهم بعضاً، ولا يجدي اللوم والمعاتبة شيئاً، لأن المتبوعين يتخلون عمن اتبعهم يوم القيامة، فلا يملكون لهم نصراً.

٣ - القرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، تبياناً لكل شيء وموعظة، وهدى من الضلالة.

المقطع الحادي عشر: توجيهات حول مكارم الاخلاق (٩٠ - ٩٧)

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ
وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا
تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ
(٩١) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ
أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ
تَخۡتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ
وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ
ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٩٤) وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا
عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ
ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩٦) مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩٧) ﴾

المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع العاشر:

عرضت الآيات السابقة مزيداً من الأدلة على إثبات وحدانية الله، وختم المقطع العاشر بالحديث عن نزول القرآن الكريم وفي هذا المقطع بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى. كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي... وغيرها، من مباديء السلوك الأساسية التي جاء بها هذا الكتاب المنزل من الواحد الأحد.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

أمر الله بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده.

«والإحسان هو فعل كل مندوب إليه فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ومنها ما هو فرض إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان»(١)، فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى: -وإن كان داخلا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

ونهى عن الفحشاء ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣ / ٤١٥.

والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.، « فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمرنا به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء. ولعل ما ذكره لكم في كتابه بأمركم بها فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها[1].

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه من العهود التي بينكم وبين الله تعالى والعهود التي بينكم وبين الناس فلا تنكثوا العهود بعد تغليظها»[2].

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها، ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فأوف له بما قلته وأكدته.

---

(١) تفسير المنان، السعدي ١/ ٤٤٧.

(٢) فسير السمرقندي ج٢:ص٢٨٨.

والله يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ فلا تكونوا في نقضكم للعهود كالمرأة التي تغزل غزلاً قوياً فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته، فجعلته أنقاضاً من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وتلقب بجعر وكان بها وسوسة وكانت اتخذت مغزلا بقدر ذراع، وصنارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن، فهذا كان فعلها، ومعناه أنها لم تكف عن العمل ولا كفت عن النقض بعد العمل، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به، أنكاثا يعني أنقاضاً، واحدتها نكث، وهو ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبلاً ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أي دخلا وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل في شيء للفساد، وقيل الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ أي لأن تكون أمة هي أربى، أي أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوما أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء، وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العز بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة فنهاهم الله عن ذلك فالله يختبركم بأمره إياكم بالوفاء بالعهد وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا»[١] فيجازي كلا بما عمل، ويخزي الغادر. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. قال رسول الله ﷺ: « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان»[٢].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٣١٨٨، وصحيح مسلم، ١٧٣٥ ومسند الإمام أحمد، ٥٤٠٤.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ فالله قادر على جمع الناس على الهدى، وجعلهم أمة واحدة ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلا، ويمنعها من لا يستحقها عدلا. ويحاسبكم على أعمالكم من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ لا يجوز لكم أن تتخذوا عهودكم ومواثيقكم تبعا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، وتذوقوا العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم حيث ضللتم وأضللتم غيركم فيضاعف لكم العذاب.

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها « ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسول الله ﷺ ثمناً قليلاً عرضاً من الدنيا يسيراً، كان قوم ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ فثبتهم الله إنما عند الله من ثواب الآخرة هو خير لكم إن كنتم تعلمون من أعراض الدنيا ينفد وما عند الله من خزائن رحمته باق لا ينفد فالذين صبروا على أذى المشركين ومشاق الاسلام أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم النوعين وهو مؤمن شرط الإيمان لأن أعمال

الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان فلنحيينه حياة طيبة أي في الدنيا ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله»[1] .

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

١ - أمر الله بمكارم الأخلاق وأمر بالالتزام بها ومنها: العدل والإحسان والوفاء والنهي عن الفحشاء والمنكر ونقض العهد ؛ لأن الكتاب الكريم جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعاً على الفضيلة والأخلاق، ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب.

وإلى جوار العدل (الإحسان) يلطف من حدة العمل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، والإحسان أوسع مدلولا، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً.

٢ - قد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبدا، لأنها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح نكث العهد، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات كأن تكون دولة أقوى من دولة فتغدر بسبب قوتها وضعف الأخرى.

(١) تفسير النسفي، ٢ / ٢٩٦ - ٢٧٠.

٣ - الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهما بالله، وفي جزائهما عند الله. ومع أن لفظ (من) حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل: من ذكر أو أنثى لزيادة تقرير هذه الحقيقة. وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى، وضيق المجتمع بها، واستياء من يبشر بمولدها، وتواريه من القوم حزناً وغماً وخجلاً وعاراً.

٤ - العمل الصالح لا بد له من قاعدة أصيلة يرتكز عليها، قاعدة الإيمان بالله، فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته؛ فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير. لا عارضاً مزعزعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.

٥ - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ... ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان.

المقطع الثاني عشر: التأدب بآداب القرآن ورد الإفتراءات الآيات (٩٨ - ١١١)

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ
هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ
إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ
بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا
مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثتني عشر والمقطع الحادي عشر:

لما ذكر الله جملة من توجيهات القرآن الكريم في المقطع الحادي عشر ناسب في هذا المقطع ذكر الآداب التي ينبغي للمسلم أن يتأدب بها حين يقرأ القرآن وأن يكون مدافعاً عن كل فرية تحاك ضده.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني عشر:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾وجهت الآيات المسلم إذا أراد قراءة كتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة إلى الاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها. فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، متدبرا لمعناها، معتمدا بقلبه على الله في صرفه عنه.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ويقتصر سلطانه على أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم، ومنهم من يشرك به.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يخبر الله تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو

أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و كانوا يقولون إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق بل أكثرهم لا يعلمون الحكمة في ذلك»[١] « ومعنى مفتر أي: تأتي بشيء وتنقضه فتأتي بغيره قال وهذا التبديل ناسخ ولا نبدل آية مكان آية إلا بنسخ»[٢].

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ذكر تعالى حكمته في إنزال روح القدس وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾لتثبيت قلوب المؤمنين عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكما من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

والقرآن يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم لحق من الباطل والهدى من الضلال ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً. وأيضا فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه؛ ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغا عظيما، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين.

---

(١) تفسير النسفي، ٢ / ٢٧١.

(٢) تفسير الطبري ١٤ / ١٧٦.

وهذه الآية لها سبب نزول: حيث نزلت حين قال المشركون: «إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم وما هو إلا مفترى يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله هذا الكتاب الذي جاء به ﴿ بَشَرٌ ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال:كان لنا عبدان صقليان، يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما، واستمع الرسول صلى الله علبه وسلم لقراءتهما فقال المشركون: إنما يتعلم منهما فنزلت الآيات»[٢]. وذكر في اسميهما أكثر من رواية وأشهرها أنه حداد الرومي.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ قضى الله على الذين لا يؤمنون بآياته الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها، حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم. أن لهم في الآخرة عذاب أليم.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يخبر الله عن مصدر افتراه الكذب من المعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ٢٣١.

(٢) التفسير المنير٢٣٢ وهبة الزحيلي ١٣ / ٢٣١.

فمحال أن يكذب على الله ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ ﴾ وهذا تصوير لشناعة حال المرتد بعد الإيمان، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها، وهذه الآية نزلت في عمار بن ياسر في قول أهل التفسير لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه قال بن عباس أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم وربطت سمية بين بعيرين ووجأ قُبُلَها بِحَرْبة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: « كيف تجد قلبك قال: مطمئن بالإيمان فقال رسول الله ﷺ: فإن عادوا فعد»[1].

﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فعمى بعد ما أبصر ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء، عذاب عظيم، في غاية الشدة مع أنه دائم أبدا، حيث ارتدوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدا في خير الآخرة.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي ١٠ / ١٨٠.

وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها،

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ فهم حقاً الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم». (١)

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ومرة أخرى في نفس السورة يذكر الله فضل المهاجرين في سبيله ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ كلٌّ يقول نفسي نفسي لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ من خير وشر﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني عشر:

١ - تسوق الآيات جملة من آداب تلاوة القرآن والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان. فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم فإن

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي / ٤٥٠.

صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب.

٢ - كلام المشركين عن القرآن الكريم افترآءات غير صحيحة ردّها القرآن، لأن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب. لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبا قط، فما يمكن أن يكون افتراء. وقد نزله روح القدس بالحق لا يتلبس به الباطل.

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة لأن هؤلاء الذين لا يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما. بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى ولهم عذاب أليم» بعد ذلك الضلال المقيم. ثم يثني بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون.

٣ - الرخصة في النطق بكلمة الكفر مع إطمئنان القلب بالإيمان مباح، والصبر على الإيمان أولى كما فعل بعض الصحابة مثل خبيب بن زيد وغيره.

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه. لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة. فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية. ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون.. ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة.

٤ - ولقد كان مجموعة من ضعاف العرب، الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره، ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكنتهم الفرصة، وحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله صابرين على تكاليف الدعوة. فالله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم.

٥ - يوم القيامة تشغل كل نفس بأمرها، لا تتلفت إلى سواها عن نفسه وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب ولا غناء في انشغال ولا جدال. إنما هو الجزاء، كل نفس وما كسبت.

المقطع الثالث عشر: ضرب أمثلة تتمة للأمثلة المذكورة في المقطع الثامن الآيات (١١٢ - ١١٩)

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع الثاني عشر:

سبق أن اشتمل المقطع الثامن مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة، وفي المقطع الثاني عشر عذر الله الذين ينطقون كلمة الكفر بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان وفي هذا المقطع الثالث عشر مثل آخر لتصوير حال مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم وتصوير لافتراء اليهود الكذب على الله لينتظروا المصير الذي يتهددهم من خلال المثل الذي ضرب لهم، لعله يكون عبرة لهم ولغيرهم.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع عشر:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾وهذه القرية هي مكة المشرفة»[1] التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنعرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب كفرهم وعدم شكرهم فظلموا أنفسهم.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرا عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدٍّ. واشكروا نعمة الله بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرفها في طاعة الله. إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ والله حرم عليكم الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ ﴿ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك. ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾ المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه

(١) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٧٤.

وشحمه وجميع أجزائه.﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك.

﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ومن اضطرإلى شيء من المحرمات -بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك- فلا جناح عليه إذا لم يكن باغيا أو عاديا، أي: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره هذا حلال وهذا حرام يعني البحيرة والسائبة لتفتروا على الله الكذب فتقولون إن الله أمرنا بهذا إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون لا ينجون من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾ وإن تمتعوا في الدنيا فإنه متاع قليل ومصيرهم إلى النار، في العذاب الأليم (١)، فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه، وصيانة عن كل مستقذر.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم، جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم، عقوبة لهم خاصة.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾ ﴾ ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم، وهذا حض منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً وهو يجهل عاقبة ما جناه، فإذا تاب

---

(١) تفسير البغوي، ٣/ ٨٨.

وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث عشر:

١ - توعد الله من جحدوا نعمه بالعقاب الأليم كما ضرب أمثلة في هذا المقطع حيث بدّل أمنهم خوفاً ورزقهم جوعاً، ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس. لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون.

٢ - النهي عن التحريم بغير أمر الله، فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله. فهما تشريع. والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر. وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر والمفترون على الله لا يفلحون. ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين، وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله إشارة إلى بعض ما حرمه على اليهود عقوبة لهم.

٣ - أمر الله بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكره على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله.

٤ - الآيات تفتح باب التوبة، فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ; ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله إلى يوم الدين.

المقطع الرابع عشر: أهمية الدعوة وأساليبها: الآيات (١٢٠ - ١٢٨)

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ
ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾
ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾
ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى
ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

مناسبة المقطع الرابع عشر للمقطع الثالث عشر:

في المقطع الثالث عشر ذكر الله حال المكذبين لرسلهم وافتراءهم على الله خاصة اليهود، فناسب في هذا المقطع أن يفند ادّعاء نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام، و يوجه الأمر إلى الرسول ﷺ أن يكون متبعاً لملة إبراهيم عليه السلام على الحنيفية السمحاء، ويدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتخلق يآداب الدعوة

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع عشر:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ يخبر تعالى عمّا فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فكان إماما جامعا لخصال الخير هاديا مهتديا. مديما لطاعة ربه مخلصا له الدين، مقبلا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه. ولم يشرك في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ شاكراً ما آتاه الله في الدنيا

حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة، اجتباه ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين. وهداه إلى الصراط المستقيم في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره. ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ فاعطاه رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقا مرضية وجعله من الذين لهم المنازل العالية والقرب من الله تعالى.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

وذكرت الآيات سبب تحريم يوم السبت على اليهود ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه « قال كانوا يطلبون يوم الجمعة فأخطؤوه وأخذوا يوم السبت فجعله عليهم ليحكم بين هؤلاء المختلفين بينهم في استحلال السبت وتحريمه عند مصيرهم إليه يوم القيامة فيقضي بينهم في ذلك وفي غيره مما كانوا فيه يختلفون في الدنيا بالحق ويفصل بالعدل بمجازاة المصيب فيه جزاءه والمخطئ فيه منهم ما هو أهله»[(١)].

ويوجه الله رسوله للتخلق بآداب الدعوة، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ فليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده. وفي المراد بالحكمة ثلاثة أقوال أحدها أنها القرآن رواه أبو صالح عن ابن عباس والثاني الفقه

(١) تفسير الطبري ج١٤ / ١٩٤.

قاله الضحاك عن ابن عباس والثالث النبوة ذكره الزجاج وفي الموعظة الحسنة قولان أحدهما مواعظ القرآن قاله أبو صالح عن ابن عباس والثاني الأدب الجميل الذي يعرفونه قاله الضحاك عن ابن عباس» (١).

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. لأن الله يعلم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها. ويُعلم عباده المهتدين أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى - مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان - إن عاقبتم من أساء إليكم بالقول والفعل فعاقبوا من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. وإن صفحتم عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم، وصبرتم لهو خير من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٥٠٦.

أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس هو الذي يعينك عليه ويثبتك. وإذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. ولا تكن في شدة وحرج من مكرهم، فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع عشر:

١ - بيان العلاقة بين التوحيد الذي جاء به إبراهيم ﷺ من قبل، وبين رسالة محمد ﷺ المرتبطة بنفس دعوة التوحيد لله تعالى، فقد جاء هذا الكتاب لتبيان العقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود . فدعوة الرسول ﷺ هي دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه، فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر

والتأنيب في غير موجب، ولا يفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر ! لأن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة. فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق، ودفعاً لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي، وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه.

٢ - مع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً. وأكثر فائدة للدعوة. فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر. فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها، فالقاعدة الأولى هي الأولى. ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال، وضبط للعواطف، وكبت

للفطرة، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله). . فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره.

٣ - يوصي القرآن الرسول ﷺ وهي وصية لكل داعية من بعده، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال. وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئا لنفسه، وقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويُبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون.

٤ - النصر لدعوة التوحيد قادم بإذن الله؛ لأن معية الله مع المؤمنين المتقين المحسنين والغلبة لهذا الدين ولو كره الكافرون كما وعد الله . ومن أصدق من الله؟

سورة الإسراء

أولاً: بين يدي سورة الإسـراء:

أسماء سورة الإسراء:

سُميت هذه السورة بسورة الإسراء لورود قصة إسراء النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فيها، حيث قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١]، وتُسمى سورة بني إسرائيل لورود قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم فيها ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤].

(وتُسمى سورة «سبحان» الذي هو عَلَم للتنزيه فمن أظهر ما يكون فيه؛ لأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص كان جديراً بأن لا نعبد إلا إياه، وأنه مستغن عن كل ما سواه لكونه متصفاً بما ذكر)(١)

فضل سورة الإسراء:

وَرد في فضل سورة الإسراء ما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي». (٢)
و العتاق: جمع عتيق، وهو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وهن من تلادي: أي مما حفظ قديماً، و التلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطريق.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي، ج٤، ص٣٢٧، ط١ دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٥م.

(٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب التفسير: سورة الأنبياء، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ج٤، ص١٧٤١، ط٣، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م. وفتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، ج٨، ص٣٨٨، دار المعرفة، بيروت.

ومراد ابن مسعود ﷺ: إنهن من أول ما تعلم من القرآن الكريم، وأن لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطر، ويُفطر حتى نقول: ما يُريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر». (1)

مناسبة سورة الإسراء لما قبلها:

أ - ذكر سبحانه وتعالى في آخر سورة النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [النحل:١٢٣-١٢٤] وبيَّن في سورة الإسراء شريعة أهل السبت وشأنهم وجميع ما شرعه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل».

ب - أمر الله نبيه محمداً ﷺ في آخر سورة النحل بالصبر على أذى المشركين: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[النحل:١٢٧] وسلَّاه في الإسراء وأبان شرفه، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

ج- ذكر في سورة النحل نعم الله الكثيرة حتى سُميت سورة النحل بسورة «النعم» وفصلت في سورة الإسراء أنواع النعم الخاصة والعامة كما في قوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ

---

(1) سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، باب فضائل القرآن، ج٥، ص١٨١، دار إحياء التراث العربي، بيروت. و المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ج٢، ص ٤٣٤ ط١ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الآيات ٩-١٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الآية: ٧٠].

د. في سورة النحل بيَّن الله عز وجل أن القرآن الكريم من عنده لا من عند البشر كما زعم المشركون: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الآيتان: ١٠١-١٠٢].

وهنا ذكر في سورة الإسراء الهدف الأساسي من نزول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[الآية:٩].

في سورة النحل ذكر الله تعالى قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية من الآية الخامسة: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ ﴾ إلى الآية الثامنة: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾، وفي سورة الإسراء ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من بر الوالدين، وإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم من غير تقتير ولا إسراف وتحريم القتل و الزنا، وأكل مال اليتيم...[1]

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٢٧-٣٢٨.

زمان نزول سورة الإسراء:

سورة الإسراء مكية النزول، وهناك روايات تقول بأن فيها آيات مدنيات، من تلك الآيات: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل ابن مرزوق، عن عطية عن أبي سعيد قال: لما نزلت ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، ثم قال – أي البزار – لا نعلم من حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبا يحيى التميمي وحميد بن حماد بن الخوار، وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، و «فدك» إنما فُتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتم هذا مع هذا ؟! فهو إذاً حديث مُنكر و الأشبه أنه من وضع الرافضة، والله أعلم»[1].

ومن الآيات التي قيل إنها مدنية[2] قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الآية: ٦٠] وقوله: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الآية: ٧٦] وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الآية: ٨٠]

والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو قول ابن جرير الطبري وابن كثير والبيضاوي، وأنه لا يثبت أي شيء من ذلك، وأن جميع هذه الآيات مكيات.[3]

---

(١) أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. أحمد عباس البدوي، ص٩٨ وما بعدها، ط١، دار عمار، عمان، ١٩٩٩م

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٤، ص٣٢٨، دار الشعب – القاهرة

(٣) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج٣، ص٣، ط١، دار الفكر، بيروت، و تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج٣، ص٥، مؤسسة علوم القرآن، عمان.

ومن الآيات التي وَرَد استثناؤها من هذه السورة المكية آية الروح، وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الآية:٨٥] فقد ورَدَ في فتح الباري بشرح صحيح البخاري في كتاب التفسير، باب: ويسألونك عن الروح قال: حدثنا عُمَرُ بن حَفْصِ بن غِيَاثٍ حدثنا أبي حدثنا الْأَعْمَشُ قال: حدثني إِبْرَاهِيمُ عن عَلْقَمَةَ عن عبد الله - أي ابن مسعود - ﷺ قال: بَيْنَا أنا مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهو مُتَّكِئٌ على عَسِيبٍ إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عن الرُّوحِ فقال: ما رابكم إليه ؟ - ما حاجتكم إليه - وقال بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ فَسَأَلُوهُ عن الرُّوحِ فَأَمْسَكَ النبي ﷺ فلم يَرُدَّ عليهم شيئا فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إليه فَقُمْتُ مَقَامِي فلما نَزَلَ الْوَحْيُ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

قال ابن حجر: ولابن مردويه من وجه آخر عن الأعمش في حرث للأنصار وهذا يدل على أن نزول الآية وقع بالمدينة، لكن روى الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن بن عباس قال:قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾.

قال ابن حجر: ورجاله رجال مسلم وهو عند بن إسحاق من وجه آخر عن بن عباس نحوه ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك. (١)

قلت: ووجدت ابن كثير أيضاً يجمع بين الحديثين، أي: سبب النزول الذي وَرَدَ بشأن سؤال مشركي مكة لليهود، ثم سؤالهم بعد توجيه اليهود لهم للرسول ﷺ، والسبب الذي ذُكر بشأن سؤال اليهود للرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة بتعدد النزول، وعلى ذلك فالآية مكية مكرر نزولها في المدينة، وعليه فإني أرجح أنها كلها مكية النزول، والله أعلم.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدرسابق، ج٨، ص ٤٠١.

عدد آيات سورة الإسراء:

إن عدد آيات سورة الإسراء هو مائة وأحد عشرة آية، وقيل: مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين، و مائة وعشرة عند الباقين. وسبب ذلك الاختلاف الذي وقع في المصاحف التي نُسخت على عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وأرسل بها إلى الأمصار. (١)

محور سـورة الإسراء:

إن محور سورة الإسراء الأساسي هو ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية مثلها مثل سائر السور المكية

من إثبات التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء، وإبراز شخصية الرسول ﷺ، وتأييده بالمعجزات الكافية الدالة على صدقه فيما يُبلغ عن ربه سبحانه وتعالى، وتفنيد شبهات المشركين، وتحلل ذلك من المستطردات و الندر والعظات ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، ومن الأمثال ما فيه علم وحكم.

كما تناولت الحديث عن القرآن الكريم، وإثبات أنه وحي من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، ويمكن أن يلحظ ذلك المتدبر لكلام الله تعالى من افتتاحية السورة، حيث إنها تضمنت الأخبار عن حدث عظيم ومُعجزة لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وهي معجزة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل، وهي دليل على قدرة الله تعالى وتكريم إلهي لهذا الرسول الكريم.

كما أخبرت عن قصة بني إسرائيل في حالتي الإصلاح والفساد، وذكرت الأدلة الكونية الدالة على قدرة الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الآية:١٢]

و وضّحت أصول الحياة الاجتماعية: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الآية: ٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج١٥، ص٧. دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م.

إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الآية:٣٩].

ونعت على المشركين نسبتهم البنات لله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الآية: ٤٠] إلى غير ذلك مما سنبينه أثناء دراستنا للسورة.

المناسبة بين اسم سورة الإسراء ومحورها:

تقدم أن محور هذه السورة الأساسي هو ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية، من إثبات التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء،... إلخ.

وبينت آيات السورة الكريمة هذه القضايا في وحدة موضوعية متماسكة من افتتاحيتها لقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ وهو التنزيه الكامل لله سبحانه وتعالى عن كل نقص، وختمت هذه السورة بالتحميد وهو صفة المدح والثناء كما في قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ فناسب ختام السورة لافتتاحيتها، وبهذا تتجلى الوحدة الموضوعية لهذه السورة فسبحان القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢] فاسم السورة مناسب لمحورها، كما أن افتتاحيتها مناسبة لخاتمتها كما هو مبين فيما تقدم. والله أعلم.

المناسبة بين افتتاحية سورة الإسراء وخاتمة سورة النحل:

في آخر سورة النحل وَرَدَ قول الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧] أي: اصبر على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية، وما عانيته من إعراضهم. ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ ﴾ أي وما صبرك ملابساً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بذكر الله تعالى، وفيه من تسلية النبي ﷺ وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه.

و بعد هذا الذي تقدم في آخر سورة النحل، سلاه سبحانه هنا وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربه بالإسراء، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له وتعظيماً للمسجد الأقصى.

المناسبة بين مضمون سورة الإسراء ومضمون سابقتها وهي سورة النحل:

بما أن سورة الإسراء سورة مكية إجماعاً، فإن مضمونها هو مضمون سورة النحل التي عالجت موضوع العقيدة. فهي تتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته، وهذه القدرة جعلها الله في نوع من مخلوقاته يصعب الاقتراب منه لشدة بطشه في الدفاع عن مملكته، ومع ذلك جعل فيه سراً يطلبه البشر جميعاً ويحرصون على الحصول عليه، وهذه القدرة جعلت في النحل ميزة عن سائر أنواع المخلوقات وذلك إظهاراً لقدرة الخالق سبحانه وتعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٩] لذا سميت السورة باسم هذا المخلوق: النحل.

وفيها ذَكَر الله أيضاً كثيراً من النعم التي أوجدها لنفع الناس، ولذا عقَّب بعد ذكر هذه المخلوقات بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل:١٧]

وجاءت سورة الإسراء تحمل المضامين نفسها من قضايا العقيدة، من تنزيه الله تعالى والنظر في نعمه الكثيرة التي لا تحصى، وتكريمه لبني آدم. وخُتمت بأمر العقيدة: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الآية:١١٠]

فمضمون سورة النحل ومضمون سورة الإسراء متشابهان. فقط هناك تنوع في العرض والأساليب لتأكيد أهمية أمر العقيدة.

ثانياً: التفسير الإجمالي لسورة الإسـراء

المقطع الأول

قصة الإسراء

قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

سبب النزول:

عَنْ أَنَس بْن مَالك، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاق - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِه - قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ - قَالَ - ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ»[١].

يعني فطرت الإسلام وهناك روايات أخرى[٢].

فبعد أن عاد النبي ﷺ من الإسراء والمعراج، خرج إلى المسجد الحرام، وأخبر قريشاً فتعجبوا منه لاستحالة ذلك في نظرهم، وسعى رجال إلى أبي بكر الصديق - ﷺ - وذكروا ما قاله لهم رسول الله ﷺ فقال: « إن كان قال لقد صدق. قالوا تُصدقه على ذلك ؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسُميَ الصديق. وطلبت طائفة سافروا إلى بيت المقدس من النبي ﷺ أن ينعت المسجد لهم فجُلِّيَ له، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا. فأخبرهم بعدد جمالها و أحوالها، وقال: تَقْدُم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، حديث رقم ١٦٢.

(٢) انظر صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، حديث رقم ٣٨٨٧، وانظر كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١، ص١٠٨.

أورق، فخرجوا ينشدون العير إلى الثنية، فصادقوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين»[(١)] .

الإسراء كان بالروح والجسد معاً:

إنه ﷺ أُسْرِيَ به بروحه وجسده، ولا عبرة لقول من قال: إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد. ويقول ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن الرسول ﷺ إن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أُسْرِيَ بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته، ولا حجة على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكان يدفعون به لمن صدق فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل ؟!كما أن الله تعالى أخبر في كتابه أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قال الله تعالى إلى غيره)[(٢)] .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾: فيه براعة الاستهلال؛ لأنه لما كان الإسراء أمراً خارقاً للعادة، بدأ السورة بما يُشير إلى كمال القدرة، وتنزهه تعالى عن صفات النقص التي وصفه بها المشركون، حيث نسبوا له من خلْقِه شريكاً، وإن له صاحبة وولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن كثير رحمه الله: (يمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه. ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي: في

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ج١٥، ص١١، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

(٢) جامع البيان، مصدر سابق، ج٩، ص٨.

جنح الليل. - ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾: من المسجد الحرام، وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام[(١)] ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أي: في الزروع والثمار.

﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أي: محمداً ﴿ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم و كافرهم مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة). [(٢)]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- ثبوت حادثة الإسراء بنص القرآن الكريم (أسرى بعبده).
- كان الإسراء بالروح والجسد يقظة لا في الرؤيا والمنام، بدليل (عبده) وهو مجموع الروح والجسد.
- الدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أسرى بعبده محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى بيت المقدس بالشام، ثم عاد إلى مكة المكرمة وأخبر ﷺ قومه بما جرى له وما أكرمه الله به في صبيحة تلك الليلة.
- الرسول ﷺ رآى عجائب قدرته الإلهية المتمثلة في مشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم السلام له ووقوفهم على مقاماتهم ذلك ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤

(٢) المصدر سابق، ج٣، ص٥.

المقطـــع الثـاني

إكرام سيدنا موسى ﷺ

قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا أثبت بهذه المعجزة الخالدة الإسراء ما أخبر به عن نفسه المقدسة، من عظم القدرة على كل ما يريد، أخبر أنه آتى موسى ﷺ التوراة وجعله هدى لبني إسرائيل، فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: أكرمنا محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، وأكرمنا موسى ﷺ بالكتاب وهو التوراة.

وقيل معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، وآتى موسى الكتاب.

﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾: معيناً ونصيراً، وقرأ أبو عمرو: «ألا يتخذوا» بالياء وهو العهد الذي في هذا الكتاب، ألا تتخذوا مع الله شريكاً يا ذرية من حملناهم مع نوح، و أنجيناهم من الغرق، وهديناهم إلى الحق والخير، أنتم أولى الناس بالتوحيد الخالص، والسير على سنن الأنبياء والمرسلين، وها هو ذا نوح أبوكم ﷺ كان عبداً شكوراً، فاقتفوا أثره واتبعوا سنته.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إكرام سيدنا موسى ﷺ بالكتاب وهو التوراة.
- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي عن اتخاذ الشريك، فالله وحده هو الولي والنصير والمعين.
- الدعوة إلى السير على سنن الأنبياء والمرسلين.

المقطع الثالث

من أحوال بني إسرائيل في التاريخ

قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزاله التوراة عليهم لتكون لهم هدى يهتدون بها، ذكر أنهم ما اتبعوا هداها، بل أفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء وسفك الدماء، فسلط الله عليهم البابليين بقيادة «بختنصر»، فقتلوهم، ونهبوا أموالهم وخربوا بيت المقدس، وسبوا أولادهم ونساءهم، وذلك أول الفسادين وعقابه، ثم لمّا تابوا أعاد الله لهم الدولة والغلبة، وأمدهم بالأموال و البنين، ثم عادوا إلى فسادهم وعصيانهم فقتلوا زكريا و يحيى عليهما الصلاة السلام، فسلط الله عليهم الفُرس فقتلوهم وسلبوهم، وخربوا بيت المقدس مرة أخرى، ثم وعدهم الله تعالى بالنصر إن أطاعوه، وبالعقاب بنار جهنم إن عصوا وأفسدوا...)(١) .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾: أي: وأوحينا إلى بني إسرائيل في التوراة وحياً مقضياً مقطوعاً بحصوله بأنهم يفسدون في الأرض مرتين: في أرض الشام و بيت المقدس، أو في كل أرض تحلون فيها، ولتفسدن نفوسكم بمخالفة ما شرعه لكم ربكم في التوراة.

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾: أما أولاهما: فبمخالفة التوراة وقتل الأنبياء.

---

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٢١.

والثانية: بقتل زكريا عليه السلام، وقيل: بقتل يحيى، والعزم على قتل عيسى ابن مريم، وقيل غير ذلك. [١]

﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾: أي ولتتجاوزن الحدود، حدود الشرع والعقل بالبغي، والظلم والتعالي على الناس.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

أي: فإذا جاء وعد المرة الأولى وحان وقت العقاب الموعود به في الدنيا، بعثنا عليكم عباداً من عبيدنا أولي بأس وقوة، وأصحاب عدة في الحروب وعدد، وهؤلاء القوم قد جاسوا خلال الديار، وفتشوا البلاد ونقبوا عليكم؛ ليستأصلوكم بالقتل والتشريد، وهذا مصير كل أمة تُفسد في الأرض بالبغي والظلم حتى تفسد نفوس أبناءها وتطغى، لا بد من أن يُرسل الله عليها من يذلها ويذيقها سوء العذاب جزاء فسادها، ولو كان المؤدب لها من الكفار والمشركين، كما أخبر الله تعالى بذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾. وتلك سنة الله تعالى في خلقه لا تتخلف ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إخبار الله تعالى لبني إسرائيل أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي، لماعلم منهم في علمه السابق الأزلي أنهم أرباب انحراف وفساد وتخريب، والمراد بالمعاد مخالفة أحكام التوراة.
- تكرر العقاب مرتين والإنقاذ من العذاب مرتين أيضاً فيه رحمة من الله تعالى بعباده لأن العقاب قد يكون سبيلاً للإصلاح والتربية والتهذيب.
- عقاب اليهود أولاً على يد بختنصر وثانياً على يد ملك بابل أو قيصر الروم.

(١) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، م٢، ص٣٥٤، ط١٠، دار الجيل، بيروت١٩٩٣م.

المقطـع الرابــع

إعادة الدولة والغلبة لهم

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: لما بيّن سبحانه أنه قادر على إذلال العزيز بعد ضخامة عزه، بين أنه مقتدر على إدالته على من قهره بعد طول ذله إذا نقاه من درنه وهذبه من ذنوبه، فقال تعالى مشيراً بأداة التراخي إلى عظمة هذه الإدالة بخرقها للعوائد.[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾: جعلنا لكم الدولة والغلبة عليهم حينما تبتم ورجعتم إلى دينكم بعد ذلك البلاء الشديد، ومنحناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة، وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من أعداءكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم.

ثم عاد اليهود إلى فسادهم والإفساد في الأرض، فقال سبحانه وتعالى لهم:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ ﴾: أي فعليها كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أي المرة الآخرة، فإذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ بالإهانة والقهر ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: وليدخلوا بيت المقدس كما دخلوه أول مرة ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾: وليدمروا ويخربوا

---

(١) نظم الدرر، مصدر سابق، ج٤، ص٣٣٧.

كلما ظهروا عليه.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾: يعني: عسى ربكم أن يصرفهم عنكم، ومتى عدتم إلى الفساد في الأرض، عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما يدخر لكم في الآخرة من العذاب و النكال. (١)

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾: أي جعلنا جهنم مُسْتَقَرًّا و مَحْصَرًا وَسِجْنًا لَا مَحِيد لَهُمْ عَنْهُ. (٢)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- قوة شوكة بني إسرائيل - بعد الهزيمة الأولى - وذلك بإمدادهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عدداً وعدة من عدوهم.
- جزاء الإحسان والإستقامة على طاعة الله تعالى عائدة على الإنسان نفسه في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك الإساءة والمخالفة لأوامر الله تعالى عائدة للإنسان نفسه.
- رحمة الله تعالى غالبة على غضبه؛ لأنه سبحانه وتعالى لما ذكر إحسانه أعاده مرتين ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ولمّا ذكر إساءتهم ذكرها مرة واحدة ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٤-٣٥.

(٢) المصدر السابق.

المقطع الخامس

أهداف القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما أكرم به نبيَّه محمداً ﷺ وهو الإسراء، وما أكرم به موسى عليه الصلاة والسلام وهو التوراة، وأنها هدىً لبني إسرائيل، وما سلَّط عليهم بذنوبهم من عذاب الدنيا والآخرة مما يستدعي ردع العقلاء عن معاصي الله، ذكر ما شرَّف به رسوله ﷺ من القرآن الكريم الناسخ للتوراة وكل كتاب إلهي، وأبان أهدافه من الهداية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم، والتبشير بالثواب العظيم لمن أطاعه و إنذار الكافرين بالعذاب الأليم.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾: قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويُسدد من اهتدى به « للتي هي أقوم » يقول للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه، وهو الإسلام، فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين إلى قصد السبل التي ضل عنها سائر أهل الكتاب المكذبين). [(١)]

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾: ويُبشر مع هدايته من اهتدى للسبيل الأقصد، الذين يُؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به وينتهون عما نهاهم عنه. - ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾: أي ثواباً عظيماً من الله، وذلك الأجر العظيم هو الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين.

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج٩، ص٦١-٦٢.

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾: ويلي ذلك جزاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يصدقون بالمعاد إلى الله، ولا يتحاشون من ركوب معاصي الله، وهذا الجزاء عذاب جهنم و بئس المصير.

ثم ذكر حال الإنسان عند الغضب والعجلة، يدعو على نفسه بالشر، فقال تعالى:

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾: أي يدعو الإنسان بالشر على نفسه مثلما يدعو لها بالخير عند وقوع كرب عليه، ولو استجيب له في ذلك لهلك، وذلك لما جُبل عليه من العجلة وعدم التمهل. قال ابن عباس ﷺ: (هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده عند الضجر، يقول اللهم أهلكه، اللهم دمره،... ونحو ذلك). (١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ سبب اهتداء للبشرية كافة، يُرشِد لأقوم الطرق، وأوضح المناهج، وأعدل المسالك وهي توحيد الله، والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
- كما إن للقرآن الكريم هدف آخر، وهو التبشير والإنذار، تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة، وإنذار الكافرين بالعقاب في نار جهنم، وهما - أي الوعد والوعيد - منهج من مناهج القرآن الكريم الدعوية التربوية.
- وبيَّن النص هذا طبع الإنسان وفيه القلق والعجلة، وبما دعا على نفسه وولده وماله لكن الله رحيم ودود. ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس:١١].

---

(١) انظر التفسير الواضح الميسر، محمد الصابوني، ص٦٨٩، ط ١، دار الأفق، بيروت، ٢٠٠١م.

المقطع السادس

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن
لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ
(١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ
لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا
مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: لمَّا أثبت سبحانه وتعالى ما لصفته من العلو ولصفة الإنسان من السفول، تلاه بما لأفعاله تعالى من الإتقان ذاكراً ما هو الأقوم من دلائل التوحيد والنبوة في العالمين العلوي والسفلي، ثم ما لأفعال الإنسان من العوَج جرياً مع طبعه، أو من الإحسان بتوفيق اللطيف المنان، فقال تعالى مبيناً ما منحهم به من نعم الدنيا بعدما أنعم به عليهم من نعم الدين. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾:

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على قدرتنا وبديع صنعنا، وفي تعاقبهما و اختلافهما

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٤، ص٣٦٦.

تحقيق لمصالح الإنسان، ففي الليل سكنه وهدوءه وراحته، وفي النهار حركته وشغله وتقلبه في أنحاء الدنيا للمعيشة والكسب والصناعة والعمل...

كما أن في الليل ظلام دامس ومحو للضوء يتلاءم مع راحة النفس والعين والسمع، وفي النهار ضوء ونور يناسب الحركة و العمل وإبصار الأشياء، فهذان منتان من الله تعالى على خلقه بجعل الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يُستبان فيه شيء، وجعل النهار مُبصراً أي تُبصر فيه الأشياء و تُستبان). (١)

﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾: ولتعلموا أيضاً باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل و أوقاتها.

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾: أي وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتُخلصوا له العبادة دون الآلهة والأوثان، ومثله ما جاء في سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾: وكل إنسان من بني البشر ألزمناه ما قُضيَ له أنه عامله وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه ألا يفارقه.

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾: يقول حسبك اليوم نفسك عليك حساباً يحسب عليك أعمالك، فنحصيها عليك، لا نبغي عليك شاهداً غيرها، ولا نطلب عليك مُحصياً سواها. (٢)

---

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٣٣.

(٢) انظر جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص١٥١.

لذلك قال الله تعالى:

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾: أي: من استقام على طريق الحق فاتبعه، وذلك دين الله الذي ابتعث به نبيه محمداً ﷺ - ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾: فليس ينفع بلزومه الاستقامة وإيمانه بالله ورسوله غير نفسه.

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾: ومن جار عن قصد السبيل فأخذ على غير هدى وكفر بالله ورسوله محمد ﷺ، وبما جاء من عند الله من الحق، فليس يضر بضلاله وجوره إلا نفسه؛ لأنه يُوجب لها بذلك غضب الله تعالى وألم عذابه.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: وقد كانوا يقولون: « نحن لا نُعذب في شيء، وإن كان هناك عقاب فهو على آباءنا، إذ نحن مُقلدون فقط لهم»، فردَّ الله بهذا عليهم أبلغ رد و آكده ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾: يدعوهم إلى الخير، ويُحذرهم من الشر، وهذه الآيات تحثنا - نحن المسلمين - على العمل، وتدفعنا إلى الجد وعدم الكسل.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾: أي: إذا أردنا أن نُدمر قرية من القرى وقد دنا وقت هلاكها، ولم يبق من زمان إهلاكها إلا قليل، أمرنا مُترفيها بالطاعة، ففسقوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن طاعته، والأمر هنا للجميع مُترَفاً كان أو غير مُترَف، غنياً أو فقيراً، ولكن لمَّا كان الأمراء والأغنياء هم القادة وغيرهم تَبَع، والعامة شأنها التقليد دائماً، قيل: أمرنا المترفين الأغنياء حتى كأن الفقراء غير مأمورين على ما جاء في سورة إبراهيم: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (هذا وعيد من الله تعالى ذكره لمكذبي رسوله محمد ﷺ من مُشركي قريش، وتهديدهم لهم بالعقاب، وإعلام منه لهم بأنهم إن لم ينتهوا عمّا هم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام، أنه مُحِل بهم سخطه، ومُنزِل بهم من عقابه

ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر بالله وتكذيب رسلهم سبيلهم). [1]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقص و تعاقبهما، وضوء النهار وظلمة الليل، دليل على وحدانية الله تعالى ووجوده، وكمال علمه وقدرته.
- النهار وقت مناسب للعمل والحركة، والتقلب في الأرض لكسب المعاش وتحصيل الرزق.
- إن كتاب الإنسان وسجله بما قدمت يداه من خير أو شر يُعرض عليه يوم القيامة، ويُقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.
- إن عذاب الاستئصال لا يكون إلا بشيوع المعاصي والذنوب والمنكرات، فإذا أراد الله إهلاك قرية أَمَر مُترفيها وغيرهم بالطاعة والرجوع عن المعاصي، فإذا فسقوا وظلموا وآثروا المعصية على الطاعة خلافاً للأمر، حقَّ عليها القول بالتدمير والإهلاك.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص١٥١.

المقطع السابــع

من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة

قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما تقرر أنه سبحانه خبير بذنوبهم بعد تزهيده في الدنيا بما ذكر من مصارع الأولين، أتبعه الإخبار بأنه يعاملهم على حسب علمه على وجه معرف بعلمه بجميع طوياتهم من خير وشر مرغب في الآخرة، مرهب من الدنيا(١). يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (الآيات مرتبطة بما قبلها بنحو واضح، فبعد أن بين الله تعالى ارتباط كل إنسان بعمله، قسّم العباد إلى قسمين:

قسم يريد الدنيا ويعمل لها وعاقبته النار.

وقسم يريد الآخرة ومآله إلى الجنان، وكل من الفريقين يرزقهم ربهم في الدنيا؛ لأن عطاء الله ليس ممنوعاً عن أحد، ولكنهم متفاضلون في الرزق ومراتب التفاوت في الآخرة أكثر من مراتب تفاوت الدنيا...)(٢).

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾: أي من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يسعى وإياها يبتغي لا يُوقت بميعاد، ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٤، ص٣٧١

(٢) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٤٢.

فيُعجِّل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته. (١)

فمن كان همَّه الدنيا فقط لا همَّ له غيرها، ولها يسعى ويتعب، عجَّلنا له من نعيمها ما نشاء نحن، لا ما يُحب ويهوى، (فترى أن القرآن الكريم قيّد التعجيل بأمرين: أولاً: يُعجل الله بما يشاء هو لا بما يحبه العبد، والثاني: يُعجل الله لمن يشاء لا لكل من أراد الدنيا.

ألست ترى كثيراً ممن يُحبون الدنيا ويريدون العاجلة يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعض أمانيهم.

أما الصنف الثاني وهو من لم يجعل الدنيا أكبر همه بل كان قصده المهم الآخرة أرادها وسعى لها سعيها المناسب لما لها من فضل وثواب، والحال أنه مؤمن بالله، واثق فيه مصدق به وبكتبه ويومه الآخر، فأُولئك البعيدون في درجات الكمال والجلال كان سعيهم مشكوراً ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ انظر إلى هؤلاء يريدون بعملهم الآخرة، ولا يُبالون بشيء بعدها، فإن أوتوا حظاً من الدنيا شكروا ربهم، وإن مُنعوا رضوا وصبروا معتقدين أن ما هم فيه خير وأبقى...

والسعي المشكور والعمل المأجور تقدمه ثلاث، إن تحققت فاز صاحبها وشكر ربه:

أ - قصد الآخرة والاتجاه إليه في كل عمل حتى يكون رائده ثواب الدنيا لا متاع الآخرة.

ب - العمل لها عملاً يناسبها، عملاً كاملاً تاماً خالياً من الرياء والسمعة والغرض الحقير.

ج - الإيمان العميق بعد الفهم الدقيق، والإخلاص الوثيق، فتلك سفن التجارة ومركب السعادة، وما عدا هذا فمتاع زائل، وعرض حائل لا غنى فيه ولا خير. (٢)

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾: يقول ابن جرير الطبري رحمه

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص٧٦.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص٣٦٢.

الله: (لا تجعل يا محمد مع الله شريكاً في ألوهيته و عبادته، والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المُكلف في عبادتك ربك به شريكاً فتقعد « مذموما» على شركك به»، مخذولاً «؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك، ويكِلُك إلى الذي عبدت معه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك النفع والضر هو الله وحده لا شريك له). (١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الناس في مجال العمل في الدنيا صنفان: صنف يريد الدنيا، وصنف يريد الآخرة. أما الصنف الأول: فلا يُعطيه الله من الدنيا إلا ما يشاء ولمن شاء، ثم يؤاخذه بعمله، وعاقبته دخول النار حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذا اختار الفاني على الباقي.
- وأما الصنف الثاني: وهو الذي يريد الدنيا على الآخرة، ويعمل لها عملها من الطاعات، وكان مؤمناً؛ لأن الطاعات لا تُقبل إلا من مؤمن، فيكون عمله مقبولاً غير مردود.
- اقتضت حكمة الله تعالى أن يرزق المؤمنين والكافرين – رحمة منه – فلا يكون عطاؤه محبوساً ممنوعاً عن أحد، لكن الناس في الدنيا متفاوتون في الرزق بين مُقل ومُكثر والتفاوت في الرزق ليس مُرتبط بالإيمان ولا بالكفر، فقد يكون مؤمنٌ غنيٌ وآخر فقير، وقد يكون كافرُ موسرٌ مترفٌ وآخر معسرٌ معدوم، أما في الدار الآخرة فدرجات تفاضل المؤمنين أكبر وأفضل، فالكافر وإن وُسِّع عليه في الدنيا مرة، وقُتر على المؤمن مرة، فالآخرة لا تُقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم.
- إن هذه الآية: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ مُقيِّدة لإطلاق سورة هود: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [هود: ٥١]، وكذلك آية الشورى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص٧٩.

- إن قبول الأعمال عند الله مشروط بشروط ثلاثة:

أ- الإيمان الصحيح ب- النية الطيبة الحسنة ج- العمل الصالح الذي يُرضي الله تعالى.

- إن رزق الله تعالى مكفول لكل إنسان بشرط السعي والعمل، وليس الرزق محظوراً عن أحد من المؤمنين والكافرين.

التحذير من الشرك، وبيان أن عاقبته الندم والخسران.

المقطع الثامن

حق الوالدين

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

تقدم أنه تعالى نهى أن يشرك مع الله غيره، وبيّن أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع النقصان، (ولما قرع الأسماع بهذا النهي المحتم لتوحيده، أتبعه الإخبار بالأمر بذلك جمعاً في ذلك بين صريحي الأمر والنهي تصريحاً بعد التنزيه له عن الشريك بالإفراد له في العبادة في أسلوب الخبر، إعلاماً بعظم المقام فقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾.[1]

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، ج٤، ص٣٧٣.

التفسير الإجمالي للآيات:

بيّن سبحانه وتعالى في هذا النص أنه المستحق للعبادة وحده خالصة له دون غيره كما جاء في سورة النساء: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦]، ثم عقّب ذلك بالإحسان للوالدين، فقال: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ فقرَن سبحانه الإحسان للوالدين بتوحيده، وفي هذا إشارة إلى عِظم حقهما على الأبناء. و بر الوالدين من أفضل القربات إلى الله تعالى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم رحمهما الله عن ابن مسعود ﷺ قال: سَأَلْتُ النبي ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ ؟ قال: الصَّلَاةُ

على وَقْتِهَا. قال: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قال: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قال: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قال: الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ»[(١)].

فالحديث النبوي ظاهر في أن بر الوالدين من أفضل الأعمال إلى الله تعالى، وهذا البر لا يقتصر على الوالدين المسلمَين، بل يجب البر بهما ولو لم يكونا مسلمَين، فعن أَسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رسول اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قال: «نعم صِلِي أُمَّكِ»[(٢)] .

وهذا يُبّن رحمة الإسلام بالوالدين وإن اختلفا في الدين، فبرهما في الدنيا ومُصاحبتهما بالمعروف أمر حتمي، كما قال سبحانه: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فلا طاعة لهما في الكفر ومعصية الخالق، و لهما العشرة بالمعروف.

ثم حذّر سبحانه وتعالى من إهمالهما خصوصاً في مرحلة التقدم في العمر ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، بَاب فضل الصلاة لوقتها، ج١، ص ١٩٧. و صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، بَاب بيان كون الإيمان بالله تعالى من أفضل الأعمال، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج١، ص٨٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) صحيح البخاري، مصدر السابق، ج٢، ص ٩٢٤.

عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ فعند تقدم سن الوالدين يكونا في أمس الحاجة للأبناء، من أجل ذلك كان النهي من تضجر الأبناء والتأفف مما يصدر من الوالدين من أقوال و أفعال، فعلى المسلم ألا يُظهر الضجر والملل والاستثقال في تعابير وجهه أو سوء تصرفه، قال مجاهد: (إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويخران فلا تقل لهما أف تقذرهم)(١) فكذلك كان الإبن من قبل.

وزيادة في الإحسان قال الله تعالى:﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ التذلل بالطاعة لهما، وتحقيق متطلباتهما، فالآية الكريمة تدعو الإبن أن يُراجع ذاكرته، فيتذكر تلك الأيام الخوالي عندما كان صغيراً، كيف كانت الرحمة والعطف ينصبان عليه من والديه، فيتألمان بألمه، ويضحكان بضحكه، فتجيش عاطفته تجاههما، فيرعاهما في الدنيا ويدعو لهما بالرحمة بعد مماتهما قائلاً: ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾. قال قتادة: (هكذا علمتم، وبهذا أُمرتم، خذوا تعليم الله تعالى وأدبه)(٢) .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾: (هذا تذييل يُعلمنا أن العبرة بالقلب وما فيه، فإن بدرت منه بادرة ليست مقصودة منه، فالله أعلم به ولا يُعاقبه عليه ما دامت نيته حسنة وهو من الصالحين، وإذا تُبتم إلى الله وندمتم على ما فعلتم فاعلموا أن الله غفور للأوابين رحيم بهم). (٣)

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له؛ لأنه الأساس الذي تُبنى عليه كل دعائم الإسلام.
- الإحسان إلى الوالدين و برهما؛ لأنهما اللذان تسببا في وجود الأبناء.

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج١٥، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق، ج١٥، ص ٧٦.

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦٨

- ومن البر الدعاء لهما بعد وفاتهما.
- وتتوجب الرعاية لهما عند كبر السن، وعدم التأفف لما يصدر عنهما من أقوال وأفعال.
- التنبيه على أن الله سبحانه وتعالى مُطّلع على قلوب عباده، وهو يعلم الصالح منها وغير الصالح، وهو كثير المغفرة للأوابين الراجعين إليه.

المقطع التاسع

حق ذوي القربى والمساكين وابن السبيل

قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا حث سبحانه وتعالى على الإحسان إلى الوالدين خاصة ورغّب في ذلك، عمَّ بالأمر به كل ذي رحم وغير ه، فقال: «وآت ذا القربى» من جهة الأب أو من جهة الأم وإن بعُد حقه، وآت المسكين وإن لم يكن قريباً، وابن السبيل وهو المسافر المُنقطع عن ماله، لتكون متقياً لله مُحسناً. وقد جمعت هذه الآية أربع وصايا مما أوصى به الله تعالى بقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾: فأما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مُقارب للمقصد من الإحسان للوالدين، رعياً لاتحاد المنبت القريب، وشداً لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة، وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها.

وأما إيتاء المساكين: فالمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون في الغالب من القبيلة، وأقعده العجز عن العمل، والفقر عن الكفاية. وأما إيتاء ابن السبيل: فلإكمال نظام المجتمع؛ لأن المار به من غير بَنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلاً لَيقيَه من عَواد الوحوش و اللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقايةً من أضرار الجوع والفقر، أو الحر). (١)

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾: التبذير تفريق المال كما يُفرَّق البذر كيفما كان من غير تعمد لموقعه، وهو الإسراف المذموم، قال الشافعي رحمه الله: (التبذير إنفاق المال في غير محله، ولا تبذير في عمل الخير). (٢)

إن من منهج الإسلام نهيه عن التبذير وحثه على الاقتصاد في الأمر كله، وتَدَبر وصفهُ للمُبذرين بأنهم ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ إنه تصوير لاذع، أُبرز في صورة بشعة، حيث كانوا إخوان الشياطين ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (وهكذا المُبذرون كفروا بنعمة ربهم، وفرّقوا المال في غير موضعه، وأسرفوا فيه إسرافاً مذموماً لمجاوزتهم الحد المُستحسن شرعاً، والآية تفيد أن المُبذر مماثل للشيطان والشيطان كفور لربه، فالمُبذر كفور لربه جاحداً لنعمته)(٣)

ثم بيّن القرآن الكريم الأدب والخلق الذي ينبغي أن يتحلى به مَن أراد إعطاء مَن تَقدم ذكرهم ولكنه لا يجد أن يخاطبهم بلطف ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾. قولاً ميسوراً: لطيفاً يُرقّق، ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مُطمئنة خواطرهم

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾: هذا قصدٌ بالإنفاق والتوسط في المعيشة على سبيل التمثيل، وذلك أن البخيل وإن امتنع عن الإنفاق

---

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج٧، ص٧٧-٧٨

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج، ص٩٦١

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، مج٢، ص٣٦٩.

يُشبه رجلاً يده مغلولة إلى عنقه فلا يقدر بالتصرف على حال، والمُسرِف الذي يُضيع ماله شمالاً ويميناً بغير حساب يُشبه رجلاً بسط يده كل البسط حتى لم يبقَ في كفه شيء. حقيقة كل فضيلة وسط بين رذيلتين، فالتقتير مذموم، والإسراف مذموم، والتوسط بينهما محمود عقلاً وشرعاً.

و إذا علمنا أن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأن الأمر كله لله، وهو القائل سبحانه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧] إذا علمنا ذلك فإننا مأمورون بالقصد في الإنفاق لأنه حكمة جليلة، وأما الغنى والفقر فمرجعه إلى الله عز وجل فقط؛ فالله سبحانه يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء، فهو أعلم بهم وبحالهم، وما يصلحهم وما يفسدهم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الأمر بإيتاء المستضعفين الثلاثة حقهم، وهم فئات من فئات المجتمع يجب برهم والإحسان إليهم ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.
- نهت الآيات عن التبذير، ووصفت المبذرين بأوصاف منفرة ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾.
- ظهر من الهدايات القرآنية النهي عن البخل والتقتير، كما نهت عن الإسراف والتبذير، ومنهج الإسلام الوسطية بين الاثنين.

كما ظهر من هدايات النص القرآني أن الله سبحانه وتعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويُضيقُه على من يشاء ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

المقطع العاشر

من ثوابت المجتمع الإسلامي

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا
كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾
وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا
﴿٣٤﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من الوصية بالأصول وما تبع ذلك، وختمه بما قرر من أن قبض الرزق وبسطه منه من غير أن ينفع في ذلك من حيله، أوصاهم بالفروع لكونهم في غاية الضعف وكانوا يقتلون بناتهم خوف الفقر، وكان اسم البنت قد صار عندهم لطول ما استهجنوه مُوجِباً للقسوة، فقال عن ذلك مواجهاً لهم إعلاماً ببعده ﷺ عن هذا الخلق قبل الإسلام وبعده... فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ الآيات.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾: معبراً بلفظ الولد الذي هو داعية إلى العطف والحنو.

﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾: أي فقر متوقع لم يقع بعد.

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾: مقدماً ضمير الأولاد لكون الإملاق مُتَرقباً من الإنفاق عليهم غير حاصل في حال القتل، بخلاف آية سورة الأنعام وهي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١]، إن سياق الآية يدل على أن الإملاق حاصل عند القتل، والقتل للعجز عن الإنفاق.

وعلل ذلك بما هو أعم منه فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾. والخِطْأ

- بكسر ثم سكون- لا يكون إلا تعمداً إلى خلاف الصواب، والخطأ -محركاً- قد يكون من غير تعمد.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾: حذر سبحانه وتعالى من دواعيه ومسبباته وما يشجع عليه من نظرة وابتسامة وكلمة ولقاء، و﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ والفاحشة ما زاد من القبح، وقد نهى الله عن الفحشاء.

ومن هذه المنهيات التي نهى الله عنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ تحريماً صريحاً إلا بحقها الشرعي، فقد عصمها الله تعالى، وحض على صيانتها، وحرم العدوان عليها، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لديته المُفارق للجماعة». [1] - ثم جعل الله سبحانه وتعالى فرجاً لولي من قتل مظلوماً بأن سلطه على القاتل بقوله سبحانه: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ فإن شاء ولي الدم عفا عن القاتل واكتفى بالدية، وإن شاء عفا عنه دون مقابل، وإن شاء طالب بالقَوَد.

﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ وعلى الولي ألا يُسرف فيأخذ القاتل، أو يمثل به، فإنه منصورٌ على القاتل ومؤيدٌ بشرع الله فحسبه ذلك..

ومن هذه المنهيات الإلهية الترفع عن أكل اليتامى، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ولعل الحكمة - والله أعلم- في النهي عن أكل مال اليتيم بعد النهي عن القتل، أن أخذ مال اليتيم وأكله فيه معنى القتل لليتيم، وذلك بحرمانه من ماله الذي به قوام حياته، كما جاء في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٦، ص٢٥٢١. وصحيح مسلم، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٠٢

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- تحريم قتل الأولاد خشية الإنفاق، وهي عادة جاهلية بغيضة فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.
- ومنها النهي عن الزنا وما يؤدي إليه، وهي أيضاً من عاداتها الجاهلية المذمومة، وقد نهى القرآن عن قربانه و إتيانه.
- كما نهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
- وجعل لولي الدم سلطاناً، لا يتجاوزه بل يقف عند ما حده له.
- ومن هذه الهدايات القرآنية: النهي عن أكل مال اليتيم حتى يبلغ أشده، وفيها الوفاء بالعهد وأخبر الله سبحانه بذلك: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

المقطع الحادي عشر

توجيهات ربانيَّة في المعاملات والأخلاق.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم، وكان الائتمان

عليه كالمعهود فيه، أتبعه بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ الآيات.[١]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾: الواجب على المسلم أن يفي بالكيل و الوزن على وجه العدل و السوية من غير نقصان و لا زيادة، و الزيادة على العدل فضل و خير، و قد ندب الرسول ﷺ لذلك فقال:« إذا وزنت فارجح».[٢] وفي هذا حصول الخير للفرد و المجتمع.

ثم بعد هذا الأمر و الأوامر السابقة له، جاءت هذه النواهي الإلهية و فيها إبراز لشخصية المسلم متى ما تحلى بها و استقام على ذلك، فقال سبحانه و تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ كما أن فيها النهي عن تتبع العورات و القول بالحدس.

« فديننا الحنيف يرشدنا إلى أننا لا نتبع في سلوكنا الظن و الحدس، و لا نقف ما ليس لنا به علم، فلا يصح أن يقول إنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، و لا يليق بك أن تذم أحداً بما لا تعلم، و على هذا فشهادة الزور و القذف و التكلم في الناس بالظن و تتبع العورات كل هذا محرم شرعاً، إن السمع و البصر و الفؤاد وكل واحد من ذلك كان صاحبه عنه مسؤولاً فيُقال له: لِمَ سمعت ما لا يحل لك سماعه ؟ و لِمَ نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ؟ و لِمَ نويت و عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه ؟»[٣]

و من هذه الأمور المنهي عنها: الكبر و الخيلاء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾:

---

(١) نظم الدرر مرجع سابق جـ ٤ صـ ٣٧٩

(٢) السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، جـ ص٣٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م. ط١، تحقيق: د. عبد الغفار البنداري.

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، صـ ٣٧٣.

لا تمش مشية المتكبر المحتال، فلن تبلغ الحبال طولاً، و لن تخرق الأرض بهذا الاحتيال و هذا المرح الممقوت عند الله تعالى، فإن ذلك المتقدم ذكره سيءٌ عند الله و مكروهٌ.

(و لما تمت هذه الأوامر و الزواجر على هذا الوجه الأحكم و النظام الأقوم، أشار إلى عظيم شأنه و محكم اتقانه بقوله على طريق الاستئناف تنبيهاً للسامع على أن يسأل عنه: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾: أي «ذلك» الأمر العالي جداً « مما أوحى» أي بعث إليك في حقيقة « ربك» المحسن إليك «من الحكمة» التي لا تستطيع نقضها و الإتيان بمثلها من الدعاء إلى الخير و النهي عن الشر)[١] .

يقول ابن جرير الطبي رحمه الله: (هذا الذي بينا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها و نهيناك عن قبيحها)[٢] .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ « لا تتخذ إلها شريكاً مع الله فتُعاقَب بالإلقاء في جهنم ملوماً تلوم نفسك، و يلومك الله و الخلق.

﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أي: مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى و من كل خير، و الخطاب للأمة بواسطة الرسول صلى الله عليه و سلم، فإنه معصوم فيكون المراد به: كل من سمع الآية من البشر. وقد بدأ الله تعالى هذه التكاليف بالتوحيد و النهي عن الشرك و ختمها بهذا المعنى «بعينه» و المقصود من التنبيه على أن أول كل عمل و قول و ذكر و آخره يجب أن يكون مبتدئاً و مقترناً بالتوحيد و التعمق فيه»[٣] .

وقد رتَّب الله تعالى على الإشراك به وترك التوحيد في البداية كون الشخص مخذولاً وفي آخر الآيات كونه ملوماً مدحوراً، فثبت أنه في أول الأمر يصير مخذولاً، وفي آخره يصير

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق. ج٤، ص٣٨٢.

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، جـ١٥، ص ١٠٤.

(٣) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ٧٨

مدحوراً. والمخذول ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، والمدحور: إهانته والاستخفاف به.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إيفاء الكيل وإتمام الوزن بالحق والعدل دون بخس ولا زيادة ولا نقصان.
- على الإنسان ألا يتبع مالا علم له به، و ما لا يعنيه.
- كل إنسان سيسأل يوم القيامه عن سمعه وبصره وفؤاده.
- النهي عن الخيلاء وتحريمه، والأمر بالتواضع والحض عليه.

المقطع الثاني عشر

إبطال دعوى الشريك لله

قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟
إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن
فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَمَّا كان ادعاءهم أن الملائكة بنات الله ادعاءً؛ لأن له مناسباً و مجانساً في أخص الصفات و هي الإلهية كانت عبادتهم لهم تحقيقاً لذلك، و كان ذلك أزيد من مجرد الشرك في الجهل، ساقه مساق التقريع و التوبيخ تنبيهاً على ظهور فساده متصلاً بما مضى من النهي عن الشرك بالعطف بفاء السبب على « ما» بعد الاستئناف بهمزة الانكار، فكأنه قيل: لا تفعل ذلك كما فعل هؤلاء الذين أفرطوا في الجهل فنسبوا إليه من خلقه أدنى الجنسين كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾. ثم عبدوا ذلك الجزء، و هم لا يرضونه لأنفسهم، ثم التفت إليهم

مخاطباً بما دل على متناهي الغضب فقال: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾. [١]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ﴾: «بعد أن فند الله تعالى زعم من نسب لله شريكا... هنا على من نسب له الولد، و ردَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين الذين جعلوا الملائكة إناثا ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم عبدوهن، مقرعاً لهم و منكراً عليهم و مبيناً خطأهم العظيم قائلاً: أيكرمكم فيخصكم بالذكور من الأولاد، و يختار لنفسه - على زعمكم - البنات، و أنتم تئدوهن و لا ترضونهن لأنفسكم ؟!...»[٢].

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾: إنكم تقولون قولاً عظيماً يوردكم مورد الهلاك؛ لأن هذا القول مناف لأبسط العقول، و هو كما ورد في سورة مريم: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

ثم رد الله على المشركين الذين يتخذون شريكا لله، فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾: قل لهم يا محمد لو كان مع الله - تبارك و تعالى - آلهةً و شركاء كما تقولون أيها المشركون إذاً لابتغوا إلى صاحب العرش سبيلاً، و لطلبوا طريقاً لمقاتلته، و لتنازعوا على الألوهية كما ذكر ذلك سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثم يبين الله عز وجل مظهراً من مظاهر جلال ملكه و عظيم سلطانه و كمال وحدانيته فقال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾: تسبح له السماوات السبع و من فيها، و الأرضون السبع

---

(١) نظم الدرر، مصدر سابق جـ ٤ ص ٣٨٢.

(٢) التفسير المنير، مرجع سابق جـ١٥ ص٨٢.

و من فيهن، و ليس هناك شيء في الوجود إلا يسبح بحمده، فكل ما في الكون من إنسان و حيوان و نبات و جماد و أجرام يدل دلالة واضحة بينة على وجود الصانع القادر، و كل شيء يسبح بحمد الله وشكره.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد. و مع ذلك الكفر و الإنكار و العناد، فهو سبحانه الحليم بعباده، الغفور الذي يغفر السيئات و يقبل التوبة من عباده.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن نسبة الملائكة بجعلها بنات الله افتراء كبير و قول على الله عظيم الإثم.
- بيان الحجج القرآنية الواضحة الدالة على توحيد الله و وحدانيته المطلقة، و مع ذلك فإن المشركين المعاندين لا يزدادون بعد هذا البيان تباعدا عن الحق، و الغفلة عن النظر و الاعتبار.
- لو كان هناك آلهة مع الله كما يزعم المشركون لكانت هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب لله بالعبادة و التعظيم، لتجعل لنفسها مكانة عند الله تلتمس عنده الزلفة؛ لأنهم دونه، و المشركون اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقد في الأصنام أنها محتاجة إلى الله تعالى، فقد بطل أنها آلهة، و كان الأحرى بعبدتها أن يعبدوا الإله الحق، وهو الله جل جلاله.
- ما من مخلوق من مخلوقات الله تعالى إلا يسبح بحمد الله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

المقطع الثالث عشر

السر في كفر المشركين وعنادهم

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَمَّا تقدم إخبار الله لرسوله محمد ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ و عقَّب على ذلك بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة و جوامع الأعمال، و ما تخلل ذلك من المواعظ و العبر، عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص وتنبيهاً للمشركين على وجوب إقلاعهم عن مكابرتهم وعنادهم، وتأميناً للنبي ﷺ من مكرهم وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته للقرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام، لذا فقد قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

« وحقيقة الحجاب الساتر الذي يجب غض البصر عن رؤية ما وراءه وهو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبي ﷺ عن الإضرار به...»(١) .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾: يقول صاحب التفسير الواضح: (إذا قرأت يا محمد القرآن كله أو أي آية منه جعلنا بينك وبين هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً حاجزاً، وستراً ساتراً بحيث لا يبصرون ببصائرهم

---

(١) التحرير والتنوير، مصدر سابق، م ٧، ص١١٦

نور القرآن وهدايته، وجعلنا على قلوبهم أكنة وأغطية تحول دون تفهم معاني القرآن وتدبر آياته وأمثاله، وجعلنا في آذانهم صمماً حتى لايسمعوا سماع قبول أو تدبر.. »[١]

وهذا الحجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لاتراه الأعين ولكنها ترى آثاره، (وقد تبين في أخبار كثيرة أن نفراً هموا الإضرار بالنبي ﷺ فما منهم إلا وقد حدث له ما حال بينه وبين ما هم به وكفى الله نبيه ﷺ شرهم، قال تعالى: « فسيكفيهم الله» وهي معروفة في أخبار السير). [٢]

وتُظهر هذه الآية ما ورد في سورة فصلت: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت:٥]

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾: بمعنى أنه إذا جاء ذكر الله تعالى في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله، ولم تقل والله و العزى، أدبروا راجعين على أدبارهم نافرين نفوراً تكبراً من ذكر الله وحده كما جاء في سورة الزمر: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر:٤٥].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾: نحن أعلم بما يستمعون به حينما يستمعون إليك يا محمد، وسنجازيهم على استهزائهم وكفرهم وقت سماع القرآن؛ لأن ربك أعلم بما يتناجون به في خلواتهم، والشيطان معهم إذ يقول هؤلاء الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم: إن تتبعون إلا رجلاً قد سُحِر، فاختلط عقله.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾: انظر كيف ضربوا لك الأمثال يا محمد ؟ فهم قد ضلوا في جميع ذلك عن سواء السبيل، فلا يستطيعون طريقا إلى الهدى

(١) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٨٠

(٢) التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص١١٧.

والحق.[١]

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن الله سبحانه وتعالى حجب رسوله ﷺ عن أبصار كفار قريش عند قراءة القرآن، فكانوا يمرون به ولا يرونه.
- حجب الله سبحانه وتعالى القرآن عن أبصار المشركين وعقولهم وأفهامهم، وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه.
- عندما يذكر النبي ﷺ ربه في القرآن وحده، ولّى هؤلاء المشركون على أدبارهم نفوراً عند سماعه.
- الله عز وجل عليم بما يقوله هؤلاء المشركون حينما يستمعون إلى القرآن الكريم، فيتناجون فيما بينهم لتنفير الناس عن النبي ﷺ، ويقولون عنه أنه ساحر أو مسحور.
- والكفار بعملهم هذا تجاه النبي ﷺ وتجاه القرآن الكريم ضلوا عن الحق فلا يجدون إلى الهدى طريقاً.

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٩١.

المقطع الرابع عشر

إنكار المشركين البعث بعد الموت والرد عليهم

قال تعالى: قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

قلنا فيما تقدم إن محور هذه السورة هو العقيدة، ولذا بعد أن تكلم الله تعالى فيها عن الإلهيات، ثم أتبعه فيها بذكر شُبه المشركين في النبوات، ذكر في هذا النص شبهاتهم في إنكار البعث والمعاد وبالقيامة، ورد عليها بما ينفعها، فقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الآيات.[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ ﴾: الرفات: ما بُولغ في دقه وتفتيته حتى صار كالتراب وقيل: الرفات هو التراب نفسه. وقد قال المشركون حين سماع القرآن الكريم وسماع أمر البعث: أئذا كنا عظاماً بالية في قبورنا و رُفاتاً بسبب تكسر هذه العظام - والاستفهام إنكاري فهم يُنكرون ذلك - أئنا لمبعوثون عائدون بعد ما بُلينا وصرنا عدماً ؟ وقولهم هذا مثله ما جاء في سورة

(١) المرجع السابق، ج١٥، ص٩٤.

النازعات: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، وكقولهم في سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس:٧٨] فيرُد الله عليهم بأن إعادة الحياة إلى الجسم أمر ممكن، بل هو أهون على الله من خلقه أول مرة - وهو أهون بالنسبة إلى إدراكنا - وإلا فخلق الجبال والناس جميعاً عند الله كخلق ذرة واحدة، ولو فرضتم أيها المشركون أن بدن الميت قد صار أبعد شيء عن الحياة بأن صار حجراً أو حديداً، أو خلقاً آخر مما يكبر في صدوركم وعقولكم كالسماء الأرض، فالله سبحانه وتعالى قادر على إحيائه وبعثه من جديد.

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾: فالله تعالى قادر على إعادتكم وإحياءكم بالبعث.

﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾: بمعنى أنهم يُحركونها عجباً مما تقول، ويقولون: متى هذا ؟ وفي أي وقت يكون ؟ فقل لهم: عسى أن يكون قريباً، فهم من وحي كفرهم وتكذيبهم يستبعدون ذلك كما أخبر الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٦-٧] - ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾: تستجيبون حامدين طائعين مُنقادين كما أخبر الله تعالى بذلك في سورة القمر: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٦-٨].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾: إن أنت إلا بشير ونذير وربك أعلم بمن في السموات ومن في الأرض جميعاً، علم إحاطه وانكشاف ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤].

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾: أي:ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ونحن أعلم بخلقنا، فموسى كليم الله، وعيسى كلمته وروح من عنده، وإبراهيم خليله،

ومحمد حبيبه وخاتم رسله وصاحب الإسراء والمعراج، ولا تتعجبوا من إعطاءه القرآن، فداوود عليه السلام أعطيناه الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- بيان فساد عقيدة المشركين باتخاذهم آلهة مع الله سبحانه وتعالى، وزادوا على ذلك بإنكارهم البعث بعد الموت.
- تعجبَ المشركون من إعادة الحياة إلى العظام البالية كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة النازعات: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾[النازعات:١١]، وكما أخبر عنهم في سورة الرعد: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[الرعد: ٥] وما ذلك إلا لقصور إدراكهم وضعف قدراتهم، فالله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.
- إن البشر حينما يُدعوْن إلى الخروج من قبورهم لا يسعهم إلا الإذعان والاستجابة لأمر الداعي.
- تقدير الناس بعد البعث أنهم ما لبثوا إلا يوماً أو بعض يوم.
- أمر الله لجميع المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب و إلانة القول، وخفض الجناح، و طرح نزغات الشيطان فيما بينهم: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.
- والقول الحسن مطلوب أيضاً مع غير المسلمين: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]
- ليس الأنبياء كلهم على درجة واحدة في الفضل، فقد فضَّل الله بعضهم على بعض، فقد آتى الله داوود عليه السلام «الزبور» كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود وإنما هو دعاء وتمجيد، وفيه إشارة إلى اليهود وإعلام لهم أنه كما آتينا داوود الزبور فلا تنكروا أن يُؤتى محمد ﷺ القرآن الكريم تبياناً لكل شيء.[1]

(١) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج٥، ص١٠١- ١٠٢

المقطع الخامس عشر

مناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن ندد الله تعالى بإنكار المشركين للبعث، عاد - سبحانه - إلى الرد عليهم في عبادتهم للملائكة والجن والمسيح و عزير، فهؤلاء يتوسلون إلى الله بالطاعة والعبادة، ويخافون عذابه، فالمستحق للعبادة هو المالك لهؤلاء، والقادر على النفع و الضر دونهم، وليس المراد الأصنام لأن ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يكون بالأصنام البتة. ثم ذكر وعيد هؤلاء، وأن مصيرهم إما الإبادة أو الاستئصال، أو العذاب دون ذلك كالقتل والسبي واغتنام الأموال. (١)

أهل مكة قد سألوا رسول الله ﷺ أن يصير لهم جبل الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأله قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يُمهلوا، وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(٢) .

(١) المرجع السابق، ج١٥، ص١٠٧.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري، ص١٦٦، ط١، مصطفى البابي الحلبي.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله كعيسى ابن مريم، و عزير وطائفة من الملائكة والجن والأصنام، هل يجيبون دعاءكم ؟ وهل يستطيعون كشف الضر عنكم أو تحويله إلى غيركم ؟ إنهم لا يستطيعون دفع شيء من ذلك، وإنما ذلك خالق الخلق ومالكه، فأولئك الذين عبدتموهم من دون الله، يدعون ربهم ويبتغون الوسيلة إليه والقربى منه بالطاعة، ويخصونه بالعبادة، وهم أقرب إلى الله وأولى به؛ لأنهم عباده الأطهار المُخلصون من ملائكة وأنبياء ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾: أخبر سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ عندما طلب كفار مكة المعجزات المادية - كما تقدم - أن سبب منع إرسال الآيات الحسية واستجابة طلباتهم التي سألوها هو تكذيبهم للأولين، فإننا إن أرسلناها وكذب بها أولئك، عوجلوا بالعذاب ولم يُمهلُوا كما هو سنة الله مع الأمم الماضية.

ثم قصَّ الله عز وجل على رسوله ﷺ قصة ثمود وقوم صالح، وفيها أنَّا آتينا ثمود الناقة كما طلبوا، فكذبوا بها وعقروها، وهذا مثل ما جاء في سورة الشمس: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس: ١١-١٥] فكانت آية لمن بعدهم ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى مُحرضاً رسوله محمد ﷺ على إبلاغ رسالته، ومُخبراً له بأن قد عصمه من الناس: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ ﴾ فإنه سبحانه قادر على عباده وهم في قبضته وتحت قدره، وقد عصم رسوله من أعداءه.

ثم ذكر الله تعالى آية الإسراء حيث قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أما الرؤيا التي رآها النبي ﷺ فقيل: إنها بشرى الله له بانتصاره على قريش في بدر وغيرها، وأنه سيهزم الجمع ويُولون الدبر، ولذلك كان يقول النبي ﷺ وهو في العريش مع أبي بكر الصديق ﷺ قبل بدء معركة بدر: «اللهم إني أسألك عهدك ووعدك»، ولعل الله أراه مصرع قومه في منامه، فكان يقول: «هذا مصرع فلان و ذلك مصرع فلان»، تسامعت قريش بذلك، وبما رأى في منامه، فكانوا يضحكون ويسخرون، ويستعجلون العذاب. (١)

وقيل الرؤيا هي الإسراء، فقد آمن بها بعض الناس، وكفر بعضهم، وهو ضعيف؛ لأن الإسراء كان يقظةً وليس مناماً.

﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾: هي شجرة الزقوم ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان:٤٤-٤٦] فكان من سخرية المشركين من قصة «شجرة الزقوم» قولهم: إن محمداً يزعم أن نار جهنم وقودها الناس والحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشجر.

﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾: ونُخوف الكفار بالوعيد والعذاب في الدنيا والآخرة، فما يزيدهم التخويف إلا تمادياً في الطغيان، فكيف يؤمن قوم هذه حالهم بإنزال ما يقترحون من الآيات؟!.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- كشف الضر من مرض أو فقر أو بلاء أو أي ضر، لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾.
- بطلان الاستعانة بهذه الآلهة المزعومة من دون الله، كالملائكة وعيسى و عزير، فهم أنفسهم

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، مج٢، ص٣٨٢.

يطلبون من الله سبحانه الزلفى والقربة، ويتضرعون إلى الله في طلب الجنة.

- إخبار الله تعالى بأنه ما من قرية من القرى الظالم أهلها إلا سيهلكها الله أو يعذبها عذاباً شديداً قبل مجيء يوم القيامة. قال ابن مسعود ﷺ: (إذا ظهر الزنا والربا في قرية، أذن الله في هلاكهم، و لا يكون الهلاك إلا بظلم من الناس ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩].
- إخبار الله لنا بأن إيتاء ثمود الناقة آية دالة على صدق صالح ﷺ، وعلى قدرة الله تعالى، ولمّا ظلموا أنفسهم بتكذيبها وجحدوا بها، استأصلهم الله بالعذاب الأليم.
- إن آية الإسراء وشجرة الزقوم اختبار للناس، واستهجان لهم، ليكفر من حقت عليه كلمة العذاب، ويصدق من سبق له الإيمان، لذا فإن الله تعالى يُخوف المشركين وغيرهم بالزقوم فما يزيدهم التخويف إلا الكفر، نعوذ بالله من الشرك والكفر. (١)

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج٥، ص١١٣.

المقطع السادس عشر

الحسد أصل الداء

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما تقدم أنهم استبعدوا الإعادة من أجل صيرورتهم من بعد الموت رفاتاً، و أخبر تعالى بقدرته على ذلك، ولو صاروا إلى ما أعسر عندهم من الإعادة من الرفات « بأن يكونوا حجارة أو حديداً» و أشار إلى قدرته على التصرف بخرق العادة في الحديد، بإلانته لعبد من عبيده، ثم في الحجارة على سبيل الترقي في النشر المشوش بما هو أعجب من ذلك، و هو إفاضة الحياة عليها - أي الحجارة - لعبد آخر من عبيده، أشار إلى تصرفه في التراب الذي هو نهاية الرفات الذي حملهم على الاستبعاد بما هو أعجب من كل ما تقدمه، و ذلك بإفاضة الحياة الكاملة بالنطق عليه من غير أن تسبق له حالة حياة أصلا، وذلك بخلق آدم عليه السلام الذي هو أصلهم مع ما في ذلك من حفظ السياق في التسلية بأن الآيات لا تنفع المحكوم بشقاوته، و بأن آدم عليه السلام قد سلط عليه الحاسد و اشتد أذاه له مع أنه صفي الله و أول أنبيائه، مع البيان؛ لأن أغلب أسباب الطغيان الحسد الذي حمل إبليس على ما فعل، لذا قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ الآيات. (١)

---

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق جـ٤ ص ٤٠٢.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾: و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم امتثالاً لأمري و إظهار لمحبة بني آدم لا سجود عبادة و خضوع، فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى و استكبر و قال: أأسجد لمن خلقته من طين، و أنا خلقت من نار، فأنا خير منه فكيف أسجد له ؟ و الاستفهام في «أأسجد» للإنكار يستنكر اللعين هذا الطلب من الخالق الأحد الفرد الصمد.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾: قال إبليس: أخبرني هذا الذي كرمت علي بم كرمته علي مع ضعفه و قوتي ؟ تالله لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأستولين عليهم بالإغواء و الإضلال جميعاً، آدم و ذريته، إلا قليلا منهم و هم عبادك المخلصون، و من قبل هذا قول الله تعالى في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٦-٤٠].

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾: اذهب فامض لشأنك الذي اتخذته لنفسك فمن تتبعك منهم و أطاعك فإن جهنم مأواكم و جزاؤكم جميعاً أنت و من اتبعك جزاءً موفوراً.

(مكملاً وافياً تستحقون على أعمالكم الخبيثة). (١)

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ استفزز: أي حضه، وادعه بكل ما تستطيع من قوة و إغراء، و اجمع عليهم خيلك وفرسانك ورجالك، (و المراد اجمع لهم مكائدك

(١) المصدر السابق، حـ٤ ص٤٠٣ .

و ما تقدر عليه، و شاركهم في الأموال حتى يتصرفوا بها خالف وجه الشرع من سرقة و غصب و غش و خديعة، أو أخذ بالربا، وشاركهم في الأولاد عن طريق الزنى و تسميتهم بأسماء غير شرعية، و عدم احترام الحقوق الشرعية في الزواج و الطلاق، وعدهم بكل ما تعد به من زخرف القول وباطله.

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾: كلاماً باطلاً كاذباً، وإظهاراً للباطل في صورة الحق.

و هذا نظير ما جاء في سورة النساء:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾[النساء:١١٧-١٢٠].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، و لا قوة، إلا من اتبعك، وكفى بربك يا محمد وكيلاً يتوكلون عليه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان، و يعصمهم من إغوائه.

و من هنا نعلم أن الناس -كما يقول صاحب التفسير الواضح- صنفان:

صنف مؤمن تقي إذا مسه الشيطان تذكر نفسه و ما حمل من أمانة، و ما عليه من حساب، و استعاذ بالله فإذا هو مبصر محاسب نفسه، و هؤلاء هم العباد الذين ليس للشيطان عليهم سبيل.

و الصنف الثاني: هو العاصي الذي يتولاه الشيطان و يستولي عليه مستعيناً بالمال و الدنيا و النفس الأمارة بالسوء). [1]

(١) التفسير الواضح، جـ١٥ ص ٣٤٨.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن تمادي المشركين و عتوهم على ربهم يذكر بقصة إبليس حين عصى ربه و أبى السجود تعالياً، و تكبر بحجة أن آدم خُلق من طين و هو من نار ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾.
- استهانة الحق تبارك و تعالى و استخفافه بإبليس و من تبعه من بني آدم ﴿ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾.
- و فيها أن عباد الله الصالحين لا سلطان لإبليس عليهم و لا تسلط، و كفى بالله عاصماً و حافظاً، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.
- في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ فيها الدلالة على تحريم المزامير و الغناء و اللهو، لأن صوت الشيطان داع يدعو إلى معصية الله تعالى، و كل ما كان من صوت الشيطان أو فعله و ما يستحقه فواجب التنزه عنه، وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل براحلته عن الطريق و هو يقول: يا نافع أتسمع ؟ فأقول نعم، فمضى حتى قلت له: لا، فوضع يديه و أعاد راحلته إلى الطريق و قال: رأيت رسول الله ﷺ سمع (صوت) زمّارة راع فصنع مثل هذا»[1] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، جـ١٠ ص ٢٩٠. و انظر التفسير المنير، مرجع سابق، جـ١٥ ص١١٨.

المقطع السابع عشر

من نعم الله على الإنسان

قال الله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

ولما ذكر أنه الوكيل الذي لا كافي غيره في حفظه، لاختصاصه بشمول علمه وتمام قدرته، أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك فقال تعالى، عوداً إلى دلائل التوحيد الذي هو المقصود الأعظم بتذكيرهم أحوال البحر الذي يخوضون فيه، في أسلوب الخطاب استعطافاً لهم إلى المتاب، فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾.(١)

التفسير الإجمالي للآيات:

تقدم لنا أن هذه السورة محورها الأساسي هو التوحيد، فتابع ذلك و أخبرهم فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾: ربكم الذي يستحق العبادة وحده، هو الذي يسير لكم السفن في البحر يدفعها بقوة الريح و تيار الماء أو قوة البخار أو الطاقة الكهربائية أو الذرية لنقل الأشخاص للسياحة أو للارتزاق بين بلاد الدنيا، أو نقل البضائع من إقليم إلى إقليم و طلب الرزق من فضل الله، و أنتم أيها المشركون أمركم عجيب إذا

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، جـ٤ ص٤٠٦.

مسكم الضر، واضطرب بكم البحر، و عدا على سفنكم هوج الرياح، فانخلع قلبكم من خوف الغرق المحقق، إذا حصل هذا ضل من تدعونه من الآلهة إلا الله، و لم يدر بخلدكم ذكر واحد منهم، فإنكم لا تذكرون سوى الله و حده، فلما كشف الضر عنكم و نجّاكم إلى بر السلامة أعرضتم و كفرتم و صرتم تدعون غيره معه، و هذا حال الإنسان ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾: أفأمنتم و قد نجاكم من البحر و صرتم في البر أن يرسل عليكم ريحاً حاصباً تصيبكم بالحصباء ؟ فأنتم تحت قبضته في كل مكان في البر و البحر، و إن لم يصبكم من أسفل أصابكم إن شاء من فوقكم كما جاء ذلك في سورة الأنعام:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥].

بل أأمنتم و قد نجاكم من مخاطر البحر أن يعيدكم فيه تارة أخرى، بأن يهيئ لكم أسباب ركوبه مرة ثانية فيرسل عليكم و أنتم في سفن من الريح الشديد فتكسر كل ما يقابلها، فيغرقكم بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم بسبب هذا تبيعاً علينا يطلب الثأر منا، كما ورد في سورة الشمس ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس: ١٤، ١٥] و التبيع: هو الناصر والمعين.[1]

ثم عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾: فضلنا بني آدم، ومن مظاهر هذا التكريم والتفضيل خلقه في أحسن تقويم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين:٤]، وذلك بحسن الصورة، والمزاج المعتدل، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل والعلم، والإفهام بالنطق والإشارة، والاهتداء إلى أسباب المعاش و المعاد، والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات، والطهارة بعد الموت، أي أن التكريم بالخلق في أحسن تقويم

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص ٣٨٦. والتفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥ص١٢١.

وبالعقل أداة العلم والمعرفة والتقدم والتمدن. [١]

ومن مظاهر هذا التكريم حمله على ظهر السفن في البحر، وعلى الدواب وعلى كل حامل في البر والجو، (على الدابة والسيارة والدراجة والقطار، وفي البحر على السفن وفي الجو بالطائرة والقلاع الجوية، وإنما لم تذكر لأنه سبحانه كان يخاطب العرب الذين لا يمكنهم تصور هذا..»[٢] يعني وقت نزول القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: أما الرزق من الطيبات فلأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم مما يشاء مما يروق له، وجعل في المطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جداً مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها.

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾: (وأما التفضيل على كثير من المخلوقات فالمراد به: التفضيل المشاهد؛ لأنه موضع الامتنان، وجماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلاً على البقية...)[٣].

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- نعم الله على الإنسان كثيرة لا تحصى، منها تسخير السفن في البحار، أو الدواب بمختلف أنواعها في البر والرزق من الطيبات﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.
- ومن هذه الهدايات تفضيل الله للإنسان في تكريمه لبني آدم بخلقهم في أحسن تقويم وبالفعل والتفكير، والحمل له في البر والبحر والجو والرزق من الطيبات والتفضيل على كثير من المخلوقات لا على كلها.

---

(١) المرجع السابق، ج١٥ ص ١٢١.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص ٣٨٦.

(٣) انظر التحرير والتنوير، مصدر سابق، م٧، ص١٦٦.

المقطع الثامن عشر

مـن مشاهد يـوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما بيّن الله سبحانه – فيما تقدم – قدرته على التفضيل في الحياة الحسية والمعنوية، والمفاضلة بين الأشياء، فتثبت بذلك قدرته على البعث، وختم ذلك بتفضيل البشر، وكان يوم الدين أعظم يوم يظهر فيه التفضيل، قال هنا: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾يعني: بمتبوعهم الذي يتبعونه فيقال يا أتباع نوح ! ويا أتباع إبراهيم ويا أتباع موسى! ويا أتباع عيسى! ويا أتباع محمد! فيقومون فيميز بين محقيهم ومبطليهم، ويقال: يا أتباع الهوى، يا أتباع النار، يا أتباع الشمس، يا أتباع الأصنام، ونحو هذا، أو يكون المراد بسبب أعمالهم التي ربطناهم بها ربط المأموم بإمامه، كما تقدم في السورة نفسها ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾: اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي تحاسب فيه كل أمة بإمامهم – أي بكتاب أعمالهم على ما ذكره ابن كثير، لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢]، وقوله: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾. [الكهف:٤٩] فالكتاب يسمى إماماً لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم، ويحتمل أن يكون «إمامهم» قائدهم كما تقدم في ذكر المناسبة.

﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ ﴾: «فمن أوتي كتابه» من هؤلاء المدعوين «بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم» فرحاً وابتهاجاً مما جاء فيه من العمل الصالح.

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾: أي: لا يظلمون من أجورهم قدر فتيل وهو الخيط الموجود في شق النواة، فإن الفتيل مَثَل في القلة.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: من كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق الحق، ولا سبيل النجاة، وأضل سبيلاً من ضلاله في الدنيا.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن الحساب يوم القيامة بين الخلق يكون مدعماً بالوثائق والمستندات ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].
- فرحة من يأخذ كتابه بيمينه، ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ لأنه فاز بالسعادة الأبدية.
- إن الأعمى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق من خلال الأدلة والبراهين يكون في الآخرة أشد عمىً وضلالةً عن سبيل النجاة.

المقطع التاسع عشر

محــاولة المشركين فتنة النبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا عدد الله سبحانه وتعالى نعمه على بني آدم، ذكر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة، ومن عَمَى أهل الشقاوة، أتبع ذلك بما همَّ به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع، والتلبيس على النبي ﷺ سيد أهل السعادة، فقال: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ الآيات.(١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾: فيها إخبار عن تأييد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، و تثبيته، وعصمته، وتولي أمره وحفظه، فإن المشركين لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم، وقوة شكيمتهم كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره.

وقد وردت روايات متعددة مختلفة في سبب نزول هذا النص، لكنها كلها مراسيل، و لا يُطمئن إليها، منها: « أن ثقيفاً قالوا: لا نؤمن حتى تُعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا ننحني في الصلاة، ولا نكسر أصناماً بأيدينا وإن تمتعنا باللات من غير أن نعبدها، فإن خشيت

(١) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٣٥.

أن يسمع العرب: « لم أعطيتهم مالم تُعطنا ؟ فقل لهم: الله أمرني بذلك». قال الإمام الطبري تعقيباً على هذا: (يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر، ويجوز أن تكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر صحيح يقطع العذر أيّ ذلك كان، فالأصوب الإيمان بظاهره، حتى يأتي ما يجب التسليم له). [١]

﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾: أي غير ما أوحينا إليك، وهو قولهم: الله أمرني بذلك.

يقول الدكتور محمد محمود حجازي في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾: فيها إشارات إلى أن التهاون في شأن الدين وأحكامه خطر وأيُّ خطر وعليه عذاب مُضاعف في الدنيا والآخرة، فيا ويلنا مادمنا نتهاون في شأن الدين وحكمه، وعلى المؤمنين جميعاً إذا قرؤوا هذه الآيات أن يملئوا قلوبهم خشية وخوفاً وتصلباً في دين الله، وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله: « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[٢] .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾: لقد قارب أهل مكة ليزعجوك بعداوتهم ومكرهم، ويُخرجوك من أرضهم التي أنت فيها - أي أرض مكة - وإذا أخرجوك لا يبغون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً، فإن الله مُهلكهم، وقد حدث هذا الوعيد كما قال، فأهلكهم الله بـ« بدر» بعد إخراجه بقليل، وهو ثمانية عشر شهراً بعد الهجرة أو الإخراج.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ ﴾: أي هكذا سنتنا في الذين كفروا برُسلنا وآذوهم، بأن، يأتيهم العذاب بخروج الرسول ﷺ من بينهم. ولولا أنه ﷺ رحمة رب العالمين إلى العالمين، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قِبَلَ لأحد به، ولكنه سبحانه هو القائل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ [الأنفال:٣٣] إلا أنه لا تغيير لسنة الله ونظامه، ولا خُلف

(١) انظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج٦، ص٢٥٤، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ٢، ص٣٨٩.

في وعده.

﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾: (أي ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره)[١]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- يظهر لنا مما تقدم تعرض النبي ﷺ لأنواع كثيرة متعددة من مكايد المشركين، ولكن الله عصمه من خبثهم.
- النبي ﷺ معصوم، وهو لم يُهادن الكفر والكفار والشرك والمشركين، بل ولم يهم بذلك ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر:٦٤]
- لقد همَّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ، ولو أخرجوه لما أُمهلوا؛ لأن سنة الله الثابتة الدائمة تعذيب كل قوم أخرجوا رسولهم من بلده، فإذا أخرجوه أُهلِكوا ودُمِّروا)[٢].

(١) انظر فتح القدير، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠.

(٢) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٣٩.

المقطع العشرون

أوامر وإرشادات للنبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

أعجبني في هذا المقام ما ذكره الدكتور وهبة الزحيلي حيث قال: (بعد أن ذكر الله تعالى كيد الكفار واستفزازهم للرسول ﷺ وما كانوا يرمونه به، أمره الله تعالى بالإقبال على عبادة ربه، وألا يشغل قلبه بهم، وقد تقدم القول في الإلهيات والمعاد، والنبوات، فأردف ذلك الأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان وهي الصلاة، ثم وعده ربه في الآخرة بالمقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى باتفاق المفسرين، ولما أمره الله تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بالمقام المحمود أمره بأن يدعوه بما يشمل الأمور الدينية والأخروية بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ والظاهر كما قال أبو حيان: إنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخروية)[1].

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾: دلوك الشمس يعني: زوال الشمس عن كبد السماء، وقيل المعنى: غروب الشمس. «فتهجد» الهجود: النوم بالليل

(١) المرجع سابق، ج١٥، ص١٤٣.

والتهجد: ترك الهجود، مثل: التأثم والتحرج.

يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلوات المكتوبة في أوقاتها، بمعنى: أدِّ الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك، تامَّة الأركان والشروط من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل وهذا يشمل الصلوات الأربع: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته، وإنما وجهً الخطاب إلى النبي ﷺ لمكانة المأمور به وهو: الصلاة.

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي: وأقم صلاة الفجر، وتلك هي الصلاة الخامسة.

وقد أبانت السنة النبوية المطهرة المتواترة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله مقادير أوقات الصلاة، بدأً وانتهاءً على النحو المعروف اليوم)[١].

﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾: تشهده ملائكة الرحمن، وهو كما في الصحيحين: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجمع فيها، أي في صلاة الفجر. فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾: يعني: وبعض الليل تهجد بالقرآن، والصلاة نافلة زائدة عن الفرائض المطلوبة.

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾: وهو المقام المرموق المُعد للنبي ﷺ، وهو المقام المحمود الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه. والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون.

ومعنى النظم الكريم: (كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة

---

(١) المرجع السابق، ج١٥، ص١٤٣.

قيام الليل)[١].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾: وقل يا محمد: رب أدخلني مدخل صدق الذي وعدتني به، وأخرجني مخرج صدق، وإضافة المدخل والمخرج إلى الصدق لأجل المبالغة، والآية تشمل كل مدخل للنبي ﷺ وكل مخرج كدخوله إلى المدينة المنورة وخروجه من مكة المكرمة، واجعل لي في هذا سلطاناً وحجة قوية.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾: وقل يا محمد: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد».

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾: إن هذا القرآن هدىً وشفاء لما في الصدور، ورحمة وخير للمؤمنين، وهو الوسيلة إلى الله، والدواء والعلاج من كل داء، كما أخبر الحق سبحانه وتعالى، وهو شفاء نفسي وجسمي وعلاج للأمة و الفرد ورحمة للمؤمنين فهو الذي حوّل العرب الجاهليين الحفاة العراة إلى أمة ذات حضارة وعزة وسلطة بعد أن كانوا في ضلال مبين ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة:٢] أي ضلال أكبر من أن يتخذ الإنسان شريكاً لله وهو الذي أوجده من العدم، لكنه الإنسان الذي يُقابل النعمة بل النعم الإلهية بالجحود. ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾: أعرض عن ذكر الله ونأى بجانبه وولى ظهره، وهي عادة المتكبرين.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾: وإذا مسه الشر من فقر أو مرض ونحوهما كان شديد اليأس

(١) محاسن التأويل، مرجع سابق، م٦، ص٢٦٩.

يؤوساً من رحمته تعالى قنوطاً، وهي كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الآية:١٢].

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾: يعني طريقته التي جُبل عليها، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾: يسألك المشركون وغيرهم كاليهود عن الروح – أي حقيقتها – التي تُحيى به الأبدان، قل الروح من أمر ربي وشأنه، وهي من الأمور التي استأثر الله تعالى بعلمها، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا بالنسبة لعلم الله جل جلاله، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- من هذه الهدايات القرآنية التي ظهرت لنا: أهمية الصلوات الخمس المكتوبة، وعلى تحديد أوقاتها جملة، وقد بينتها وفصّلتها السنة النبوية ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.
- إن الصلاة المفروضة لا تتم إلا بالقراءة.
- وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ وقد تقدم أن قرآن الفجر مراد به صلاة الفجر.
- قيام الليل – وهو التهجد – مطلوب من النبي ﷺ نافلة، زيادة له وكرامة.
- المقام المحمود هو الشفاعة العُظمى للناس يوم القيامة، فقد روى الإمام أحمد والترمذي وبن ماجه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر». قال النقاش: (لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، و شفاعة في السبق إلى الجنة،

و شفاعة في أهل الكبائر»[١] .

- في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ دليل على كسر نصب المشركين والأصنام وجميع الأوثان ، قال القرطبي: (ويدخل فيه كسر آلة الباطل، وما يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير،...)[٢] .

- القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين، و لا يزيد سماعُه الكافرين الظالمين لأنفسهم إلا خساراً، وذلك لتكذيبهم كما يزيدهم غيظاً وغضباً وحقداً وحسداً ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

- إن سؤال اليهود والمشركين للنبي ﷺ عن الروح وحقيقتها ما هو إلا نوع من أنواع تعنتهم، فأرشدهم القرآن إلى ما هو خير لهم وأجدى، فإن القرآن كتاب هداية وإرشاد يبحث الأشياء بحثاً ليتفق مع المصلحة العامة، لذا يقول عز وجل لنبيه محمد ﷺ آمراً له: قل لهم يا محمد إن الروح من أمر ربي وشأنه، ومما استأثر الله بعلمه، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً بالنسبة إلى علوم الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيء علماً). [٣]

---

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، مصدر سابق، ج١، ص٣١٤.

(٣) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص٣٩٢

المقطع الحادي و العشرون

من إعجاز القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن امتن الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بالنبوة، وبإنزال وحيه عليه، وبتنزيل القرآن الكريم شفاءً للناس، امتنَّ عليه أيضاً ببقاء القرآن محفوظاً ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، وذكر ما منحه تعالى من الدليل على نبوته بقاء الدهر، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، مع اشتماله على أصح القواعد، وأقوم الحِكم والأحكام والآداب المفيدة في الدنيا والآخرة، بل إن فُصحاء اللسان الذي نزل به وبُلغاءهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثله، ولو تعاون الثقلان عليه)[1] لذا ناسب قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾: أي من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، و عبرا بالموصول «الذي» تفخيماً لشأنه، ووصفاً له بما هو في حيِّز الصلة، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق. - ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾: أي من يتوكل علينا بردّه.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾: قال الزمخشري: (وهذا امتنان منَّ الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المِنَّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم ألا

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٥٩.

يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرهما)[١].

هذا القرآن وهو المعجزة والحجة الدائمة التي تحدى الله بها العرب كلهم فعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم أهل فصاحة وبلاغة، والنبي ﷺ واحد منهم وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب، وفيهم الشعراء والخطباء، وقادة البلاغة والبيان، فحيث عجزوا فغيرهم من باب أولى تحداهم به بأسلوب لاذع، مع الحكم عليهم بالعجز والقصور، ولو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا كلهم و بذلوا النفس والنفيس)[٢].

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾: قل يا محمد مُتحدياً: والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المُعجز في بلاغته وحسن نظمه وبيانه لعجزوا عن الإتيان بمثله حتى ولو كان الجميع متعاونين مُتآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإنه أمر غير مُستطاع لمخلوق، فهو كلام المخلوق، وأنى لكلام المخلوق أن يُشبه كلام خالقه.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾: (لقد صرَّف الله للناس في هذا القرآن، وقلّب فيه الأمور كلها على وجوهها بألوان شتى وعبارات مختلفة، مرة بالإيجاز وأخرى بالإطناب، موفياً الغرض من أمر ونهي ووعظ وإرشاد وقصص وحِكم وتشريع،.... ومع هذا يأبى أكثر الناس إلا الكفور والجحود، والناس هنا هم أهل مكة وأمثالهم)[٣].

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- تُبين الآيات القرآنية فضل الله ونعمته على نبيه محمد ﷺ بإنزال القرآن كتاب هداية وإعجاز، بل هو مُعجزة الرسالة والرسول إلى يوم الدين.

---

(١) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج٢، ص ٦٤٦، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ١٥، ص ٣٩٥.

(٣) المرجع السابق، م ١٥، ص٣٩٥.

- كما تبين أنَّ هذا القرآن أعجزَ الثقلين (الإنس والجن) وإن تعاونوا على ذلك وتظاهرا.
- ظهر في هذه الآيات فضل الله على نبيه محمد ﷺ فهو خاتم المرسلين، ورسالته خاتمة الرسالات، وكان فضل الله عليه كثيراً.

المقطع الثاني والعشرون

اقتراح مُشركي مكة الآيات الحسية

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعدما تحدى الله تعالى المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعد ما ألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم، ببيان إعجاز القرآن، وظهر عجزهم، أخذوا يتعللون ويقترحون آيات أخرى تعنتاً وحيرة، فقالوا ما ذكره عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

هذا قول نفر من زعماء مكة منهم عتبة و شيبة إبنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام وآخرين، قالوا: لرسول الله ﷺ لن نُصدق برسالتك حتى تُخرج لنا من الأرض ينبوعاً يتدفق، وهو العين الجارية، أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب، وطلبوا من هذه الآيات القرآنية ما ورد في النص القرآني المتقدم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، وقال ما جاء في القرآن: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فلست أقدر على طلبكم المعجزات،

والله سبحانه هو القادر، وقد أيدني بمعجزة القرآن، وهي المعجزة الباقية الخالدة). (١)

وقد تقدم مثله في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ ﴾. يقول صاحب التفسير المنير: (قل يا محمد مُتعجباً من اقتراحاتهم: تنزه ربي وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، فهو الفاعل لما يشاء، وما أنا إلا رسول بشر كسائر الرسل أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وليس للرُسُل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم على وِفق الحكمة والمصلحة، وأمركم إلى الله إن شاء أجابكم وإن شاء لم يُجبكم)(٢).

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- ظهر لنا ضعف عقول المشركين وظنهم الآثم أن الله سيفعل لهم ما يريدون، وذلك فيما ذكر الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ ﴾ إلى آخر الآيات الست التي طلبوا تحقيقها من الرسول ﷺ، وكان جواب رسول الله بتوفيق من الله ورحمة: ﴿ هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾.
- إنَّ حدوث الآيات بأمر الله، ولا يقترحه الرسول ﷺ على ربه.
- من رحمة الله أنه لو جاءتهم الآيات كما طلبوا ثمَّ كذبوا به ﴿ لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام:٨].

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م ١٥، ص ٣٩٥. وفتح القدير، مرجع سابق، ج، ص

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، م ١٥، ص١٦٦.

المقطع الثالث والعشرون

بعض شبهات المشركين والرد عليها

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٩٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعدما أنكر المشركون المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ وهي القرآن الكريم وطالبوه بمعجزات حسية، أخبر الله تعالى عن سبب ذلك التعنت والتكبر، وهو استبعادهم أن يبعث الله رسولاً إلى الناس من البشر، و هذا كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس:٢]، فناسب أن يذكر الله ذلك في هذا المقام فقال سبحنه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ ﴾: عموم الناس وقيل المراد أهل مكة، فهم المخاطبون مباشرةً بهذا حينما جاءهم الوحي من عند الله سبحانه بواسطة رسوله محمد ﷺ، و بين ذلك لهم وأرشدهم إليه.

﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾: وهذا إنكار أن يكون الرسول بشراً، هذا الفهم

الخاطئ هو الذي منعهم من الإيمان بالكتاب و الرسول، فأنزل الله على رسوله الإجابة على إنكارهم هذا فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾: ساكنين يعيشون مع الناس و يتفاهمون معهم و يتلون عليهم آيات الله، و تعرف الناس أخبارهم و أحوالهم... لو كان في طبيعة الملك ذلك لنزلنا عليهم ملكاً رسولاً. إذ لا يعقل أن يدين الإنسان لمن لا يعرف عنه شيئاً، و من ليس بينه اتصال و ألفة حتى يتم التفاهم، من أجل ذلك كانت الحكمة الإلهية أن يرسل الله الرسول للقوم من نوعهم للتمكين من المخاطبة لأن اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة...)[1] .

و هذا من قبيل قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾: أي قل لهم يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به، من أمور الرسالة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾: محيطا بظواهرها و بواطنها.

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾: لا تذهب يا محمد نفسك عليهم حسرات، و اعلم أن من يهديه الله إلى الخير فهو المهدي الموفق و من يضلل الله فلن تجد له أولياء من دونه يتولون أمره و يدافعون عنه، و هم يوم القيامة محشورون يمشون على وجوههم، فإن الذي أقدرهم على

(١) التحرير و التنوير، مصدر سابق، م ٧ ص ٢١٣.

المشي على أرجلهم قادر على جعلهم يمشون على وجوههم ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء:٧٢]، مأواهم جهنم التي وقودها الناس و الحجارة ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ و كلما أكلت جلودهم و لحومهم و عظامهم أبدلوا غيرها ليذوقوا العذاب، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل:٣٣] و ذلك جزاؤهم بسبب كفرهم و قولهم: أإذا كنا عظاماً نخرة و صرنا تراباً لتعود إلينا الحياة ؟ نعم ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[الأعراف:٢٩].

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾: قل لهم يا محمد لو تملكون خزائن رحمة الرحمن الرحيم لبخلتم بها، و أمسكتم خشية الإنفاق و كان الإنسان قتوراً بخيلاً. فما بالكم تطلبون الآيات بعد الآيات!! و أنتم لا تقومون بواجب شكر الله المنعم الذي تفضل و أنعم عليكم بكافة النعم ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ [العاديات:٦][1] .

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- من هذه الهدايات: ظهر لنا تكبر زعماء قريش و أنهم قوم معاندون، لذا رفضوا معجزة القرآن الخالدة و طالبوا رسول الله بالمعجزات الحسية حيث قالوا له: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.
- و منها زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾
- و منها أن الهداية بيد الله ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ [يونس:٩٩].
- و أن الكفار يحشرون يوم القيامة على وجوههم عمياً و بكماً و صماً إلى غير ذلك.

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢ ص ٣٩٨.

المقطع الرابع والعشرون

آيات موسى و صفة القرآن الكريم

قال الله تعالى قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾
وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ
بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ
يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد ما ذكر الله تعالى عن زعماء قريش تفننهم في اقتراحهم للرسول ﷺ، في إيجاد المعجزات الحسية لهم حتى يؤمنوا به، و أخبرهم بأن هذا الأمر ليس له إنما هو بشر رسول مبلغ عن الله تعالى، ناسب أن يقص الله عليه ما دار بين نبي الله موسى عليه السلام و قومه و طلبهم موسى حيث قالوا له: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:١٥٣] و قول قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٩٢] و قولهم: ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان ٢١]. و أنه أنزل آيات تسع على موسى مثلما اقترح قومه فلم تفد تلك الآيات فرعون و قومه في الإقبال على الإيمان، و يكفيكم يا معشر قريش ما أنزل الله على محمد ﷺ من آيات علمية عقلية غير مادية فإن لم تؤمنوا كانت عاقبتكم الدمار و الهلاك كما أهلك فرعون و قومه بالغرق، فكان قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ مناسب لما تقدمه من النصوص القرآنية. [١]

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾: و هذه الآيات هي كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (العصا و اليد و السنين و البحر و الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات). أمدَّ الله بها موسى عليه السلام و هي دلائل قطعية على صدقه و صحة نبوته.

وقيل الآيات التسع هي:كما روى صفوان بن عسال أنه قال: إن يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبا إلى النبي ﷺ و سألاه عنها فقال: «هن ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا، و لا تسحروا، و لا تأكلوا الربا، و لا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، و عليكم خاصة اليهود أن تعدلوا يوم السبت. فقام يهوديان فقبلا يديه و رجليه، و قالوا:نشهد أنك نبي و لولا نخاف القتل و إلا اتبعناك»[٢].

ثم قال موسى لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات و الأرض، ولكنك يا فرعون ما أظنك إلا هالكاً ممنوعاً من الوصول إلى الخير.

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾: فأراد فرعون بعد ذلك أن يخرجهم من أرض مصر مطرودين مبعدين فأغرقه الله في البحر هو و جنوده.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾: أورث الله بني إسرائيل أرضهم و ديارهم، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٨].

---

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٠. و التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٨١.

(٢) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ١٨٢

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ثم عاد الكلام إلى القرآن نفسه، و ما أنزلنا هذا القرآن إلا بالحكمة و المصلحة العامة الناقصة في الدنيا و الآخرة، و ما أرسلناك يا محمد إلا بشيرا و نذيراً وعلى الله الثواب والعقاب.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾: فقل لهم يا محمد: آمنوا به أو لا تؤمنوا، وهذا أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم حتى لا يكترث بهم، وهم إن لم يؤمنوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن هناك مَن هو خير منهم وأفضل، وهم أهل الكتاب والعلماء منهم الذين عرفوا الوحي والنبوة، أمثال عبد الله بن سلام وتميم وغيرهما، هؤلاء إذا يُتلى القرآن عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾: ويزيدهم سماع القرآن خشية من الله وخشوعاً له، هكذا هو حال كل مؤمن صادق في إيمان إلى يوم الدين.

- الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الإخبار بأن الله سبحانه وتعالى قد أيّد نبيّه موسى عليه السلام بتسع آيات بيّنات، دلالةً على صدقه وصحة ثبوت رسالته، وهي آيات حسية.
- قوم سيدنا موسى عليه السلام كفروا بذلك، فدمرهم الله تعالى وأغرقهم مع فرعون باليمّ، و ما كانوا معجزين.
- ظهر لنا أن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ آيةً باقيةً إلى قيام الساعة، متضمناً الحق والعدل والشريعة كما قال سبحانه: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾.
- كما ظهر لنا من هذه الهدايات تهديد مشركي قريش بعد إعراضهم عن القرآن ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ فإن العلماء السابقين من أهل الكتاب وهم مؤمنوا أهل الكتاب لم يتمالكوا أنفسهم عند سماعه، إلى أن خرجوا ساجدين خاشعين لله باكين حيث قالوا: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

المقطع الخامس والعشرون

الدعاء بأسماء الله الحسنى

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَمَّا ثبت أنَّ الله تعالى أنزل القرآن على نبيّه محمد ﷺ، وأن العرب عجزوا عن معارضته، وأنه ﷺ قد جاءهم بتوحيد الله ورفض آلهتهم، عدلوا إلى رميه عليه الصلاة والسلام بأن ما نهاهم عنه رجع هو إليه، فقالوا: هذا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهين (يعني قوله عليه الصلاة والسلام: يا رحمن يا رحيم) فجاء هذا النص للرد عليهم: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: فيه رد لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن، وإذن بتسميته بذلك. وكلمة «الحسنى» للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذينك الإسمين، ومعنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعاني الحمد والتقديس والتعظيم، وهي كقوله تعالى في سورة الأعراف:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠].

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾: أي لا تجهر بقراءة صلاتك أو تسمية القرآن صلاة؛ لكونها من أهم أركانها.

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا

وسبُّوا، فأمر بأن يتوسط في صوته كي لا يسمع المشركون وليبلغ من خلفه قراءته. (١)

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾: الحمد لله والثناء بالجميل على الفعل الجميل لله سبحانه، الذي لم يتخذ ولداً، فهو سبحانه ليس محتاجاً إليه، واتخاذ الولد من صفات الحوادث والله عز وجل مُنزه عنها.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾: ولم يكن له شريك في الملك؛ لأنه غير محتاج إليه.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾: ولم يُوالي أحداً من الذل؛ لأنه القادر المقتدر الخالق صاحب النعم جل جلاله.

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾: عظِّمْه تعظيماً يتناسب مع جلاله وقدسيته.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- وضَّحت الآيات أن دعاء الله سبحانه يكون بكل اسم من أسمائه الحسنى، والتي منها الرحمن والرحيم.
- القراءة أو الدعاء يكونان بطريقة متوسطة بين الجهر والسر﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ وسطاً بين هذا وذاك.
- ومن هذه الهدايات الثناء على الله سبحانه المتفرد، الغني عن الشريك والمعين، والصاحبة والولد، فهو الخالق
- القادر الغني عن عباده، الذي يحتاج إليه كل مخلوق ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ولا تجهر بصلاتك، ج٤، ص١٧٤٩، حديث رقم٤٤٤٥. و صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم ١٤٥.

سورة الكهف

بين يدي السورة

اسم السورة:

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة الكهف؛ نسبةً إلى الكهف الذي أوى إليه الفتيةُ، فكان فيه نجاتُهم وعصمتُهم.

وقد دارت السورة الكريمة حول العواصم من الفتن، فهي عصمةٌ ونجاةٌ من الفتن عموما، ومن أعظم الفتن التي تتربصُ بالإنسانية، وقد حذَّر منها نبيُّنا ﷺ أشدَّ التحذيرِ، فتنةُ المسيح الدجال، فكان من خواصِّ هذه السورة الكريمة، أنها عصمةٌ من فتنته ونجاةٌ من شرِّه.

وفي تسميتها بسورة «أصحاب الكهف»: تنويهٌ على شرفهم وتخليدٌ لذكرهم، وتكريمٌ لهم، وتقديرٌ لثباتهم وتضحيتهم، فضلا عما تحويه قصتُهم من نموذجٍ عمليٍّ فريدٍ ومثالٍ تطبيقيٍّ رشيدٍ، لمن سلك طريقَ النجاة من الفتن.

فضائل السورة:

ورد في فضائلِ هذه السورةِ الكريمةِ أحاديثُ وآثارٌ كثيرةٌ، تدلُّ على فضلِها، وتنوِّه بِشَرَفِهَا وترغِّبُ في قراءتِهَا، وحُسْنِ تَدَبُّرِها:

فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**). (١)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي حديث ٢٥٧ - (٨٠٩). وقال مسلم في نفس الكتاب والباب: و حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ جَمِيعاً عَنْ قَتَادَةَ بِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ شُعْبَةُ **مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ**.

وفي رواية لمسلم «**فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**» صحيح مسلم كتاب الفتن باب=

وعن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ أن النبي ﷺ قال: **(مَنْ قَرَأَ سورةَ الكهفِ في يومِ الجُمُعَةِ أضاءَ له من النورِ ما بينَ الجُمُعَتَين)** [1].

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ فَقَالَ (... **إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ**

= ذكر الدجال وصفته وما معه ٤ / ٢٢٥٠ حديث ١١٠ (٢٩٣٧).

ورواه أبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال حديث ٤٣١٤، ونصه « مَنْ حَفظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ»، وقالَ أَبو دَاوُد: « وَكَذَا قَالَ هِشَامٌ الدَّسْتَوَائِيُّ عَنْ قَتَادَةَ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَنْ حَفِظَ مِنْ خَوَاتِيمِ **سُورَةِ الْكَهْفِ** و قَالَ شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ مِنْ آخِرِ **الْكَهْفِ**».

ورواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح ونصه « عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ **(مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ عُصِمَ** مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ قَالَ حَجَّاجٌ **مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ)**. مسند الإمام أحمد ٦ / ٤٤٦. وفي لفظٍ: (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ **سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ** مِنْ الدَّجَّالِ). مسند الإمام أحمد ٥ / ١٩٦.

من هنا فقد ورد أن من قرأ فواتح سورة الكهف أو خواتمها عصم من فتنة الدجال، وجاء في بعض الروايات تحديد هذه الفواتح بأنها العشر الأول، كما جاء تحديد الخواتم بأنها العشر الأواخر، وعلى هذا فالوعدُ بالعصمة يتحقق لمن قرأ العشر الأول أو قرأ العشر الأواخر، بل جاء في رواية للترمذي عن أَبِي الدَّرْدَاءِ، عن النبيّ ﷺ قالَ: «مَنْ قَرَأَ ثَلاَثَ آيَاتٍ مِنْ أَوّلِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدّجّالِ»، رواها الترمذي في السنن كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ باب ما جَاءَ في فضل سُورَةِ الكَهْفِ هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ حديث ٣٠٤٧، وفي بعض الروايات من قرأ خمسَ آياتٍ. ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن العصمة تتحقق بقراءة ثلاثة أو خمس أو عشر من أولها أو عشر أو خمس من آخرها، ففي الأمر سعةٌ، **مع ملاحظة أن العشر الأواخر بناء على عد المدنيين والمكي تبدأ من قوله تعالى** ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة " د ".

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجمعة باب: ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها من كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ وقراءة سورة الكهف ٣ / ٢٤٩ والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢ / ٣٦٨) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، وأورده السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم: ٨٩٢٩- وعزاه إلى الحاكم والبيهقي وصححه، وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح كتاب فضائل القرآن ١ / ٦٦٧ حديث ٢١٧٥ وقال الألباني: حديث حسن.

فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِه وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِم، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِه...) الحديث [١].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: « **بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي**» [٢].

فسورة الكهف: نورٌ وضياءٌ لقارئِهَا، تبددُ ظُلُمَاتِ الفِتن، وهي عصمةٌ لقارئِهَا من فِتنةٍ كبرى، فتنةِ المسيحِ الدجالِ، عَصَمَنَا اللهُ منها؛ وذلك من ثَمَرَاتِ قراءَتِهَا وتدبُّرها والعملِ بها، وفي ضوءِ ما قدّمَتْه من مفاتيحَ للتعامل مع مغاليقِ الفتن، وتحصيناتٍ من الاغترارِ بزينةِ الدنيا وزخارفِها، وبهارجِ الباطلِ وزخارفِه.

وحين ننظرُ في فواتحِ هذه السورةِ الكريمةِ - الآيات العشر الأول - نجدُها قد افتُتِحَتْ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه - كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ بَاب ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ حديث ١١٠-(٢٩٣٧)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب فضائل القرآن - باب الكهف ٥/ ١٥ حديث ٨٠٢٤، وأبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال ٤/ ١١٤ - حديث ٤٣٢١، ورواه الترمذي في السنن كتاب الفتن - باب مَا جَاءَ فِي فِتْنَةِ الدَّجَّال ٤/ ٤٤٢ حديث ٢٢٤٠ وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ وفي رواية النسائي والترمذي: « **فَمَنْ رَآهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ** »، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٨١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب: سورة بني إسرائيل - حديث ٢٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٧٦ حديث ٢٤٤٩، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن حديث ١٣٣، وابن الضريس في فضائل القرآن حديث ٢١٠. والعتاق الأول: أي من السور المكية، والعتاق جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الروعة والحسن والجودة. تلادي: أي ما حفظته قديما، وقال البيهقي « والعتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كلَّ شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم » شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٤٧٦.

بالحمد وهو الثناءُ على الله تعالى بما هو أهلُهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾الكهف: ١، ثم ختمت بالدعاء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ الكهف: ١٠.

وفي الاستفتاح بالثناء والختام بالدعاء ما لا يخفَى من تناسبٍ، فمن داوم على قراءتها وتأمل ما فيها من حِكَم باهِرَةٍ وحُجَج ظاهرة وآياتٍ بيناتٍ وعجائبَ ومعجزات لم يستغرب أمر الدجال ولم يغترَّ به ولم ينخدع بما يأتي به من أعاجيب.

ج. مكية السورة:

كان نزولُها في العهدِ المكي حيث لقيَ الرسولُ ﷺ ومن آمن معه كثيراً من المحن والابتلاءات، على طريق الدعوة الذي حُفَّ بالمكاره والعقبات.

جاءت سورة أصحاب الكهف تسلية وتسرية وتثبيتا لقلب النبي ﷺ حيث كادت نفسه ﷺ تذهب حسرات من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيِّهم سادرون، وفي ضلالهم يعمهون، فجاءت السورةُ لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترفق بنفسه، فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يمنحها من يستحقها.

نزلت هذه السورة على القلوب المستضعفة بردا وسلاما تروي شغافها، وتقوي دعائمها.

نزلت لتكون حجة ساطعة تشهدُ بصدق هذا النبي الصادق الأمين.

وجاءت برسالةٍ موجهةٍ إلى أهل الكتاب: أن في القرآن فصلَ الخِطَابِ لكل ما يطرحونه من تساؤلات.

د. عدد آيات السورة:

وعدد آيها مئة وعشر آيات [١١٠] في الكوفي، وخمسة في المدنيين والمكي، وإحدى عشرة

في البصري، وستة في الشامي.

اختلافها ١٠ آيات: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ المدني الأخير.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ المدني الأول والكوفي والبصري والمكي والشامي.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ لم يعدها المدني الأول والمكي.

﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ لم يعدها المدني الأخير والشامي.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ لم يعدها المدني الأول و المكي.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا ﴾ لم يعدها المدني الأخير والكوفي.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ لم يعدها المدنيان والمكي.

وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة [١٥٧٧]. (١)

هـ. محور السورة:

تدورُ السورةُ الكريمةُ حولَ مِحْوَرٍ من المحاورِ الأساسيةِ والركائزِ الجوهريةِ لهذا الدين إنه الهدفُ الأساسي الذي نزل من أجله القرآن: إنه العصمة من أمواج الفتن المتلاطمة وحُشُودها المتلاحمة، فتنٌ متنوعةٌ متباينةٌ متزاحمةٌ متراكمةٌ، تجعلُ الحليمَ حيرانَ: فتنة السلطان وفتنة الشباب،

(١) يراجع: كتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ١٧٩، وكتاب «أقوى العدد في معرفة العدد» لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ، جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢٠٦.

وفتنة الأهل والعشيرة، وفتنة المال، وفتنة الولد، والاغترار بالدنيا الفانية، وفتنة إبليس اللعين، وفتنة العلم، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الأهواء.

وبيْنَا تُبيِّنُ لنا السورةُ الكريمةُ أنواعَ الفتنِ وتحذِّرُ من مخاطِرِها، فإنها تخُطُّ لنا طريقَ العصمة، وتبرزُ لنا معالم النجاة، وذلك بإتباع المنهج الرباني، والاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه، وتصحيح المفاهيم وتقويم الموازين، وتأصيل القيم، والنظرة الصحيحة للكون والحياة، وإدراك حقيقة الدنيا الفانية، والعمل لدار الخلود، إلى جانب الصحبة الصالحة، والتحصُّن بالعلم النافع، والتزود بالعبادةِ الصحيحة، والتذرع بالصبر والثبات، والتحلي بمكارم الأخلاق، والاعتبار بقصص السابقين.

و. المناسبات في السورة:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

محور السورة كما ذكرنا هو العصمة من الفتن والنجاة من شرورها وأخطارها، كما أن الكهف مأوى وملجأ للإنسان من الوحوش الضارية والآفات والتقلبات، وحين لجأ إليه الفتية وجدوه ملاذا آمنا، كذلك السورةُ الكريمةُ عصمةٌ ونجاةٌ لقارئِها، وقد ذكرنا أن أصحاب الكهف نموذجٌ عمليٌّ للعصمة من الفتن، وبهذا يظهر لنا التناسبُ بين اسم السورة ومحورها.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

كما بدأ الحديث بنعمة إنزال الكتاب كان مسكُ الختام بالحديث عن آيات الله التي لا تنقضي عجائبُها ولا تُحصى معانيها، ففي ختامها تقريرٌ لما جاء في مقدمتها وتذكيرٌ به ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وكما أشارت مقدمة السورة إلى خصائص الكتاب ومقاصده قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الكهف: ١ – ٤ فلقد ختمت السورة الكريمة ببيان طبيعة النبي ﷺ ومهمته ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

وفي مقدمة السورة جاءت البشارةُ للمؤمنينَ الصالحينَ بالأجرِ الحسنِ ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾، ثم فصّلت الخاتمةُ في هذا الأجر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾، كذلك جاءت النذارةُ في المقدمة للكافرين بالعذاب الشديد ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ وقد فصّلته خاتمةُ السورة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

ولما تضمنت المقدمةُ دعوةً إلى التنافسِ في صالحِ الأعمالِ وأحسنِها بتحقيقِ مرادِ الله فيها، وذلك بالإخلاص والمتابعةِ، قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ جاءت الخاتمةُ بتأكيد وتقرير هذا المعنى بالتحذير من محبطاتِ الأعمالِ قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

استهلت سورة الإسراء بالتسبيح وهو تنزيهُ الله تعالى عن كل نقص وعيب، واستهلت سورة الكهف بالحمد وهو إثباتٌ لصفات الكمال، فالتسبيحُ تنزيهٌ ونفيٌ لكل نقصٍ، والحمد إثباتٌ لكل كمالٍ، والتسبيحُ مقدم على الحمد؛ وذلك من باب: « التخلية قبل التحلية».

الصلة بين خاتمة سورة الإسراء وفاتحة سورة الكهف واضحة: حيث اختتمت الإسراء

بحمد الله تعالى و تكبيره وبدأت الكهف بالحمد، وهذا من باب « تعانق الأطراف».

وتتجلى المناسبة بين السورتين الكريمتين في ختام الأولى بإثبات تفرده تعالى بالألوهية والملك ونفي الشريك والولد، ومجيء مقدمة الثانية بالإنذار والوعيد لمن يدعي لله ولدا.

وكما استُهِلّت سورة الإسراء بالتنويه على تلك الرحلة العجيبة « رحلة الإسراء»، فقد جاء الحديث في سورة الكهف عن رحَلاتٍ أخرى عجيبةٍ، منها رحلةُ أصحابِ الكهفِ ورحلة موسى مع الخضر، ورحلات ذي القرنين.

ولئن كان الإسراءُ آيةً عجيبةً ومعجزةً باهرة: فإن إنزال الكتاب هو الآية العجاب والمعجزة الكبرى التي منَّ الله بها على الإنسانية.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

تتناسبُ مقاطعُ السورة الكريمة مع المحور العام لها إذ تفصِّل السورة الكريمة في أنواع الفتن وسبل العصمة منها بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطعُ السورةِ كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الاعتصامُ من الفتنِ ولسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأمُّلاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

السورتان الكريمتان من السور المكية، وفيهما تقريرٌ للعقيدة الإسلامية، ونقضٌ لدعائم الشرك، ودحضٌ لشبه الكافرين، وحديثٌ عن سمات القرآن ومقاصده، مع التأصيل الشرعي للقيم الأصيلة، والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وتثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، كما اشتملتا على سائر أركان الإيمان وأصول العقيدة، فجاء الحديثُ عن الإيمان بالله، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وعن عالم الملائكة الأبرار، وعالم الجن والشياطين، وعن الإيمان بالقدر.

بين مقدمة السورة ومحورها :

لما دارتِ السورةُ حول العواصِم من الفتنِ: استُهِلَّت بالحديثِ عن كتابِ اللهِ وهو العصمةُ والنجاةُ لكلٍّ من استمسك بهديه القويم، واعتصم بنوره المبين.

مقدمة السورة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ١ – ٨]

المناسبة

تأتي مقدمةُ السورة الكريمة منتظمةً ومتسقةً مع محورها وموضوعاتها، حيث جاء الحديث عن الكتاب: نزوله وسماته ومقاصده، ثم انتقل السياقُ إلى تثبيت قلب النبي ﷺ وتسليته، وبيان حقيقة الدنيا الفانية، والحكمة من زينتها العارضة، وزخارفها الزائلة.

التفسير الإجمالي

براعة الاستهلال

بدأت السورةُ الكريمةُ بحمدِ اللهِ سبحانه على ما اتصف به من صفات الكمال ونعوتِ الجلالِ، فهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من نعم وأسدى على عباده من لطف وكرمٍ، ومن تمام إنعامه وجميل إحسانه أن علمنا كيف نحمدُهُ.

ومن أعظم وجوه تفضله وإنعامه وأجلِّ أيادي جودِه وإكرامه: إنزالُهُ خيرَ الكتب على

خير الرسل، هدايةً ورحمةً، وتفضُّلا ونعمة لكل من اهتدى بهديه، واقتبس من أنواره، واقتطف من ثماره، والتقط من درره، واستفاد من عبره.

وفي إخباره عن نزوله بيانٌ لشرفه وسموٌّ مصدره ورفعة مقاصده، واللام في الكتاب لام العهد الذهني، وإنما عبر بوصف العبودية لأنها أسمى المقامات، تناسباً مع شرف نزول الكتاب عليه ﷺ، وإشارة إلى أن من أسمى مقاصده بيان العبودية وتفصيل ما يتعلق بها من معانٍ وأحكام.

فعلَّم الله جل وعلا عبادَه في أول هذه السورة الكريمة أن يحمَدوه على أعظم نعمائه، نعمة إنزال أعظم الكتب على خير الرسل بأكمل الشرائع وأقوم الهدايات، وأيسر الطرق إلى العصمة والنجاة.

قال البيضاوي: « رتَّب استحقاقَ الحمدِ على إنزالِه: تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد»[1].

من خصائص الكتاب ومقاصده

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

دلت الآية الأولى على أن هذا الكتاب من عند الله سبحانه، أنزله على قلب نبيه ﷺ، وفي التعبير بالنزول إشارة إلى سمو مصدره، ورفعة قدره، وفي الحمد دليلٌ على كونه من أجلِّ النعم التي منَّ الله بها على عباده.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي ص٤٧٤.

﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾

بيَّن تعالى سلامتَه من كل عِوَجٍ: فلا يتطرق إليه خللٌ أو نقصٌ، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، كيف وقد جمع بينَ فصاحة ألفاظه ودقتها وقوة دلالتها، وبين جمال التراكيب وروعة الأساليب، وصدق الأخبار، وعدل الأحكام.

فلا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا تناقض ولا اختلاف، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

﴿ قَيِّمًا ﴾

بعد أن نفى عنه العِوَج: بيَّن كماله وتمامه بهذا الوصف ﴿ قَيِّمًا ﴾ فهو قيِّمٌ في ذاته، مُقِيمٌ لغيره، وهذا من باب «التخلية قبل التحلية»، فنفى عنه العوج، وأثبت له الكمالَ والإكمال في ألفاظه وتراكيبه، ومقاصده وأساليبه، فهو المنهج القويم والصراط المستقيم، وهو الداعي إلى الاستقامة في جميع الأمور، وبه قوامُ الحياة وصلاحها، فهو مصدرُ نهضتنا، ونبراسُ حضارتنا، وأساسُ عزِّنا، وعنوانُ مجدِنا، ومنارُ هدايتنا، ودستورُ وَحدتنا، وطريقُ نجاتِنَا، وسبيلُ سعادتِنا.

قال صاحب روح البيان: «﴿ قَيِّمًا ﴾: مستقيما معتدلا، لا إفراط فيه ولا تفريط، أو قيما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال»[(١)].

كذاك فهو قيِّمٌ على الكتب السابقة: مصدِّقٌ بها، داعٍ إلى الإيمان بها، ومهيمنٌ عليها، قد استوعبَ ما جاء فيها من أخبارٍ وأحكامٍ، وقصصٍ وأمثالٍ، شاهدٌ على صحتها، مصدقٌ لها.

---

(١) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢١٥.

﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾

نزل هذا الكتابُ القيمُ بهذا النهجِ القويم: لينذر الكافرين بعذاب شديدٍ بأسُهُ، في العاجل والآجل، وجاء التعبير بـ﴿لِّيُنذِرَ﴾ للإيذانِ بشدةِ هذا العذابِ، وقدَّم النذارة على البشارة من باب الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، ولأن دفع المكروه مقدمٌ على تحصيل المطلوب ونيلِ المرغوب، من باب درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿لِّيُنذِرَ﴾ إلى القرآن، أو يعود إلى النبي ﷺ أي ينذر بالقرآن، كما في قوله تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله سبحانه ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠].

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾

جاء القرآن بالبشارة للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة والتي يتعدى نفعُها للآخرين، وعبَّر بالفعلِ المضارعِ للدلالة على التجدد والاستمرار، والأجرُ الحَسَنُ كما قال صاحب لطائفِ الإشاراتِ: «ما لا يجري مع صاحبِه استقصاءٌ في العملِ، ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل، ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذكِّر صاحبَه تقصيرَه، ويسترُ عنه عيوبَ عمله، لا ينتقلون عنه، ولا ينقلون منه»[(١)].

﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾: فهو نعيم دائمٌ، ومقامٌ أمينٌ، في دار الخلد التي لا يتحولون عنها.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾: بعد بيان عظمة وخطر المنذَرِ به، بيّن شناعةَ جرمِ المنذَرين ممن افتروا على الله الكذب، فادَّعوا اتخاذه ولدا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا: كادعاء يهود بأن عزيراً ابن الله، ودعوى النصارى أن المسيح ابن الله، وادعاء طوائف من المشركين أن الملائكة بنات الله !

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٣٢٦.

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ﴾ لا علم لهم بما يدَّعونَ، وإنما يقولونه عن جهلٍ مفرطٍ وظنٍّ كاذبٍ، وتقليدٍ أعمى لمن سبقهم إلى هذه المقولات التي لا أصل لها ولا برهان عليها.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ إنها دعاوى كاذبة وكلماتٌ عاريةٌ عن الدليلِ والبرهانِ، قد اكتستْ ثوبَ الزورِ والبهتانِ، بل إنها من أعظم الكذبِ، وأفرى الفِرى، مقولةٌ خاطئةٌ لا يُسَلِّمُ بها عقلٌ، ولا يطمئنُّ إليها قلبٌ، ولا مصدرَ لها إلا تلك الأفواهُ الكاذبةُ، التي تردِّدُها دونَ وعيٍ أو إدراكٍ، فما أبشعَها مقولةً وما أشنعها فريةً !

﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ فهي كذبٌ صُراحٌ وكفرٌ بواحٌ، يَبِينُ عن جُرْأتِهم على النطق بها، ووقاحتهم في تقوُّلها.

« والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها، وفيه إيماء إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه»(١).

والشرك بالله أعظم وأشدُّ أنواع الظلم، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾. [لقمان: ١٣]، وروى البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ اللهُ عز وجل (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِك، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً)(٢).

تسليةٌ... وعتابٌ

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾: فإنهم لا يستحقُّون هذا الوجدَ، فلا يستبدَّ بك الهمُّ أسفاً لحالهم وحرصا على هداهم، وفي هذا تسليةٌ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣ / ٢٥٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير - باب: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة: ١١٦ الحديث رقم: ٤٢١٢.

لفؤاده، مع ما ينطوي عليه الكلام من عتابٍ لطيفٍ، إذ كيف تنشغلُ بما لم يطلب منك ؟ وتفكرُ فيما لا تملك ؟

كما قال سبحانه ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

من أسباب الصدود والإعراض !

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

بيَّن تعالى سبباً رئيساً من أسباب صدودهم وإعراضهم، وهو تعلُّقُهم بحبال الدنيا البالية ولذاتِها الفانية، فكلُّ ما عليها من قصور وأنهار، ومدائن وديار، وزروع وثمار، وبحيرات وغابات، وكنوز وثروات، وضَيْعاتٍ وروضات، ومراكب فارهة، وأسواقٍ عامرة، ومراتب عالية، كلُّ ذلك من أعراض زينتها الفانية؛ امتحانٌ لأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

وفي هذا: بيانٌ لحقيقة الدنيا وزينتها، ودعوةٌ إلى الاجتهاد في هذه الدار، فهي دار عملٍ وسعيٍ، ووعيدٌ لمن ركن إليها وافتُتن بسرابِها، وركن إلى متاعها بأن عمرَها قصير وإلى الفناء تصير.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾: قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا بناء، قد استؤصل ما عليها، واجتثَّ من أصوله وجذوره.

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

* الانتفاع بهدي الكتاب والاعتصام به والدعوة إليه.
* سلامة الكتاب من أي تناقض أواضطراب، واشتماله على منهج قويم لإصلاح الدنيا والدين.
* من مقاصد إنزال الكتاب نذارة الكفرة العاصين، وبشارة المؤمنين الطائعين.
* مما يدفع الحزن ويذهب الهم: النظر والاعتبار في حقيقة الدنيا ومصيرها.
* الدعوة إلى إحسان العمل وإتقانه لقوله تعالى ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، وذلك بموافقته وجمعه لمراد الله من إخلاص ومتابعة.

المناسبة بين محور السورة ومقدمتها:

لما دار محورُ السورة الكريمة حول العصمة من الفتن، جاءت المقدمة بالتنويه على نعمة إنزال الكتاب فهو عصمةٌ ونجاةٌ، وقد جاء بالبشارة والنذارة، منذرا لمن سقطوا في خضم الفتن ومبشرا لمن سلكوا طريق العصمة، ثم أشارت المقدمةُ إلى محورٍ أساسي من محاور الفتن ألا وهو الاغترار بالدنيا التي أودع الله فيها من ألوانِ الزينةِ وأصنافها؛ ابتلاء لعباده وتمحيصا لهم.

-١-

قصة أصحاب الكهف

نموذج عملي للنجاة من الفتن

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى
ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ
فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ
نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم
مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا
وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ
قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى
ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا
﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ
أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم
مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ
وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ

ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي
كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ
إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ
فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ
كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ
مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٩ - ٣١]

تمهيد

القصصُ القرآني نهرٌ متدفقٌ بالعطاء والنفحات، وبحرٌ زاخرٌ بالعبر والعظات، وروضٌ أنيقٌ، نتنسم شذاه، ونقتطف جناه، ونجومٌ نيرات وبدور ساطعاتٍ، نترسم خطاها، ونقتبس ضياها، وحججٌ ساطعاتٌ تنطق بصدق النبي الأمين.

من هذا الروض الباسم والبحر الزاخر هذه القصة العجيبة، قصة أولئك الفتية الذين خرجوا فراراً بدينهم، معتصمين بربهم فآواهم المبيتُ إلى كهفٍ أجمعوا أمرهم على البقاءِ فيه حتى تنجلي الفتنةُ الظلماءُ، وينقشعُ البلاءُ، ولم يخطر ببالهم أن نومهم سيطول ليتجاوز ثلاثة قرون، وهم في رقادٍ عميق، حتى أشرق عليهم فجر جديد، وهبت نسائمُ الحرية، بعد أن تعاقبت ممالكٌ، وانطوت عهودٌ، وولّى ليلُ الطغاة.

المناسبة

المناسبة بين القصة وما قبلها: لما كادت نفسه ﷺ تذهب حسرات وتهلك غما وهما من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيهم سادرون وفي ضلالهم يعمهون، جاءت هذه القصة وما تلاها لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترفق بنفسه فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يختص بها من يشاء ويمنحها من يستحقها، وأولئك الفتية نموذج لمن ملأ الله قلوبهم بالإيمان وهداهم إليه بالفطرة والبرهان.

قال تعالى﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾. إلى آخر الآيات.

المناسبة بين القصة ومحور السورة وسياقها:

لما بين الله أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يبرز معادن الناس ويجلي مقاصدهم ويثير همتهم نحو العمل الصالح قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾، لما بين الله تعالى ذلك: ضرب أمثلة تكشف عن موقف الناس من زينة الدنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغتروا بزينة الشباب وزينة الأهل والعشيرة وزينة الأبهة والسلطان بل تركوا كلَّ هذه الملذات وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جل في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي ابتُلِيَ بفتنة المال، فأصابه الغُرور والعجبُ، في حين نجح صاحبه في الابتلاء ونجا من الفتنة، حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فلم يغترَّ بها ولم يقع في شراكها، بل كان لصاحبه الغارق في حب الدنيا، ناصحا أمينا وواعظا بليغا.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة ببيان حقيقة الدنيا الفانية وزينتها الفاتنة، التي تسلب

العقول وتأسر النفوس وتصرفها عن غاية وجودها.

وإذا كان هناك من يغترّ بالمال أو بالولد فإن هناك من يغترّ بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة التي يُمَنّي بها إبليسُ اللعينُ، هذا العدوُّ اللدودُ الذي أظهر عداوته قديما يوم أن امتنع عن السجود لآدم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]،

ثم تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام لتبين أن العلم الشرعي عصمةٌ من الفتن، وأن العالم مهما بلغ من العلم ففوق كل ذي علمٍ عليمٌ، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته وما قدره أمام علم علام الغيوب !

ثم يضرب الله مثلا لمن لم يغترّ بفتنة الملك وزينة السلطان، بل وظّف ملكه ووجّه سلطانه لنشر الدين ورفع الظلم عن المظلومين ورد الطغاة الباغين، وكان كلما جدد الله له نعمة جدد لها شكرا، وكلما رفع الله مقامَه زاد تواضعاً.

مفارقات عجيبة: ندركُها حين نتعايش مع أحداث السورة العجيبة وقصصها المؤثرة: منها أننا أمام ثلاثة ممالك متباينة وأنظمة مختلفة:

ففي قصة أصحاب الكهف نلمسُ صورةَ الملكِ الظالمِ الذي سَلَبَ قومَه عقولَهم وغصبهم حريّتهم فأطَرهم على الكفر أطْرا، يتبين ذلك من قول الفتيةَ كما أخبر القرآن ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

وفي قصة موسى والخضر نلمح شخصية الملك الغاصب الذي يسرق أموال رعيته ويسلب ممتلكاتهم فلا يجدُ من يتصدّى له ويرده عن ظلمه، قال تعالى على لسان الخضر عليه السلام ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف: ٧٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفف الذي مكنه الله في الأرض فأقام

ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل رايةَ الحقِّ ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً.

فشتان بين عهدين:

عهدٍ ساد فيه الكفر والفساد.

وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة.

مملكة كافرة تجعل الكفر لها دستوراً وسياجاً، وملكٌ غاصبٌ طاغيةٌ.

ومملكة مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجاً ونوراً وسراجاً!

وبضدها تتبين الأشياء.

من هنا تتجلى لنا الصلة بين قصة أصحاب الكهف وبين القصص الأخرى التي انتظمتها هذه السورة الكريمة، حيث تدور حول الابتلاء بزينة الدنيا والافتتان بزخارفها وموقف الناس منها، والعواصم من هذه الفتنة الطاغيةِ وسائر الفتن.

وجه آخر للمناسبة

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيسي لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن وأوردت نموذجا عمليا ومثالا واقعيا يُحتذى به، حيث تعرَّض الفتيةُ لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنتهم في دينهم واستغل سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكل المغريات كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله تعالى من كل تلك الفتن لَمَّا خلُصَت نيتهم وصفت سريرتهم وقويت عزيمتهم وصدق توجهُهم إلى الله تعالى.

وهكذا نجدُ السورةُ الكريمةُ تبرزُ لنا طريقَ النجاةِ من جميع الفتنِ، فتنةِ السلطانِ وفتنةِ الأهلِ والعشيرةِ وفتنةِ المالِ وفتنةِ الولدِ وفتنةِ العلم وفتنةِ إبليسَ اللعينِ وفتنةِ القوةِ والتمكينِ من خلالِ قصةِ ذي القرنين، وفتنةِ يأجوجَ ومأجوجَ وفتنةِ إتباعِ الأهواءِ والاغترارِ بزخرفِ القولِ، مما يتواكبُ مع خواص السورةِ وفضائِلِها وعصمتها لتاليها من الفتنِ الحوالكِ.

سبب نزول هذه القصة

ذكر ابن إسحاق: أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سَلاهُمْ عَنْ مُحَمَّد وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ وَأَخبِرَاهُمْ بِقَوْلِه، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الأَوَّلِ وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْم؛ فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، فَسَأَلا أَحْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ وَأَخْبَرَاهُمْ بِبَعْضِ قَوْلِه، وَقَالا لَهُمْ إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَاة، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا ؟ فَقَالَتْ لَهُمَا أَحْبَارُ يَهُودَ: سَلُوهُ عَنْ ثَلاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الأَوَّلِ مَا كَانَ أَمْرُهُمْ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجَبٌ ؟ وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ نَبَؤُهُ ؟ وَسَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ ؟ فَإِذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَا لَكُمْ، فَأَقْبَلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدِمَا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ، فَقَالا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ أَخْبَرَنَا أَحْبَارُ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمَرُونَا بِهَا، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ.

فَجَاءُوا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الأَوَّلِ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصَّةٌ عَجَبٌ وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَّافاً قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؛ وَأَخْبِرْنَا عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَداً وَلَمْ يَسْتَثْنِ فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، فَمَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِيمَا يَذْكُرُونَ - خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لا يُحْدِثُ اللهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْياً، وَلا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَداً، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً قَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولَ الله ﷺ مُكْثُ الْوَحْيِ وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ: ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مُعَاتَبَتُهُ إِيَّاهُ عَلَى حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَخَبَرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ الْفِتْيَةِ وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ.(١)

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢١، ورواها الطبري في جامع البيان ١٧/ ٥٩٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢ / ٢٦٩ وأوردها ابن كثير في تفسيره ٥/ ١٣٣، وأوردها=

التفسير الإجمالي

مطلع القصة وبراعة الاستهلال

بدأ السياق بهذا الأسلوب الشيق أسلوبِ الاستفهام التعجبي ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ فنحن أمام قصة عجيبة، وإن كان هناك ما هو أعجب منها، فخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وآيات الأنفس والآفاق وعالم النبات وعالم البحار فضلا عن عالم الغيب وما فيه من حكم وأسرار ودقائق وأخبار وغير ذلك من عجائب صنع الواحد القهار، كلها آيات عجيبة تستوجب التأمل فيها والاعتبار بها.

وكم يغفل كثيرٌ من الناس عن النعم الظاهرة والآيات الباهرة لكونها مألوفةً لهم، بل وقد يغفلون عن شكر النعم الظاهرة، كنعمة السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار!

قال الرازي رحمه الله: « اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط، فلا تحسبنَّ ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإنه من كان قادراً على خلق السموات والأرض وتزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم بعد ذلك يجعلها صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم، هذا هو الوجه في تقرير النظم والله أعلم»[(١)].

والكَهْفُ: كالمَغارةِ في الجَبَلِ إلاّ أنَّه واسعٌ، أما الرقيم فهو العلامة أو الكتابة أو الرسم على الشيء، قيل: هو اللوح الذي سجلت عليه أسماؤهم، وقيل كتاب دونت فيه أسماؤهم، وقيل اسم الجبل وقيل اسم القرية.

قال سعيد بن جبير ومجاهد: الرقيم لوح من حجارة وقيل من الرصاص كتب فيه أسماؤهم

=السيوطي في تفسيره الدر المنثور ٥ / ٣٥٧، وعزاها لابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل.

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٨١، ٨٢ بتصرف.

وقصتهم ثُمَّ وضع عَلَى باب الكهف.[(١)]

والذي أرجحه: أنه اسم اللوح الذي سجلت فيه أسماؤهم، وسمي بذلك لأن أسماءهم كانت مرقومةً عليه، أي مكتوبة فهو بمثابة لوحة شرفٍ لهم تخليدا لذكرهم.

والذي يفيده السياق أنهم عاشوا في زمان ملك كافر مشرك ظالم، يحملُ الناس على الكفر مستعينا بمن حوله من الكهنة والسدنة، الذين يروِّجون للكفر، ويصرفون أنظار العوامِّ إلى الخرافات والأساطير ويلهونهم بالأعياد والملاهي والطقوس، ولما شرح الله صدور أولئك الفتية، وتآلفت قلوبهم وتعارفت أرواحهم واجتمعت كلمتهم على رفض ما عليه قومُهم من ضلال، بل والإنكار عليهم ودعوتهم إلى الحق؛ رُفِعَ أمرُهم إلى الملك الظالم، ولم تُجْدِ معهم الوعودُ والإغراءاتُ، فتوعَّدهم وهددهم إن لم يرجعوا إلى دينه ودين أتباعه، وأمهلهم، وقبل انقضاء المهلة لم يجدوا بُدّاً من الفرار بدينهم، فخرجوا تحت جُنْحِ الظلام وساروا حتى وصلوا إلى الكهف.

عصمة ونجاة

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

أوى الفتية إلى الكهف: ليمكثوا فيه بعيداً عن أعين الراصدين لهم والباحثين عنهم من قِبَلِ الملكِ الغاشِم الذي أرسل في طلبهم من يأتي بهم بعد أن هربوا من بطشه وظلمه.

فجمعوا بين الأخذ بالأسباب والتوجه إلى العزيز الوهاب فقالوا (رَبَّنَا): وفي التعبير بعنوان الربوبية تأدُّبٌ مع الله تعالى وتودُّدٌ إليه، وتضرُّعٌ واستعطافٌ، أي: يا من خلقتنا ورزقتنا وهديتنا ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ دعاءٌ صادقٌ من ألسنةٍ ذاكرةٍ وقلوبٍ خالصةٍ ونفوسٍ زكيةٍ، ترجو رحمةَ ربها وتلتمسُ رُشدَهُ، فكان أن عمَّهم اللهُ بفضلِهِ وشَمِلَهُم برحمتِهِ وأحاطَهم بعنايتِه.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

---

(١) رجح هذا القول الرازي في تفسيره ٢١ / ٨٢.

فالسمعُ هو الوسيلةُ الرئيسةُ في تنبيهِ النائِم خاصةً من ينام بمعزِلٍ عن الناسِ، والنائمُ لا يسمعُ في العادةِ ما حولَه من أصواتٍ بمجردِ استغراقِهِ في النوم.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

أي ليتحقق ذلك الذي في علم الله تعالى عيانا، ويصير واقعا، فيتبين أيُّ الحزبين أحصى أَمَدَهُمْ: أي مدة لبثهم في الكهف، حيث صارت تلك المدةُ موضعَ خلاف بين العلماء، أو المراد بالحزبين: أهل الكهف حيث زعم بعضهم أنهم لم يلبثوا إلا يوما أو بعض يوم، وبعضهم ظنَّ أن المدةَ طالت فتوقف وفوَّض علم المدة إلى الله، كما سيأتي بيانُه في الحوار الذي دار بينهم، عندما انتبهوا من نومهم فتساءلوا بينهم قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

الفتية في رحاب الإيمان وكنف الرحمن.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ تفصيلٌ بعد إجمال وتقريرٌ بعد بيانٍ، فالقرآن الكريم كتاب الحق نزل بالحق على قلب رسول الله ﷺ الذي لا ينطق إلا بالحق، وقصصه الحق وكل ما فيه من حكم وأحكام وعبر وعظات ووعد ووعيد هو الحق من عند الله.

والذي يقص نبأهم هو العليم بحالهم، المدبِّر لشؤونهم، وفي هذا تشويقٌ للقارئ؛ حين يسمعُها من المولى عز وجل، وفي التعبيرِ بالنبأ: إشارة إلى أن قصتهم لها شأن عظيم وخطب جليل.

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

وفي التعبير بالفتوة بيان لحداثة سنهم، مع قوة إرادتهم وحماسهم للحق.

واختلفوا في سبب إيمانهم: قيل: إنهم آمنوا عن طريق حواري المسيح عليه السلام، ونقل المفسرون روايةً مردُّها إلى الإسرائيليات [1].

وقيل: إنما استجابوا لنداء الفطرة فاهتدوا بفطرتهم السليمة وعقولهم الغضة، ولعلهم

(١) راجع لباب التأويل للخازن ٤ / ١٩٤ وروح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢١.

توصلوا إلى الحق بقراءةٍ واعية واطلاعٍ واسع.[1] والله تعالى أعلم، لكن القراءةَ أو التفكر وحده لا يكفي للوصول إلى الحق، ولعل هناك من دعاهم فاستجابوا له، والله أعلم.

﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

أي بصَّرناهم بمقتضيات الإيمان وأركانه وبراهينه، فازدادوا إيمانا على إيمانهم وهدى على هداهم مصداقا لقول الحق جل وعلا ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة مريم ٧٦]، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة محمد١٧].

قال أبو السعود: «﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾: بأن ثبتناهم على الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه»[2].

والذي يتأمل حديثَهم الممتع وعرضَهم الرائع لأصول الإيمان وإدراكهم لما عليه قومهم من كفر وضلال، ودقة براهينهم وعمق تحليلاتهم، وتبصُّرهم بأمر دعوتهم، وتحليهم بمكارم الأخلاق في مجتمعٍ ساد فيه الفساد والانحلال وعمَّه الكفرُ والضلال، المتأمل في ذلك كله يدرك أنهم كانوا على بينةٍ من أمرهم وعلم نافع وبصيرة نافذة، فضلا عن فطرتهم السليمة وعقولهم الراجحة.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾

شددنا على قلوبهم وثبتناها، ليواجهوا رياح الفتن وأعاصير المحن، ويجابهوا موجات الكفر العارمة وتياراته الجارفة، التي تولى كبرَها وحَمَلَ لواءَها الملكُ المستبدُّ وبطانتُه ودعاة الكفر وسدنته، فألهم الله عز وجل أولئك الفتية بالصبر والثبات في مواجهةِ محاورِ الشر.

قال صاحب روح البيان: «﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قوَّيناهم حتى اقتحموا مضايق

(١) كما دخل كثير من غير المسلمين في الإسلام بعد قراءةٍ واعيةٍ ومقارنةٍ بين الأديان.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥ / ٢١٠ ويراجع روح البيان ٥ / ٢٢١.

الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، واجترؤوا على الصدع بالحق من غير خوفٍ ولا حَذَر، والرد على دقيانوس الجبار [١]، وفي الحديث (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)» [٢].

تقرير العقيدة الصحيحة

﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

قاموا بين يدي الملك الجبار، أو قاموا بمعنى اجتمعوا، أو انبعثوا وعزموا على المضي قدما في طريق الحق.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ يحتمل ثلاثةَ معانٍ:

أحدها: أن يكون هذا وصفُ مقامِهم بين يدي الملك الكافر - كما تقدم، وهو مقامٌ يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته.

والمعنى الثاني: فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعا فقالوا: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾: أي لئن دعونا إلهاً غيره فقد قلنا إذا جورا ومحالا.

والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة

---

(١) زعموا أن هذا اسم ذلك الملك الظالم، وليس في القرآن ولا في السنة ذكر لاسمه، والله أعلم به

(٢) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢٢ والحديث: رواه النسائي في السنن عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ كتاب البيعة - باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر. حديث: ٤٢٠٧ ـ ورواه الترمذي في السنن عن أبى سعيد الخدري أبواب الفتن باب أفضل الجهاد كلمة عدل سلطان جائر حديث ٢٢٦٥ وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه أبو داود في السنن عنه كتاب الملاحم باب الأمر والنهى حديث ٤٣٤٤ ورواه ابن ماجة في السنن عنه كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حديث ٤٠١١.

الناس؛ كما تقول: قام فلانٌ إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجد»[١].

وهذه المعاني جميعها محتملة ومتلازمة ولا تعارض بينها، فلا مانع من حمل القيام عليها وتضمينه معنى العزم والمضاء والنهوض بالحق والقيام به وتحمل تبعاته، واجتماعهم على غير موعد، وصدوعهم بالحق أمام الملك.

﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: لقد تآلفت قلوبُهم، واجتمعت كلمتُهم وتوحدت دعوتهم، فقالوا جميعا: ﴿ رَبُّنَا ﴾ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه، والعجيب أن المشركين بالله تعالى يقرون له بالربوبية ومع ذلك يشركون به آلهة أخرى.

﴿ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾: كما يزعم المشركون، حيث أشركوا بالله غيره في الألوهية مع إقرارهم بأن الخالق الرازق هو الله، لذلك جاء التعبير بـ ﴿ رَبُّ ﴾.

﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾: إن نحن قلنا بمقولتهم الباطلة فقد انحرفنا عن المنهج القويم ونكبنا عن الصراط المستقيم، والشطط: هو مجاوزة الحد والانحراف عن الجادة والبعد عن الحق.

بيان بطلان عقائد الشرك:

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

بعد أن أعلنوا عقيدة التوحيد أعلنوا البراء من عقائد الشرك فأنكروا ما كان عليه قومُهم من ضلال، حيث ادعوا لله شركاء.

﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ فالدعاوى لا بد لها من بينات، وإلا فأصحابها أدعياء.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ : أي ليس هناك أظلم ممن افترى على الله عز وجل وأشرك به سبحانه وهو الذي خلقه ورزقه.

طريق العصمة والنجاة

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٦٥

لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

بعد تقريرهم لعقيدة التوحيد وإبطالهم لعقيدة الشرك وبراءتهم من الكفر وأهله: بيَّنوا واجبهم الذي يتحتم عليهم فعله وهو اعتزال قومهم وما يعبدونه من دون الله والبراء من شركهم، فما - في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ - موصولة أو مصدرية، والمعنى: اعتزلتم عبادتهم أو اعتزلتم معبوداتهم من دون الله.

﴿ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾: أي امكثوا فيه مدة، واجعلوه مأوى لكم إلى أن يقضي الله أمراً واللام في ﴿ ٱلْكَهْفِ ﴾ تدلُّ على العهدِ الذهني أي الكهف الذي يتبادرُ إلى أذهانِهم لذا قالوا ﴿ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ ولم يقولوا: إلى كهف.

والذي يبدو لي: أن هذا الكهف كان معروفا لهم، إما لشهرته وإما لأنهم مرُّوا به في تريضهم وسياحتهم، والله أعلم.

﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾: أي يبسطُ لكم ويفيضُ عليكم من رحمته التي تستنزلونها وتستمطرونها بطاعتكم لربكم وخروجكم في سبيله وتضحيتكم؛ ابتغاء مرضاته.

﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ : أي ما فيه من منافع لكم فترتفقون به، قال ابنُ عباسٍ: « يسهِّل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ويأتكم باليسر وبالرفق واللطف »[1].

وفي هذا دليل على حسن ظنهم بربهم، وجميل توكلهم عليه.

في كنف الرحمن

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي النيسابوري ٣ / ١٣٨.

انطلق الفتية نحو الكهف، واتخذوه مأوى إلى أن يقضي الله أمرا، وقد كان فتنزلت الرحمات ولاحت الكرامات وهبت نسائم النفحات حين اتخذوا مضاجعهم في هذا الكهف الموحش وخلدوا في نوم عميق فهيأ الله لهم أسباب البقاء ووسائل السلامة ليجتازوا بنومهم حواجز السنين، حيث تتهالكُ الممالك، وتتساقطُ الأنظمةُ، وتتبدل أجيال، بينما هم في سبات رهيب لم ينهضوا منه إلا بعد مئات السنين.

قال الزمخشري: « المعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض للشمس لولا أن الله يحجبها عنهم»[(١)]. وقيل إن باب الكهف كان من جهة الشمال فكانت الشمس تطلع على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس لم يكن يصل إليها البتة، لكن الهواء الطيب والنسيم العليل كان يصل.[(٢)]

﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ ﴾ : أي متسع، ومن دقائق التعبير القرآني قوله عز وجل ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ذلك لأن كثيراً من الظواهر الخاصة بالشمس إنما تكون بحسب الرائي وبطبيعة المكان وبإمكانية الرؤية فهو وصف لرؤية العين، وإدراك الرائي.. وليس للحقيقة العلمية الخاصة بالشمس في علاقتها بالأرض ودورانها، وحقيقة المعنى العلمي للشروق والغروب وغير ذلك من الظواهر.

لذا نقرأ في نفس السورة الكريمة في قصة ذي القرنين رحمه الله قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف: ٨٦] فالشمس أعظم من أن تحتويها الأرض أو تحيط بها.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

أي ما حدث لهم من لطائف ربانية ومنن إلهية من آياته عز وجل الدالة على عنايته بأوليائه

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٧٦ ويراجع مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٥ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥ / ٢١٠.

(٢) ذكر هذا الرأيَ فخر الدين الرازي في تفسيره ٢١ / ٩٩، ١٠٠.

وحفظه لهم، والشاهدة بكمال قدرته، وجلائل نعمه ولطائفه التي لا تحصى ولا تعد.

فالهداية من الله يمنُّ بها على من يشاء فمن شاء الله هدايته هداه ومن هداه تعالى فهو المهتد فلا هادي إلا الله، ولا هداية إلا من الله، ومن كتب الله له الشقاء وحكم عليه بالضلال فلا هادي له، ولو اجتمعت الأمةُ بأسرها عليه فلا تُجْدِ العبرُ ولا تغنِ النذر.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

و قوله: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ في الكلام إشارة إلى أنهم كانوا مفتوحي الأعين حال نومهم كاليقظان، والحكمة في ذلك حفظ أبصارهم أن تتجمد في المآقي وتلتصق الأجفان بطول المدة، وهذا من لطف الله بأهل الكهف.

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ حتى لا تتآكلَ أجسادهم.

﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ لما سار الفتية في طريقهم نحو الكهف، تبعهم كلب لعله كان لأحدهم. والوصيد فناء الكهف و قيل: عتبته أو بابه.

و المعنى كانوا على ما وصف من الحال، والحال أن كلبهم مفترش بذراعيه باسط لهما بفناء الكهف، وفيه إخبار بأنهم كان لهم كلب يلازمهم، وكان ماكثا معهم طول مكثهم في الكهف.

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

أي لو أشرفت عليهم وهم نيام في كهفهم على هذه الحال لوليت منهم فرارا من الوحشة والرهبة التي حفظهم الله بها، ولملئت منهم رعبا حين تطبع صورتهم في ذهنك فلا تكاد تفارقك.

الحكمة من تقديم الفرار على الرعب أنه: قد يعترضُ الإنسان ما يخيفه فيفرُّ منه وينتهي الأمر، وقد يفر مما يرهبه ويبقى الرعب ساكنا قلبه، لذا أتبع التولي فرارا بالامتلاء رعبا.

وليس السبب في هذا الرعب والتولي هو ما زعمه بعض المفسرين أن شعورهم وأظفارهم

طالت؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكان أول تساؤل لهم بعد أن استيقظوا من نومهم كما سيأتي بيانه في الآية التالية، ولكن هيئتهم وسباتهم العميق وما أضفاه هذا الكهف من رهبةٍ مع هول المفاجأة: كلُّ ذلك يُفضي إلى الفرار والرعب.

من الكهف إلى المدينة

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقظة وحيرة.... وحذر وحيطة

كان أول تساؤل لهم حين قاموا من نومهم قول أحدهم ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فأجاب آخرون ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وغاب عنهم أنهم ناموا مئات السنين، فرد عليهم آخرون ﴿ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أشهى وأطيب، وقيل هو الحلال الطيب، ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي فوضوا أمر ذلك إلى الله تعالى وانشغلوا بما يصلحكم وهو إحضار الطعام.

وفي هذا دليل على أنهم لم ينووا طول البقاء في الكهف وإلا لتزودوا بما يكفيهم من الطعام والشراب مدة لبثهم فيه، وإشارة إلى ضرورة اختيار الطعام الطيب.

﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

أي يبالغ في الحذر والحيطة، والتخفي أو يتلطف في الشراء، فلا يتعنت مع البائع أو يبخسه حقه أو يتلطف مع البائع، يتفطن له حتى لا يغبنه، قال النسفي: « وليتكلف اللطف فيما يباشره

من أمر المبايعة، حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف»[(١)].

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠ ﴾

لو عرفوا مكانكم وتمكنوا منكم فلن تسلَموا منهم، وفي هذا ما يدل على أنهم كانوا مهددين مطاردين، بعد أن أمهلهم الملك بالعودة إلى دينه، ففروا بدينهم وقد أرخى الليلُ سدولَه حتى وصلوا إلى الكهف.

﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ بناء على ما توعدكم به إن لم ترجعوا إلى دينهم فإما الرجم حتى الموت وإما البقاء مع العود إلى ملتهم وفي هذا من الخسران ما فيه.

﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ إذا عدتم إلى ملتهم، قال الرازي رحمه الله: «فإن قيل أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لهذا الكفر مدة فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه والله أعلم»[(٢)].

في المدينة... بعد ثلاثة قرون !

مئات السنين مرت على هذه المدينة حيث توالت العهود وتعاقبت الملوك وولت دولة الاستبداد والطغيان، وانحلت مملكة الشرك والأوثان، وحلت دولة العلم والإيمان، وتنسمت الأجيال عبير الحرية.

غريبٌ... في مدينته !

خرج من وقع عليه الاختيارُ من الكهف إلى المدينة، فراعَهُ ما وَجَدَهُ من وجوهٍ جديدةٍ

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٠٢، ١٠٣.

ومعالمَ مختلفةٍ حتى التبسَ الأمرُ عليه ولسانُ حالِه يقولُ:

أمــا الديــارُ فإنها كديارِهِــم وأرى رجالَ الحيِّ غيرَ رجالِهِمْ

عجبا ! أليست هذه مدينته التي عاش في أحضانها، وسلك دروبها وعاش فيها طفولته وأحلامه، وشهدت فتوته وشبابه، كاد أن تتشعب به دروب الحيرة ويستبد به الهمُّ، لكن الوقتَ والمقامَ لم يسعفه كي يتحقق من الأمر؛ حتى لا يلفت الأنظار إليه، فأسرع السير ودلفَ إلى السوقِ الذي لم يسلم من التغيير، وهنا حدث ما لم يكن في حسبانه حيث كانت الدراهم التي ألقاها في يد البائع وراء انكشاف أمره، وانتَقَلَ الخبرُ بسرعة البرقِ، وظن البعضُ أن هذا الفتى الغريب قد وقع على كنز عجيب ! فرفعوا أمره للملك الصالح، الذي وجد ضالته حين انكشف أمرُ الفتى، وجاءته الحجةُ الساطعةُ التي طالما انتظرها، ففرِح أيّما فرح أن ساق الله إليه الدليل المادي على بعثِ الأبدان، وخرجت المدينة وراء الفتى وكأنها تشيعُه حيا إلى مثواه، حيثُ عادَ إلى رفاقِهِ وانضمَّ إليهم في رحلةٍ إلى دار الخلود، بينما القوم ينتظرون أمام باب الكهف، فلما طال انتظارُهم أجمعوا أمرهم على دخول الكهف، فراعهم أن وجدوا الفتية قد أخذوا مضاجعهم في مشهدٍ مهيبٍ بعد أن قدموا للبشريةِ قصةً من روائع القصصِ وعبرةً من أجلِّ العبر.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: « حكي في القائلين ذلك قولان: أحدهما أنهم المسلمون منهم، والثاني أنهم المشركون، و الظاهر أنهم أصحاب النفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال **(لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى. اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**»[(١)] .

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂ كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. وعنها رضي الله عنها ١٩- (٥٢٩) وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ، فِيهَا تَصَاوِيرُ، لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ=

ولقد تعقب هذا الكلامَ الإمامُ القاسميُّ رحمه الله فقال في المحاسن: « وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده المسجل بلعن فاعل ذلك، وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني، والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي أو الولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه؛ ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة، وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح: ٢٣: ٢٤].

كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى قادهم ذلك لعبادة الأصنام. إلى آخر ما ذكره رحمه الله[(١)].

وقال السعديُّ رحمه الله: «﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ قال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذمَّ فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى»[(٢)].

=رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الْمَنَاقِبِ بَاب هِجْرَةِ الْحَبَشَةِ حديث ٣٦٦٠ ورواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها ١٦ – (٥٢٨).

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ٢١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٣.

كم كان عددهم ؟

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

أخبر المولى عز وجل عن اختلاف أهل الكتاب في عددهم، وبين أن قول من قال بأنهم ثلاثة أو خمسة قول لا دليل عليه، وإنما بُنِيَ على الظن والتخمين، لذا جاء التعقيب على القولين بقوله تعالى﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ وأتبع قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ بردِّ العلم إليه تعالى ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وبيَّن سبحانه أن هناك من يعلم عدَّتهم، وهم قليل بالنسبة إلى غيرهم ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من القليل الذي استثنى الله عزَّ وجلَّ، كانوا سبعة، وكذا روي عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة[(١)].

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾: أي واضحا وبيِّنا دون تعمقٍ أو خوضٍ فيما استأثر الله بعلمه.

قال الشوكاني: « وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب»[(٢)].

﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾: ففيما قصَّ الله عليك ما يُغْنِيكَ عن سؤالِ أحدٍ.

قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله: « أي ولا تسأل أحدا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فترد عليه أو تزيّف ما عنده، ولا سؤال مسترشد، لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم، وهذا من أدب المسلم أن لا يستفتي أحداً من خلق الله غير أهل العلم من المسلمين»[(٣)].

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

---

(١) يراجع في ذلك معالم التنزيل للبغوي ٣ / ١٥٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٣٦، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي النيسابوري٣ / ١٤٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣ / ٢٧٨، ويراجع التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣ / ٢٩٤.

(٣) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦ / ٣١٧٣.

وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

نهاه عز وجل أن يقطع بشيء أو يعزم على فعل دون أن يستثني فيقول إن شاء الله؛ ذلك أنه ﷺ لما سألوه عن الأسئلة الثلاثة وعد أن يجيبهم في الغد؛ ثقةً بمجيء أمين الوحي جبريل بالجواب الكافي من عند الله تعالى، ولم يقل ﷺ إن شاء الله، فلبث الوحي مدةً لا ينزل، حتى أشاع المشركون أنه هجره، وإنما كان ذلك درسا له ﷺ أن يربط كلَّ ما هو متوقعُ الحصول بمشيئة الله تعالى، لما في ذلك من تفويض الأمر إلى علام الغيوب والتماس التوفيق والسداد، والبركة والتيسير منه تعالى.

قال ابن عطية: « أي عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعدُ تعُمُّ أمتَهُ»(١).

«.. وقد تقدم في أول السورة ذكرُ سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم»، فتأخر الوحيُ، ولأن المرء معرضٌ للنسيان فلقد شرع الله لمن نسي أن يقول « إن شاء الله» أن يذكر ربه، قال تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾».

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾: إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف والمعنى لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة أني نبي من عند الله ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف، وقد كان: حيث أعطاه الله عز وجل من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك «أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسي»(٢).

كم لبثوا في الكهف ؟

قال تعالى ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٠٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١١١.

بين الله عز وجل مدة لبثهم وهي ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي، أو ما يقابلها بالحساب القمري وهي الثلاثمائة وتسع سنوات تقريبا، فبين الله عز وجل مدة لبثهم بالحسابين، وبين الله عز وجل وجوب رد العلم إليه تعالى في مدة لبثهم فهو الأعلم بها.

وقوله تعالى ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أي ما أسمعه وأبصره، وفي هذا بيانٌ لكمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعد ما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفرادِهِ بالولايةِ العامةِ والخاصةِ، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يَكِلْهُمْ إلى أحد من الخلق. ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ وهذا يشمل الحكمَ الكونيَّ القدريَّ، والحكمَ الشرعيَّ الدينيَّ، فإنه الحاكم في خلقه، قضاءً وقدراً، وخلقاً وتدبيراً، والحاكم فيهم، بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

تعقيب على القصة:

وصايا وتوجيهات

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

أي واقرأ عليهم ما أوحى الله إليك فهو الحق والصدق والهدى والرشاد، واتبع هذا الوحي الإلهي فهو الحق الثابت الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فقصصُهُ ووعدُهُ الحق، وأمثالُه الصدقُ، وكل ما فيه من أخبار لا مبدل لها، كما أنه لا مبدل لسننه عز وجل في عباده والتي من بينها نصرتُه لأوليائه وسنةُ التداول، تداول العصور وانقضاء العهود وهلاك الظالمين مهما طال بهم الزمان، واضمحلال دولتهم مهما علت، وقصة أصحاب الكهف دليل على ذلك حيث نجّى الله هؤلاء الفتية من بطش قومهم وجعلهم آية باهرة وحجة ظاهرة على إمكانية البعث بالروح والجسد.

ومن خلال القصة أيضا نتعلم أن لا ملجأ لنا ولا ملاذ ولا عاصم إلا الله.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

لما تبين لنا من قصة أصحاب الكهف كيف اجتمعوا على طاعة الله وتعانقت قلوبهم

وتآلفت أرواحهم على الحب في الله واجتمعت كلمتهم على نصرة دين الله دعا المولى عز وجل رسوله الكريم ﷺ أن يصبر نفسه مع أولياء الله المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فلا ينصرف عنهم لفقرهم أو لضعفهم، فهم بالإيمان أغنى وباليقين أقوى وبالتقى أكرم من غيرهم.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعد بن أبي وقاص ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا.

قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلاَلٌ، وَرَجُلاَنِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢]

وعَنْه ؓ قال فِيَّ نَزَلَتْ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾.

قَالَ: نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ: أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ. وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ: تُدْنِي هَؤُلاَءِ! (١)

حرية الاختيار ومصير الكفار.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩].

المناسبة

بعد هذه الآيات البينات والحجج الباهرات لم يبق للكفار عذرٌ في البقاء على ما هم عليه من صدودٍ وإعراضٍ، وجحودٍ وعنادٍ، فأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يردد كلمة الحق على مسامعهم، أما ثمرةُ الدعوةِ ونتاجُها فأمرُ ذلك مفوَّضٌ لله تعالى، الذي يحاسب عباده فيثيب من سلك طريق الإيمان، ويعاقب من آثر الكفر والعصيان.

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب في فضل سعد بن أبي وقاص ؓ الحديث رقم: ٤٦ - (٢٤١٣).

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ فهم في سجنٍ مطبقٍ، لا مناص ولا خلاص من أسره وقبضته؛ ولا أمل في النجاة منه، بل لا مطمع في منفذ تهب منه نسمة، أو يكون فيه استرواح !

وذلك بكفرهم بالبينات، وصدهم عن سواء الصراطِ، وظلمهم لأنفسهم حين أوردوها موارد الهلاك، وظلمهم للآخرين، فاستحقوا هذا العذاب المهين والمصير الأليم الذي لا مفرَّ منه ولا خلاص.

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ ﴾ من حرِّه، وقال تعالى في موضع آخر ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٠].

﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ أي ذلك الذي يغاثون به فَيُرَاقُ عليهم ﴿ وَسَآءَتْ ﴾ أي النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾: منزلاً، مجتمعاً، وأصل المرتفق المتكأ، وإنما جاء كذلك تهكُّما بهم ومشاكلة لقوله ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ.

وفي هذا تعريضٌ بمجالس السوء ومنتديات الباطل التي كانوا يعقدونها ويحرصون على ارتيادها والظهور فيها، قد أُبدِلوا بالشرابِ الحميمَ المغليَّ، وبالصحبةِ والرفاقِ في هذا المجتمعَ الجهنّمي ! ألم يستنكفوا من قبل من صحبة أهل الإيمان ! ويتعللوا بفقرهم وضعفهم ! فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا... أغيثوا بماء كدردي الزيت المغلي ! يشوي الوجوه حين يقترب منها، فكيف بالجوف ؟ ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾!

عاقبة أهل الإيمان

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

بعد الترهيب من عاقبة الكافرين الخاسرة ونهايتهم الأليمة، يحمل السياقُ نسائم المبشرات لأهل الإيمان والصلاح قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ فإيمانهم الصادق وأعمالهم الصالحة لها أجرها وثوابها.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾: بيانٌ لبعدِ منزلتِهم ورفعةِ مقامِهم ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾: حيث المكثُ الأبدي، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فيزدادون بهجةً وحبوراً، وأنساً وسروراً، ونضرة ونعيما ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾فما أروعها وأبهاها من حليةٍ بهيجة.

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس: ما رقَّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه وثُخن، والمعنى: يلبسون ثيابا فاخرةً ناعمةً من رقائقِ الحرير وما غلظ منه، وإنما خص اللون الأخضر هنا لكونه أحسن الألوان وأزهاها وأحبَّها إلى العيون، وقد قيل ثلاثة يذهبن الحزن: الخضرة والماء والوجه الحسن.

وجمع بين السندس وهو ما رقَّ من الديباج، وبين الإستبرق وهو الغليظ منه زيادةً في النعيم، وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلي للنفس أحب وإلى القلب أقرب، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾خص الاتكاء: لأنه هيئة المنعمين المُطمئنين، وشأن الملوك على أسرَّتهم. ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ { فيها } في قصور الجنة ودورها وأفنيتها ورياضها وأنديتها ومجالسها

﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ﴾: نعم الجزاءُ ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾: أي مقراً ومجلساً، وصُحبةً وأنسا.

المناسبة بين قصة أصحاب الكهف ومحور السورة:

قدمت لنا هذه القصة العجيبة نموذجاً عملياً ومثالاً واقعياً، لمن منَّ الله تعالى عليهم بالعصمة والنجاة من الفتن، حيث الفهم الصحيح والإيمان الخالص، والثبات واليقين والاستعانة برب العالمين مع الأخذ بالأسباب والتزام الحذر والحيطة.

الهدايات المستنبطة

من قصة أصحاب الكهف

في قوله تعالى ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾: درس عملي للدعاة والمصلحين أن لا يغفلوا عن سلاح الدعاء مع مراعاة الأدب مع الله، وانتقاء العبارات المناسبة فلكل مقام مقال، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية أدعيةٌ مباركةٌ لها دلالتُها وخواصُّها وآثارُها

التمس أهلُ الكهف أمرين مهمين هما رحمة الله بهم وإرشاده لهم، وفي طلبهم للرحمة مع الرشاد ما يدلُّ على أنهم ماضون في طريق الحق ثابتون عليه مهما كلَّفهم من تضحيات.

وتتجلى أهميةُ هذا الدعاء للدعاة والمصلحين حين يواجهون المحن والابتلاءات والفتن والعقبات، أو تتشعب بهم الآراء، أو يقفون على مفترق الطرق.

وفي قصة أصحاب الكهف دليل على جواز الفرار بالدين والعزلة حين تشتد الفتن.

قال الإمام ابن العربي: « فِيهِ جَوَازُ الْفِرَارِ مِنْ الظَّالِمِ: وَهِيَ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي الْخَلِيقَةِ» [(١)].

وقال الإمام الجصّاص: « فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَهْرُبَ بِدِينِهِ إِذَا خَافَ الْفِتْنَةَ فِيهِ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الْهَرَبَ بِدِينِهِ خَوْفَ الْفِتْنَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ وَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَحَكَاهُ لَنَا عَلَى جِهَةِ الِاسْتِحْسَانِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ» [(٢)].

وقال السعدي رحمه الله: « وفي هذه القصة دليلٌ على أن من فرَّ بدينِهِ من الفتنِ، سلَّمَهُ الله منها، وأن من حَرِصَ على العافيةِ عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٢٣٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٢٦١.

ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العزّ العظيم من حيث لا يحتسب ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]»[١].

وفي المنار نقل الأستاذ رشيد رضا عن شيخه الإمام محمد عبده « ولا معنى عندي للخلاف في وجوب الهجرة من الأرض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه، أو يؤذى فيها إيذاءً لا يقدر على احتماله»[٢]، وعقب الأستاذ رشيد رضا على ذلك بقوله « فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن دينه بأن يكون ممنوعا من إقامته فيه كما يعتقد، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرا في تصرفه وإقامة دينه»[٣].

وقال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء: ٩٧].

« وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة»[٤].

وذكر ابن العربي في أحكام القرآن من الأسباب الداعية إلى هجر الأوطان: « الْفِرَارُ مِنْ الْإِذَايَةِ فِي الْبَدَنِ؛ وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْخَصَ فِيهِ، فَإِذَا خَشِيَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي الْخُرُوجِ عَنْهُ، وَالْفِرَارِ بِنَفْسِهِ؛ لِيُخَلِّصَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَحْذُورِ»[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٣.

(٢) المنار « تفسير القرآن الحكيم » لرشيد رضا ٥/ ٣٥٧.

(٣) نفس المرجع ٥/ ٣٦١.

(٤) الكشاف للزمخشري ١ / ٤٥١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٤٥٤.

لقد تذكرت والذكرى مؤرقةٌ: المسلمين في الأندلس لما تمكن النصارى منهم فأجبروا من لم يتمكن من الفرار على ترك الإسلام ونسيان لغة القرآن ففر من فر بدينه وبقي من بقي على دينه خفية لا يستطيع=

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾: إشارة إلى حداثة سنهم

= أن يجهر به وإلا فإن محاكم التفتيش مصيرُه؛ حيث العذاب صنوف وألوان، حتى أُجبروا على دخول الكنائس، وممارسة شعائر النصرانية وتسمية أولادهم بأسمائهم. وفي هذه المحنة قال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
دهى (الجزيرة) أمر لا عزاء له ... هوى له (أحد) وانهدّ (ثهلان)
فاسأل (بلنسيةً) ما شان (مرسية)؟ ... وأين (شاطبة) أم أين (جيان)؟
وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر تبكي وهي عيدان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
يا من لذلة قوم بعد عزتهم ... أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم في ثياب الذل ألوان
يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أروح وأبدان
وطفلة مِثل حسن الشمس إذ ... طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

يراجع: نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني ٤ / ٤٨٦، ومحاكم=

وفتوتهم وطاعتهم لربهم في هذه المرحلة المهمة في حياة الإنسان مرحلة الشباب، وهي مرحلة البذل والعطاء، ومرحلة القوة والحماس، ولقد عُنيَ الإسلام بإعداد الشباب وتوجيههم ورعايتهم، فهم عماد الأمة وأساس نهضتها ونبراس حضارتها ومنطلق تقدمها وتحررها، ومبعث عزِّها وصنَّاع أمجادها.

وصدق الشاعر هاشم الرفاعي رحمه الله حيث يقول:

ملكنا هذه الدنيا قرونا ... وأخضعها جدودٌ خالدونَ
وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسي الزمان ولا نسينا
بنينا حقبةً في الأرض ملكا ... يدعمه شباب طامحونَ
شبابٌ ذللوا سبلَ المعالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهم فأنبتهم نباتاً ... كريما طاب في الدنيا غصونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماةً ... يدُكُّونَ المعاقلَ والحصونَ
شبابٌ لم تحطمْه الليالي ... ولم يُسْلِمْ إلى الخصم العرينَ
وإن جنَّ المَساءُ فلا تراهم ... من الإشفاق إلا ساجدينَ
كذلك أخرج الإسلامُ قومي ... شبابا مخلصاً حراً أمينا

إن مرحلة الشباب مرحلة حاسمة في حياة الإنسان لها أهميتها ولها خطرها.

وحين ينشأ الشاب في رحاب القرآن ويحيا تحت ظلال الإيمان فإن جزاءه يوم القيامة أن ينعم بظل الرحمن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ**

=التفتيش في الأندلس تأليف محمد علي قطب ط مكتبة القرآن بمصر وقد أورد فيه المؤلف نقلا عن مراجع عربية وأجنبية صورا بشعة لأنواع التعذيب الوحشي للمسلمين بعد أن حكم الطغاة الأسبان.

إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ...) الخ الحديث [(١)].

فهنيئاً لشاب حافظ على شبابه وصرفه في طاعةِ ربِّه، سيَّما في مجتمعات شاعت فيها فتَنَ الشبهات، وتأججت فتن الشهوات، فترى الدعوةَ إلى الأديان المحرفة والرايات الزائفة، وتجد من يشوّه الحقائق، ويزخرف الأباطيل، وينشر الفسادَ والانحلالَ.

فعجباً لمن يحفظُ شبابَهُ في هذا التيهِ، يصارعُ أمواج الفتن، ويجابهُ أعاصير المحن فيصمُدُ ويثبتُ ويعبرُ هذه المرحلةَ الحاسمةَ سالماً معافى ؟

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ)** [(٢)].

ومن المستفاد من هذه القصة أيضا:

ضرورة إعداد الدعاة وتربيتهم تربية راشدة وتثقيفهم ثقافة واسعة.

حاجة الداعية إلى العلم النافع والبصيرة النافذة والبديهة الحاضرة والقراءة المتأنية للأحداث ومعايشة الواقع، واستشراف المستقبل، والتخطيطِ الدقيقِ.

حاجة الدعاة إلى روح الألفة والمودة والتعاون والتنسيق والمدارسة، والحوارات الهادفة البناءة.

ومن الفوائد الجليلة ما أورده القرطبي في تفسيره: «عن ابن عطية [(٣)] [قال: تعلقت

---

(١) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﷺ كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ح ٦٦٠، ورواه مسلم في صحيحه عنه ك الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ح ٩١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٥١ برقم (١٧٥٠٦)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة حديث ٤٦٢ والطبراني في المعجم الكبير للطبراني ١٢ / ٢٧٥ حديث ١٤٢٦٩، وأبو يعلى الموصلي في المسند ٤ / ٣١٦ حديث ١٧٠٩، وقال الهيثمى في مجمع الزوائد ٤ / ٤٨٧: « رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن»، وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة وحسَّنه، قال: «وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى وسنده حسن...» المقاصد الحسنة ١ / ٦٨، وحسنه العجلوني في كشف الخفا ١ / ٢٤٦ برقم ٧٤٨.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٣٧٣ .

الصوفية في القيام والقول بقوله تعالى ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾]، وتعقبه القرطبي بقوله: « قلت: وهذا تعلق غير صحيح هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروه لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء، ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى، وقد تقدم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية، وقال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد: فأولُ من أحدثه أصحابُ السامري؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل، على ما يأتي »[١].

يستفاد من قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾: أن الدعاوى لا بد لها من بينات، وينبغي على كل من جاء برأي أو قول لا أصل له ولا برهان له به أن يأتي بالدليل إثباتا لما ادعاه وإلا فهو مُدّعٍ، وقد قيل:

والدَّعاوى إن لم تقيموا عليها بينـــاتٍ أصحابُهـا أدعياءُ

قال الرازي: « فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية»[٢].

وقال البروسوي: « وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود، والآية إنكار وتعجيز وتبكيت لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال» [٣].

(١) الجامع لحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٦٦.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ٩٨.
(٣) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢٣.

ومن الفوائد الجليلة: أهمية مدارسة العقيدة، وعرضها على العقول تقريراً لها وتذكيراً بها وتوصية بالثبات عليها، فضلاً عن تجديد الإيمان وزيادته، وهي من التواصي بالحق، وتثبيته في النفوس، وترسيخه في القلوب.

في قصص الأنبياء والصالحين من الصفحات المضيئة والمواقف الرائعة والعبر والعظات ما يثبّت الفؤاد، ويرطّبُ الأكباد، ويُسلّي النفوسَ، ويربطُ على القلوب برباط الإيمان.

ومن الفوائد الطبية في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ ضرورة تقليب المرضى على الفراش؛ حتى لا تترسب الأملاح في جهة واحدة، فتتآكل أجسادهم وتتعرض للتلف والتعفن.

ومن لطائف الفوائد: أنه ورد ذكر كلبهم في القصة أربع مرات، وقد شغل هذا الكلب اهتمام بعض المفسرين والباحثين، فاستطردوا إلى الحديث عن اسمه ولونه وعن قصة لحاقه بهم، فاهتموا بتفصيلات لا فائدة منها ولا ثمرة في البحث عنها، غير أنها تدل على ثمرات الصحبة الطيبة وعموم نفعها وشمول بركتها، فهذا كلب جاء ذكره في أشرف الكتب التي نزلت على أشرف الرسل ﷺ بمجرد سيره وراء الصالحين وحرصه على ملازمته ألا يدل ذلك على شرف الصحبة الطيبة ورفعتِها وثمرةُ صحبةِ الصالحين والتعلق بهم ؟

قال الشافعي رحمه الله:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لعلِّي قدْ أنالُ بهمُ الشَّفَاعَةَ

وقال ابن كثير رحمه الله «وشملت كلبَهم بركتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخبرٌ وشأنٌ»[١].

وقال ابن عطية: وحدثني أبي ﷺ قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم؛ كلبٌ أحبَّ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٤٠.

أهل فضلٍ وصحبَهم فذكره الله في محكم تنزيله[١].

قال ابن كثير «إذ كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنُّك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل»[٢].

وفي الصحيح عَنْ أَنَس ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خارجَيْن منَ الْمَسْجد فَلَقينَا رَجُلاً عِنْدَ سُدَّة الْمَسْجد فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه مَتَى السَّاعَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **مَا أَعْدَدْتَ لَهَا** قَالَ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، **قَالَ فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**، قَالَ أَنَسٌ ﷺ فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ»[٣].

قلت: وهذا الذي تمسك به أنسٌ ﷺ يشمل من المسلمين كلَّ ذي نَفَس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين؛ كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠][٤].

ومن الفوائد المهمة: من قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٤٠.

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب مناقب الصحابة٦ - باب: مناقب عمر بن الخطاب ﷺ. الحديث رقم: ٣٤٨٥، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٢٢٧.

(٤) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٣٧٢ وحاشية الجمل على الجلالين ٣/ ١٢، ١٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٤٠.

مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ [الكهف: ١٩]. الاشتغال بالمهم دون غيره، فقد يخوض الدعاة في جدل عقيم حول مسائل لا أهمية لها ولا ضرورة للغوصِ فيها، بل يجبُ الالتفاتُ إلى واجباتِ الوقتِ ومراعاةِ الأولوياتِ.

ومما يجدرُ التنبيه عليه: أنه في عصور الجهل والانحطاط استغل بعض أصحاب المصالح وأرباب النفوذ بساطة الناس وسذاجتها في تحقيق مآربهم فيدعون اكتشاف كهف في المكان الفلاني به أصحاب الكهف وينسجون حوله الروايات ويقدمون الأدلة على صحة ادعائهم حتى يشيع الخبر بين الناس ويطير بين البلاد ويصير الكهف مزارا يؤمه الناس من بلاد شتى، وما زلنا نسمع عن بعض الجهال أن هناك شجرة في المكان الفلاني، وبئر في البلد الفلاني يتزاحم عليه الجهلة طلبا للتداوي والاستشفاء من الأمراض المزمنة والمستعصية وفي هذا من المخالفات الشرعية ما لا يخفى، فينبغي على أهل العلم تحذيرُ العوامِّ من ذلك.

ولعل هذا يفيدُ في معرفة أسباب اختلاف الناس في مكان الكهف، حتى قيل إنه ببلاد الأندلس أو ببلاد الترك ! والله أعلم.

كما يستفاد من القصة:

* وجوب تفويض العلم إلى الله عز وجل وعدم القطع في المسائل بدون أدلة قطعية.
* وفيه أيضا من آداب الصحبة: إسداء النصح وتقبله وحسن الحوار وترك الجدال.
* ومراعاة الحذر والحيطة، وأن التوكل على الله عز وجل واليقين به لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.
* وفيه جواز الوكالة في البيع والشراء والشركة في المطعم والمشرب.
* وفيها أيضا جواز التمتع بالطيبات كالماء البارد واللحم والفاكهة وغير ذلك، مع القصد والاعتدال، ومراعاة التوازن الغذائي، ولا يتنافى ذلك مع الزهد والورع قال سبحانه

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢ - ٣٣].

* وفي حملهم النقود مع صدق توكلهم على الله: ردٌّ على من يتواكل بحجة التوكل فربما خرج بدون أخذٍ بالأسباب أو حملٍ للمالِ بدعوى التوكل، قال النسفي: «وفي هذا دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأيُ المتوكلين على الله، دون المتَّكلين على الاتفاقات، وعلى ما في أوعية القوم من النفقات»[1].

ومما يستفاد من الآية الواردة في التعقيب على القصة:

* الدعوة إلى تلاوة كتاب الله والاعتصام به، فهو حبل الله المتين ونبراسه المبين وهديه القويم.

* سنن الله في الكون ثابتة وأقداره نافذة فلا مبدِّل لها، وفي هذا ما يدعو إلى الطمأنينة والسكينة والرضا واليقين.

* إذا تعلق القلبُ بزينة الدنيا انصرفت النفسُ إلى صحبة أصحاب الوجاهة والرياسة طمعا في الدنيا الفانية وتعلقا بزينتها، فعلى الداعيةِ أن يخرجَ حبَّ الدنيا من قلبه وأن يقرب أهل الطاعة وإن كانوا فقراء ضعفاء.

* هجرُ أهلِ الغفلةِ، ومجانبةُ أصحاب الأهواء، وذوي التفريط.

* حرية الاعتقاد في الإسلام؛ ذلك أن الحقَّ واضحٌ أبلج لا يفتقرُ إلى إكراه، فالحرية مكفولة للجميع على أن هناك حسابا عسيرا وعذابا نكرا لمن اختار طريق الضلال.

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٦، ٧.

* ومما يستفادُ من القصةِ استحضار العبد لمشيئة الله تعالى، فيما إذا عزم على فعل أمر في المستقبل كما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ، أَوِ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ، إِلاَّ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكاً لَهُ فِي حَاجَتِهِ).[1]

* للمؤمنين عند الله تعالى ثوابٌ عظيم مضاعفٌ، في دار الخلد والكرامة التي تزدان بكل ألوان البهجة والسرور، وأطياف الهنا والحبور.

-٢-

فتنة المال

نظرات في قصة صاحب الجنتين

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢- ٤٤]

---

(١) صحيح مسلم كتاب الأيمان والنذور - باب الاستثناء، الحديث رقم: ٢٣ - (١٦٥٤).

المناسبة

أمر الله رسوله الكريم أن يضرب لهم هذا المثال للعظة والاعتبار، والتذكرة والاستبصار وتصحيح المفاهيم، وأن العبرة بالخواتيم، وأن تقلبَ الكافرِ في النعم إمهالٌ واستدراج، ومكابدةَ المؤمنِ في الدنيا ابتلاء وتمحيص.

فهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لمن يتعزّز بالدنيا، ويستنكف عن مجالسة الفقراء، فهو على هذا متصل بقوله ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال الرازي في تفسيره: « اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبيَّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، أما الذي يجبُ حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية»(١).

ويقول صاحبُ الظلال: « ثم تجيءُ قصة الرجلين والجنتين تضربُ مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذجٌ إنسانيٌ لطائفةٍ من الناس: صاحب الجنتين نموذجٌ للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوةَ الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم. موجبة لحمده وذكره، لا لجحود وكفره»(٢).

وهذه القصة وجهُ اتصالٍ مع قوله تعالى في مقدمة السورة ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ١٥ / ٩٣.

زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ٧ - ٨] فهذان رجلان أحدهما: غرَّته زينةُ الحياة الدنيا، فوقع في حبائلها وغرق في خضم فتنتها، والثاني: زهدَ في الدنيا، فعصمه الله من غرورها وفتنتها.

المعنى الإجمالي

بين أيدينا قصةُ رجلين: أحدهما كافر، وهو المبتلى بالرخاء، والآخر مؤمن: وهو الممتحن بالشدة، جعل الله للكافر جنتين من أعناب، والعنب فاكهةٌ وقوتٌ، فوائدُهُ جمةٌ ومنافعُهُ عظيمةٌ وأشجارُه على اختلاف ألوانه وتنوع مذاقه ومنظرِه مما تبتهج به العيون وتنشرح له الصدور.

عطاءٌ وابتلاء

قال تعالى ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

أي جعلنا له جنتين من أعناب، على حافة الجنتين نخيلٌ يحيط بهما إحاطة السوار بالمعصم وجعلنا بينهما زرعا لتتم النعمة وتكتمل تلك البهجة.

قال الرازي: «﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ والمقصود منه أمور:

أحدها: أن تكون تلك الأرض جامعةً للأقوات والفواكه.

وثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض.

وثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة»(١).

﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٢٤ ويراجع: روح المعاني للألوسي ١٥ / ٢٧٤.

إشارة إلى خصوبة التربة ووفرة المحصول وسلامة الزرع من الآفات وكثرة الثمار ونضجها وطيبها، على غير ما هو معهود في سائر الحقول والبساتين، التي يتفاوت جَناها زيادةً ونقصاً وجودة ورداءةً، بحسب اختلاف الأعوام، وتقلبات الجوِّ، وآثارِ الآفات.

﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾: يجري بالخير الوفير ويجود بالسَّلسلِ النَّمير، فيسقِي الزرعَ ويروي الظمآنَ، وتكتملُ البهجةُ ويتم الأنسُ بمائِهِ الرقراقِ، وجداولِهِ التي تسري بين بساتينِ العنبِ وصفوفِ النخيلِ وسطورِ الحقولِ.

قال صاحب الكشاف: « جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلةٌ متشابكةٌ لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها»[(١)].

تكاثرٌ وافتخارٌ !

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ أي كان له تجارة يصرفها وينميها، وأموالٌ يستغلُّها ويُرْبيها، ودوابٌّ يعلِفُها ويُرَبِّيها، فضلا عن الجنتين مما زاده فخرا وتِيهاً، حتى قال لصاحبِهِ المؤمنِ ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ تباهى بكثرة أمواله، واغترَّ بأهله وعشيرته.

ظنونٌ واغترارٌ !

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ أراد بدخوله أن يترفَّع على صاحبه المؤمن ويتعالى عليه بما عنده من خيرات وثروات، ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾: حمله على هذا القول الذي لا يُلقي له بالا: ما هو عليه من عُجبٍ وغرورٍ وتبطُّرٍ وجحودٍ، فقال

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨٩، والسَّيْحُ: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأَرض.

ذلك في زهوٍ وخُيلاء ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أنكر البعث والحساب؛ رُكُوناً إلى الدنيا واطمئناناً بها، وحتى لا يحاسب على تلك النعم ويعاقب على كفرانه وطغيانه، وجوره وقصوره، وغروره وخيلائه، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾: أي ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، وإما أن يكون هذا ظنَّه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، فأيُّ تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله وحماقته: أن من أعطي في الدنيا يعطى في الآخرة، ومن أغناه الله في دنياه فقد رضي عنه وأرضاه ! بل إنه تعالى قد يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه؛ إذ لا نصيب لهم في الآخرة.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨ – ١٩].

وقال جلَّ وعلا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ كيف يحسنُ الظن بالله وقد أساء العمل فتوهم أنه ما أوتي هذه النعم إلا عن جدارةٍ واستحقاقٍ، وأنه لو رجع إلى ربه لوجد المزيد من الحفاوة والإغداق !

نصيحة وإعذار.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا

بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ ﴾ .

قال له صاحبه ناصحا ومذكِّرا، في حوارٍ هادفٍ بنَّاء، يقصد من خلاله أن يتتشله من أعماق الفتن ويردَّه إلى الحقِّ: ﴿ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴾ ؟

إن هذا البطر والاغترار والجحود والإنكار كفرٌ بواحٌ بمن خلقك من تراب، فردَّه إلى أصله وطبيعته ليعالجه من داء الكبر، بتذكيره بمادة الخلق التي يتساوى فيها مع سائر البشر فمن التراب وإلى التراب، كما قيل:

خلقتَ من الترابِ فصرتَ حيّاً وعُلِّمتَ الفصيحَ منَ الخطاب
وعدتَ إلى التراب فصرتَ فيه كأنك ما خرجتَ من التراب

فكيف يتكبر من أصلُه التراب، ومنشأُه النطفةُ ! وكيف يغفل عن الحكمة مِنْ خَلْقِه وهي عبادة الواحد القهار، وكيف ينصرف عن التفكر والاعتبار، وقد سوَّاه الله رجلا مكتمل الخِلقة وافر العقل !

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ ﴾: بعد إنكار ما هو عليه من كفر وضلال بيَّن له صاحبُه العقيدة الصحيحة والنهج القويم، وهو الإقرار لله تعالى بالربوبية والشهادة له بالوحدانية، والتأدب معه تعالى والثناء على نعمه الجليلة.

فكان قصدُ المؤمنِ من حواره: تصحيح المفاهيم، وضبط الموازين، وتأصيل القيم، وذلك ببيان أن العبرة ليست بكثرة المال والولد، فتلك أعراضٌ فانيةٌ، وعاريةٌ مستردَّةٌ.

قال صاحب الظلال: « وهكذا تنتفض عزةُ الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنَّفر ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم

وهو يطمع في فضل الله»[(١)].

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾: «هلا قلت: ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله، حضَّه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، وعلى الإقرار بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوّته وقدرته»[(٢)].

ثم التفت إليه ليصحو من غفلته وينتبه من غفوته قبل فوات الأوان وتبدلِ الحال: فقال:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ فهذا ميزان خاطئٌ وفهمٌ قاصرٌ ونظرةٌ مادية مجرّدة، إذ لا يقاس الناس بما لديهم من أموالٍ وبنين.

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وفي هذا ما يدل على الرضا بما قسم الله، واليقين بفضل الله، والاستبشار برحمة الله.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يرسل عليها من الصواعق والمهلكات، بقدر ما يخربها ويدمِّرُها، عقابا لك على كفرك وبَطَرك، ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي فتصبح جنتُك بعد أن كانت خصبةً طيبةً زاخرةً، أرضاً قاحلةً جرداء، لا نبتَ فيها، قد خيَّم عليها الخرابُ وأحلَّ بها البوارُ: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي يغوصُ ويذهبُ في أعماقِ الأرض: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾: لا تقدر على ردِّه إلى موضعه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠١ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤١٠.

لما أعرض عن الحق، وصَدَفَ عن البرهان، عوقب بالنقص والحرمان، وباءَ بالخَيبة والخُسران: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ أصابَهُ الدمارُ الشاملُ، وأصلُهُ من إحاطةِ العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملَكه واستولى عليه، ثم استُعمِلَ في كل إهلاك، ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ندما وحسرة على ما سلف منه، ووقعَ له، وحزنا على ما أنفق فيها.

﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ بعدما أصابها من هلاك ودمار، وخراب وبوار.

﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أدرك أن ما أصابه بجريرةِ شركِهِ وشؤم معصيته.

إنها ساعة المحاسبة ولحظة المراجعة، ساعة الحسرة والندم على ما فات، أين ماله الذي ساقه إلى الفخر والتيه ؟ أين أهله وعشيرته وخدمه وحشمه ؟ هل وجد فيهم ما كان يرتجي من العزة والمنعة ؟

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ما كان له من ينصره ويعصمه من أمر الله وما كان منتصراً بنفسه، إذ لا حول له ولا قوة.

ولكن: ما هو مصير هذا الرجل ؟ هل كان ندمُهُ بدايةَ توبةٍ صادقةٍ ؟ أم كان مجرد حسرةٍ وندمٍ على ضياعِ دنياه ؟ وإذا كان الرجلُ قد تاب توبة ناصحةً فهل عوَّضه الله في الدنيا عما سلبه منه ؟

يقول السعديُّ رحمه الله: « ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه اللهُ الإنابةَ إليه، ورَاجَعَ رشدَه، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجَّل له العقوبةَ في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول»[١].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٧.

سننٌ ثابتةٌ في كونٍ متغيِّر !

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

إذا كانت الدنيا متقلبةً لا يدوم لها حالٌ، وإذا كان الكونُ خاضعا للتغيير، والأيام تدولُ فإن هناك سننا ربانيةً ثابتةً، لا تحُولُ، منها: ولاية الله لأوليائه ينصرهم ويجبرهم، وأن عاقبة الأمور لله تعالى، فإليه المرجع والمصير، هو خير ثواباً لأوليائه في الدنيا والآخرة، و خير عاقبة لمن رجاه وآمن به وسعى إليه.

هنالك في ضوء هذه القصة وما انطوت عليه من عبر وعظات، فالولاية لله تعالى يعزُّ من أطاعه ويذل من عصاه، ينصر أولياءه ويخذل أعداءه.

تعقيب على القصة

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ا[الكهف: ٤٥ - ٤٩].

المناسبة

لما كان الاغترار بالدنيا والافتتان بزخارفها من أعظم البواعث على الفتن والدواعي إلى الصدود عن الحق: ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ لزوالِ الدنيا وضآلتِها بماء نزل من السماء فَرَوَى الأرضَ وأخرجَ النبات ليدور دورته المعهودة، حتى يحين الحصاد، فإذ بأوراقه النضرةُ المُخضرةُ قد

ذَوَتْ واصفَرت وذَبُلَتْ، وسيقانُهُ تساقطتْ وتحطمتْ، وتأتي الرياح لتذروه فيصبحُ كأن لم يغن بالأمس، ثم انتقلَ السياقُ إلى مشاهدٍ من أهوالِ يومِ القيامةِ؛ لترهيبِ المفتونين بزينةِ الدنيا المغترينَ بها؛ ولتسليةِ المؤمنين وتذكيرِهم بهذا اليومِ الموعودِ.

مثلُ الدنيا

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ كما اختلط النبات بعضه ببعض حتى التفت سيقانه وتشابكت أغصانه، وتفتحت أزهاره وتفتقت وأينعت ثماره ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ الهشيم: الكسير، وهو من النبات ما تكسر وتفتت، بسبب انقطاع الماء عنه أو بانتهاء دورته وانقضاء أوانه.

﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ تفرقُه وتنسفه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي: على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء.

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

لما كشف بهذا المثل المحسوس عن حقيقة الدنيا الفانية، أشار إلى أبهى محاسنها وأعظم مفاتنها وأحلى زينتِها: المال والبنون، فبيّن أنها زينةٌ ماحلة وعارية مستردة ولذة فانية، أما ما ينفع الإنسان ويبقى أثره ويخلد ذكرُه ويدومُ نفعُه فما قدَّم من أعمالٍ صالحاتٍ وما وفَّى من واجباتٍ.

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

أعمال الخير التي تبقى ثمرتُها للإنسان، وتشملُ كلَّ عمل صالح وكلَّ طاعة واجبة أو مستحبة من صلاة وصيام، وزكاة وصدقات، وحج وعمرة، وقراءة وذكر، وطلب علم نافع وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر الوالدين، والقيام بالحقوق الزوجية، وحقوق

الأولاد، وسائر الحقوق، وجميع وجوه الإحسان، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خيرٌ عند الله ثوابا وخيرٌ أملا، فثوابها باقٍ، وثمارها ممتدةٌ وارفةٌ.

«وصاحبها ينتظر الثواب، وينبسط أمله على حالٍ خيرٍ من حالِ ذي المال والبنين دونَ عملٍ صالحٍ»(١).

وقيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالها سلوكا وعملا في منزلها الذي وضعها الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله، قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

من مشاهد القيامة

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧ – ٤٩]

المناسبة:

بعد التذكير بحقيقة الدنيا وزوالها، ناسب ذلك الانتقال إلى مشاهد القيامة وأهوالها: فقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾: أمر تعالى بتذكر هذا اليوم إذ لا يجوز لعاقلٍ أن يغفل عنه، ودعا إلى تصوُّر هذا المشهدِ الرهيب واستحضاره حتى يكون المؤمن دائما على حذرٍ من الآخرة واستعدادٍ

(١) جزء في « تفسير الباقيات الصالحات» لأبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي ص ١٨.

لها، فكم في هذا اليوم العظيم من أهوالٍ عظام، منها تسييرُ الجبالِ كما تسير السحاب، ودكُّها ونسفُها وبسُّها وتطايرُها قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾ [التكوير: ٣].

و قال جلَّ وعلا: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ ﴾ [النمل: ٨٨] وقال سبحانه ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ ﴾ [الحاقة: ١٤] وقال عز وجل ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة: ٥ - ٦]. وقال تعالى﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ [القارعة: ٥].

وقال سبحانه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾: بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان، وبروز ما دُفِنَ في بطنها، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ ﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال جل وعلا ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ [الزلزلة: ١- ٢].

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾: فلم نترك منهم أحداً. ونظيره قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠] ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ لم يتخلَّف منهم أحد، وقد وقفوا في صفوف منتظمة، في خضوعٍ واستسلام وتجرُّدٍ وانكسارٍ.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ يقول لهم رب العزة لقد جئتمونا حفاةً عراةً، قد تجرَّدتم من كل حولٍ وقوةٍ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ إضراب وانتقال من كلام إلى كلام، لتبكيت وتقريع

منكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم، وننجز ما وعدناكم به من البعث والجزاء فقد جاء الموعد !

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ كتاب الأعمال، فظهر لكلِّ إنسانٍ عمله يقرأه مكتوبا ويشاهده مصوَّرا بل ويسمعه ناطقا.

قال تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٨ - ٢٩].

وقال جلَّ وعلا ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي: خائفين وَجِلينَ مما في الكتاب، لما ينطوي عليه من الفضيحة والعذاب.

﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل والثبور لوقوعهم في الهلاك، ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ أي: أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها.

وقدم الصغيرة اهتماماً بها، ليحذِّر من مغبَّتها، فما بالكَ بالكبيرةِ؛ أليس الحذرُ منها أحرى وأولى.

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا مكتوباً مثبتاً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي: لا يُحصي على أحدٍ غيرَ ما قدم، ولا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه.

لقد مضت الدنيا بسرابها الخادع وبريقها الزائف وزخرفها الماحل، ولم يبق منها إلا الباقيات الصالحات، فهي خير زادٍ وأعظم زخرٍ ليوم المعاد.

المناسبة بين محور السورة وقصة صاحب الجنتين

لما كانت مباهجُ الدنيا من أعظم دواعي الفتن، وردت هذه القصة وتضمَّنت نموذجين متباينين من الناس: النموذج الأول من اغترَّ بزينة الدنيا وجحد نعم الله عليه، والنموذج الآخر لمن عصمه الله من الوقوع في حبائل الدنيا بعلمه وإيمانه وثباته ويقينه وإيجابيته في دعوة صاحبه ثم يضرب الله للدنيا مثلا لبيان اضمحلالها وزوالها، لينتقل السياقُ إلى عرضِ مشاهدَ من يومِ الحشرِ، لشحذِ الهممِ وصرفِ العزائم للعمل لهذا اليوم.

الهدايات المستنبطة من قصة صاحب الجنتين

* في هذه القصة الهادفة: اعتبارٌ بحال ومآلِ الذي أنعم الله عليه، فكفر بأنعم الله وأساء الأدب مع مولاه، واغترَّ بها أولاه، فخسر دنياه.
* التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من نعيمٍ مقيمٍ وفَرَحٍ مُستديم.
* ضرورة توجيه النصح إلى الغافلين المفتونين، وإقامة الحجة عليهم.
* جواز الدعاء بتلف مال ما كان ماله سبب كفره وطغيانه وتمرُّده وعصيانه، وتبطُّره على أهله وخِلانه.
* « إن تذكر الموت وتصور الحياة الآخرة مما يقضُّ مضاجعَ المترَفينَ البطرين الأشرين، لذا يحاولون إلقاء حجب كثيفة بينهم وبين الاعتقاد باليوم الآخر». [(١)]
* ضرب الله تعالى مثلا واقعيا محسوسا لحقيقة الدنيا وسرعة انقضائها وتلاشي نعيمها حتى لا يغتر بها المؤمن؛ فإن الاغترار بها من أعظم أسباب الوقوع في الفتن وتسلطها على الساقطين في براثنها.
* إذا كان المال والبنون من أعظم زينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى: فعلى المؤمن أن يحرص

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٢٣٠.

على الباقيات الصالحات، وهي كل عمل نافع يتقرب به إلى الله ويبتغي به وجهه الكريم.

* من دواعي العزوف عن زينة الدنيا والنجاة من فتنها، والسلامة من آفاتها: استحضار اليوم الآخر، وتذكُّره، والاستعداد له.

* ضَرَبَ اللهُ تعالى في كتابه الكريم أمثلةً عديدةً متنوعةً تصورُ لنَا حقيقة الدنيا وتوجه أنظارنا إلى التفكر والاعتبار في شأنها، وفي هذه السورة الكريمة كانت هذه الصورة الواقعية المعهودة مثلا حيّاً محسوسا للدنيا، حيث شُبِّهَتْ بماء المطر، ينزل على الأرض اليابسةِ، فتنبت من كل زوج بهيج، حتى يختلط النباتُ بعضه ببعض، فتتشابكُ الأغصان وتلتفُّ السيقان، ويأخذ النباتُ دورته حتى يزهر ويثمر، فإذا أينع الثمر وحان وقت الحصاد وتمَّ القطافُ، ذهبت نُضرتُه وذبُلَ ويبس، وأضحتِ الأرضُ كأن لم تغن بالأمس، وهكذا تبدأُ الحياة وتنتهي فما أقصرها وأهونها ! وهذه حال الدنيا، تقبلُ على صاحبها حين تُدْبرُ عن غيره، فتعيره من محاسنها ما سلبته الآخرينَ، حتى إذا ذاق من حلاوتها وأمَّل فيها، وركنَ إليها، وهام بها وارتمى في أحضانها: انزوت عنه وهجرته إلى حبيبٍ غيره، فعلى العاقل أن يكون منها على حذرٍ، وأن يجعلها قنطرةً إلى دار المستقرِّ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) (١).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ « أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبى سعيد الخدري ﷺ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (الرقاق) باب بيان فتنة النساء ٤/ ٢٠٩٨ حديث ٧٢- (٢٧٢١).

وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً فَقَالَ (**مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**)[(٢)].

وصدق من قال في وصفها:

أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ　　　إن اللبيبَ بمثلِهَا لا يُخْدَعُ

***

تَرُوحُ لنا الدُّنيا بغيرِ الذي غَدَت　　　وتَحْدُثُ مِن بعد الأمورِ أمورُ

وتَجْرِي الليالي باجتماعٍ وفُرْقَةٍ　　　وتَطْلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ

وتَطْمع أن يَبقى السُّرُورُ لأهله　　　وهذا مُحالٌ أن يَدُوم سُرُورُ

وقال أبو العتاهية:

هي الدنيا إذا كَمُلتْ　　　وتَمَّ سرُورُها خَذَلتْ

وتَفعل في الذين بَقوا　　　كما فيمن مَضى فَعلتَ

وما أروع قول أبي نُواس:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكَشَّفت　　　له عن عدوٍّ في ثِياب صديقِ

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ　　　وذو نسَبٍ في الهالكين عَريقِ

وقال ابن عبد ربه في عقده الفريد :

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الرِّقَاقِ باب: قول النبي ﷺ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) حديث ٦٠٥٣.

(٢) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. سنن الترمذي تابع أبواب الزهد، باب ٣١، ورواه ابن ماجة في السنن كتاب الزهد باب مثل الدنيا حديث ٤١٠٩.

ألا إنما الدُّنيا نضارةُ أيْكةٍ　　　إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هِيَ الدَّار ما الآمالُ إلا فَجَائعُ　　　عليها ولا اللَذاتُ إلا مصائبُ
فكم سَخُنت بالأمسِ عينٌ قَريرةٌ　　　وقَرَّت عُيُونٌ دمعُها اليوم ساكِبُ
فلا تَكْتَحِلْ عَيْناك فيها بِعَبْرَةٍ　　　على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

-٣-

فتنةُ إبليس

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠ – ٥٣].

المناسبة

بعد الحديث عن فتنة الدنيا وزوالها، وما يتعقَّبها من حساب وجزاء، جاء الحديث عن فتنة أخرى ينبغي أن يحذَرها المؤمنُ ويتوقَّاها ويتحصَّن منها، فهي من أعظم الفتن وأشدُّها خطرا، إنها فتنةُ إبليس اللعين، العدو الأكبر للإنسانية، والذي يتزعم شياطين الإنس والجن في معركة الإغواء والتضليل، فكم من بدعةٍ حسَّنها وكم من معصية هوّنها وكم من طاعةٍ صَرَفَ عنها، وكم من توبةٍ سوَّفها، فهو العدوُّ الأولُ للإنسانية، أبى واستكبر، وكفر وتبطَّر، وامتنع عن السجود لآدم حسدا وكبرا، ثم لم يزل به حتى أخرجه من الجنة بوساوسه وأكاذيبه، أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم فسجدوا جميعا غيرَ إبليس، أُمر فلم يسجد؛ كبرا وعنادا وتمردا وعصيانا، وغُرورا وعُجبا وتعصُّبا لعنصرِه الناريِّ، ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠

خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢].

المعنى الإجمالي

أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم عليه السلام سجود تكريم ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ « خانه أصلُه؛ فإنه خُلِقَ من مارج من نار،... فعند الحاجةِ نضح كلُّ وعاء بما فيه، وخانه الطبعُ عند الحاجة، وذلك أنه كان قدْ تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبَّه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة »[1]، أبعد هذا يُستجَابُ لوساوسِهِ ؟ ويُترَكُ له القِيادُ؟

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ ﴾ أتوالونه وذريته مع ظهور عداوتهم وانكشاف ضلالهم وإضلالهم ؟ ﴿ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ استبدلوا طاعة إبليس وذريتِه بعبادة ربهم وطاعته، فبئس ما صنعوا.

تعقيب

دحض شُبهِ المشركينَ، وبيان أسباب صدودهم

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف: ٥١ -٥٢].

ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولا اتخذت أولئك المضلين عضدا: فكيف تتخذونهم أولياءَ من دون الله ؟ وتدَّعون معرفتَهم بالغيب ؟ فالآيةُ دحضٌ وردٌّ على أولياء الشيطانِ، أو ما أشهدتُ المشركين خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، ولا كنت متخذا لهم عضدا، فهي ردٌّ على أصحاب النظريات الخاطئة في نشأة الكون مثل نظرية دارون وغيرها من نظريات الكفرة الملاحدة الذين لا قيمة لهم ولا وزن لهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٦٧.

عند الله.

واختار الرازي عودة الضمير إلى المشركين فقال: «... الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة، بل هم قوم كسائر الخلق، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له لست بسلطان البلد... حتى نقبل منك هذه الاقتراحات»[١].

﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ ﴾ يعني يقول الله تعالى يوم القيامة للمشركين ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ﴾ المرادُ بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى، وقيل: إبليسُ وذرِّيتُه ﴿ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ ﴾ يعني أنهم شركائي ﴿ فَدَعَوۡهُمۡ ﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينصروهم.

قال أبو السعود « ﴿ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾ فلم يُغيثوهم؛ إذ لا إمكان لذلك وفي إيراده مع ظهوره: تهكُّمٌ بهم وإيذانٌ بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به»[٢].

﴿ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴾ يعني حاجزا بين الضالين والمضلين، أو بين المشركين ومعبوداتهم التي عبدوها من دون الله، أو بين أهل الهدى والضلال، أو بين كل هالكٍ وهالكٍ، حتى يظلَّ في معزلٍ عن غيرِه ويبقَى وحيداً مستوحشاً.

﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ ﴾

﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ ﴾ أي فأيقنوا ﴿ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ مخالطوها واقعون فيها

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٣٨ بتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٢٩.

أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعةَ، وقد راعهم منظرُها وصُعقوا من شهيقها وفزعوا من هولها ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ انصرافاً أو معدِلاً ينصرفون إليه، كيف وقد أحاطت بهم.

الهدايات المستنبطة

* في إيراد قصة إبليس تحذيرٌ من فتنته ووساوسه، واعتبارٌ بكِبْرِه وغروره وعُجبه واختيالِه الذي حَمَلَهُ على التمرُّدِ والعصيانِ وأودى به إلى التهلكة والخسران، وفي هذا درسٌ لكل متكبِّرٍ مغرورٍ أن يحذَر عاقبة ذلك، ودرسٌ للإنسانية أن تحذَر من موالاة إبليس وذريته والانسياق لوساوسه ونزغاته فهو أعظم خطرٍ يهدد الإنسانية.

* إن من أمضى أسلحة إبليس وأشدها خطرا على الإنسانية فتنة الاغترار بزينة الدنيا الماحلة وزخارفها الباطلة، ولقد قال تعالى محذرا من ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر: ٥ – ٦].

* لإبليس اللعين أعوانه وجنوده الذين يسخرهم ويقودهم في معركته مع الإنس:

فعَنْ جَابرٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ، قَالَ الْأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ فَيَلْتَزِمُهُ)** [(١)].

* مع ما أقيم على المشركين في الدنيا من الحجج الساطعة، تقامُ الحجةُ العمليةُ الواقعية عليهم

(١) رواه مسلم في صحيحه – كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار – باب تحريش الشيطان، وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا – ٤ / ٢١٦٧ حديث ٦٧ – (٢٨١٣).

يومَ القيامة، فيقرون حين لا ينفع الإقرار.

* كثرت النظريات المضلِّلة والتصورات الخاطئة عن نشأة الكون وأصل الإنسان، ومع أنها مبنيةٌ على الظن والتخمين والافتراضات والأوهام إلا أنها لقيت رواجا في أسواق الجهل.

* وكم من كلامٍ لا يوافقُ حكمةً لَقِيَ الرواجَ بسوقِ من لا يعلمُ.

وفي قوله تعالى ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ أبلغ ردٍّ على أصحاب هذه النظريات ومروّجيها، وأن أولئك المضلين لا قيمة لهم ولا اعتداد بهم فكيف يتجرؤون على الخوض في هذا الشأن ؟

-٤-

الاعتصام بالكتاب والسنة

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾

المناسبة

في هذا المقطع بيان لأساس العصمة ونبراسها: كتاب الله تعالى الذي حوى أساليب متنوعة وحججا ساطعة، ومع ذلك فقد قابلها الكفار بالصدود والإعراض، فعن سمات

القرآن ومقاصده، ومظاهر الصدود ودوافعه تدور آيات هذا المقطع.

المعنى الإجمالي

من سمات الأسلوب القرآني

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

جاء القرآن الكريم بالحجج الساطعة والبينات القاطعة والأساليب المتنوعة التي تخاطب العقل والوجدان وتلامسُ الحسَّ، تارة بالوعد والوعيد وتارة بالقصص والأمثال وتارة بالحوار، فعارضوا وانصرفوا عن الحق وتمادوا في الضلال ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ فالجدل سجيةٌ في الإنسان، و منه المحمود وهو ما كان الهدف منه الوصول إلى الحق، والمذموم وهو ردُّ الحق وإثارةُ الشُبه

وهذا المعنى الذي ذُكِرَ في هذه الآية الكريمة قررته آياتٌ أُخر. كقوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾[الإسراء: ٨٩]، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾[الإسراء: ٤١]، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الروم: ٥٨].

ومع عظمة القرآن، وجلالته، وما صرِّف فيه من كل مثلٍ، لهداية للناس في معاشهم ومعادهم، ومع ما اشتمل عليه من حجج ساطعاتٍ وآيات بيناتٍ، فإن هناك من يجادلُ بالباطل، مع وضوح الحقِّ وجلائه ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي: مجادلة ومنازعة فتلك سجيَّةٌ إنسانيةٌ، إلا من رحم الله وعصمه من الجدل، وهداه إلى الحقِّ.

ماذا بقي للمعرضين !

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ

يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

لم يبق لهم وقد أعرضوا عن الحق إلا أن يأتيهم العذابُ الذي أصاب من سبقهم أو يأتيهم عذابٌ عاجلٌ غيرُ معهودٍ، كما وقع للمشركين في بدر من قتلٍ وأسرٍ، فليرجعوا عن غيِّهم قبل فوات الأوان.

وفي هذا المعنى: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦ ٩٧].

مهمة المرسلين وجدال المبطلين !

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

بعد الحديث عن الكتاب يأتي الحديثُ عن وظيفة الرسل ومهمتهم الجليلة، وهي مهمةٌ واضحةٌ، تتلخَّصُ في البشارة والنذارة، وما يتعلق بذلك من بيانٍ، ومع وضوح رسالتهم وقوة حجتهم فإن دأب الكفار هو الجدل العقيم، الذي يستندون فيه على قلب الحقائق وزخرفةِ الأباطيلِ، فضلا عن استهزائِهم واستهانتِهم بالآياتِ والنذرِ.

من مظاهر الصدود وأسبابه

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

جمع الكفارُ بين امتناعهم عن قبولِ الحق المبينِ، وجدالِهم العقيم، واستهزائهم بآيات الله مع إعراضهم ونسيانهم المتعمَّد وتهاونهم بالذنوب، وإصرارهم على الضلال مهما عاينوا من حججٍ، فأضرُّوا بأنفسهم، حيث أوردوها موارد الهلاك.

باب التوبة مفتوحٌ

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن

﴿يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ۝٥٨﴾ [الكهف: ٥٨].

لما توعدهم وهددهم: فتح لهم باب الرحمة، وبيَّن لطفه بهم وإمهاله لهم؛ لعلهم يبادرون بالتوبة، قبل أن تُطوى صحائفُهم، وَيَحِلَّ موعدُهم الذي لا مفرَّ ولا ملجأ منه.

﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ أي: لهم موعد، يُجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته تعالى في الأولين والآخرين أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، أما إن استمروا على ظلمهم وعنادهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ أي: وقتا مقدرا، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

المناسبة بين المحور وآيات المقطع: تنتظمُ آياتُ هذا المقطع مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث جاء الحديث فيها عن أساليب القرآن ومقاصدِه وعن مظاهر الإعراض ودوافعه، وعن مهمة المرسلين، وفي هذا تسليةٌ وتثبيتٌ لقلب النبي ﷺ، ودحضٌ لِشُبَهِ المشركين وتفنيدٌ لما يتعللون به من أباطيل وأوهام.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* نزل القرآن هداية ورحمة ونورا وعصمةً، واشتمل على أساليب متنوعة ومسالك رائعة لإقامة الحجج وتفنيد الشُّبه.
* مع وضوح البراهين وجلاء الأدلة: إلا أن هناك من يصرُّ على إعراضه وعناده ويقيم على ضلاله، من الغارقين في لُجَجِ الفتن.
* من رحمته تعالى أن أمهل العصاة ودعاهم دعوةً متجددةً إلى التوبة الخالصة قبل أن يأتيهم العذاب الذي لا ملجأ منه ولا منجَى.
* مهمةُ الرسلِ واضحةٌ جليةٌ ورسالتُهم عظيمةٌ جليلةٌ، تتلخصُ في البشارةِ والنذارةِ، وتشملُ

كل ما يتعلقُ بها، وفي اتباعهم والتأسي بهم عصمةٌ من الفتن.

* دَأَبَ الكفار على الجدال العقيم؛ سعيا إلى طمس الحقائق وزخرفة الأباطيل والاستهزاء بالآيات والاستخفاف بالنذر.

* الجدل العقيم لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة ولا يفضي إلى حق، بل ينافحُ به أهل الباطل عن باطلهم، بالمقدمات الخاطئة والمغالَطَات والدعاوى الكاذبة.

* والجدل سجيَّةٌ إنسانيةٌ طُبع عليه الإنسانُ، ولقد نهى الإسلام عن الجدل العقيم الذي لا ثمرة له ولا جدوى منه؛ فقد يصرُّ المبطلُ على باطله فلا يسلم للحجج والبراهين، وقد ورد في السنن: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»(1).

فإذا لزم ترك الجدال وهو محق فكيف وهو مبطل.

(١) رواه أبو داود في السنن، كتاب الأدب - باب في حسن الخلق ٢/ ٦٦٨ حديث ٤٨٠٠، ورواه الترمذي في السنن وقال هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ لا نعرفهُ إلاَّ من حَدِيثِ سَلَمَةَ بنِ وردَانَ عن أنس. سنن الترمذي كتاب البر والصلة بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمِرَاءِ ٤/ ٣٥٨ حديث ٢٠٦١، ورواه ابن ماجه في السنن، افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اجتناب البدع والجدل١/ ١٩ حديث ٥١، ورواه ابن حبان في صحيحه ١٠ / ٤٧٩ حديث ٤٦١٩، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦ / ٧٢ حديث ١١١٧٦ وابن بطة في الإبانة الكبرى حديث ٦٤٧، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ١٠٤ حديث ٧٣٦١ وفي شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٢٤٢حديث ٨٠١٧.

-٥-

رحلة موسى والخضر

الاعتصام بالعلم الراشد

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا
بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ
لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا
ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا
(٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ
أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا
لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا
تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا
فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ
فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ
فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)
وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ
أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع
عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ [الكهف: ٥٩ - ٨٢].

تمهيد

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قصةٌ عجيبةٌ تتجاوز بنا حدود الزمان وحواجز المكان لتعود بنا إلى زمنِ موسى ﷺ، بعد أن مكَّن الله تعالى له ونجاه من فرعون وجنوده، وقام ﷺ خطيبا في بني إسرائيل يذكرهم بأيام الابتلاء والتمحيص والملاحقة والاضطهاد من قِبَلِ فرعونَ وجنودِه، ثم أيام النصر والتمكين من عند الله تعالى، فكان لكلامه ﷺ وقعاً في النفوس وتأثيراً على القلوب، حتى قام أحد المعجبين بهذه الخطبة البليغة العصماء، المُلْهَجِينَ (١) بتلك البلاغة والطَّلاقة المتدفقة من ينابيع العلم التي تتفجر على لسان نبي الله موسى ﷺ، حين يدور الحديث عن الماضي القريب الذي شاهدوه وعاينوه.

سأله: يا نبيَّ الله هل هناك من هو أعلم منك ؟

هل على ظهر الأرض: من تفجرت له ينابيعُ الحكمةِ وجُمِعَتْ له أوابدُ البلاغةِ وحَمَلَ بين جنبيه رسالة خيرٍ وإصلاحٍ كتلك التي حملتها لنا وقدمتها بصبرٍ وأناةٍ ؟

ظنَّ موسى ﷺ أن الإجابة يسيرة لا تحتاج إلى تفكرٍ وإمهالٍ، فقال: لا.

لكنْ المفاجأةُ تأتي مطويَّةً في: رسالةٍ إلهيةٍ محمَّلةٍ بروحِ العتابِ على هذه العجلةِ في الجواب.

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده من حديث ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْب ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «... مُوسَى رَسُولُ الله ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْماً حَتَّى إذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيْ رَسُولَ الله: هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ لاَ، فَعُتِبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ...» الحديث (٢).

---

(١) لَهِجَ بالأمر لَهَجاً ولَهْوَجَ وأَلْهَجَ كلاهما أُولعَ به واعْتاده، وأَلْهَجْتُه به ويقال فلان مُلْهَجٌ بهذا الأَمْر: أَي مُولَعٌ به، واللَّهَجُ بالشيء الوُلوعُ به. يراجع: لسان العرب لابن منظور ٢ / ٣٥٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ حديث ٤٧٧٢.

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ لاِبْنِ عَبّاس: إِنَّ نَوْفاً الْبِكَالِيّ يَزْعُمُ أَنّ مُوسَىَ ﵇، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَىَ صَاحِبَ الْخَضِرِ ﵇ ! فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوّ اللّهِ: سَمِعْتُ أُبَيّ بْنَ كَعْبٍ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَامَ مُوسىَ ﵇ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيّ النّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىَ اللّهُ إِلَيْهِ: أَنّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَىَ: أَيْ رَبّ كَيْفَ لِي بِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَىَ ﵇، حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتّىَ أَتَيَا الصّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَىَ ﵇ وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتّىَ كَانَ مِثْلَ الطّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَىَ وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَىَ أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمّا أَصْبَحَ مُوسَىَ ﵇ قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتّىَ جَاوَزَ الْمَكَانَ الّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾، قَالَ مُوسَىَ: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾، يَقُصّانِ آثَارَهُمَا، حَتّىَ أَتَيَا الصّخْرَةَ فَرَأَىَ رَجُلاً مُسَجّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلّمَ عَلَيْهِ مُوسَىَ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنّىَ بِأَرْضِكَ السّلاَمُ ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىَ، قَالَ: مُوسَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنّكَ عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّهِ عَلّمَكَهُ اللّهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّهِ عَلّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَىَ ﵇: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾، قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَىَ يَمْشِيَانِ عَلَىَ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَىَ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىَ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ

إِلَى سفينتهم فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً، ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَة، فَبَيْنَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِه، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِه، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾، قَالَ: ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؟ قَالَ: وَهَذِه أَشَدّ مِنَ الأُولَى، قَالَ: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِىۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾، يَقُولُ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِه هَكَذَا، فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «كَانَت الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً»، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَة، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْر، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّه إِلاّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»(١).

المقاصد السامية لتلك القصة

هنالك مقاصدُ ومعانٍ تحملُها لنا هذه القصةُ الهادفةُ البناءةُ، الشافيةُ الكافية، التي سيقت لتعالج قضايا حيوية ومشكلاتٍ أساسية تعاني منها كثيرٌ من المجتمعات والبيوت.

مشكلاتٍ عويصةٍ مزمنة، متشابكةٍ متعاقبة، جاءت هذه الرحلة لتسلط الأضواء عليها

(١) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب العلم - باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله. الحديث ١٢٢، وفي كتاب الأنبياء باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. الحديث ٣٢٢٠، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل - باب من فضائل الخضر عليه السلام ١٧٠ - (٢٣٨٠).

وتلفت الأنظار إليها، وتبين المنهج الأمثل والحلول الحاسمة لها.

من هذه المشكلات: مشكلة الظلم الاجتماعي: المتمثل في نموذج الملك الغاصب الذي ينهب الرعية ويستبيح أموالهم ويستنزف ثرواتهم، دون أن يلقي لذلك بالا، أو يجد من ينكر عليه أفعاله الشنيعة، ويحول بينه وبين ركوبِ متنِ الحرام، وارتكابِ الجرائم العظام، سيَّما في حق المساكين من الضعفاء المقهورين ! المستضعفينَ الكادحين ! وأنّى لأحدٍ أن ينكرَ أو يشتكي وقد ألجمَ الطاغيةُ الألسنةَ، وكَمَّمَ الأفواهَ وأذهلَ العقولَ وشرَّد الجموعَ، وملأ القلوب رعبا وهلعا وجعل من مملكتِهِ سجونا مُفَتَّحةً قد عجَّت بالأبرياءِ واكتظَّت بالمظلومين.

على حد قول الأخطل الصغير:

أَلجِـــم لـــسـانَــكَ أَلجِــمْ		فـــالمـــوتُ لـــلـــمـــتـــكـــلِّـــم
لا يـــســألـــونـك إن أُخـــــذتَ		أَثِـــــمْـــــتَ أم لَم تـــأثـــمْ
فـــالـــسِّـــجـــنُ خـــيرُ مـــرحِّـــبٍ		والحـــبـــلُ خـــيرُ مـــسـلِّـم

وكما قيل:ولربَّ مأخوذٍ بذنبِ عَشيرَةٍ ونجا المُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنبِ

قال تعالى ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

مشكلة أسرية: تتمثل في أخطر ما يهدد مستقبلَ الأسرة الهادئة الهانئة: ويُكدِّرُ صفوَها ويبدد جُهْدَهَا ويُشتتُ جمعَها ويُعطِّل مسيرها: وهو ما قد تُسفرُ عنه الأيام من عقوق الوالدين في زمانٍ تمسُّ الحاجةُ فيه إلى برِّهما، فإذا المودةُ وقد انقلبت عداوةً ونكرانا، وإذ بالبر والإحسان يُقَابَلُ بالعقوق والجفاءِ، والجحود والنسيان.

ولسان حال ذلك الذي تفطَّر قلبه وتفتت كَبدُهُ غما وكمدا على فَلَذَةِ كبدِهِ الذي قابَلَ الإحسانَ بالإساءةِ: كما قال إبراهيم بن العباس:

وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ الزَّمَانَ فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذمُّ الزَّمَانا
وَكُنْتُ أعدُّكَ لِلنَّائِبَات فها أَنا أَطْلُبُ مِنْكَ الأَمَانا !

أيصيرُ الولدُ محنةً وشرّاً، وقد كان لنوائب الزمان مُدَّخراً !

كُنْتُ مِنْ مِحْنَتي أَفِرُّ إِلَيْهِمْ فَهُمُ مِحْنَتِي فَأَيْنَ الفِرارُ ؟

***

وإخوانٍ حسبتُهم دروعاً فكانُوها ولكنْ للأعادِي
وخِلتُهُم سهاماً صائباتٍ فكانُوها ولكنْ في فؤادِي
وقالوا: قد صَفَتْ منا قُلوبٌ لقد صدقُوا، ولكن مِنْ وِدَادِي (١)

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

مشكلة اقتصادية أم أزمةٌ أخلاقيةٌ !

نوعٌ آخر من أنواع الفساد ومشكلة أخرى من أخطر المشكلات: هي المشكلة الاقتصادية أو الفساد الاقتصادي، وهو بلا شك مترتبٌ على الفساد السياسي ونتيجةٌ للظلم الاجتماعي الفسادُ الاقتصاديُّ: حيث الأنانيةُ والأَثَرَةُ، ممزوجةً بالطَّمَع والجشع، في مجتمعاتٍ قتلها الفقرُ وأهلكَها الشحُّ، وأرهقها الطغيانُ الماديُّ، حتى غدت مضيِّعةً حقَّ الضيف المعلوم، فضلا عن حقِّ الضعيفِ المهضوم، أما أموالُ اليتامى فلو ظَفرَ بها يوما لأضحتْ غنيمةً باردةً وأمست لقمة سائغةً، من هنا كانت مهمة الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ليحفظ الكنزَ.

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا

(١) أنشدها السمعانيُّ بإسنادِهِ لعليٍّ بنِ فضالٍ المجاشعيِّ، في ترجمة صاعد بن سيارٍ الهروي.

صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

وهكذا تلمسُ هذه القصةُ الواقعيةُ جوانبَ مهمةً في حياةِ الأمم والمجتمعات.

إلى رحاب القصة

المناسبة

لهذه القصة الجليلة صلتها الوثيقة واتساقها العجيب وانتظامها الدقيق مع سياق السورة الكريمة، وبيان ذلك من وجوهٍ:

صلتها بما قبلها: لما بين الله عز وجل في الآية السابقة أنه تعالى رحيمٌ في ملكه عادلٌ في حكمه، ومن ذلك إهلاكه للظالمين بعد إمهالهم وإعذارهم قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ٥٨].

بيَّن في هذه القصة أمثلةً واقعيةً للعدلِ الإلهيِّ، ولما جعل الله لهلاك الظالمين موعداً محدداً: فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعدا مؤكَّداً، فكلُّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ.

وليعلم الدعاةُ والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمسارعة لهم في الخيرات لِحَكَمٍ جليلةٍ، كما تمخضتْ أفعالُ الخضرِ التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حِكَمٍ عجيبةٍ.

صلتها وانتظامها مع باقي القصص الواردة في السورة الكريمة ومحورها العام:

اشتملت سورةُ الكهف على مجموعةٍ من القصصِ العجيبةِ والأمثالِ الواقعيةِ والنماذجِ البشريةِ والقيم والمعاني الساميةِ التي تُحلِّق بنا في أجواءِ الفضيلة، وتغوصُ في أعماق النفس البشرية لتسبرَ لنا أغوارها، وتكشفَ شيئا من مكنوناتها، وتُجليَ لنا معالمَ العصمة وطرائق النجاة من الفتن، وتقدم لنا مفاتحَ الثبات أمام المحن.

فتنٌ كثيرةٌ كم كانت سبباً في هلاكِ أنفسٍ، وإتلافِ أموالٍ، وضياعِ ثَرَوَاتٍ، والانحراف

عن طريق الحق إلى دركِ الشقاء في الدنيا والآخرة.

جاءت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام لتبين لنا قيمة العلم النافع وهو أقوى الأسلحة وأمضاها أمام جحافل الفتن وكتائبِ البلاء والمحن.

جاءت لتأخذ بأيدينا وتوجه عقولنا وأنظارنا نحو العلم الشرعي الذي من أجله خرج موسى عليه السلام يحدوه العزمُ والإصرارُ على مواصلة السير إلى ذلك العبد الصالح لينهلَ من علمه.

ومن وجوه المناسبات أيضا: أنه تعالى لما أشار في هذه السورة الكريمة إلى زينةِ الدنيا ومباهِجِها جاءت الرحلةُ الميمونةُ: لتمسَّ ثلاثةَ ألوانٍ من ألوانِ الزينة: زينةُ المُلْكِ والسلطان ولكن ما قيمتُهُ إذا كان بيد ملِكٍ غاصبٍ ! وزينةُ الولد: ولكن ما مزيَّته إذا خرج الولد عاقّاً جاحداً ! وزينة المال: فما أزينَهُ إذا كان لعبدٍ صالحٍ ! كما في قصة الغلامين اليتيمين.

ولقد أبرزَ الفخر الرازي مناسبةً بين قصة موسى والخضر وبين قصة أصحاب الكهف والرد على الكفار الذين افتخروا على الفقراء وتعالَوا عليهم، فقال: «... أما نفعُ هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلوِّ منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خيرٌ من التكبر، وأما نفعُ هذه القصة في قصة أصحاب الكهف: فهو أن اليهودَ قالوا لكفارِ مكة إن أخبركم محمدٌ عن هذه القصة فهو نبيٌّ وإلا فلا، وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمرِ الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصةٌ مستقلةٌ بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقريرِ المقصودِ في القصتين المتقدمتين»[(١)].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/ ١٤٣ ويراجع فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٢٤ .

وقال صاحب الظلال «... وهكذا ترتبطُ في سياق السورة قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار...»[(١)].

التفسير الإجمالي

عزيمةٌ وإصرارٌ

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾: تذكيرٌ لكلِّ سامعٍ وتالٍ بهذه الرحلة العجيبة وتلك الصحبةِ المباركة التي جمعت بين نبي الله موسى عليه السلام وبين فتّاه الذي قيل إنه يوشع بن نون، وإنما سمي فتى: « لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه»[(٢)]، يقول له موسى عليه السلام ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ سأسير سيراً طويلاً وأُمضي زماناً مديداً، إلى أن أصل إلى مجمع البحرين.

إصرارٌ من نبي الله موسى عليه السلام على مواصلةِ الرحلة، مهما كلفه ذلك من مشقةٍ وعناءٍ ومهما أمضى من وقتٍ في سبيل هذا المقصد السامي، وفي هذا ما يدل على صدق عزيمتِه وشدة حرصه على طلب العلم النافع والاستزادة منه وصحبة أهله.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾

وقد اخْتُلِفَ في البحرينِ.. ما هما ؟ وأين ملتقاهما، أو مجمعهما ؟

والذي أميل إليه، أنهما خليج السويس، وخليج العقبة، وأن ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالا ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء.. فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما.. أي هو مجمعهما، وهو مجمع

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠٠

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ١٩

البحرين..

ويقوي هذا الرأي، أن تحرك موسى بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء، حيث ضُرِبَ فيها التيه على بني إسرائيل أربعين سنة. والله أعلم

فلما وصل موسى وفتاه إلى مجمع البحرين حيث يلتقي بالخضر عليه السلام نسيا حوتهما، وبيان ذلك كما جاء في السنة: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفاً الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ عليه السلام فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوّ اللَّهِ. سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « قَامَ مُوسَى عليه السلام خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. قَالَ: فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ. وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السلام حُوتاً فِي مِكْتَلٍ. وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ. فَرَقَدَ مُوسَى عليه السلام، وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ، حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السلام قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً.

قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً، قَالَ: يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ

تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾. قَالَ: نَعَمْ.

والحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة حيث قال مرة ﴿ سَرَبًا ﴾ وقال مرة أخرى ﴿ عَجَبًا ﴾: الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: (فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً) (١).

فَسرُّ اختلاف التعبير، هو الناحيةُ التي لحظها التعبير القرآني، والزاوية التي نظر للقصة من خلالها.

فهو في المرة الأولى كان ينظر للحادثة من زاوية الحوت، ويلحظ حركة الحوت في البحر فقال ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾.

أما في المرة الثانية فكان ينظر للحادثة من زاوية موسى عليه السلام وفتاه، ويلحظُ أَثَرَ حركة الحوت على نفسية وشعور موسى وفتاه، ولاشك أنهما سيعجبان من حركة الحوت، ولذلك قال: ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾.

«ونشير هنا إلى أن العجب الذي أثارتْهُ حركةُ الحوتِ وَبَعْثُهُ، ليس مبعثه الإنكار والاستغراب، لأن موسى عليه السلام وفتاه، يؤمنان بقدرة الله على البعث وصنع المعجزات، وإنما مبعثه هو دهشة المفاجأة، والانفعال بها» (٢).

ومثارُ التعجب: أن يحيا حوتٌ مُمَلَّحٌ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثرُ جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر !

ثم وصفه الله سبحانه فقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ وصفه تعالى بأنه عبدٌ من عباده؛

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) مع قصص السابقين في القرآن الكريم ٢/ ٢٠٤ «دروس في الإيمان والدعوة والجهاد» صلاح عبد الفتاح الخالدي.

والعبودية أسمى المقامات وأشرف الغايات التي من أجلها خلق الإنسان، وفي هذا ما يدل على ما كان عليه الخضر ﷺ من اجتهادٍ في العبادةِ، وهذه صفة أساسية من صفات أهل العلم ورجال الدعوة والإصلاح، وفي وصفه ﷺ بأنه عبد من عباد الله: ردٌّ على كل من غالى في شأن الخضر حتى توهم بعض الغلاة أن الخضر لا يزال على قيد الحياة وأنه يظهر لبعض الناس فيرشدهم ويوجههم ! وهذا كلام لا يشهد له نقل صحيح ولا يصدقه عقل راجح، ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ قيل: الرحمة هي النبوّة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهو ما خصَّه الله تعالى بعلمه ومعرفته، وفي قوله ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيم له وبيانٌ لخصوصيته واختصاصه ﷺ به.

لما التقى موسى بالخضر وتم التعارف بينهما طلب موسى ﷺ من الخضر أن يتبعه حتى يقتبس من علمه وينتفع به.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

طلب منه موسى ﷺ حين لقيه أن يتبعه ليقتبس من علمه ويسترشد منه ما ينفعه في دينه ودنياه، إذ الغايةُ من تحصيل العلم هو الانتفاع به والتماس الرشد منه.

فترفَّق موسى ﷺ في طلبه وتواضع في سبيل تحصيل العلم «وفي هذا العرض أمور:

- استئذان مصحوب برجاء وتلطف..
- أن يكون موسى تابعاً يقفو أثر متبوعه، ويمشي في ظله.
- أن تكون غاية هذه الصحبة، وتلك المتابعة، تحصيل العلم والمعرفة، فيفيد موسى علماً وينال العبد الصالح أجراً.
- هذا العلم الذي عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه، بل هو علم علمه، وإذن فهو مطالب بأن يعلّم كما عُلِّم..
- هذا العلم المطلوب تعلُّمه، هو مما يكمُلُ به الإنسانُ ويرشُد.. فهو علم يهدي إلى الحق وإلى

الرشاد، لا إلى الضلال والفساد»[1].

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾: بيَّن له الخضرُ أن الرحلةَ معه ومتابعتَهُ تحتاجُ إلى صبرٍ وأناةٍ، ففيها من المفاجآتِ والعجائبِ ما قد يُخْرِجُ عن حدِّ الصبر.

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ فقدَّم له العذرَ لما سيلقاهُ من عجائبَ وغرائب.

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ أي: كيف تصبر على علم ظاهره منكر، وأنت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكرٍ والإقرار عليه.

لكن موسى عليه السلام أصرَّ على متابعته مستعينا بالله تعالى ومؤملا أن يلهمه الصبر والثبات ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

فاشترط عليه الخضر ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾: أي إذا رأيت مني شيئاً تنكره فلا تفاتحني بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك.

أين ذهب الفتى ؟

قال الماوردي: « يحتمل أن الفتى تأخر عنهما لأن الإخبار عن اثنين، ويحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تَبَعٌ لموسى، فاقتصر على حكم المتبوع»[2].

خرق السفينة !

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٦٥٢.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٥٥٨.

جاء في الحديث (... فَانطَلَقَ الْخَضرُ وَمُوسَى يَمْشِيَان عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ. فَمَرّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ. فَكَلّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا. ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ثُمّ خَرَجَا مِنَ السّفِينَةِ...)[1].

أنكر موسى على الخضر خرقَه للسفينة لما يترتب على ذلك من غرق أهلها، وظن أن هذا من مقابلة إحسانهم بالإساءة، ثم حكم على هذا الفعل بأنه أمر عظيم منكر ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾: لقد أتيت أمراً عظيماً وارتكبت جرما كبيرا ![2]

فعاتبه الخضر عليه السلام وذكره بما اشترطه عليه عند أول لقاء فاعتذر له موسى عليه السلام بقوله ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

قتل الغلام !

قال تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

---

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) أنكر موسى عليه السلام على الخضر خرقَ السفينة وجاء التعبير بكلمةٍ حَوَتْ معانيَ كثيرة كلُّها تدلُّ على فظاعة وبشاعةِ التسبب المتعمد في إغراق الأبرياء، وهنا نسجل للتاريخ تلك المآسي التي تنتج عن الإهمال والتقصير والطمع من أصحاب البواخر والعبارات، والتغاضي والسلبية من بعض المسؤولين، كما حدث للعبارة التي غرقت في عرض البحر الأحمر، ومات عليها أكثر من ألف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انطلقا بعد أن غادرا السفينة حتى لقيا غلاما يلعب مع أقرانه فأخذه الخضر من بينهم وقتله، وهنا غضب موسى عليه السلام أشدَّ الغضب، وحزن على موت هذا الغلام، فقال منكرا على الخضر ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾!

قال صاحب الظلال: « وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها؛ فهذه قتل نفس، قتل عمد لا مجرد احتمال، وهي فظيعة كبرى لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾...»[(١)].

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: زكية طاهرة لم تذنب، بريئةٌ لم تُجرِمْ !

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي: فظيعاً منكراً لا يعرف في الشرع، قيل: معناه: أنكر من الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ زاد هنا لفظ « لك »، لأن سبب العتاب أشد، وموجبه أقوى، وقيل: زاد لفظ « لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني، ولأنه سبق له أن قال له ذلك، فبادر موسى عليه السلام بالاعتذار فقال ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: لا تجعلني صاحباً لك «نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره، ولذا قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف»[(٢)].

إقامة الجدار في قرية اللئام !

قال تعالى ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ

---

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٣٢.

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

لقد انطلقا حتى أتيا أهل هذه القرية، وقد استبدَّ بهما الجوعُ فاضطُرَّا إلى استطعام أهلِها، فإذا هُمْ أشحةٌ لئامٌ، أبوا أن يضيفوهما، مع ما عندهم من سَعةٍ، وهنا ينصرفُ الخضر إلى أداء مهمة عاجلة، إقامة جدارٍ قبل انقضاضه، فيتعجب موسى من صنيعه ويقول له: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ؟ فيجيبه الخضر بقوله ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ لقد حانت ساعة الفراق ليمضي كلٌّ إلى حال سبيله، ولكن قبل المفارقة لا بدَّ من مكاشفةٍ.

المكاشفة قبل المفارقة

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف ٧٩-٨٢].

السفينة ؟

كشف له الخضرُ عن الحكمة من هذه الأفعال التي أنكرها عليه: فبدأ بالسفينة، مبينا أنها كانت ملكا لمساكين يعملون في البحر، لا يكادُ دخلُها يُوفِّي بنفقاتهم، ومع ذلك كانت كغيرها من السفن مطمعا لملكٍ غاصبٍ، يستولي بقوته الغاشمة وسلطانه الجائر على كلِّ سفينةٍ صالحة ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ خلفهم وفي إثرهم، ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب، فإذا مرَّ بها تركها لعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها.

الغلام ؟

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

وأما الغلام الذي بادر لقتله: فلقد كان لأبوين صالحين، وكان في بقائه وقد طبع على الكفر إرهاقٌ وإحراجٌ لهما، ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾ رحمةً بهما وإشفاقاً عليهما، ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾: ديناً وعملاً وصلاحاً، ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾: أوصلَ رحما وأبرَّ بهما.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْب ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً وَلَوْ عَاشَ لأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً)[(١)].

الجدار ؟

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحا، فنفعهما الله بصلاحه وقيَّض لهما الخضرَ ليقيم الجدارَ حمايةً للكنز، حتى إذا بلغا أشدهما استخرجاه.

ولعل التعبير عن القرية بالمدينة: « لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح »[(٢)]، وكم عرفت بلادٌ واشتُهرت بصالحيها ونجبائها.

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي نعمة من ربك ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي « باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي، لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أصولهم، لا يكون

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. حديث ١٧٢ - (٢٣٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٣٨ .

إلا بالنص وأمر الله تعالى»[(١)].

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي وما فعلت ما رأيت من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار عن اجتهاد مني ورأي، وإنما فعلته بأمر الله، وهذا يدل على أنه نبيٌّ أوحي إليه.

قال ابن عطية « والخضر نبيٌّ عند الجمهور، وقيل هو عبدٌ صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته، لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي من الله»[(٢)].

وقال أبو حيان: « والجمهور على أن الخضر نبي وكان علمه معرفة بواطن قد أوحيت إليه وعلم موسى الأحكام والفتيا بالظاهر»[(٣)].

﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ تفسيرُ وبيان ما لم تطق أن تصبرَ عليه.

الصلة بين قصة موسى والخضر ومحور السورة

جاءت قصة موسى والخضر لتبين لنا أهمية العلم النافع، وبركة اتباع العلماء، وأثر الصحبة المباركة في العصمةِ والنجاةِ من براثنِ الفتنِ، وبهذا تنتظم هذه القصة مع محور السورة الذي يدور حول العواصم من الفتن.

الهدايات المستنبطة من القصة

* السفر في طلب العلم وعلو الهمة وقوة العزم في طلبه، والصبر على المشقة والعناء ومكابدة الصعاب التي تعترض طالب العلم.
* يستحب للمسافر أن يطلب الرفيق قبل الطريق، و شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميراً والثاني مأموراً له ومتابعاً، ومنها أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبر عن مدة مكثه في سفره، ليكون الرفيق واقفاً على أحواله، فإن كان موافقاً له يرافقه في ذلك.

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٨.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٢٩ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ١٤٧ .

* قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾: فيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ تَبَعٌ لِلْعَالِمِ، وَلَوْ تَفَاوَتَتْ الْمَرَاتِبُ، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول، وقد يختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، وفيه الحاجة إلى التخصص الدقيق في العلم، والرجوع إلى أهل التخصص.

* العلم بحر لا ساحل له، تأمل في حوار موسى مع الخضر حين لقيه «... حَتَّىَ أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجَّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىَ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىَ، قَالَ: مُوسَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ...».

* ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يتعجل في إنكار ما لم يستحسنه فلعلَّه ينطوي على حكمةٍ لا يعرفها.

* تعلمُ العلم عبادةٌ وقربةٌ، وهو ليس غايةً في ذاتِهِ بل الغرضُ الانتفاعُ به في أمورِ الدينِ والدنيا، ولهذا قال: ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾، أي أسترشد به وأتزود منه لدنياي وآخرتي.

* قال ابن القيم: العلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب ﷺ وقد سئل: هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه» فهذا هو العلم اللدني الحقيقي[(١)]

* وقال أبو حيان رحمه الله « وفي قول الخضر لموسى: من أنتَ ؟ وقد علمه الله بواطن الأشياء ومآلها دليل على كذب هؤلاء المنتمين للتصوف المدعين علم الغيب والكشف عن أحوال

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٤٧٦ .

الناس أعاذنا الله من ذلك»[١].

* ورد في القصة مؤهلات المعلم والمربي والمصلح: وهي العبودية، الرحمة، العلم، الإخلاص، النصح، البذل، الإحسان، فلا بد أن يكون مجتهدا في العبادة، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق والتي تمثلُ الرحمةُ لبابَها وأساسها.

* في تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم، فلا يعقل انتزاع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عدموا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وأساءوا إلى من حولهم، بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يهدد خطرَ الإنسانية وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر ولوَّثوا الأجواءَ والأجوافَ، كذلك رأينا كيف عَدم بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليمُ تجارةً رابحةً لا رسالةً ساميةً، وصار التعنتُ شعارَهم ودثارَهم.

* كذلك انتُزعت الرحمة من قلوب بعضِ طلاب العلم، فأساءوا إلى معلميهم، ولربما تطاولوا عليهم !

* ومما يستفاد من القصة: أن العلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾.

* تحلي طالب العلم بالصبر والأناة وتأدبه مع شيخه وترفقه عند السؤال.

* ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء للطلب على يديه «المقابلة الشخصية» وذلك لطلاب العلم خاصة العلم الشرعي لمعرفة مدى استعداد الطالب ومدى حرصه وهمَّتِه في طلب العلم، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جدٍّ واجتهاد وبذل وعطاء.

قال صاحب روح البيان: « يمتحنه بأن يخبره عن دِقةِ صراطِ الطلبِ وعزةِ المطلوبِ وعُسرتِه، وفى ذلك يكون له مبشِّراً ولا يكون منفراً، فإن وجده صادقاً في دعواه وراغباً فيما

(١) تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان على هامش البحر المحيط ٦/ ١٤٢ .

يهواه معرضا عما سواه يتقبله بقبول حسن ويكرم مثواه ويقبل عليه إقبال مولاه ويربيه تربية الأولاد ويؤدبه بآداب العباد»[(١)].

* وفيه التماس العذر للآخرين ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، تأمل في قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ فالتمس له العذر في ذلك لما سيلقاه من عجائب وغرائب.

* ومنها الإشارة إلى جملةٍ من مناقب نبي الله موسى عليه السلام ومنها الصدق وعلو الهمة والمثابرة وحسن الصحبة والتواضع واللين والحياء والإيجابية.

* ومن الفوائد المهمة: ينبغي على الدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع لدراسة الواقع والتعامل معه ومعايشة هموم الناس وتفقد أحوالهم، وأن يلتمسوا العبرة من هذه الرحلة العملية رحلة موسى والخضر وفصولها الثلاث.

* وفيها: « دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته...»[(٢)]، فعلى الأغنياء وبيوت الزكاة والمؤسسات الخيرية أن لا تغفل عن هذا المسكين الذي لا يستطيع بدخله المحدود أن يلبي احتياجات بيته، في ظلِّ هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية والغلاء الفاحش الذي تعاني منه معظمُ الشعوب المسلمة حيث تتسع الهوّة بين الأغنياء الفقراء، وينخفض فيها دخل الفرد مع زيادة معدلات التضخم.

* ومنها: الرضا بقضاء الله تعالى والصبر عند فقد الولد، وتفويض الأمر لله؛ فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرَّين، ولقيا العنت، فكان موتُه راحةً لهما ورحمةً بهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصدق من قال:

---

(١) روح البيان للبروسوي ٥/ ٢٣٥.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٧.

عَـطِـيَّـتُـهُ إِذَا أَعْـطَـى سُرُوراً		وَإِنْ أَخَـذَ الـذي أعـطَـى أَثَـابَـا
فَـأَيُّ الـنـعـمـتـين أجـلُّ قـدراً		وَأَحْمَـدُ فِي عَـوَاقِـبِـهَـا مَـآبَـا ؟
أَنِـعْـمَـتُـهُ التي أَهْـدَتْ سُرُوراً ؟		أَم الأُخْـرَى التي أَهْـدَتْ ثَـوَابَـا ؟
بَـلِ الأُخْـرَى وإن نـزلـتْ بِـكُـرْهٍ		أَحَـقُّ بِشُكْرِ مَـنْ صَـبَرَ احتِسَابَا

* ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

* ومنها: أن الأمور تجري أحكامُها على ظاهِرِها، وتعلق بها الأحكامُ الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

* ومنها: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز ولو من غير إذن.

* **ومن لطائف الفوائد**: التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند تأويل خرق السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ بإسناد العيب إلى نفسه أما قوله ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ فقال ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾ لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كل أحد، وقال في تأويل الجدار

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشد وتكامل السن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخل وأثر لإرادة العبد.

* ومن العبر والعظات المستمدَّةِ من القصة: أنه تعالى من كمال تدبيره وحكمته وتمام لطفه ورحمته أن قيَّض نبيين مثل موسى والخضر عليهما السلام في مصلحة يتيمين فعلى العلماء والدعاة أن لا يضنُّوا بأوقاتهم في رعاية الأيتام وقضاء حوائجهم وتربيتهم.

* وفي هذا إشارة إلى ضرورة عناية العلماء وهم ورثة الأنبياء بكفالة الأيتام والحمد لله تقام في طول بلاد المسلمين وعرضها جهودٌ طيبةٌ لكفالة الأيتام.

* ومنها أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد الصالح إذا كان فيه صلاح له ولذريته الصالحة من بعده، قال محمد بن المنكدِر: « إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله»[1].

* إذا رأى المسلم منكرا فيجب عليه أن يسارع إلى إنكاره أيّاً كان فاعله، مع التزام الأدب والترفق بالفاعل، لاحتمالِ أن يكون للمسألة وجهٌ؛ إذ لا إنكار في مسائل الخلاف.

(١) معالم التنزيل للبغوي ١ / ١٩٥.

-٦-

قصة ذي القرنين

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ
ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا
﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا
قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا
عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي
زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾
فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ
وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣ – ٩٨].

المناسبة

بعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وما أسفرت عنه من عِبَرٍ وعظاتٍ، يأتي الحديثُ عن قصةٍ أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكَّن الله له، وهيأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطوَّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً وعبداً شكوراً، فملأ الدنيا عدلاً ونوراً.

طاف موسى عليه السلام طلباً للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملاً راية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلّغ دعوة

الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة.

كذلك تضعُنَا الآياتُ أمام مقارنةٍ بيِّنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكِّره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظِّف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

المعنى الإجمالي

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ فما جوابي عن سؤالكم إلا من الذكر الحكيم، فهل من متأملٍ ومعتبِرٍ ؟

جاءت القصة جواباً عن سؤالهم عن شأن هذا الرجل الصالح الذي مكَّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة وألبسه ثياب العز وتاج الوقار والهيبة.

أما اسمه فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال كثيرة منهم من قال هو الإسكندر المقدوني ومنهم من زعم أنه قورش الفارسي أو دارا الفارسي أو أفريقس أو ملك من ملوك اليمن أو ابن فرعون مصر، والمتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدُها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنية على الظن والاحتمال، فضلا عن أن ذا القرنين كان مؤمناً موحداً.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ مكَّن الله له فسعى جاهداً ومتجرِّداً لنشر الحق والعدل.

والذي يعنينا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء.

ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾: مكَّن الله له في الأرض ووهبه أسباب النصر والتمكين وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنحِ

والمواهبِ على أتمِّ وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومنطلقا إلى ريادةِ الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكينا عظيما في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه وكبتِ أعدائِهِ وتحقيق مراده.

والسبب: هو الوسيلة التي يُتوصَّل بها إلى المطلوب.

قال ابن عباس: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ عِلْماً يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العِلْم بالطُّرق والمسالك.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: سلك وسار طريقا يوصلُهُ إلى المقصود، وأخذ بكلِّ ما أمكنه تحصيله من علوم، وتتبع السبلَ والوسائل التي تعينه على تحقيق أهدافه وطموحاته في الدعوة والإصلاح ونشرً العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فلم يكن ما قام به ذو القرنين من خوارق العادات بل كان تمكينه من منطلق الأخذ بالأسباب، وفق نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها.

الرحلة إلى المغرب

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعيناً بما هيأه الله له من أسباب، حتى شاهد غروبها ﴿ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾عين ماء ذات حمأة، وقرئ (فِي عَيْنٍ حامِيَةٍ) يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة. جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها.(١)

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥ / ١٨٥ .

والمقصود بقوله تغرب في عين حمئة: أي كما ترى العين لا في الحقيقة إذ الشمس لا تغرب في الماء وإنما يبدو ذلك للناظر.

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾: لما تمكن منهم وخُيِّرَ في شأنهم: كان حَكَماً مقسطاً، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، « فقال ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، أي قولاً ذا يسر وسهولة كما قال قولاً ميسوراً، ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً.

وفي تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسناً، ما يدل على ما كانوا عليه من ظلم بيِّن، وصدٍّ عن الحق، مما يستوجبُ معاقبتَهم.

لذا قال ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ وجاء التعبير بسوف: ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ للدلالةِ على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب.

وقوله ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم.

قال البقاعي: «﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي شديد النكارة لأن العقل يحارُ في أمره لأنه لم ير مثله ولا قريباً منه ليعتبره به»[(١)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٤/ ٥٠٢ بتصرف.

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وأما من تاب وآمن وعمل صالحا فله الحسنى جزاءً، أي يستحقُّ البشارةَ بها فضلا عن حسن معاملته في الدنيا، وسنقول له من أمرنا يسرا: فهو أهلٌ لكلِّ فضل وسماحةٍ.

قال الرازي: «﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما؛ ذلك أنه إذا دخل في دين الله عز وجل يلقى في رحابه اليسر والسماحة، وهذه سياسةُ العدلِ والإنصافِ»[١].

« فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والودَّ والقربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحدّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسطِ في الدنيا، ثم يردُّ إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشد بما اقترفت يداه في حياته الأولى»[٢].

«... وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد»[٣].

الرحلة إلى أقصى الشرق

بعد رحلةٍ ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقا آخر إلى أقصى الشرق

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١٦٨.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن ١٦ / ١٢ بتصرف.

ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٢].

﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق.

قال ابن عطية: « وقوله ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرقَ المؤديةَ إلى مقصده، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضَهُ أو توقف عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره»[(١)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ قيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرَّ عليها البناء، أو لما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍّ من جميع مظاهر التمدُّن والرقيِّ.

ولا بدّ أنه رحمه الله – وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح – قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة المؤمن رسالة تنوير وتحرير، رسالة إصلاح وتعمير رسالة نهوض وتطوير.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ﴾ أي لا يعزب ذو القرنين وجيوشُه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلادٍ نائيةٍ، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرَّق أو غرَّب في محيط ملكِ الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكلِّ هذه البلاد البعيدة التي

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٤٠.

وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافيةٌ، وقد أحاط ربُّ العالمين خبرا بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتياد الأقطار قائداً مُظَفَّراً وحاكماً عادلاً.

فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب أهل الكفر والطغيان وسالَم أهل الحقِّ وكرَّمهم وقربهم وبشَّرهم بما عند الله من ثواب عظيم.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ فلا يزال يرتقي سُلَّمَ النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه العبارة: ما يدلُّ على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويعها لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

الرحلة الثالثة

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٨].

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجَّه بهذا الخير إلى موضعٍ عبَّر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وَعِرانِ، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فسادا، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدا منيعا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

وقوله ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ وجد ذو القرنين من دون السدّين قوما لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم، ولا يكادون يُفقِهون أحدا قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسباب[1].

﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السدِّ، وأجرة بنائه ليحميهم من أولئك المفسدين.

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

أجابهم هذا القائد الزاهد والإمامُ الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح في أعراض الدنيا الزائلة أمْ يجنح إلى هممٍ قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادا وعزماً واجتهادا في غرس بذور الخير أينما حلَّ.

قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطّأه لي، وقوّاني عليه، خير من جُعلكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلة وصُنَّاعٍ يُحسنون البناء والعمل[2].

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما، والردم: هو

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ١٨ / ١٠٣، قرأ حمزة والكسائي وخَلَف بضمّ الياء وكسر القاف: (يُفقِهون) من أفقهت فلانا كذا أفقهه إفقاها: إذا فهمته ذلك، والباقون بفتح القاف والياء، من فقَه الرجل يفقَه فقها. النشر في القراءات العشر ٢/ ٣١٥ والغاية في القراءات العشر ١٩٩ والسبعة ص ٣٩٩.

(٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ١١٣.

الحاجز، ولعله سمى السد الذي وعد بإنجازه ردما تواضعا.

جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة التواضعَ الرفيعَ والإيمانَ العميقَ والنفْسَ الراضية العفيفةَ، والأياديَ السخيةَ النظيفةَ، والأريحية والشَّهامة: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

لم يستغل حاجتُهم في تجريدِهم من الممتلكاتِ والثرواتِ، كما تفعلُهُ في عصرِنا الحاضرِ الأممُ الغالبةُ «المتحضرة» مع الشعوب المقهورة «النامية» من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم ! والتآمر على بقائهم تحت وطأة الجهلِ ونير الاستبداد.

ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركَّبة، تطوِّقُ بها أعناقهم وتُلهب بها ظهورَهم، وتنتزعُ ولاءَهم وخنوعهم ! وترغِمُ أنوفَهم.

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ﴾ أي جيئوني بِزُبَرِ الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة: القطعة من الحديد.

فجعلها بين الصدفين أي حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبر الحديد، قال للعمَّال: انفخوا النار ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارا ﴿ قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾، أصبّ عليه قِطراً، والقِطْر: النحاس.

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقُه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلةِ الناجحة.

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾: فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله

ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلُّوه وملاسَته ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسُمْكِه وصلابَتِه.

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾

قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيأ لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أي: مساوياً للأرض، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أي: كائناً لا محالة.

فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِه وَهُوَ يَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»... الحديث [١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غداً، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ، حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ وَيَسْتَثْنِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِه حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ وَيَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه -كتاب الأنبياء - باب: قصة يأجوج ومأجوج - ٢/ ٣٦٨ حديث رقم: -٣٣٤٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، - ٤ / ٢٢٠٧ - حديث رقم: ٢ - (٢٨٨٠).

أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفاً فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ شَكَراً مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ(١).

المناسبة بين محور السورة وقصة ذي القرنين

تدور هذه القصة مع المحور العام للسورة وهو كما أسلفنا: حول العواصم من الفتن: فتبرز لنا أهمية التوكل على الله تعالى واليقين به تعالى مع الأخذ بالأسباب في النجاةِ من الفتن.

كما يتجلى لنا من خلال هذه القصة دورُ الحاكمِ العادلِ في حمايةِ البلادِ من شرورِ الفتن.

الهدايات المستنبطة من قصة ذي القرنين

* من عوامل النهوض وأسباب الرقيِّ: الأخذُ بالأسبابِ المُعِينَةِ على ذلك من الإيمانِ الخالصِ والعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.
* ويحضرني في هذا المقام قول إقبال

لو يمسَّ التوحيدُ فكراً نقيّاً		وضميراً حيّاً وقلباً أبيّاً
لأحال الخمولَ والضعفَ إيماناً		وعزماً يغزو نجومَ الثُّريَّا

* في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائدِ الراشدِ والحاكمِ العادلِ والفاتحِ المؤيَّد الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحلُّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين

---

(١) حديث صحيح رواه ابن ماجة في السنن كِتَاب الْفِتَنِ بَاب فِتْنَةِ الدَّجَالِ وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ٢/ ١٣٦٤ حديث ٤٠٨٠ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٥١٠ ورواه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٠٩، وقوله: (فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفاً) بِفَتْحِ النُّونِ وَالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ: دُودٌ يَكُونُ فِي أُنُوفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ جَمْعُ نَغَفَةٍ.

ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق

* ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعُوِّين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بالجهاد.

* من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله، وسلم لأولياء الله، يدني أهل الطاعة ويباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر دائماً بفضل الله ورحمته ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروه: قال ابن العربي: « وَعَلَى الْمَلِكِ فَرْضٌ أَنْ يَقُومَ بِحِمَايَةِ الْخَلْقِ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهِمْ، وَسَدِّ فُرْجَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِ ثَغْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي تَفِيءُ عَلَيْهِمْ، وَحُقُوقِهِمْ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَنَتُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ، حَتَّى لَوْ أَكَلَتْهَا الْحُقُوقُ، وَأَنْفَدَتْهَا الْمُؤَنُ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ:

الْأَوَّلُ: أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ.

الثَّانِي: أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينُهُمْ.

الثَّالِثُ: أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ، فَإِذَا فَنِيَتْ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرُ الْخِزَانَةِ وَبَقِيَتْ صِفْراً، فَأَطْلَعَتْ الْحَوَادِثُ أَمْراً بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالُهُمْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ، وَتُصْرَفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ.

فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ: لَسْت أَحْتَاجُ إلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ، أَيْ اخْدُمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُغْنِي دُونَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إنْ أَخَذُوهَا أُجْرَةً نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ فَكَانَ

التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبْدَانِ أَوْلَى [(١)].

* في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرِّهم وتقويم سلوكهم.

* ومن الفوائد المستفادة: والقواعد المستنبطة: دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمِهِ وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج.

* ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة: شكر المنعم وإجلالُهُ والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: « فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مُوليها وقال: ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان ﷺ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾، [النمل: ٤٠]، بخلاف أهل التجبُّر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم تزيدهم أشرا وبطرا» [(٢)].

* ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد ويقطعون دابر الفساد، ويقيمون موازين القسط، ويرفعون مشاعل النور، كما قال محمد إقبال:

فأين جحافلُ الأبطالِ منا		يضيء مسيرُها للسالكين
وتغبطُها شعوبٌ أرهقتها		بالاستبدادِ أيدي الظالمين

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٢٤٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٨٦.

خاتمة السورة

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ٩٩ - ١١٠].

المناسبة:

جاءت خاتمة السورة الكريمة متسقةً مع سياقها ومحورها:

حيث بينت جزاء المخدوعين المفتونين الذين اغتروا بزخرفِ القولِ وانقادوا للأهواءِ فغرقوا في خضم الفتن، وتاهوا في شعابها السحيقة، وفي المقابل تذكرُ خاتمة السورة عاقبة من عصمهم الله تعالى ونجاهم من الفتن فكانت لهم جنات الفردوس نزلا، ثم تختم السورة بما بدأت من حديثٍ عن كلمات الله التي لا يحصيها عدٌّ ثم العودُ إلى التذكير بطريق العصمة والنجاة والفوزَ والرضوان، وهو طريق سهلٌ واضحٌ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

من هنا يتبين لنا وجه المناسبة بين مضمونها وبين ما ورد في فضلها، كما ذكرنا في فضائل السورة الكريمة أن قراءة العشر الأواخر منها عصمة من الدجال، مع ملاحظة ما ذكرناه في مقدمة السورة أن العشر الأواخر في عدِّ المدني الأول والأخير والمكي تبدأ من قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ وتنتهي بنهاية السورة.

المعنى الإجمالي

من مشاهد القيامة

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) ﴾ [الكهف: ٩٩ - ١٠٢]

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾: لما فرغ ذو القرنين رحمه الله من بناء السد الذي صار حاجزا بين يأجوج ومأجوج والبلدان المنكوبة، فمنعوا من الخروج، وماج بعضهم في بعضٍ خلف هذا البنيانِ المَشيدِ، وقيل هذا التفات لما يجري قبل قيام الساعة من شدة الزحام واختلاط الناس، وقيل عند انفتاق السدِّ وخروج يأجوج ومأجوج واختلاطهم بالناس وما يحدث من هرجٍ ومرجٍ (١).

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾: النفخة الثانية التي تجمع الناس كما قال سبحانه ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر: ٦٨]، وكما في الصحيحين « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْماً ؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْراً ؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْماً وَاحِداً وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ ومعنى عرض جهنم: إبرازها وكشفها للذين

---

(١) يراجع: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٣٦، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٥ / ٢١٢، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٣٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ الزمر: ٦٨ حديث ٤٥٣٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ما بين النفختين الحديث١٤١ - (٢٩٥٥).

عموا عنها في الدنيا، وفي ذلك نوع من العقاب للكفار لما يتداخلهم من الغم والفزع.

﴿ عَرْضًا ﴾ أي عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادَر قدرُه، وتخصيصُ العَرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)(١).

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

الذين كانوا في غفلة وإعراض عن النظر في آيات الله و التفكر والاعتبار، ﴿ وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ نفى عنهم السمع، أي: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله.

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

أحسبوا أن ما عبدوه من دون الله ينفعهم ؟ ويشفع لهم عند الله ؟ ويدفع عنهم عذابه؟ فقد أعددنا لهم نزلا يناسبُ جُرمَهم، ولو أمعنوا النظر وأصغوا السمع لتراجعوا عن هذه الحسابات الخاطئة والمزاعم الواهية.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ قال أبو السعود: « وفيه تخطئةٌ لهم في حسبانهم وتهكُّمٌ بهم حيث كان اتخاذُهم إياهم أولياءَ من قبيل إعتاد العتادِ وإعدادِ الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم من العُدة والذُّخْر جهنمَّ عُدّةً»(٢).

فتنة الأهواء

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حرّ نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين حديث ٢٩-(٢٨٤٢).

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٤٨.

﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٢ – ١٠٦].

بعد إنكاره عليهم اتخاذهم عباد الله أولياء من دونه، بين تعالى خسرانهم المبين وضلالهم البعيد وتقليدهم الأعمى وتعصبهم المقيت لما هم عليه بسبب فتنة الأهواء التي تزين القبيح، فجمعت السورة الكريمة بين فتنة الدنيا وفتنة إبليس وفتنة الهوى حتى يكون المسلم على حذرٍ ويسلك طريق العصمة من هذا الخطر.

وقد قيل

إني بُلِيتُ بأربعٍ ما سُلِّطوا　　　　إلا لشدةِ شقوتي وعنائي

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى　　　　كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي ؟

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

من أشدِّ الفتن وأعظمها خطرا وأعمقها أثرا فتنة الأهواء حين يعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيغ، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الأدلة الشرعية والفطرة النقيَّة والعقول الراجحة، فتراهم يتهربون من سماع الحق والنظر في أدلته وبراهينه ولا يُسلمون بالحججِ، فيؤثرون الهوى على الحق ويشترون الضلالة بالهدى.

شأن أصحاب الملل الوضعية والمحرفة والمذاهب الضالة، ممن انتصروا لأهوائهم وتعصبوا لآرائهم، وانخدعوا ببريق الدنيا وتعلقوا بسرابها، واغتروا بالمال، وانحازوا إلى السلطان، وتفاخروا بالأهل والعشيرة.

وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسهم وفي حُسبانهم أيضاً حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابِها ومشاهدةِ آثارِها.

روى البخاري في صحيحه بسنده عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبِي ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ﴾: هُمْ الْحَرُورِيَّةُ ؟ قَالَ: لا: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: أَمَّا الْيَهُودُ: فَكَذَّبُوا

مُحَمَّداً ﷺ وَأَمَّا النَّصَارَى: فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحَرُورِيَّةُ هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمْ الْفَاسِقِينَ(١).

فالأخسرون أعمالا: هم « الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً وفضلاً فنالوا به عَطَباً وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحاً، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكِسَ في الذي رجا فضله.

وقال ابن العربي: «... وَيَرْجِعُونَ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الصِّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكُفَّارُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، إنْفَاذاً لِمَشِيئَتِهِ، وَحُكْماً بِقَضَائِهِ، وَتَصْدِيقاً لِكَلَامِهِ.

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ الدَّلِيلِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ ﴾ [آل عمران: ٧] كَأَهْلِ حَرُورَاءَ وَالنَّهْرَوَانِ، وَمَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ الْيَوْمَ، وَشَغَبَ الْآنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَشْغِيبَ أُولَئِكَ حِينَئِذٍ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ وَشَرٌّ مِنْهُمْ.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَضَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَيَلْحَقُ بِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْنَوْا زَمَانَهُمْ النَّفِيسَ فِي طَلَبِ الْخَسِيسِ»(٢).

وقال ابن كثير: «أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعُهم مقلِّدون بغير دليل»(٣).

---

(١) صحيح البخاري في تفسير سورة الكهف (٩٥٣٤) ٤١/ ٣٥٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٥/ ٣٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ٢٠١ والحرورية نسبة إلى حروراء قريةٌ انحاز إليها الخوارج فنُسِبُوا إليها.

فالآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ ﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩ ﴾ [النور: ٣٩].

عاقبة الأخسرين أعمالا

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦ ﴾

فهؤلاء الأخسرين لا قيمة لهم ولا وزن لهم عند الله تعالى، وذلك يدلُّ على خستهم وحقارتهم وضلال سعيهم، كما لا يثقل لهم ميزانٌ يوم القيامة، بل الوزن عليهم لا لهم، إذ لا يعتدُّ بما جاءوا به.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ اقْرَءُوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [1].

(١) صحيح البخاري - باب ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ رقم (٩٢٧٤)، وصحيح مسلم - صفة القيامة والجنة والنار - رقم (٢٢٢٧).

مسك الختام

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [**الكهف ١٠٧- ١١٠**].

بعد الحديث عن أحوال المفتونين بالهوى، الغارقين في الضلالة، المعجبين بالباطل، وبيان مصيرهم المحتوم، ونهايتهم الأليمة، تهبُّ نسائمُ الخيرات، وتفوحُ أطايبُ المسرات، لأهل الإيمان والأعمال الصالحات.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتنِ وأعاصير الغواية فاستحقوا الفوزَ بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة، فلا يملُّون ولا يفتُرُون ولا يتحولون عنها، كيف وقد جمعت معاني الحسن.

وقد جاء في الحديث الصحيح قولُ نبيِّنا ﷺ (... فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)(١).

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

ثم يأتي هذا الختامُ وقد حوى جوامعَ الكلم وناسب ما جاء في مقدمة السورة الكريمة وثناياها من آيات بينات وحجج نيرات.

فكلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهرٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا ينفدُ، وكنوزٌ لا تحصى، فلو كانت كل قطرة من بحار الدنيا مداداً، ولو استحالت جذورُ الأشجار

---

(١) صحيح البخاري - باب درجات المجاهدين في سبيل الله - رقم (٢٧٩٠).

وجذوعُها وأغصانُها أقلاما، لتكتب بها كلمات الله لنفد المداد والأقلام قبل أن تنفد كلمات الله.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

ختمت السورة الكريمة بما بدأت به من بيان مهمته ﷺ وطبيعته فهو بشر كسائر البشر، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

فمن كان في شوق للقاء مولاه، راجيا رضاه فليُعدَّ لهذا اللقاء زادَه وعُدَّتَه.

الصلة بين محور السورة وخاتمتها

لما جلَّت لنا السورة الكريمة الفتن القواصم: حذرت من أولئك الغارقين في بحار الفتن المائجة وهم لا يبالون بالخطر الذي يتهددهم والعذاب الذي يترصَّدهم، بل لا يسلمون بأنهم على ضلال مبين، وأدهى من ذلك وأمرُّ ما أصابهم من عُجبٍ واغترار بما هم عليه من ضلالٍ.

ثم يجيء مسك الختام ببيان عاقبة الذين عصمهم الله من الفتن وسهل لهم طريق النجاة بإيمانهم وصلاحهم، ثم الإشارة الأخيرة لهذا الطريق ونبينا الهادي إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾.

الهدايات المستنبطة من الخاتمة

في تذكر أهوال يوم القيامة واستحضار مشاهدها: تسليةٌ وتثبيتٌ، وعظةٌ واعتبارٌ لأهل الحقِّ، وترهيبٌ للمعرضين المفتونين.

من أشدِّ الفتن وأعظمها خطراً وأعمقها أثراً: فتنة الأهواء حين يعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيغ، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الفطرة النقيَّة

والعقول الراجحة.

زفَّت لنا خاتمةُ السورة الكريمة بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتنِ وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوزَ بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة.

كلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهرٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا ينفدُ وكنوزٌ لا تحصى.

نبينا ﷺ بشرٌ كسائرِ البشرِ، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

سورة مريم

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ (١) بسورة مريم، حيث وردت فيها قصتها رضي الله عنها.

وفي ذلك تكريمٌ لها وتخليدٌ لذكرها، وتسجيلٌ لمآثرها ومناقبها، وتقديرٌ لصدقها وعفَّتها فضلا عما تحويه قصتُها من نموذجٍ عمليٍّ فريدٍ ومثالٍ تطبيقيٍّ رشيدٍ، للمرأةِ العفيفةِ الطاهرةِ العابدةِ الزاهدة.

ولسوف نرى في هذه القصة: كيف تجلت الرحماتُ وتنزلت البركاتُ على هذه الصّديقة التي عاشت حياتها في كنف الرحمن، وعلى مائدته العامرة تغذتْ روحُها وارتوى فؤادُها.

ولما كانت قصتها أقوى دلالةً وأجلى بيانا على رحمةِ الله تعالى بعباده الذين تسنَّمُوا أعلى مقامات العبودية: سُمِّيَت السورةُ باسمها؛ فحيثما ذكرت مريم يرتبط اسمها برحمة الله تعالى لها، وكمال عبوديتها لله تعالى فهي ممن بلغن درجة الكمال الإنساني، كما في الحديث عن أبي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: (**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وفَضْلُ عَائِشَةَ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثّرِيدِ على سَائِرِ الطعَامِ**) (٢).

---

(١) هناك تناسب بين أسماء السور وبين مضمونها، حيث دلالة الاسم على المسمى، وفي ذلك يقول الإمام الزركشي تحت عنوان: « اختصاص كلِّ سورة بما سميت: «ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز» **البرهان في علوم القرآن** للإمام بدر الدين الزركشي ١ / ٢٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه كتاب أحاديث الأنبياء – باب قوله=

وأخرج الترمذي والحاكم عن أَنَس رضي الله عنه أَنّ النّبيّ ﷺ قالَ: (**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**)[1].

وعن هدف هذه السورة يقول الإمام البقاعي: « مقصودٌ بها بيانُ اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع خلقه، بما يدل على اتصافه تعالى بجميع صفات الكمال...»[2].

ب. فضائل السورة.

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة أحاديثُ وآثارٌ ترغِّب في تلاوتها وتبيِّن مزيَّتها:

* فعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)[3].

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني، والمثاني هي التي تلي المئين، والمئون: كل سورة بلغت مائة فصاعدا، والمثاني كل سورة دون المئين.

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « **بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي**»[4].

= تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾[التحريم: ١١] صحيح البخاري ٢/ ٣٩. حديث ٥١١٢، ورواه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٨٤، والدارمي في السنن ٢,٧٥.

(١) **حديث صحيح**: رواه الترمذي في السنن عنه - كتاب المناقب باب / فضل خديجة ٥ / ٥١٥ حديث ٣٨٧٨ وقال حديث صحيح، و أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين »، ووافقه الذهبي ٢ / ٥٩٥ .

(٢) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** للبقاعي ٤/ ٥١٤ بتصرف.

(٣) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في **تفسير سورة الأنعام**.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه** باب: سورة بني إسرائيل - حديث ٢٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٧٦ حديث ٢٤٤٩، وأخرجه أبو عبيد في **فضائل القرآن** حديث ١٣٣، وابن الضريس في **فضائل القرآن** حديث ٢١.. والعتاق الأول: أي من السور المكية، والعتاق جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الروعة والحسن والجودة. تلادي: أي ما حفظته قديما، وقال البيهقي « والعتاق: جمع عتيق، والعرب=

* وحين قدم وفدُ قريش إلى النجاشي ملك الحبشة في طلب من هاجر إليها، دار حوارٌ طويلٌ بين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي تحدث باسم المهاجرين وبين النجاشي والقساوسة وبين وفد قريش: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ومعه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ: وكان فيما دار في هذا الحوار مما يتعلق بفضل السورة الكريمة: ما رواه الإمام أحمد وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «... **فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْراً مِنْ (كهيعص)، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَداً**»(١).

ج. مكية السورة.

هذه السورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة. قال القرطبي «وهي مكية بإجماع»(٢).

- كان نزولها مبكرا في العهد المكي، كما يتضح من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن قول ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

=تجعل كلَّ شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا، يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم » **شعب الإيمان** للبيهقي ٢/ ٤٧٦.

(١) **حديث حسن**: أخرجه مطولا الإمام أحمد في المسند ١/ ١, ٢: ٣, ٢ وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد** «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحق صدوق يدلس وقد صرّح بالسماع» مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير- باب الهجرة إلى الحبشة ٦/ ٢٥: ٢٨ - الحديث رقم ٩٨٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٧١ .

د. عدد آيات السورة.

عددُها في المدني الأخير والمكي تسع وتسعون، وعند الباقين ثمانٍ وتسعون آية.

واختلافهم في ثلاث آيات.

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾. عدها الكوفي، وتركها غيره.

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ معدود للمكي والمدني الثاني، ومتروك لغيرهما.

﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ﴾. منع ضمها الكوفي للآيات المعدودة وضمها غيره.

وكلماتها تسع مئة واثنتان وستون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وحرفان [(١)] .

هـ. محور السورة.

تدور آياتُ السورة الكريمة حول صفتين بينهما تناسبٌ وتلازمٌ:

الصفةُ الأولى: صفة الرحمة، وهي من صفات الكمال الرباني، والتي تتجلى في كل ذرة من ذرات هذا الكون، وتفيض بظلالها على كل مخلوقٍ، ففي هذه السورة الكريمة نستشعر الرحمة في كل آيةٍ من آياتها، ونلمسها ونرى آثارها في كل معنى من معانيها.

ولقد تكرر اسم الله «الرحمن» وكلمة «رحمة» كثيرا في هذه السورة؛ مما يؤكد ويقرر الهدف العام من هذه السورة؛ ليمتلئَ قلبُ المؤمن ويفيضَ بالرحمات، ويعظُمَ رجاؤه ويستبشرَ فؤادُه برحمة الله، فيزداد من الله تعالى حبا وقربا ورجاءً، ويقوى يقينُه حين يعاينُ في رحلته مع هذه السورة الكريمة صورا ومشاهد تتجلى فيها لطائفُ الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء.

---

(١) يراجع: كتاب **البيان في عد آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ١٨١، وكتاب « **أقوى العدد في معرفة العدد**» لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٦, ٢ **وفنون الأفنان في علوم القرآن** لابن الجوزي ص ٢٩١.

ومن رحمته تعالى التي تتجلى في هذه السورة الكريمة: إمهاله العصاة وصبرُه على المشركين مع إقامة الحجج ودحض الشبه وفتح باب التوبة والرجوع.

الصفةُ الثانية: وهي من صفات الكمال الإنساني ومن أسمى وأجلِّ المقامات وأسنى المقاصد التي من أجلِها خُلق الإنسان، إنها العبوديةُ لله تعالى وهي سموٌّ وارتقاءٌ وتحررٌ ونقاء وخشوعٌ وتبتُّل.

وإذا كانت رحمته تعالى هي من كمال صفات الربوبية، فإن غايةَ الإنسانية وكمالها في عبوديتها الخالصة لله تعالى، وهذه الصديقة العابدة مريم التي سميت السورة باسمها قد نذرتها أمُّها محررةً أي خالصةً للعبادة، وسمّتها مريم قيل تعني العابدة [1]، والعبودية لله سمو وارتقاء ونهوض وتحرر وعزٌّ.

من هنا نصل إلى المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

من هنا كان الهدف من هذه السورة: تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية وفي ذلك شرف العبد وكماله، وتحقيق الغاية من وجوده والهدف الأساسي لهذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

قال ابن تيمية رحمه الله: « وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا» [2].

وقال رحمه الله: « من عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز» [3].

---

(١) قال ابن حجر «ومريم بالسريانية تعني الخادمة» **فتح الباري** ٦/ ٥٤١، ويراجع **روح البيان** للبروسوي ٢/ ٢٧، و**محاسن التأويل**، للقاسمي ٤/ ٩١.

(٢) **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية ١ / ٢١٣.

(٣) نفس المرجع ٩ / ٢٩٧.

ومن هنا تتجلى لنا الصلة بين تعظيم الربوبية وتحقيق العبودية؛ إذ بقدر تحقيق العبودية لله تعالى ظاهرا وباطنا، بقدر ما يزيد العبد إجلالا وتعظيما للرب سبحانه.

و. المناسبات في السورة.

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة كما ذكرنا يدورُ حول صفة الرحمةِ ومقام العبودية، وتأتي قصةُ مريمَ وقد ظللتها الرحمةُ وشمِلتها في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتها المباركة المديدة، فعاشت مريمُ في رحابها حتى في لحظات الامتحان التي مرت بها، من ذلك عندما تمثل لها روح القدس في صورة بشرية فلهجَ لسانُها بالاستعاذة من هذا الذي قطع عليها خلوتها، وهتف قلبُها متوسِّلا بالرحمن أن يحفظها ويصونها، فقلبها دائمُ التعلقِ برحمةِ الرحمنِ التي لا تفارقُها.

هذا بالنسبة لقصة مريم، أما باقي آيات السورة فإن رحمة الله تعالى تتجلى لنا في كلِّ آياتها وسائر قصصِها ومشاهِدها، رحمة الله تعالى بأنبيائه عليهم السلام وسائر عباده المؤمنين، بل رحمته تعالى التي تشملُ الكافر في الدنيا حين يمهله ويخاطبه ويحاوره وينذره ويفتح له باب التوبة، ورحمته تعالى بإدخاله عبادَه المؤمنين الجنة.

وتتجلى الصلة بين اسم مريم وبين معنى العبودية من كون مريم قد نذرتها أمُّها محررة أي خالصة للعبادة وسمتها مريم أي العابدة بلغتهم، وقد بلغت الغاية في مقام العبودية لله تعالى من هنا نصل إلى المناسبة بين اسم السورة ومحورها الذي يتجه نحو غايتين: الرحمة وبها كمال الفيض الرباني، والعبودية وهي غاية الوجود الإنساني.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* بدأت السورة الكريمة بالأحرف المقطعة ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾ وفيها تنويهٌ إلى أن القرآن كتابٌ عربيٌّ مبينٌ في حروفه وكلماته وجمله وأساليبه، وفي الختام تجلت الحكمة من نزوله بهذا اللسان العربي المبين ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧ ﴾.

* ولما افتتح السورة الكريمة بالثناء العطر على نبي الله زكريا عليه السلام وتذكير الأنام برحمة الله تعالى وعنايته به ورعايته له وثنائه عليه في الذكر الحكيم، وهو السجلُّ الخالدُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾ نرى في المقابل وعلى الجانب الآخر مَنْ طُوي ذكرُهم ومُحِيَت آثارُهم وطُمِرَت مراسمهم بعد أن كانوا ملءَ الأسماع والأبصار، قال تعالى في ختام السورة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨ ﴾.

وصدق من قال:

أيـــن الملـــوكُ الماضـيـةُ		تـــركـــوا المـــنـــازلَ خـــالـيـةً

جمـعـوا الـكـنـوزَ بـجَـدِّهـم		تـــركُـــوا الـكـنـوزَ كـما هِـيَ

فـانـظـرْ إلـيـهـم هـل تَـرَى		في دارِهِـــمْ مـــن بـاقـيـةٍ

إلا قـــبـــوراً دارســـاتٍ		فـيـهـا عـظـامٌ بـالـيـةٌ

٣. المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة الكهف وسورة مريم: صلة واضحة جلية:

* اختتمت الكهف بتأكيد بشرية الرسول ﷺ ونبوته، وجاءت سورة مريم مؤكدة ومقررة بشرية المسيح عليه السلام ونبوته قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ ﴾.

* وكما استهلت سورة الكهف بالتنويه على شرف نزول الكتاب على محمد ﷺ ووصفه بالعبودية وهي أسمى المقامات فقد استهلت سورة مريم بالتنويه على شرف ومكانة نبي الله زكريا واستحقاقه لأن يُذْكَرَ وتنشر محاسنُه في أشرف الكتب وعلى لسان خير الرسل، قال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾.

* ختمت سورة مريم بما بدأت به سورة الكهف من بيان مقاصد القرآن: قال تعالى في مطلع سورة الكهف ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف: ١ - ٢].

وقال تعالى في ختام سورة مريم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٩٧].

* أيضا لما بين في ختام سورة الكهف طريق النجاة والفلاح ذكر في سورة مريم نماذج إنسانية وأمثلة واقعية وتراجم عملية لمن نهج هذا الطريق من النبيين والصديقين، فجاءت قصة زكريا وابنه يحيى، ومريم وابنها عيسى، وإبراهيم وابنه إسحاق وابنه يعقوب، وموسى وأخيه هارون، وإسماعيل وإدريس عليهم السلام كما أعقب ذلك التنويه بسائر النبيين والصديقين.

* اختتمت الأولى بجزاء المؤمنين الصالحين وما لهم عند الله تعالى من مقام أمين ونزلٍ كريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧ – ١٠٨]، وفي ختام سورة مريم ذكر تعالى من إكرامه لهم وتفضله عليهم أن غرس في قلوب العباد محبتهم، ونَشَرَ محاسنَ سيرتهم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم: ٩٦].

* اشتملت سورة الكهف على قصص عجيبة كذلك جاءت سورة مريم بأمور عجاب منها استجابة الله تعالى لدعاء زكريا مع كبر سنه وعقم زوجته، فقد وهبهما الله يحيى بقدرته تعالى ولطفه، كذلك حمل مريم بعيسى عليه السلام من غير أبٍ بقدرة الذي يقول للشيء كن فيكون قال السيوطي في حديثه عن سياق هذه القصة: " أقول ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب، قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين، وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا وقصة ولادة عيسى

فناسب تتاليهما»[1].

* لما أنذر الله تعالى في مقدمة الكهف من ادعى لله ولدا: جاءت سورة مريم بتقرير ما جاء في سورة الكهف من نفي الولد وإنذار من زعم ذلك، فوردت قصةُ حمل مريم وولادتها عيسى عليه السلام وجاءت الآيات بنفي الولد.

* ورد في سورة الكهف حديثٌ مستفيضٌ عن رحمة الله بعباده المؤمنين وباليتامى والمساكين والمستضعفين، وجاءت سورة مريم تكشفُ لنا عن جوانب أخرى لهذه الرحمة التي وسعت كلَّ شيء.

* في سورة الكهف حديثٌ عن صاحب الجنتين الذي اغتر بماله وجاهه، وفي سورة مريم نرى تكرار هذا النموذج البشري في كفار قريش قال تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

٤. المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تفصِّل السورةُ الكريمة في مظاهر الرحمة وآثارها وظلالها وثمارها، بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

٥. المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث المستفيض عن رحمة الله تعالى وآثارها العجيبة، وإخلاص العبودية لله تعالى، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ١١٥ وذكر هذه المناسبة أبو جعفر: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٢٨.

٦. **المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.**

السورتان الكريمتان من السور المكية، وفيهما تقريرٌ للعقيدة الإسلامية، ونقضٌ لدعائم الشرك، ودحضٌ لشبه الكافرين، وحديثٌ عن سمات القرآن ومقاصده، مع التأصيل الشرعي للقيم الأصيلة، والدعوة إلى التحلي بالأخلاق النبيلة، وتثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، كما اشتملتا على سائر أركان الإيمان وأصول العقيدة، فجاء الحديث عن الإيمان بالله، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وعن عالم الملائكة الأبرار، وعالم الجن والشياطين، وعن الإيمان بالقدر، فضلا عن التشابه بين السورتين في استجلاء آثار الرحمة الإلهية، حيث تجلت آثار رحمة الله في سورة الكهف في مواطن عديدة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

وقال سبحانه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال تعالى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال عزَّ شأْنُهُ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨].

كذلك سورة مريم نبعٌ فائضٌ، وكنزٌ زاخرٌ بالرحماتِ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

٧. **بين مقدمة السورة ومحورها**

لما دارت السورةُ حول الرحمةِ الربانية، وتجريد العبودية: استُهلَّت بالحديث عن رحمته تعالى بعبده زكريا عليه السلام، هذه الرحمة التي تجلّى أثرُها في استجابة دعوته عليه السلام وهبته الولد الصالح مع كبر سنه وعقم زوجه، فكانت ولادة يحيى تكريما ورحمة بهذا النبي العابد.

فالأنبياء عليهم السلام هم أكثرُ الخلقِ مسارعة إلى الخيراتِ وأصدقهم توجُّها وتذلُّلا لله تعالى؛ وأعظمهم رغبةً ورهبةً، فهم النموذجُ الإنسانيُّ الكامل للكمال البشرى بما امتازوا به من كمالِ العبوديةِ للهِ تعالى.

كلمة في السياق العام للسورة وصلته بمحورها

تستهل السورة الكريمة بالحديث عن نبي الله زكريا عليه السلام ثم ابنه يحيى عليه السلام ثم يأتي الحديث المستفيض عن مريم تكريما لها وتخليدا لذكرها ونشرا لمحاسنها وبيانا لرحمة الله تعالى بها وكمال عبوديتها له سبحانه، ليتصل الكلامُ بعيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى ورحمته تعالى به ثم يذكر طائفةً أخرى من الأنبياء يأتي في مقدمتهم أبو الأنبياء عليه السلام فيدور الحديثُ حول رحمة الله بهم وكمال عبوديتهم لله، ليتضح لنا من خلال هذه القصص: كيف عاشَ الأنبياء والصالحون في ظلال الرحمة الربانية التي شملتهم وأظلّتهم ورافقتهم في سائر أحوالهم ؟ وكيف حققوا الغاية من وجودهم بعبوديتهم الخالصة لله وحده.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصص ببيان سوء عاقبة من انحرفوا عن منهج النبيين وسَنَنِهِمُ القويم إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فإن جزاءه الجنة، دار النعيم المقيم ودار السلامة من جميع الآفات والمنغصات، والجنةُ من أعظم الرحمات التي خص الله بها من يشاء من عباده، ثم تستطردُ الآياتُ إلى الحديث عن تنزلات الملائكة بأمر الله تعالى وعلمه ورحمته، يلي ذلك جولاتٌ حواريةٌ مع المشركين تضمنت عرضا لشبههم وأباطيلهم مع دحض هذه الشبه والأباطيل بالحجج والبراهين وتقرير العقيدة الصحيحة مع عرض صورٍ ومشاهد لمواقف يوم القيامة... وفي هذه الجولات تتجلى رحمة الله في إمهاله للعصاة وفتح باب التوبة أمامهم.

- ١ -

رحمته تعالى بزكريا ويحيى عليهما السلام

قال تعالى ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا
۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي
وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل
لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ
ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا
۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ
ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤
وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥ ﴾ [مريم ١ : ١٥]

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ ﴾

براعة الاستهلال

تبدأُ السورةُ الكريمةُ بـ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾ وهي من الحروف المقطعة التي استُهلَّت بها بعضُ السورِ، وفيها تحدٍّ وإعجازٌ؛ إذِ القرآنُ الكريمُ قد أُلِّفَ من هذه الحروفِ العربيةِ وتحدَّى العرب وهم أربابُ فصاحةٍ وبيانٍ أن يأتوا بمثله.

وفي الاستفتاح بها تنبيهٌ وتشويقٌ لما يأتي بعدها من آيات.

قال صاحب الظلال: « هذه الأحرف المقطعة التي تبدأ بها بعض السور، والتي اخترنا في

تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي يتألف منها هذا القرآن، فتجيء نسقاً جديداً لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل القرآن»(١).

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾

إضافة رحمة الربِّ جلَّ وعلا إلى النبي ﷺ إضافة تشريفٍ وتكريم، والآيةُ تذكيرٌ للنبي ﷺ برحمة الله عز وجل بعبده ونبيه زكريا عليه السلام.

وقد اتسمت السورة الكريمة بهذه السمة فذكَّرت بالصديقة بنت الصديق مريم ابنة عمران كما ذكرتنا بابنها نبي الله عيسى عليه السلام، وذكَّرتنا أيضا بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وطائفة أخرى من الأنبياء عليهم السلام، الذين هبت نسائمُ ذكراهم وفاح أريجُها الذَّكيُّ في هذه السورة العطرة لنترسَّم خُطاهم ونهتدي بهداهم، فهم نجوم الهدى وأعلام الحق ومناراتُ السبيلِ.

نقرأ في السورة الكريمة:

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣ بتصرف.

ذكَّرت السورة الكريمة بهذه المناقب العظيمة، ونثرت هذه الزهورَ الندية، ونشرت هذه الصفحات المَضيَّة، حتى يتعايش قارئ القرآن مع هذه الذكريات العطرة، ويتنسم عبق هذا الماضي المجيد، ويحلِّق بروحه ويطوِّف بعقله ووجدانه مع هذه الآفاق الرحيبة والصفحات المشرقة التي تشحذ الهمم وتسمو بالأرواح، ويلمسُ في حياة الأنبياء والصديقين العبوديةَ الخالصةَ، والأسوةَ الحسنةَ، والقدوةَ الطيبةَ، والأمثلةَ الواقعيةَ، التي يُحتذى بها، ويُقتفى أثرُها.

دعاء زكريا عليه السلام

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾

دعا ربه خفيةً، ومن المعلوم أن إخفاء الدعاء أو الجهر به عند الله سواء، فهو سبحانه سميع الدعاء، ولكن للدعاء في السر مزيةٌ فهو أدعى للخضوع والخشوع والإخلاص، وأرجى للقبول، يقول قتادة: « إن الله يعلمُ القلبَ التقيَّ، ويسمعُ الصوتَ الخفيّ»[1].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾

تفصيلٌ وبيانٌ لدعاء زكريا عليه السلام، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضَعُفَتْ عظامي وخارت قواي، « وإسناد ذلك إلى العظم لما أنه عمادُ البدن ودعائمُ الجَسدِ، فإذا أصابهُ الضعفُ والرخاوةُ تَدَاعَى ما وراءَه وتساقطتْ قواه»[2].

﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾: أي انتشر الشيبُ فيه انتشارَ النار في الهشيم، وفى هذا إشارة إلى ضعفه، وفقره إلى رحمة الله عز وجل.

﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾: أي ولم أعهد منك ربي إلا إجابتي في دعوتي، فأنت رجائي وغايتي، وأنت قصدي ووجهتي، وأنا اليوم أحوجُ إلى رحمتك ولطفك وإحسانك وقد قيل:

(١) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١، والنكت والعيون للماوردي ٢ / ٥٧٨.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٥٩ والكشاف للزمخشري ٣ / ٤ والنكت والعيون للماوردي ٢ / ٥٧٨.

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسنُ فيما بقي

قال صاحب روح البيان: «... روي أن محتاجا قال لبعضهم: أنا الذي أحسنتَ إليّ وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته، وكأنه يقول ما رددتني حين ما كنت قوي القلب والبدن ... فلو رددتني الآن بعدما عودتني القبول مع نهاية ضعفي: لتضاعف ألمُ قلبي، وهلكتُ، يقال: سَعِدَ بحاجته إذا ظفر بها، وشقي بها إذا خاب ...»[1].

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾

يخبر زكريا عليه السلام عن أسباب طلبه للولد: فقد وهن منه العظم وشاب الشعر، وتقدم به العمر، وهو خائف من أن يموت دون وارث له، يرث عنه النبوة والصلاح.

* وقال الإمام القاسمي: « ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾: أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به، من الإرشاد ووعظ العباد، وحفظ آداب الدين والتمسك بهديه المتين»[2].

﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾: لم تلد في شبابها، ولم تحمل، لكنَّ قدرتَك لا يُعجزُها شيء.

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾: أي هب لي من لدنك من يلي أمري، ويسير على نهجي.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾: والمقصود هنا ميراث الهُدَى والصلاح.

﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾: أي مرضيا عندك في جميع أحواله، وعند خلقك يحبونه ويتأسَّون بأفعاله المرضية.

استجابة الدعاء، والبشارة بيحيى عليه السلام

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

(١) روح البيان للبروسوي ٥ / ٣١٤ بتصرف يسير.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ١١١.

جاءته الملائكة تبشره بيحيى عليه السلام الذي منحه الله هذا الاسم الحسن وجعل له حظّاً عظيماً منه، ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي لم نجعل له شبيهاً من أهل عصره في أحواله وصفاته، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم.

« وللأسماء المبتكرة الفريدة مزايا منها، قوة تعريف المسمى بها لقلة الاشتراك، إذ لا يكون مثله كثيراً مدة وجوده، وكذلك مزيةُ اقتداء الناس به من بعد، حين يسمُّون أبناءهم ذلك الاسم تيمُّنا واستحسانا»[١].

أما عن سر التسمية بهذا الاسم، فلقد قيل: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، فالإيمان حياة القلوب، والطاعة زادها، وقيل لأن الله أحيا قلبه بالنبوة، وقيل لأن الدين يحيا به، وزكريا عليه السلام طلبه من أجل الدين، أو لأنه يموت شهيدا، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه الوجوه كلها صحيحة، فلقد أحياه الله عز وجل بالإيمان والنبوة، وأحيا به القلوب، وجدد به الدين، ونال الشهادة في سبيل الله .

موقف زكريا عليه السلام من هذه البشارة

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد فاستجاب المولى عز وجل لدعائه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه، ولقد كانت البشرى مفاجأةً لزكريا عليه السلام، فقال متعجباً من هذه البشارة، وشاكراً المولى عز وجل على هذه النعمة، ومتسائلاً عن كيفية تحققها ووقت وقوعها: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾.

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦ / ٦٩ .

تساءل زكريا ﷺ عن كيفية وقوع هذه البشارة، فامرأته عاقرٌ، وقد بلغ السن الذى تعتو فيه العظام والمفاصل، أي تيبس وتجف، وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها.

كمال قدرة الله تعالى

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾

وفى التعبير بوصف الربوبية دلالةٌ بالغةٌ: فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشؤون خلقه، وكما خلق عز وجل عبده زكريا ﷺ ولم يك شيئاً؛ فهو سبحانه قادرٌ على أن يأتي بالولد مع كبر السن وعقم الزوجة؛ فالله سبحانه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، فهذا الأمر الذي يتعجب منه زكريا ﷺ ويقف أمامه مشدوهاً ومبهوراً، هو أمر هين يسير على الله عز وجل .

علامة عجيبة لبداية الحمل

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾

طلب زكريا ﷺ آية من المولى عز وجل، أي علامة تدل على استجابة الله لدعائه، حتى يفرح قلبه بذلك بعد أن فرح بالبشارة ليتعجل السرور به، وحتى يتلقى ذلك بالشكر لله عز وجل واهب النعم ويحتفل ويحتفي بهذا الحدث الجليل .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أي علامة لوقت الحمل .

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

أجاب المولى تعالى زكريا ﷺ فيما طلبه، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل، وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلا يتكلم إلا بالإشارة والإيماء، ففي سورة آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١ ﴾ [آل عمران: ٤١] أي إلا إشارة، وفى سورة مريم ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي كاملة وتامة ومتتابعة، بدون علةٍ،

وإنما يحتبس لسانُه بقدرة الله تعالى كعلامة على بداية وقوع الحمل .

ولقد مُنعَ زكريا ﷺ من الكلام لطلبه آية تدل على استجابة الله لدعائه، فاختار له الله سبحانه الصمت ولذلك حكمة بليغة؛ فللصمت فوائده العديدة، ففيه وقفةٌ مع النفس، وهدوء البال، وسكينة الفؤاد، واجتماع القلب، وانطلاق الفكر، وصفاء العقل، وكان زكريا في حاجة إلى ذلك لأنه أعطي الولد بعد أن لم يكن ينتظره، فقد بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً، فكان يحتاج إلى هدوء النفس بعد ذلك الفرح العارم بمجيء الولد بعد المشيب. ومن هنا فمنع زكريا ﷺ من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له .

الدعوة في صمتٍ !

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾

نبي الله زكريا ﷺ رغم منعه من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه المداومة على الذكر، وتأملْ كيف يواصل زكريا ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام فالذكر من أيسر العبادات ومن أعظمها أجراً .

والعشي: من حين زوال الشمس إلى أن تغيب، وأصل العشي الظلمة، وسمي ما بعد الزوال عشاء لاتصاله بالظلمة، **وأما الإبكار** فمن حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وأصله التعجيل، لأنه تعجيل الضياء.

يواصل ﷺ دعوة قومه إلى ذكر الله عز وجل، وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾: أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات، وإنما خص التسبيح من بين سائر الذكر ليتناسب مع هذه الآية العجيبة التي تستنطق الأفواه بالتسبيح؛ تعجباً من قدرة الله وتنزيهاً له تعالى، فيتعايش الناسُ مع هذا الحدث الجليل، في ظلِّ هذه الرحمةِ الربانية، ويستنشقون عبير هذه النفحة القدسية.

الرحمة منبع الفضائل

قال تعالى ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾

طوى السياق ذكر ولادة يحيى عليه السلام وما صاحبها من بهجةٍ وسرور، ثم نموه وترعرعه إلى أن وصل إلى سن الطلب والتحصيل، فأُمِر بالجد والاجتهاد والعزم والرشاد.

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾

أُمِرَ يحيى بأخذ التوراة بجدٍّ واجتهاد وحرصٍ على فهمها والعمل بها ودعوة الناس إليها.

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾

منَّ الله تعالى عليه منذ صباه عليه السلام بالحكمة والمعرفة وحسن التدبير والحزم والعزم في الأمور.

﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ حنانٌ ربانيٌّ أودعه الله في قلب هذا الصبي، فنما معه وترعرع وأزهر وأينع، وجمع عليه السلام بين الجدِّ والحزم وبين الرفق والحنان؛ فكان حازماً راحماً، هيِّناً ليِّناً سهلاً سمحاً، قد فاض قلبُهُ بالحنانِ فكان سجيةً فيه لا يتكلفه.

﴿ وَزَكَوٰةٗۖ ﴾: أي وطهارة، فالزكاة هي الطهارة والنمو، وتزكية الأنفس تطهيرها، والنهوضُ بها، وهبه الله تعالى نفسا زكية: طاهرة، ترتقي مدارجَ القبولِ وتنهضُ بغيرها إلى أعلى المقامات وأسمى الدرجات .

﴿ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴾: كان مطيعا لله عز وجل، يمتثل ما أمره به ويجتنب ما نهى عنه.

﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ ﴾: كان باراً بهما محسناً إليهما، ولم يكن متكبراً أو متعاليا على الآخرين، بل كان متواضعا ليِّنا، رفيقا بالناس محبا للحق ومذعنا له، ومطيعا لله عز وجل في جميع أحواله .

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾: تحية طيبة مباركة لهذا النبيِّ الذي جمع هذه الخلال الحميدة والشمائل الكريمة، فاستحق السلام الذي يعمُّ جميع أوقاته، ويستغرق كلَّ لحظاته الحافلة بالطمأنينة والسكينة حتى في أوقات المحن التي لا تخلو منها حياة الأنبياء والصالحين تمر عليه وهو في سكينة وطمأنينة ويقين ورضا.

قال الإمام القرطبي: « سلم الله تعالى على يحيى وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى»[(١)].

وقال صاحب روح البيان «﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ ﴾ أي سلامة من الله تعالى وأمان على يحيى أصله وسلمنا عليه في هذه الأحوال وهي أوحشُ المواطن»[(٢)].

المناسبة بين هذه القصة ومحور السورة

تبدأ السورةُ الكريمةُ بالحديث عن رحمة الله تعالى بعبده زكريا عليه السلام حيث استجابَ دعاءه ورزقه الولد مع كبر سنه وعقم زوجه التي هيأها الله تعالى لهذه الآية العجيبة، وتتناسب آيات هذا المقطع مع محور السورة وهو الحديث عن رحمة الله تعالى، والتي تتجلى في استجابته سبحانه لدعاء زكريا عليه السلام وما اتسم به يحيى من الرحمة وهي غُرَّةُ الشمائل، وينبوعُ الفضائل وعن عبودية زكريا لله تعالى حيث الإخلاص في العبادة والاجتهاد في الطاعة والتذلل والخشوع في الدعاء ونشأة يحيى عليه السلام في محراب العبادة وساحات العلم، وشمائله الكريمة التي تجمع بين الحزم والعزم والرحمة واللين.

الهدايات المستنبطة

* جُبِلَتْ النفوسُ على حب الأولاد، فهم قرة العيون، وثمرات الفؤاد، وفلذات الأكباد وبهجة النفوس وزينة الحياة، قال تعالى ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٨٨.

(٢) روح البيان للبروسوي ٥ / ٣٢.

عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٦]، والولد هبة من الله عز وجل وإنعام منه سبحانه، قال تعالى ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩].

وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل: ٧٢].

فالولد هبة وإنعام من الله، وحب الولد: فطرة إنسانية .

ولقد جاء الإسلام بما لا يجافي هذه الفطرة، ولا ينافي تلك النزعة، بل ينمِّيها ويهذبها، فهذا زكريا عليه السلام يطلب الولد: قال تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ولقد دعا ﷺ لأنس بن مالك بكثرة الولد فقال (**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**)(١) وقد استجاب الله دعوة نبيه وأكثر لأنس المال والولد وبارك له فيما أعطاه .

قال القرطبي رحمه الله: « وفي هذا رد على بعض جهال المتصوفة حيث قال: الذي يطلب الولد أحمق، وما عرف أنه هو الغبي الأخرق؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الشعراء: ٨٤ وقال سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ترجم البخاري على هذا "باب طلب الولد". وأورد فيه حديث الرسول ﷺ وفيه قال لأبي طلحة حين مات ابنه: (**أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ ؟**) قال: نعم. قال: («**بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا**»). قَالَ: فَحَمَلَتْ. وفي روايةٍ للبخاري: قال سفيان بن عيينة: فقال رجل من

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أنس كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة حديث ٦٣٧٨، ٦٣٧٩ فتح الباري ١١/ ١٨٦ ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك/ فضائل الصحابة -باب من فضائل أنس بن مالك -صحيح مسلم حديث ٢٤٨.-٤ / ١٩٢٨.

الأنصار: فرأيتُ لهما تسعةَ أولاد، كلُّهم قد قرأ القرآن. [1] أي من ولدهما عبد الله» [2] .

* في قوله تعالى ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ [مريم: ٣]: ما يدل على أن أفضل الدعاء ما كان في الخفاء فإنه أقرب إلى الإخلاص وأدعى للخشوع وأرجى للقبول.

* ومن الدروس المستفادة من قصة زكريا ﵇: فضل المداومة على ذكر الله تعالى، والذكر من أفضل الطاعات ومن أجل القربات، وزكريا ﵇ رغم احتباس لسانه عن كلام الناس إلا أن المولى عز وجل قد أمره بالذكر قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١ ﴾ [آل عمران: ٤١].

قال القرطبي: «أمره الله تعالى بألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو رُخّص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا ﵇ - لما حبس لسانه عن كلام الناس ولرُخِّص للمجاهد في سبيل الله حين ينشغل بقتال الأعداء، ولكن الله عز وجل أمر زكريا مع منعه من كلام الناس بمداومة الذكر، وأمر المجاهدين بكثرة الذكر قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ ﴾ [الأنفال: ٤٥]» [3] .

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾: نشير إلى أن العلم الحديث مع التقدم الهائل والإمكانات العظيمة في مجال الطب، فإنه إلى الآن لم يُكْتَشَف ولن يكتشِف علاجا لمرض الشيخوخة وما يعترى الطاعنين في السن من ضعف ووهن .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز. باب: من لم يظهر حزنه عند المصيبة الحديث رقم: ١٢٣٩ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب - باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب، التسمية بعبد اللهِ وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عليهم السلام حديث ٢٣ - (٢١٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤ / ٧٣.

(٣) نفس المرجع ٤ / ٨٢ بتصرف .

* من قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ مريم: ١١.

نستخلص دروسا مهمة في الدعوة إلى الله عز وجل، منها: أن لا يتخلى الدعاة عن دعوتهم أبدا، وأن يعيشوا بها ويتعايشوا معها في كل زمان ومكان وفى كل الظروف والأحوال، وأن لا يقصروا فيها مهما كانت العوائق والمثبطات، وأن يجندوا لها كل ما يملكون من قدرات وطاقات وأوقات وملكات، وأن لا يستقلوا أيَّ عمل أو جهد دعوى مهما كان يسيراً، فزكريا عليه السلام وهو ممنوع عن الكلام إلا أنه يعتمدُ في دعوته على الإشارة وهي وسيلة من وسائل التعبير، ولقد بدأ اهتمام القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة بدعوة الصم عن طريق لغتهم التي يفهمونها لغة الإشارة .

فإذا حرم الدعاة من وسيلة دعوية فليلجؤوا إلى غيرها، وإذا أغلق أمامهم بابٌ فليطرقوا بابا آخر، فمن داوم قرع الأبواب ولج، فعلى الدعاة إلى الله أن يتزودوا بالعزم واليقين وأن يعلموا أن الدعوة كما أنها مزية وتشريف فهي مسؤولية وتكليف، وكما أنها أمر طريف شائق، فهي أيضا طريق صعب شائك.

* ومن قوله تعالى ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ دعوةٌ لنا إلى الجِدِّ والاجتهادِ والعزمِ والمضاء في طلب العلم وفى العمل به وفي دعوة الناس إليه .

* وفي قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ إرشاد للآباء والأمهات أن يحسنوا تربية أولادهم منذ نعومة أظفارهم، وأن يعوِّدوهم الجد في الطلب، وأن يوجهوا أطفالهم إلى الاستفادة من أحوال الأنبياء، وأخبارهم خاصة ما كانوا عليه في صغرهم .

* وفى قوله تعالى ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ما يفيد أن صفة الحنان وأيضا صفة الرحمة من الصفات الفطرية التي أودعها المولى عز وجل قلوب من يحب من عباده، وعلى الداعية إلى الله أن يتحلى بصفات الرحمة والحنان والرفق، فإن النَّبيِّ ﷺ يقول (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا

زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)[1].

* ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ أي وطهارة ونماء، والطهارة هنا طهارة النفس والقلب والنماء هو الرقي والسمو في المقامات العلية والأحوال الشريفة المرضية، فعلى الداعية إلى الله أن يسعى إلى تزكية نفسه بالطاعات والقربات، وأن يجمع بين العلم والعمل والإخلاص حتى تكون دعوتُهُ ناجحةً، وعلى القائمين على تأهيل الدعاة وإعدادهم أن يركِّزوا على الجانب العملي، قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

* ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ما يرشدنا إلى أهمية التقوى فهي سر النجاح وطريق الفلاح.

* ومن قوله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ ما يفيد أن الداعية قدوة في بيته، رحيما بأبويه، يحسن إليهما، فينال بذلك بركة رضاهما وصالح دعائهما، كما أن الداعية ينشد الحق، ولا يتعالى على الخلق، ويجتهد في تجنب المعاصي، ويتحرى الطاعات

ومن تحلى بهذه الأوصاف الحسنة التي اجتمعت في نبي الله يحيى عليه السلام فلقد ترسَّم طريق الهدى والفلاح والأمن والأمان.

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة كتاب البر والآداب والصلة باب/ فضل الرفق حديث ٢٥٩٤.

-٢-

رحمته تعالى بمريم
وابنها عيسى عليه السلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا (١٦) فَٱتَّخَذَتۡ مِن
دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (١٧) قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ
تَقِيّٗا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا (١٩) قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ
يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ
وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا (٢١) ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا (٢٢) فَأَجَآءَهَا
ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ
أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (٢٤) وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا (٢٥) فَكُلِي
وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ
إِنسِيّٗا (٢٦) فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا (٢٧) يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا (٢٨) فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا
(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا (٣١) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ
أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن
يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ
مُّسۡتَقِيمٞ (٣٦) فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ
يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٣٨) وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم: ١٦ – ٤٠]

المناسبة:

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل عن خلقه عيسى بدون أب، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عُجاب .

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكيّاً طاهراً مباركاً: عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهاهنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدُلَّ عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قدير»[(١)] .

مريم في خلوتها

قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾: أي في القرآن الكريم لأن القصص القرآني هو الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثَمَّ فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاقتباس من أنوار الأنبياء والصديقين، وفي ذكر مريم في هذا السجل الخالد تشريف وتكريمٌ لها.

قال القرطبي: « ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ، أي عرِّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا»[(٢)] .

وقوله تعالى ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾ من النبذ، وهو إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٣/ ١٤ وقريب من ذلك ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩.

قال الزمخشري: والانتباذ: الاعتزال والانفراد [(١)] .

وفي لسان العرب: « وانْتَبَذَ فلانٌ: أي ذَهَبَ في ناحيةٍ، وانتبَذَ عن قومِهِ: تنحَّى عنهم» [(٢)] .

والمكان الشرقي هو شرقي بيت المقدس، اتجهت إليه لتعتكف وتختلي للعبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس وسمو بالروح وشحذ للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل .

وإنما جاءها المَلَكُ في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لزكريا ﷺ وهو قائم يصلي في المحراب حيث البركات والرحمات والنفحات .

﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا ﴾: أي جعلت بينها وبينهم سترا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادةِ.

قال القاسمي: « لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق» [(٣)] .

﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾: هو جبريل ﷺ، وسمى ﷺ روحاً: لأن الدين أساسه الوحي وهو أمينه، فبالوحي حياة الدين كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء .

والإضافة في ﴿ رُوحَنَا ﴾ للتشريف والتعظيم وبيان أن جبريل ﷺ مرسل من قِبَلِ ربِّ العالمين مُنزَّلٌ بأمره.

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾: ظهر لها جبريل ﷺ في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ امتحانا لها لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتَها تقواه.

وإنما تمثَّل لها ﷺ بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تُطيقُ رؤيته ﷺ بصورته الطبيعية .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣/ ٩ .

(٢) لسان العرب ٦ / ٤٣٢٢ مادة (ن ب ذ).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ١١٥ .

﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ ﴾: استعاذت مريم رضي الله عنها بربّها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفى استعاذتها بالله تعالى ما يدلُّ على كمال إيمانها، وورعها وتمام عفافها وشدة حيائها وحسن أدبها ولباقتها وسرعة بديهتها .

وفي استعاذتها بالله تعالى متوسلةً باسمه الرحمن توجهٌ إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء، فقد شَمِلَها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تَدَارَكها رحمةُ الرحمن، وفى الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك الشخص، فهو إن كان رحيما فسوف يرحم ضعفَها ووحدَتَها، وإن كان تقيا فسوف ينصرف عنها ولا يمسّها بسوء .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ ﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالة خوفِها، ووضّح لها أنه مَلَكٌ من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيا، أي غلاما طاهرا مباركا (١) .

﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ ﴾

علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذى بين يديها مَلَكٌ مرسل من عند الله ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا عن حملٍ، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرٌ بزواج، وحاشاها أن تكون بغيا .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ﴾

---

(١) قرأ أبو عمرو وورش والحلواني عن نافع (لِيَهَبَ لكِ) بالياء لأن الواهب هو الله عز وجل.
وقرأ الباقون (لِأَهَبَ لَكِ) لأن الواهب هو الله عز وجل، وجبريل عليه السلام أرسله ربه ليبشرها وليقوم بمهمة النفخ فيها لتتحقق هذه المعجزة بقدرة الله عز وجل . يراجع: **حجة القراءات** لابن زنجلة ص ٤٤. والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣١٧.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدُّها حدود ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسالته عليه السلام، فهو رحمة لمريم لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها لأنها صارت به أمَّ نبيٍّ له وجاهتُهُ ومكانتُهُ في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن به، فالأنبياء جميعهم رحمةٌ مهداةٌ.

﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أمراً مقدوراً من الله عز وجل ونافذاً فلا رجوع فيه.

حمل مريم بعيسى عليه السلام

قال تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام .

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في مريم وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذى ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم ولها اتساقها مع الموضوع العام الذي وردت فيه .

وحين نجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد نجد أنفسنا أمام نسيج فريد، وبناء محكم متلائم وموضوع متكامل .

* في سورة الأنبياء يقول المولى عز وجل ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن

زُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحريم يقول تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢].

فقد حصل الحمل بنفخة من روح القدس في مريم رضي الله عنها لتحمل بقدرة الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾: كان حملها طبيعياً كما تحمل سائر النساء، ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾: مكانا قصياً: أي مكاناً بعيداً عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم حيث وُلِدَ المسيحُ ﵇، كما ورد في الحديث الذى رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء وفيه يقول ﷺ (... **ثُمَّ قَالَ** [(١)]: **انْزِلْ فَصَلِّ: فَنَزَلْتُ فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ ؟ صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ؛ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَى** ﵇)[(٢)].

وفي صلاته ﷺ في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادةَ نبي الله عيسى تكريمٌ لهذا النبيِّ.

﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ الظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها وضعته في المكان القصي الذي انتبذت إليه أو قريباً منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً .

المخاض وتمني الموت

قال تعالى ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا

---

(١) أي جبريل.

(٢) رواه النسائي في **السنن** من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب الصلاة – باب فرض الصلاة سنن النسائي حديث ٤٤٦، ورواه الإمام البيهقي في **دلائل النبوة** ٢/ ٣٥٦ وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح عن شداد بن أوس، ورواه الطبري في **تهذيب الآثار** حديث ٢٧٧٥.

مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

ومعنى ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ أي ألجأها المخاض واضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جَهْد وإعياء وآلام وزفرات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذى لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أسندت ظهرها إليه .

لحظات عصيبة

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: تمنت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصيب، وكانت نسياً منسياً، أي شيئاً حقيراً لا يعتدُّ به ولا يؤبهُ له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمنت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة:

يقول الإمام ابن كثير في التفسير « .. وقوله تعالى إخباراً عنها ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾أي قبل هذا الحال، ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئا، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس» [(١)] .

وفى حاشية الجمل على الجلالين « تمنت الموت من جهة الدين إذ خافت أن يُظَنَّ بها السوءُ في دينها، أو استحياءً من الناس فأنساها الاستحياءُ بشارة الملائكة لها بعيسى ﷺ، أو لعلها قالت ذلك: لئلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمنت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل ﷺ ووعدها بأن يجعلها

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١١٦، ١١٧ بتصرف .

وولدها آية للعالمين ...»[(١)] .

رحماتٌ ونفحاتٌ

قال تعالى ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ في غمرة الآلام التي ألَمَّت بمريم رضي الله عنها، وفى تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة والترقب لما ينتظرها من قومها حين يرون هذا الوليد، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تغمرُها رحمةُ الله تعالى فيتحول العسر إلى يسر والضيق إلى سعة والحزن والقلق إلى فرح واستبشار وطمأنينة، ويولد عيسى عليه السلام في جوٍّ من الكرامات، وينطقه[(٢)] المولى عز وجل ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾، أنطقَ اللهُ عيسى عليه السلام تسلية لأمه وتثبيتاً لقلبها، وإشارة لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومها ببراءتها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ ولقد أجرى الله هذه المعجزة أمامها وحدها، ثم أجراها بعد ذلك أمام قومها، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده، قبل أن يجريها أمام فرعون وملئه تثبيتا لموسى عليه السلام وإعدادا له لمواجهة هذا الموقف[(٣)] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٣ / ٥٧، ٥٨ ويراجع روح البيان ٥ / ٣٢٦ كما يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٢ - وإرشاد العقل السليم لأبى السعود ٣ / ٥٧٨ .

(٢) التفسير الكبير للرازى ٢١ / ٤, ٢ .

(٣) مما يؤيد ويؤكد أن المنادي هو عيسى عليه السلام أن الضمائر تعود عودة الضمائر إليه (فحملته، فناداها، فأتت به، تحمله، فأشارت إليه)، وكذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم في رواية شعبة بفتح ميم (مَن) على أنه اسم موصول، وفتح تاء تحتها (مِن تَحْتِهَآ) والذي تحتها هو عيسى عليه السلام حين وضعته، فأنطقه الله تعالى بما يزيد أمَّه فرحا به واستبشارا بقدومه ويقينا بأن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة تكريما ومزية. يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤١ والتبصرة لمكي بن أبي طالب القيسي ص ٥٨٦ .

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾: السريّ: قيل هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمى بذلك لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين[(١)].

والسياق يدلُّ على ذلك قال تعالى ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ فدل الأكلُ على وجود الرطب ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿ سَرِيًّا ﴾: نهرٌ صغيرٌ بالسّريانية[(٢)].

وأخرجه الحاكم عن البراء قال: « السريُّ هو الجدولُ، أي النهر الصغير»[(٣)].

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهرَ كرامةً لها، وإرهاصاً لعيسى ﷺ، وتسليةً لقلبها.

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾

نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها، بقدرة الله عز وجل ولطفه ورحمته، وكانت تلك النخلةُ يابسةً فاخضرَّت وأثمرت في غير أوانها؛ كرامة لمريم وتسلية لقلبها وزيادةً في يقينها، وإظهاراً لقدرة الله عز وجل وعجيب صنعه[(٤)].

---

(١) يراجع جامع البيان للطبري ١٦ / ٥٤ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١٧ وزاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٢٢١، والتفسير الكبير للرازي ٢١ / ٥, ٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٤ وروح البيان للبروسوي ٥ / ٣٢٧.

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب/ أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ) فتح الباري ٦ / ٥٤٩.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي - المستدرك كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ٢ / ٣٧٣.

(٤) يراجع: قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٦٥، ٥٦٦. وغرر التبيان في من لم يسم في القرآن لابن جماعة ص ٣٢٩.

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾، كلي من ذلك الرُّطَبَ الجنيَّ واشربي من ذلك الماء العذب، وقرِّي عينا: أي وطيبي نفساً بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهنئي بهذا المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

أمرت بالصوم عن الكلام لأمرين: أحدهما: أن كلام عيسى ﷺ وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى، والثاني: أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعِرْضِ وأنسب لحيائها.

مواجهة فاصلة

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾
سورة مريم ٢٧، ٢٩

قال الإمام القرطبي « لما اطمأنت لما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها أتت به تحمله من المكان القصي الذى كانت انتبذت فيه»[(١)].

والفاء هنا في (فأتت) تفيد التعقيب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ وفى نهاية المطاف ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾.

* ففي الموضع الأول نرى مريم البتول رضي الله عنها تسارع بحملها بعيدا عن قومها خوفا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنِّهم السيئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهي حامل .

(١) الجامع الأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٩ .

* وفى الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينُها به واطمأن قلبها إليه وانشرح صدرها، بالكرامات التي وقعت لها، وامتلأ قلبها يقينا، وتبدل خوفُها أمناً، وحزنُها سروراً وضعفُها قوة وعزة وترفعاً وتحدياً وتعالياً على الباطل وأهله، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان، وهى تحمل وليدها الحبيب نبيَّ الله عيسى عليه السلام، جاءت ولسان حالها يقول معبراً عن نفسها الطاهرة الزكية العزيزة الأبية، الآمنة المطمئنة، الراضية المرضية، الهادئة الهانئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية، جاءت ولسان حالها يقول:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَكَ ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذى بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الودُّ فالكلُّ هينٌّ ... وكلُّ ما فوقَ الترابِ ترابُ

لقد أصبحت مريم أمّاً لنبي، وأيُّ شرف لأمٍّ أعظمُ من ذلك، وأيُّ رجاء أعظم من نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها تعرف سالفا موقف قومها، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، والإنعامات بالحسد والحقد، وقد صدق ظنُّها فيهم حين رأوها فقالوا دون تفكر أو تمهل كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾: أي شيئاً فظيعاً منكراً .

قال صاحب المفردات: «الفري قطع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما وفى الإفساد أكثر ... وقوله تعالى إخبارا عن قول قوم مريم ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ قيل معناه عظيماً، وقيل عجيباً وقيل مصنوعاً، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد»[(١)] .

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

بعد أن اتهموها، وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقولة على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك والتحريض .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: مادة ف ر ى ص ٣٧٩ باختصار.

قالوا ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ تشبيها لها: بهارون النبي أخي موسى عليهما السلام في تقواه وصلاحه وحيائه.

ويجوز في اللغة إطلاق الأخ على النظير والشبيه والمعين، قال تعالى ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٧].

ويؤيد هذا: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه «عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. قال: لما قدمتُ نجرانَ سألوني: فقالوا: إنكم تقرؤون: [﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم: ٢٨]، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمتُ على رسولِ الله ﷺ سألتُهُ عن ذلك، فقال (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ)» [(١)].

كلام المسيح عليه السلام في المهد

قال تعالى ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيهٌ لله تعالى عن الصاحبة والولد، وردٌّ على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

* يقول الرازي في هذا المقام: « إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مريم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينصَّ على ذلك وإنما نصَّ على إثبات عبوديته لله كأنه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب - باب النهي عن التَّكَنِّي بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء - ٩- (٢١٣٥)، ورواه الترمذي في السنن عنه أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب: ومن سورة مريم - حديث ٥١٦٤ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخصُّ الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى»(١) .

وقال الألوسي: « وذكر عبوديته لله تعالى أولا: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفى جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجلُّ من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة»(٢).

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾: فهو ﷺ عبد من عباد الله، أنعم الله عليه وآتاه الكتاب قال تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، فنطق ﷺ أول ما نطق بغاية وجوده وكمال إنسانيته: عبوديته لله تعالى.

﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ آتاه المولى عز وجل الإنجيل كما قال سبحانه ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾أنعم الله عليه بالنبوة، وهي اصطفاء خاصٌّ، ومنزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله .

فنبوته ﷺ دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء هم أطهرُ الناس نسباً.

---

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ٢١ / ٢٠٩ .

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٨٩ .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾أي نفَّاعا حيث كنت، وقيل معلماً للخير، وقيل ثابتاً في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالباً موفقاً إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء(١).

والمقصود من كلامه: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ﴾، ﴿ وَجَعَلَنِي ﴾، ﴿ وَأَوْصَٰنِي ﴾ باعتبار ما سيكون، إخبارٌ عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله(٢).

﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

أي أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها.

وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلا وفي ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين يقولون بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة .

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾: أي جعلني المولى عز وجل بارا بأمي، رفيقا بها، محسنا إليها، وفي ذلك بيان لنزاهتها وبراءتها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، وردٌّ على ما جاء في الأناجيل من ادعاء جفوته وغلظته في معاملتها وتنكُّره لها ونفوره منها(٣).

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾أي ولم يجعلني متجبراً متكبراً على الحق والخلق بل جعلني براً رحيماً عطوفاً كريماً متواضعاً للحق، مطيعاً لأوامر الله عز وجل .

---

(١) يراجع غرائب القرآن للنيسابوري ١٦ / ٥٣ والتفسير الكبير للرازي ٢١ / ٢١٤، ٢١٥ .

(٢) يراجع فتح القدير للشوكاني ٣ / ٣٢١ . ويراجع ما ذكره الطبري في جامع البيان ١٦ / ٨. وابن كثير في تفسيره ٣ / ١١٩ وابن الجوزي في زاد المسير ٥ / ٢٢٩ وقال الإمام الألوسي: « والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع» روح المعاني للألوسي ١٦ / ٨٩ .

(٣) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٦٦٣: ٦٦٦ .

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة .

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾

ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحقُّ لا يفتقرُ لغيرِه، ولا يحتاجُ إلى من سواه.

تعقيب على القصة

ضلال النصارى في شأن عيسى عليه السلام

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

طوى السياق القرآني موقف قومها من هذه الآية القاطعة والحجة الساطعة، وأشارت الآية الكريمة إلى اختلاف اليهود والنصارى في حقيقة عيسى: فاليهود كذبوه واستهانوا به، واتهموا أمه بما هي بريئة منه رغم ثبوت براءتها وظهور نزاهتها، وحسن سيرتها والنصارى غالوا فيه وادعوا ربوبيته وألوهيته.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾: هذه قصة عيسى عليه السلام قد عرضها القرآن الكريم عرضا واضحا فهو عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، قضى الله تعالى أن يولد من غير أب ليكون آيةً للناس وجعله الله رحمةً وهدى، أبعد هذا القول الحق لا يزال هناك من يمتري في شأنه بل ويفتري على الله الكذب بدعوى أن عيسى ابن الله ! ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ فالله تعالى

منزهٌ عن اتخاذ الولد؛ إذ اتخاذ الولد افتقار إليه، والله هو الواحد الصمد، الغني فلا يفتقر إلى أحد، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾: تقريرٌ لربوبيته تعالى وحده ودعوةٌ إلى توحيده تعالى بالعبادة، فهذا هو الصراط المستقيم والسَّنن القويم.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾: اختلف اليهودُ والنصارى في شأن عيسى عليه السلام؛ وما ذلك إلا بسبب الجهل والتقليد الأعمى واتباع الهوى والتعصب للباطل، والإعراض عن الحق، مما دفعهم إلى الاختلاف في شأن المسيح عليه السلام بين جفاء وإطراء، وتفريط وإفراط، أما اليهود فقد افتروا عليه ونالوا منه، وأما النصارى فقد ضلوا فيه ضلالاً بعيداً، وغالوا فيه غلواً شديداً، فجعلوه لله نداً وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فاليهود والنصارى على طرفي نقيض، ومع ذلك فكلٌّ متعصِّبٌ لباطله متحزِّبٌ له.

فالويلُ لهم من أهوال يوم القيامة ومشاهدها العظام حين يفصل بينهم.

﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ ﴾: ما أبصرهم وأسمعهم في ذلك اليوم العصيب ! بعد أن صموا في الدنيا آذانهم وعموا أبصارهم وأهملوا عقولهم واتبعوا أهواءهم، فاليوم يسمعون ما يخلعُ قلوبَهم ويبصرون ما يروعهم، بعد أن كانوا في دنياهم الخاسرة في غفلة وحيرةٍ ونسيان.

﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾: أنذرهم بيوم تتابعِ الحسراتِ التي لا جدوى لها بعد أن قضي الأمر، لكنهم في غفلة وإعراض عن هذا اليوم العصيب، فلا يؤمنون ولا يرعوون مع جلاء الآيات وكثرة النذر.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ**

النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾: فالملك اليوم خالصٌ لله لا ينازعه فيه أحد، ولا معقب لحكمه ولا مردَّ إلا له وليس لله تعالى وارثٌ فهو تعالى الذي يرثُ ولا يُورَثُ وهذا ردٌّ على ادعاء النصارى أن المسيح ابن الله؛ إذ الولد يرث أباه ويصبح امتدادا له، والله تعالى هو الحي الباقي وهو الوارثُ.

المناسبة بين قصة مريم وعيسى عليه السلام ومحور السورة

لهذه القصة ارتباطُها الوثيقُ بمحور السورة الكريمة، حيث تبينُ لنا شمولَ رحمةِ اللهِ لمريمَ وابنِها، وكمالَ عبوديتهما لله تعالى، وفيها ردٌّ صريح على ما ادعاه النصارى، فهو عبد الله ورسوله وليس ابنَ الله كما يزعمون.

الهدايات المستنبطة من القصة

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ أقول: هذه الأمثلة الرائعة والنماذج المضيئة في تاريخ الإنسانية جديرةٌ بأن تذكر محاسنُها وتنشرَ مآثرُها ليتأسى بها الصالحون وينتفع بسيرتها الدعاة والمصلحون.
* ومن المستفاد من هذه القصة: أهمية الخلوة للعابد والداعية والمربي والمصلح فهي رياضة للنفس وسمو بالروح وشحذ للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل .

لستُ أخلو لغفلةٍ وسكونٍ وفرارٍ من الورى وارتياحٍ
إنما خلوتي لفكرٍ وذكرٍ هي زادي وعُدَّتي لكفاحي

* دلت هذه القصة على عفاف مريم وورعها وحشمتها وحجابها، وتقواها لله عز وجل وخلوتها للعبادة والتفكر وحسن أدبها وبلاغتها وسرعة بديهتها حين فوجئت بمن دخل

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير بَاب قَوْلِهِ {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ } حديث ٤٣٦١، وصحيح مسلم كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهله باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء. حديث ٧٣٦٠.

عليها خلوتها وامتثالها لأمر الله ويقينها بوعده.

* **في القصة: فائدة حول حكم تمنى الموت:** ولقد نهى رسول الله ﷺ عن تمنى الموت عند حدوث مكروه ونزول ضرر .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْراً) (١) .

وروى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّياً لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي) (٢) .

ويجوز الدعاء بطلب الموت عند وقوع الفتن واشتداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان، ومن ذلك أيضا ما يتعرض له المسلم في بعض المجتمعات من الاضطهاد والتعذيب والمساومات التي لا طاقة له بها ففي مسند الإمام أحمد من حديث معاذ رضي الله عنه وفيه يقول ﷺ في دعائه المأثور (... وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ) (٣) .

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به -صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٨ ورواه الإمام أحمد في مسنده، الفتح الرباني كتاب الجنائز - باب كراهة تمنى الموت ٧ / ٤٤، ٤٥ .

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب الدعاء بالموت والحياة حديث ٦٣٥١ فتح الباري ١١ / ١٥٤ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به -صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٧، ورواه الإمام أحمد في مسنده كتاب الجنائز باب كراهة تمنى الموت وفضل طول العمر مع حسن العمل الفتح الرباني ٧ / ٤٣، ٤٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد / أبواب الدعاء، باب ما جاء في أدعية كان يدعو بها النبي ﷺ الفتح الرباني ١٤/ ٢٨٣=

فوائد الرطب للنفساء

وفى أكل مريم عليها السلام من الرطب إشارة إلى ما أثبته الطب من أهمية الرطب للمرأة، النفساء حيث أثبتت الأبحاث العلمية أن الرطب يحتوي على مادة تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل، فتساعد على الولادة من جهة كما تقلل كمية نزف الدم الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى، ويحتوى الرطب على نسب عالية من السكريات السهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز، ومن المعروف أن هذه السكريات هي مصدر الطاقة الأساسي وهي الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بدور كبير أثناء الولادة، وإذا كان علماء التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء والسكر: فإن الآية الكريمة قد نصت على إعطاء السوائل ﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي ﴾، كما أن الرطب يخفض ضغط الدم عند الحوامل فترة ليست طويلة، ثم يعود لطبيعته، وبانخفاض ضغط الدم تقل كمية الدم النازفة، والرطب أيضاً من المواد الملينة للقولون ومن المعلوم طبيا أن الملينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة [1]، قال تعالى ﴿ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ ﴾ [الشعراء: ١٤٨] أي سهلُ التناولِ والهضم.

* **فائدة حول الصمت:** ﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ ﴾ [مريم: ٢٦]، التزمت مريم بالصمت؛ حتى تفسح المجال لمن هو أفضل منها وأبلغ منها ليثبت لقومها طهارتها ونزاهتها وعفتها .

ولقد بلغ قومها من السفاهة مبلغاً عظيماً حتى رموها وهي الطاهرة العفيفة بما هي بريئة

=ورواه الترمذي في السنن أبواب التفسير، تفسير سورة ص ٥/ ٣٤٣ حديث ٣٢٣٥ وقال هذا حديث حسن صحيح وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ٩٧، ٩٨ حديث ٢٥٨.

(١) يراجع في هذا الموضوع: « الطب النبوي» لابن القيم ص ٢٤. وهو يتحدث عن الرطب وفوائده ويذكر من ضمنها فوائده في حالة المخاض، ويراجع: «مع الطب في القرآن الكريم» تأليف د. عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقوز ص ٢٨، ٢٩ .

منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفي ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم .

قال الإمام الشافعي

إذا نَطَقَ السفيهُ فلا تجبْهُ   فخيرٌ من إجابتِهِ السكوتُ

سكتُّ عن السفيهِ فظنَّ أني   عييتُ عن الجوابِ وما عييتُ [(١)]

حكم نذر الصمت في شريعتنا: لا يجوز نذر الصمت في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس .

ففي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ». [(٢)]

* قوله تعالى ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾: أبلغ ردٍّ على ما ارتكبه النصارى في حملاتهم الصليبية من فظائع وجرائم باسم المسيح كما يزعمون حتى قال أمير الشعراء متهكما ومنكرا:

يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى   كثُرتْ عليكَ باسمِكَ الآلامُ !

وهذا بناء على ما يعتقده النصارى من أن المسيح صُلِبَ فداء للبشرية وتكفيراً عن خطيئة آدم، وهذا اعتقاد باطل فالمسيح عليه السلام لم يصلب وآدم لما أكل من الشجرة تاب فتاب الله عليه واصطفاه واجتباه وهداه [(٣)].

---

(١) ديوان الإمام الشافعي / راجعه وعلق عليه د. محمد زهدي يكن ص ٤٩

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب النذور والإيمان - باب النذر فيما لا يملك وفى معصية حديث ٦٣٢٦ فتح الباري ١١ / ٥٩٤ . ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٨ وجامع البيان للطبري ٨/ ٣٣٢، والتفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ١٦ / ٧٧

(٣) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ١/ ١٢٣: ١٣٥ .

-٣-

رحمته تعالى بإبراهيم عليه السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٤١ – ٥٠]

المناسبة

بعد الحديث عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ومريم الصديقة وابنها عيسى عليهم السلام، وبيان رحمة الله تعالى بهم وتفضله عليهم وكمال عبوديتهم لله تعالى: يأتي الحديث عن أبي الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فهو جديرٌ بأن يذكر لما اتسم به من كريم الشمائل وعظيم الفضائل، فهو صديقٌ صدق مع الله ومع الناس وكان صادقا في سره وعلنه، وفيّاً بعهده ووعده، ومن كمال عبوديته وصدقه في دعوته وأدائه لرسالته: دعوته لأبيه وتأدبه معه وبره به مع بقائه على كفره وإصراره على ضلاله، وفي إيراد قصته ردٌّ على النصارى وغيرهم من المشركين ممن يدعي إتباع إبراهيم عليه السلام، فإن كانوا صادقين في محبته واتباعه والانتساب إليه فهذه هي دعوته التي دعا بها وابتلي بسببها، دعوة التوحيد.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر قصة مريم وابنها عيسى واختلاف الأحزاب فيهما وعبادتهما من دون الله، وكانا من قبيل من قامت بهما الحياة

ذكر الفريق الضال الذي عبد جماداً والفريقان وإن اشتركا في الضلال، والفريق العابد الجماد أضل ثم ذكر قصة إبراهيم مع أبيه ﷺ تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد الله وتبيين أنهم سالكو غير طريقه، وفيه صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وأن ذلك متلقى بالوحي»[1].

التفسير الإجمالي

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾

إن أول ما يستوقفنا في حوار إبراهيم ﷺ مع أبيه تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها لإقناع أبيه، حيث حاكمه إلى مقدمات مسلَّمة، وثوابت لا مجال لإنكارها، وذلك من باب النصح والإرشاد النابع من قلبٍ صادق وعاطفةٍ رقيقةٍ وعقلٍ راجح: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾: فهذا الحوار جدير بأن يذكر ليقتبس منه الدعاةُ والمصلحون منهجاً للدعوة والحوار.

﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾: نادى عليه بعاطفةٍ قوية نابعة من فطرة نقية، فالابن البارُّ دائمَ الحرص على والده، والإشفاق على حاله ومآله، ومن ثَمّ كان هذا النداء الرقيق (﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾: ليفتح قلب أبيه ويرقَّ مشاعرَه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾

ما الذي يرغمك على عبادة أحجارٍ لا تسمع ولا تبصر ؟ وكيف تتوجه لها بالدعاء وتتضرع لها وتقدم لها القرابين، مع أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنك شيئا ؟

فالأصل في العبادة أن تكون موجهة لذي الكمال والجلال، أمّا أن تعبد أصناماً ناقصة في

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ١٩١.

ذاتها وفي أفعالها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا ينمُّ عن جهلٍ ويَبِينُ عن سَفَهٍ.

ولقد بدأ ﷺ حواره بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى التعجب والإنكار، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ، يحملُ المحاورَ المخالفَ على التفكيرِ، وإعادةِ النظر في الأمر، للوصول إلى الحق بنفسه، حتى لا يشعر بأنه أُفحِم وبُهِت، فتأخذه العزة بالإثم، ويمتنع عن قبول الحق انتصاراً للنفس، ولو بالباطل.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾: أراد أن يلفت نظر أبيه إلى أن الحوار الهادف الذي بدأه معه لا بد وأن ينبني على العلم حتى يصل إلى نتائج صحيحة؛ فالعلم هو الذي يهدي إلى الحق ويبصِّر بالنور، وأنه ﷺ لما كان على علم، صارَ جديراً بأن يُتبع، وهذا من تأدبه وترفقه بأبيه فلم يصرح له بجهله وإنما عبَّر بهذا الأسلوبَ الذي يحقق المطلوبَ، دون أن يجرح مشاعرَ أبيه وينفره من دعوة الحق.

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾.

فكل من سلك طريق الغوايةِ والضلالِ فهو عابدٌ للشيطانِ ووليٌّ له، والشركُ من وسوسةِ الشيطانِ وتزيينِه.

ثم يختمُ كلامه بتحذيره من سخط الله وعذابه فيرافق الشيطان في جهنم كما وافقه في الدنيا، فحذره وأنذره من عذاب الرحمن مع مرافقة أهل الكفر والعصيان في النيران.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾

مع هذا اللطف في الدعوة والترفق في المحاورة من إبراهيم ﷺ، فقد قابله أبوه بالإنكار والتقريع والعنف والتهديد الشديد بالرجم وطلب منه أن يهجره.

فالعجب من هذا الأب الكافر الذي يقابل هذه الدعوة الطيبة والأسلوب الهادئ بالتهديد

والوعيد إنه منطق الكفر حين تعييه الحجج ويعجز عن مقابلة البرهان بالبرهان.

لكن إبراهيم ﷺ يقابل هذه الغلظة والجفوة برقة وحنان ورفق ولين، فيقول ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ ﴾: قابل الهجر والخصام، باللين والسلام، ووعده بأن يستغفر له ربه الذي تعود منه الحفاوة والإكرام.

فهو سبحانه البرُّ اللطيفُ: والمراد أنه يستجيب لي إذا دعوته لأنه عوَّدني الإجابة لدعائي وهو بذلك يرغِّب أباه ويحببه في هذا الرب الكريم ويعرِّفه به.

﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ ﴾ أعلن البراء مما عليه أبوه وقومه واعتزالهم، مع رجائه وحرصه في توبتهم، فوهبه الله تعالى ذرية طيبةً وجعل النبوة والكتاب فيهم.

﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠ ﴾.

﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾أي: عسى اللهُ أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ ﴾

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فهذا إبراهيم يعتزل قومه وينتصر للحق على حساب العاطفة والمصلحة، فيعوضه الله تعالى بأهله وعشيرته ذريةً طيبةً، ويجعل النبوة فيهم ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ ﴾.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا ﴾: وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الطيبة، الذين كثر فيهم الأنبياء والصالحون.

﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾: فذكرهم في الخافقَين يترددُ على ألسنة الناس، والثناء

عليهم ومحبتهم نبضُ القلوب، وحديثُ الألسنة، فهم أئمة الهدى وأعلام الحق، ولا تزال ذكراهم في سائر العصور تتجدد، وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها الله لهم عليهم السلام.

المناسبة بين قصة إبراهيم عليه السلام ومحور السورة

لهذه القصة اتساقها وانتظامها مع محور السورة الكريمة حيث تبينُ لنا شمولَ رحمةِ الله لإبراهيم عليه السلام، وكمال عبوديته لله تعالى، ودعوته إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وتجريد التوحيد من كل شوائب الشرك.

الهدايات المستنبطة.

* في وصف إبراهيم عليه السلام بالصديقية قبل وصفه بالنبوة: إشارة إلى أن الصدق سجيةٌ فيه وأنه كسائر الأنبياء عليهم السلام عُرفوا بين الناس بالصدقِ قبل بعثتهم، كما كان نبينا ﷺ يدعى قبل بعثته بالصادق الأمين، فاستقامة الداعية وحسن سيرته أدعى إلى قبول دعوته وثقة الناس فيه.

* لطف الخطاب، وأدب الحوار مع المخالف، فرغم عِظَمِ المخالفةِ وجلاء الحق وزيف الباطل، إلا أن هذا لا يمنع من الحوار حول هذه القضية المحسومة؛ فالحوار هو وسيلة الإقناع.

* «يبدأ إبراهيم عليه السلام خطابه لأبيه بلين وأدب جميل، واستعطاف يبدؤه بنداء الأبوة ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ يستثير بهذا النداء أبوته الحانية، ويحرك مشاعره الراكدة، يلامس بهذا شغاف قلبه، ليس هذا فقط، بل يكرر هذا النداء المؤثر أربع مرات مع كل خطاب لأبيه، إن لم تؤثر الأولى فعسى أن تؤثر الأخرى»[1].

* من فنون الحوار التي تعين على نجاحه: براعة الاستهلال وحسن الختام، وهذه الفنون

---

(١) الحِوار في قصص إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم دروس ودلالات، إعداد أ. د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة - ص٥.

تتجلى في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه [(١)].

* تدرج إبراهيم عليه السلام في الحوار حيث بدأ بالاستفهام الإنكاري ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾.

ثم بالتقرير الخبري ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾.

ثم بالنهي الصريح ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾.

ثم بالترهيب ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾.

وذلك لما يعلمه من تشبث أبيه بالشرك وإصراره عليه.

* ومع التدرج في الحوار: نلمس التنوع في العرض، فمرة يكشف له عن زيف معتقده، وأخرى يقرر له العقيدة الصحيحة، وثالثة يحذره من كيد الشيطان، ورابعة يحذره من غضب الرحمن وعذابه.

* تكرر اسم الله الرحمن في هذا الحوار، وذلك ليحمل إبراهيم عليه السلام أباه على التفكر والنظر في هذا الإله الرحيم الذي يمهله، ولو شاء الله لعجّل بعقاب الكفرة لكنه تعالى يرزقهم ويحفظهم إمهالاً لهم، وأنه تعالى لا يعذب إلا من يستوجب العذاب، وأن الذي يطيعه تعالى يدخل في رحمته.

* استحباب متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج مع مقابلة إساءته بلطف وإحسان كما فعل إبراهيم عليه السلام حين أنهى الحوار مع أبيه بالسلام.

* ومن أدبه عليه السلام: اختياره كلمة الاعتزال في مقابل تعبير أبيه بالهجر، فالهجرُ أشدُّ من الاعتزال إذ الاعتزال يعني الابتعاد وعدم المشاركة والموافقة في الرأي مع تكرار المحاولة إذا سنحت الفرصة أما الهجرُ فيحملُ معنى القطيعة والجفاء.

---

(١) يراجع بحث الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام لأحمد الشرقاوي، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.

-٤-

رحمة الله تعالى

بموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ مريم: ٥١ - ٥٨

المناسبة

كما امتنَّ اللهُ تعالى على زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وتعهَّدهم برحمته، كذلك امتن الله تعالى على موسى وهارون وإسماعيل وإدريس وغيرهم ممن هداهم الله واجتباهم وآثرهم واصطفاهم، فبلغوا أسمى مقامات العبودية.

التفسير الإجمالي

رحمته تعالى بموسى وهارون عليهما السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾

جاء ذكر موسى متناسباً مع السياق؛ لأنه من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو من أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن؛ لما انطوت عليه قصته من دروس وعبر وفوائد لا حصر لها، ولما اتسم به من كريم الخصال، وفي مقدمتها إخلاصه لله تعالى، وقيامه بواجبات النبوة ومهامِّ الرسالة على أتم وجهٍ من تبليغٍ وأداءٍ وتطبيقٍ.

ولصاحب الأساس لفتة لطيفةٌ تبين سر ذكر موسى في هذا السياق، يقول رحمه الله: «وفي ذكر موسى في هذا السياق تذكيرٌ برسالته، وأنه من سلسلة الرسل المبشرين والمنذرين وتذكير بشأنه وحاله، فقد كان يدعو إلى عبادة الله وحده، وهو شيء يعرفه العام والخاص من بني إسرائيل وغيرهم، فكيف يزعم من يزعم أن لله ولدا هو عيسى فيعبده، إن التذكير بموسى وبصفاته في هذا السياق تعريضٌ بمن ينتسب إليه، ولا يوحد الله كما وحده كأن يجعل المسيح ابنا لله، وموسى لا يعلم ذلك ولا يعرفه ولا يدعو إليه»[1]، كما في ذكر موسى عليه السلام ثم ذكر إسماعيل بعد ذلك إشارة إلى ما أعطاه الله لنبيه إبراهيم من ذرية صالحة.

ومن سمو قدره ورفعة مقامه أن ناداه ربه نداء حب وإكرام من بقعة مباركة ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ حيث قدسية المكان، ﴿ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ اصطفاه الله تعالى واجتباه وأدناه وناجاه.

والنجيّ بمعنى المناجي كالجليس والنديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ ﴾

منَّ الله على أخيه هارونَ بالنبوةِ ليشدَّ به أزرَه ويشاركه في همّ الدعوة؛ تفضلا منه تعالى ورحمة.

وكان موسى عليه السلام قد سأل ربه أن يشد أزره بأخيه قال تعالى ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٢٩ – ٣٦]، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظمَ من شفاعةِ موسى في هارونَ أن يكون نبيّاً قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦/ ٣٢٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٢٦.

رحمته تعالى بإسماعيل عليه السلام

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾اذكره في الكتاب الخالد: تشريفاً وتكريماً، وإعظاما وإجلالا، وتقديراً وإكباراً، وتأسياً واعتباراً.

﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾: لم يعد ربَّه عِدةً إلا أنجزها، فكان صادق الوعد مع ربه ومع الناس، وقد تجلت هذه الخلة الكريمة في أبهى صورها حين استجاب لأمر الله تعالى وامتثل لأبيه بصبر وثبات.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠٧].

﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ جمع الله له بين مقام النبوة والرسالة تشريفا وتكريما، فأدى مهام الرسالة وواجبات النبوة على أتم وجه، وكان أسوة حسنة وقدوة طيبة في سائر أحواله.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

كان حريصاً على صلاح أهله واستقامتهم على منهج الله يتفقَّد أحوالهم، ويتعهّدُهم بالنصح والإرشاد، ويأمرهم برعاية حقوق الله وحقوق العباد، فكان من جملة ما يدعوهم إليه ويرغبهم فيه المحافظة على الصلاة وهي حق لله تعالى، وإيتاء الزكاة وهي من جملة حقوق العباد، فإنَّ من بذل ماله للفقير ووفّاه حقَّه المعلوم في مالِه لخليقٌ بأن يتحرى الحلالَ الطيبَ وجديرٌ برضا ربِّه.

﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾: وكان هذا أشرفَ خِصاله وأَجلَّ صفاته؛ فإن من تحلَّى بمكارم

الأخلاق وفي مقدمتها الصدق والوفاء، ومن أدى رسالته في هذا الوجود على أتم وجه، ومن صدق مع الله تعالى ومع الناس، ووافق ظاهرُه باطنَه واستوت أفعالُه بأقوالِه، وأدّى حق الله ووفّى بحقوق العباد: لجديرٌ بأن يحظى برضا ربه، ومن أرضى ربَّه فحقٌّ على الله أن يرضيه.

قال الله تعالى ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى عن جزاء المؤمنين الصادقين ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٨].

رحمته تعالى بإدريس عليه السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

وممن يستحقُّ الذكرَ؛ تكريماً له وتنويهاً على شرفه وفضله ولفتاً إلى محاسنه واستجلاءً لمآثره نبي الله إدريس عليه السلام، فلقد ضرب أروع الأمثلة في الصدق حتى بلغ منازل الصديقين لتحريه الصدق ومداومته عليه، فضلاً عن مقام النبوة، وهي أعظم المواهب الربانية وأسمى المراتب الإنسانية ولقد قام بحقِّها، فاستحقَّ الدرجات العُلى.

فاستحق الذكرَ والتكريم في القرآن الكريم، على لسان أفضل الرسل وخير الأمم.

وفي صحيح مسلم بسنده من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنه رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قال: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ (ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾)[1].

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ السماوات وفرض الصلوات- حديث ١٦٢ - (٢٥٩). ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس (١٢٥٢٧)، ورواه أبو يعلى الموصلي في=

من تمام رحمته وكمال إنعامه على أنبيائه وأصفيائه

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

* «لما أفرد سبحانه كلَّ رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم في هذه السورة بالثناء عليه بما هو جدير به، أعقبه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم، فقد هداهم إلى سبيل الخير واصطفاهم من سائر خلقه» (١).

* بعد أن نثر في هذه السورة الكريمة ذكر هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم السلام، نظم في ذلك العقد الفريد تلك الدرر البهية، لتزداد وهي مجتمعةٌ منتظمةٌ حسنا ورونقا، وروعةً وتألقا وتبينَ عن المعدن النفيس والأصل الطاهر الذي تفرَّعت منه تلك الشجرة العريقة المباركة.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾: أولئك الذين ورد التنويهُ بذكرهم تشريفاً وتكريماً وإبرازاً لمحاسِنهم ونشراً لمناقِبهم، فهم نجومُ الهدى ومصابيحُ الدجى وأعلامُ الحقِّ، هم الذين أنعم الله عليهم واصطفاهم بالنبوة من ذرية آدم وممن نجاهم الله مع نوح ومن ذرية إبراهيم وابنه إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وممن هداهم الله وطهرهم واجتباهم وآثرهم، وحبَاهُم بخير المواهبِ ورفعهم إلى أسمى المراتب، فهم خيارٌ من خيارٍ، ومن كريم خلالهم ودليل صدقهم: حسن تدبرهم وتأثرهم بكلام الله تعالى، حين يتلى عليهم فتراهم سجداً وبكياً، خشوعا وخضوعاً وهيبةً وإجلالاً لمقام ربهم وعظمة كتابه الذي يرقق القلوبَ ويسمو بالأرواح ويغذِّي العقول.

والآية تشير إلى أن الأنبياء جميعاً قاموا لله تعالى بالعبودية وكذلك المسيح عبد الله ورسوله كان لله قانتاً خاشعاً، فكيف يدعي النصارى أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

= مسنده ٥ / ٢٩٣، وقال محققه حسين سليم أسد: « قال: إسناده صحيح «.

(١) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العلوي الهرري الشافعي ١٧/ ١٦٩.

«وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ دلالة على أن نزول آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة وعلمهم من الجهالة»(١)..

المناسبة بين محور السورة وهذا المقطع

بينت هذه الآيات الكريمة رحمة الله تعالى بأولئك الأنبياء وكمال عبوديتهم لله تعالى.

الهدايات المستنبطة

* العبودية هي طريق القرب من الله، وسبب رحمته وإنعامه وتفضله وإكرامه، وطريق السعادة الأبدية.
* فضيلة الإخلاص والصدق في القول والعمل والوعد، وأثرهما في صلاح وارتقاء النفس والمجتمع.
* وجوب تعهد الأهل بالنصح والإرشاد وتفقد أحوالهم مع الله ومع الناس، فلقد امتدح الله تعالى إسماعيل عليه السلام بحرصه ومداومته على تعهد أهله وأمرهم بالصلاة وهي حق الله والزكاة وهي حق المستحقين من العباد، ولقد أوصى الله تعالى بدعوة الأهل وإصلاحهم ونصحهم وإرشادهم: قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم: ٦] أي: قوا أنفسكم بأعمالكم وقوا أهليكم بتعهدكم لهم ونصحكم، ولا تدعوهم هملا فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللهُ رَجُلاً قامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَها، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ)(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩٦.

(٢) حديث صحيح: رواه أبو داود في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الصلاة باب قيام الليل=

* التلازم بين الصلاة والزكاة فالصلاة حق الله تعالى والزكاة حق العباد، وفي الوفاء بحق الله تعالى وحق العباد تحصيل رضا الله تعالى.

* التلازم بين خشوع الجوارح وخشوع القلب لله تعالى، فبقدر تحقيق العبودية لله تعالى ظاهراً وباطناً، بقدر ما يزيد العبد إجلالاً وتعظيماً للرب سبحانه.

-٥-

طريق النجاة

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم: ٥٩ - ٦٥

المناسبة

بعد أن ذكر رحمته بأنبيائه وأصفيائه عقب ذلك بمن حُرموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيَّعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات، فبيَّن تعالى عاقبة انحرافهم عن

=(١٣٠٨). حديث ٩٣٠، وابن ماجة في السنن كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل حديث ١٣٣٦، وأحمد في مسنده (٧٤٠٤)، ٤٣٦، وابن خزيمة في صحيحه في إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله ليلا ٢/ ١٨٣ حديث ١١٤٨ وقال محققه الشيخ محمد مصطفى الأعظمي: «إسناده صحيح»، ورواه ابن حبان في صحيحه حديث ٦٤٦ - والحاكم في المستدرك ١/ ٣٠٩ صلاة التطوع وقال صحيح على شرط مسلم.

منهج النبيين وسَنَنِهِمُ القويم، وأن مصيرهم إلى التيه والخسران، ثم بيَّن تعالى طريق النجاة الذي يتمثل في التوبة الناصحة والإيمان الخالص والعمل الصالح، وبشَّر من سلك هذا الطريق بالرحمة والغفران، والفوز بالجنان، دار القرار والسلامة من جميع الأكدار، ولما كان أساس هذا الطريق ونبراسه هو الوحي، ناسب ذلك الحديث عن تنزلات الملائكة، وأنه لا يكون إلا بأمر وتدبير من الله تعالى، ومن معالم طريق النجاة العقيدة الصحيحة المتمثلة في إفراده تعالى بالربوبية، والعبادة الخالصة التي تحتاج إلى صبرٍ وأناةٍ.

التفسير الإجمالي

المحرومون !

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر رحمته بأنبيائه وأصفيائه: عقَّب ذلك بمن حُرموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: نكبوا عن نهج أسلافهم فأضاعوا الصلاة: تركوها بالكلية أو أهملوها وقصروا فيها، ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾: انساقوا وراءها، وانغمسوا في مستنقعاتها، فألهتهم عن ذكر الله وجرّأتهم على محارم الله، فاستباحوا المحرمات إشباعاً للملذات وإتباعاً للشهوات، ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾: أي خسارةً وشراً، وضلالاً وحيرةً، فعن عبد الله بن عمرو: وادٍ في جهنم، وعن عبد الله بن مسعود: نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر[1].

باب التوبة مفتوح

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم ٦٠ - ٦٣].

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٤٥.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾: يفتح الله تعالى لعباده باب التوبة، ويرشدهم إلى طريق الإيمان والصلاح، الذي يُنجي من العذاب الأليم، ويُفْضِي إلى النعيمِ المقيم، بعدلِه تعالى ورحمته وفضله وكرمه.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾: لا يُبْخَسون من جزاء أعمالهم الصالحةِ شيئاً، ولا يُجْمَعُ بينهم وبين الذين هلكوا.

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

تلك الجنان التي وعد الرحمن بها عباده المؤمنين فآمنوا بها دون أن يروها، فوعد الله صادق وآت، ومن تمام المنَّة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغواً، أي فضول القول وقبيح الكلام؛ إذ الجنةُ دارُ السلامةِ من كلِّ المنغصات.

والسماع وسيلةٌ للإمتاع، وذلك بتبادل التحية والسلام وسماع المبشرات، والتلذذ بسماع كلام الرحمن، ومطارحة الأحاديث مع الإخوان، والتمتع والأنس بالأصوات الشجية مع أعذب الألحان من الحور الحسان، في جنة الرحمن.

فهم أضيافُهُ في كلِّ وقتٍ ومن يكُ ضيفُهُ أمسى هَنِيّاً
ومن يكُ ضيفُهُ يَسْعَدْ ويغنمْ وكان لضيفِهِ ربِّي حفيّاً

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ولهم رزقُهم فيها بالغدوِّ والرواح.

«قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء»[(١)].

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٤٠، ٣٤١.

ورثةُ الجنان:

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

فهي دار المتقين ومنازل العابدين، ورِثُوها بصالح أعمالهم، ونزلوها بفضل ربهم.

فمن شاء الوراثة فالطريق معروف: التوبة والإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي إن لم يكتنفها عملٌ صالحٌ، فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيين وممن هدى الله واجتبى؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فلم تنفعهم وراثة النسب.

تنزل الملائكة بأمر الله

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

سبب النزول

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ الْآيَةَ[(١)]

المناسبة

من وجوه المناسبة بين هذه الآية الكريمة وبين ما قبلها:

* لما جاء الحديث عن الجنة مشوِّقا لها بيَّن الطريق المؤدية إليها وهي إتباع الوحي فناسب ذلك بيان أن نزول الملائكة لا يكون إلا بأمر من الله تعالى.

* لما ذكر هذه القصص العجيبة المشوقة التي يتنزل بها أمين الوحي جبريل فتقع على قلب النبي ﷺ برداً وسلاماً وتسليةً وتسريةً وأنساً وإمتاعاً، مما هيَّج أشواقه إلى نزول القرآن بالمزيد

(١) نفس المرجع ٣/ ٣٤١، ٣٤٢.

من هذه القصص المشوِّقة والأخبار التي تثبت فؤاده، فتعجل نزول الوحي بها، وأبدى حرصه على أن يكثر من زيارته ليعلم النبي ﷺ المزيد والمزيدَ ويزداد يقيناً وتثبيتاً.

ومن وجوه المناسبة: والله أعلم: أنه لما ذكر في أول السورة نزول جبريل عليه السلام إلى مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ بيَّن هنا أن الملائكة أجمعين لا تتنزل إلا بأمر من الله تعالى وتقدير.

التفسير الإجمالي

وما تتنزل الملائكة الكرام إلا بأمر الله تعالى فهو تعالى العليم بهم، المدبِّر لأحوالهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لا يقع منه نسيانٌ.

قال القشيري رحمه الله: « إن الملائكةَ - عليهم السلام - أبداً يَنْزلون بإذن الحقِّ تعالى فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. واللهُ - سبحانه - لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفْظٍ وإنعام، أو إمهالٍ ونكَال....»[(١)].

وقال النسفي رحمه الله: «... فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملِكِ ومشيئته، فهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه»[(٢)].

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾: فهو الخالق المالك المدبِّر لا رب غيره ولا معبود سواه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ فالعبادة تحتاجُ إلى صبرٍ وأناةٍ، وعزمٍ وثباتٍ.

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٥٢.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٤٠.

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾: فلا نظيرَ له ولا مثيلَ، ومن مظاهر تفرُّدِهِ تعالى أنك لا تجدُ على وجهِ الأرضِ ومرِّ الزمان من تسمَّى باسم (الله) أو (الرحمن) سواه تعالى.

فلا سميَّ له ولا ندّ ولا مثيل ولا شبيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

أو هل تعلم أحداً يستحق كمال الأسماء والصفات ما يستحقه الله تعالى ويتصف به حقيقة؟

أو هل تعلم اسماً أعظم من هذا الاسم المفرد الذى اختصه الله لنفسه ووصف به ذاته وقدَّمه على جميع أسمائه، وأضاف أسماءه وصفاته كلها إليه ؟ فهو المتصف بصفات الكمال والمجد.

الصلة بين المقطع ومحور السورة

تتناسب آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة من حيث بيان سعة رحمة الله تعالى وشمولها، فباب التوبة مفتوح أمام العصاة، ومن رحمته تعالى أن منَّ على عباده المؤمنين بدخول الجنة، بعد أن يسر السبيل إليها بالإيمان والعملِ الصالح، ومِنْ رحمته سبحانه إنزال الملائكة بالهدى والرحمة، وحتى ينال الإنسان حظاً عظيماً من هذه الرحمات العاجلة والآجلة فعليه أن يجتهد في العبادة ويصطبر عليها، ولما حُرِمَ أولئك الخلف حلاوة العبودية ضيعوا الصلاة إذ لم يدركوا غايتها ولم يتذوقوا حلاوتها، ووقعوا في أسر الشهوات وانغمسوا في أوحالها.

الهدايات المستنبطة

* التلازم بين إضاعة الصلوات والانغماس في الشهوات، فالصلاة ميزانٌ للعبد وعصمةٌ له وسموٌّ بروحه وتهذيبٌ لنفسه.
* من رحمته تعالى بعباده فتح باب التوبة لهم، وإرشادهم إلى طريق الإيمان والصلاح، الذي يُنجي من العذاب الأليم، ويُفْضي إلى النعيمِ المقيمِ.

* من تمام المنّة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغواً، أي فضول القول وقبيح الكلام؛ فضلا عن الصخب والضجيج؛ إذ الجنةُ دارُ السلامةِ من كلِّ الأكدار. « وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن»[١].

* وراثة الجنة بالإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي إن لم يكتنفها عملٌ صالحٌ فقد وَرِثَ قومٌ نَسَبَ أولئك الأتقياءِ من النبيّين والصديقين؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فلم تنفعهم وراثة النسب، كما في حديث نبينا ﷺ: (وَمَنْ أَبطأَ بِهِ عَمَلُهُ: لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)[٢].

* الملائكة خلقٌ من خلق الله تعالى يفعلون ما يؤمرون، ولا يتنزلون إلا بأمر وتدبير من الله تعالى.

-٦-

جولاتٌ مع شبه الكافرين وأباطيلهم

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾
وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا
جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ
نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ
مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٦ / ١١٢.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَرضي الله عنه كتاب الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث ٣٨- (٢٦٩٩).

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾
كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ
إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٦٦ - ٩٥].

المناسبة:

بعد هذا البيان القصصي الذي أبرز لنا معالم الرحمة الربانية وصوَّر لنا مقام العبودية وهو غاية الوجود الإنساني: جاء البيانُ الحُواري متناسقا مع المحور العام للسورة ومع القصص الواردة فيها ومقررا لما جاء فيها بهذا الأسلوب الذي يخاطب القلوب ويحاور العقول ويناجي الوجدان، فَعَرَضَ شُبَهَ المشركينَ ودَحَضَهَا بالحُجَجِ والبراهينِ، وبينَ تفرُّده تعالى بالعبادة.

وتبرزُ صلة هذا المقطع بالمحور العام للسورة: من كون هذا الحوار إنما سيقَ رحمةً من الله تعالى بعباده؛ إذ الهدف منه هدايتهم إلى طريق نجاتهم؛ وذلك بتحقيق الغاية من وجودهم وهي عبادة الله وحده.

وبعد نظرة كلية لهذا المقطع قمت بتقسيمه إلى خمس فقرات تتضمن خمس جولات حوارية مع المشركين تعرِضُ وتُفنِّد شبههم بالحجة والبرهان.

الجولة الأولى

إنكارهم البعث !

قال تعالى ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

الرد على منكري البعث

ينكر هذا الكافرُ مصيرَه ويتناسى أصله وطبيعته، ويتعدى حدوده، ويتجاوز قدره، حين يتجرأ على خالقه، ويبادر إلى إنكار حقيقةٍ جليةٍ، فضلاً عن تنكره لنعم الله عليه وعلى من حوله من كائنات، ولو أمعن فكره وأعمل عقله لما وصل إلى هذه النتائج الخاطئة.

هل فكر في نفسه وحياته كيف خلقه الله ولم يك شيئا ؟ ثم نقله من ضعف إلى قوة ؟ ومنحه العقل والإدراك ؟

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾

ويحَ هذا الكاذب المغرور، وويله: حين يحشر مصفَّدا مع أقرانه من المكذبين الضالين وقد صُفُّوا حولَ جهنّم جثياً على ركبهم في ذلةٍ وصَغَارٍ، وحسرةٍ وانكسار.

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

لننزعن من كل فرقة وطائفة تشايعت على الباطل وتواطأت عليه أشدَّهم عتواً ونفوراً وظلماً وفجوراً، وهم الكبراءُ والقادةُ، فيتقدمون أتباعهم، ويقودونهم إلى جهنم، ثم يسبقونهم إليها، ويُطرحون فيها، ليلحق بهم الأتباع والمستضعفون، فتزداد بهم صلياً، أي حرارة ولهيباً

وإحراقا وضيقاً.

كما قال سبحانه عن حال أهل النار حين يقتحمونها أفواجا متتابعة: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: ٥٩ - ٦١].

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ فترتيب دخولهم النار وفق حساب دقيق يرجع إلى قدر جرمهم الفاضح، وعذابهم فيها يتفاوت بتفاوت عملهم الطالح.

المرور على الصراط

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

الورود: هو المرور على الصراط، وهو جسرٌ ممدودٌ على ظهرِ جهنمَ: يمرُّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، فينجي الله المتقين، ويتساقط أهل الضلال، تنزلق أقدامهم أو تتخطفهم الكلاليب، لتلقي بهم في النار.

ففي الصحيحين من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... **فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنْ الرُّسُلِ بِأُمَّتِه وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ قَالُوا نَعَمْ قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو...**)[1].

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كتاب صفة الصلاة باب: فضل السجود، حديث ٧٧٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية -حديث ٢٩٩- (١٨٢).

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِيناً وَشِمَالاً، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ ؟ قَالَ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ، يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفاً، قَالَ وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ: إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفاً)[١].

الجولة الثانية

النظرة المادية القاصرة والموازين المقلوبة

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ مريم: ٧٣ - ٧٦.

إلى جانب إنكار أولئك الكفرة ليوم البعث مع ظهور علاماته وجلاء آياته، فكذلك دأبهم مع آيات الله البينات، لا ينتفعون ولا يتأثرون بها حين تتلى عليهم، بل يتعمدون الانصراف إلى التفاخر بالحسب والمال.

قال القرطبي: « وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين، وإيهامهم أن من كثر ماله دل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَ كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث ٣٢٩ - (١٩٥). قال النووي رحمه الله: « أَمَّا (شَدّ الرِّجَال) فَهُوَ بِالْجِيمِ جَمْع رَجُل هَذَا هُوَ الصَّحِيح الْمَعْرُوف الْمَشْهُور، وَنَقَلَ الْقَاضِي أَنَّهُ فِي رِوَايَة اِبْن مَاهَانَ بِالْحَاءِ. قَالَ الْقَاضِي وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى وَشَدّهَا عَدْوهَا الْبَالِغ وَجَرْيهَا..» صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٧٢.

ذلك على أنه المحق في دينه، وكأنهم لم يروا فيهم فقيراً ولا في المسلمين غنياً ولم يعلموا أن الله تعالى نحّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا وفَرْطِ الميلِ إليها»[1].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾

بدلا من أن تُثيرَ شجونَهم، وتَرِقَّ قلوبُهم فيخرون لله سجداً وبكياً، تراهم يزيدون عتوّاً ونفوراً واستعلاءً وغروراً، وعلامة ذلك قولهم: أيُّ الفريقين خير مقاماً أي أعظم منزلة وأحسن ندياً أي مجلساً ومنتدىً، تفاخروا بمجالسهم ونواديهم التي كانوا يجتمعون فيها للتشاور في أمورهم، والتفاخر فيما بينهم والتسامر حتى غدوا يتباهون بتلك المجالس وزينتها وأثاثها وأضوائها وروّادها.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ أي من أمة أو جيل أو جماعة هم أحسن أثاثاً الأثاث متاع البيت وهو من أبهى صور الزينة، وفيه يتنافس أهل التفاخر والتباهي، ﴿ وَرِءْيًا ﴾ أي منظراً وهيئة، لكن ليست العبرة بالأثاث الفاخر أو الجمال الظاهر.

يقول صاحب الظلال: « إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة؛ والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد، وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمنتديات الفقيرة إلا من الإيمان، لا أُبّهةَ ولا زينة، ولا زخرف، ولا فخامة.. هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان !

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة: تقف بمالها وجمالها، بسلطانها وجاهها، بالمصالح تحققها، والمغانم توفرها، وباللذائذ والمتاع، وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع، تهزأ بالمال والمتاع، وتسخر من الجاه والسلطان؛ وتدعو الناس إليها، لا باسم لذة تحققها، ولا مصلحة توفرها، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذي سلطان، ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردةً

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٤١، ١٤٢.

من كل زخرف، عاطلة من كل زينة، معتزة بعزة الله دون سواه.. لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئاً في هذه الأرض، إنما هو القرب من الله، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب.»(١)

استدراجٌ وإمهال!

قال تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

من كان سادراً في غيِّه غارقاً في ضلاله: أبقاه الله على ضلاله بل زاده ضلالاً وأمدَّ لَهُ في العطاء استدراجاً لَهُ، كَما قالَ سبحانه ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال سبحانه ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾.

أمدَّ لهم وأرجأهم: حتى إذا انكشف الغطاء وتبدَّت أمامهم الحقائق وحلَّ بهم العذاب: فسيعلمون عندئذ ولكن حين لا ينفع العلم ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ أي يعلمون حقارتهم ومهانتهم، ويدركون ضعفهم وهوانهم.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنه يمدُّ للظالمين في ضلالهم بين سبحانه أنه يثبت المؤمنين على الهدى ويزيدهم في النصرة وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم، ففي مقابل المد

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٨.

لأهل الضلال وإملائهم، يزيد الله المهتدين هداية فيزدادون هداية على هداية، ويمضون قدماً على هذا الطريق، ويرتقون معالي رتبه ومدارج منازله، « والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهَّله عليه ويسره له، ووهب له أمورا أخر، لا تدخل تحت كسبه»[1].

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ كلُّ كَلِم طيب وعَمَل صَالح ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾: أي في ميزانه العادل ﴿ ثَوَابًا ﴾ أي مثوبة في الدنيا وفي الآخرة ﴿ مَّرَدًّا ﴾ أي عاقبةً ومرجعاً.

الجولة الثالثة

غرورٌ وعجبٌ !

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

سبب النزول: عَنْ خَبَّاب رضي الله عنه قَالَ كُنْتُ رَجُلا قَيْناً، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاص بْن وَائِل دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّد، قَالَ:قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِه حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْد الْمَوْت ! فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَال وَوَلَد قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾[2].

بعد أن بيَّن تعالى ما عليه المشركون من انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم وانتكاس

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: قوله عز وجل: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ سورة مريم، حديث ٤٤٥٨ ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١١١).

القيم، وذكَّر تعالى بجملةٍ من سننِهِ الثابتَةِ، وأقداره النافذة: أورد مثالاً لمن اغترَّ بنعم الله عليه وإمهاله، فأحسن الظنَّ مع سوء عمله وفساد معتقده، ثم هو يطمع في المزيد ؟ فيقول مقولةَ الواثق المغرور بالأماني الكاذبة والسراب الخادع: ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فهل اطلع الغيب فعلم بذلك علم اليقين ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؟ وهذا الاستفهام على جهة الإنكار إذ لا سبيل له إلى معرفة الغيب، ولا كرامة له حتى ينال وعداً بدخول الجنة، فالجنة لا يدخلها بكفره وافترائه، وصده عن سبيل الله.

﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾: سنحفظُ عليه قوله ونسجِّله عليه، لنجازيَه به في الآخرة، عذابا مديدا مضاعفا.

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾: يجرَّد من ماله الذي ينتقل لورثته ويخرج من دنياه صفر اليدين، فلا يدوم متاعُه بأولاده وَحَشمِه وخَدَمِهِ وقَوْمه، بل يعودُ إلينا منفرداً عنهم، وقيل: معنى قوله: ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به، وقيل: نرثه ما يقول أنه له في الجنة، فنجعله لغيره من المسلمين، فنجعل ما يتمنى من الجنة لغيره[(١)].

﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ على فقره ومسكنته ﴿ فَرْدًا ﴾ من المال والولد، « لم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان: تبعة قوله ووباله، وفقد المطموع فيه»[(٢)].

الجولة الرابعة

ماذا وراء هذه الأباطيل والأوهام ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا

(١) يراجع: البحر المحيط ٦ / ٢١٤ ويراجع: معالم التنزيل للبغوي ٥ / ٢٥٤ وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٢٦١.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤ / ١١٤.

نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

جاءت الجولة الرابعة تفنِّد عبادتهم للآلهة مع كونها لا تضرُّ ولا تنفع، فكما يتعللون بالأماني الكاذبة، ويتعلَّقون بالأعراض الفانية، فإنهم يتعزَّزون بالآلهة التي اتخذوها من دون الله، يطلبون بها القوة والمنعة، بل يدَّعون أنها تقربهم إلى الله زلفى.

وهذا من عجيب صنيعهم وغريب أمرهم ! ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ حين يعاينون العذاب فيكفرون بهم ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾: يتبرؤون من عبادتهم وينقلبون عليهم.

كما قال تعالى ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [مريم: ٨٣ – ٨٧].

ثم بيَّن سبحانه أن هناك ما يدفع الكفار إلى التمرُّد والعصيان والجحود والنكران ويغريهم بشتى الوساوس والإغراءات، فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

تهيِّجهم وتستفزُّهم وتُغريهم بفتن الشهوات وتحرِّكهم بالإغواء والإضلال وتقودهم وتستحوذ عليهم بسلاح الوساوس والشبهات وتزعجهم وتهيُّجهم بالهواجس والتسويل، فتزين لهم الأباطيل وتدفعهم إلى معصية الجليل.

قال صاحب اللطائف: «... فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة، وخاطر الحقِّ يكون

بِرَوْحٍ وسكينة»[(١)].

وفي الآية الكريمة بيانٌ لسببٍ من أسباب صدود المشركين وإعراضهم عن الحق، وعدائهم لأهله؛ باستجابتهم لوساوس الشياطين ووقوعهم في شراكهم.

وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ وللمؤمنين ببيان أسباب صدود المشركين وإعراضهم، والدافع وراء مقولاتهم الباطلة وأمانيهم الكاذبة، وتحذيرٌ للمشركين من هذا الانقياد الأعمى والانسياق المهين وراء الشياطين.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ نعدُّ عليهم أنفاسَهم ونحصي أعمالهم «الأنفاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها، وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل»[(٢)].

وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد، كما قيل:

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسُ لا يمنعُ الموتَ بوابٌ ولا حرسُ
وكيف يفرحُ بالدنيا ولذتِهَا فتى يُعَدُّ عليهِ اللفظُ والنَّفَسُ[(٣)]

ثم بين تعالى مشهد المتقين وهم يُزَفُّون إلى الرحمن في مقابل مشهد المجرمين الذين يساقون إلى جهنم كما تساق الأنعام، فقال تعالى ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾: يُحْشَرُ المتقون بهذه الهيئة الحسنة، كما تفدُ الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، وتفخيما لموكبهم، وتساق إليهم البشائر وتقدم لهم الهدايا والجوائز، فهم وفود إلى الرحمن، ومن شأن الوفود أن يُحتفى بهم، ويُقابَلون بالتهاني والبشائر، ويُتْحَفُونَ بالجوائز والمكرمات، ويَنَالُونَ الهدايا والمثوبات فقد

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٦٨
(٢) نفس المرجع ٤ / ٤٦٩
(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ١٨٨.

وَفَدُوا على أكرمِ الأكرمين، وقَدِمُوا على الرحمن إخواناً متحابِّين، فهم في ضيافة الرحمن.

وفي مقابل هذه الصورة التي تتشوق العيون لرؤيتها وتستنشق النفوسُ عبيرَها نرى في المقابل مشهداً مروِّعاً وموكباً مفزعاً، مشهد المجرمين وقد صفِّدوا بالسلاسل والأغلال وانحنت الظهور وتثاقلت الخُطى، وهم يُساقون إلى جهنم كما تُساقُ الأنعامُ العطشى إلى مواردِ الماءِ ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ وإنما يُساقُون بهذه الصورةِ المهينةِ؛ ازدراءً لهم، ونكالاً بهم.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

لا يملك أحد في هذا اليوم شفاعة فهي لله تعالى وحده، يمنحها لمن يشاءُ ويرضى، كما قال سبحانه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾[النجم: ٢٦].

وقال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه: ١٠٩].

الجولة الخامسة

دعوى باطلة ومقولة شنيعة

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

جاءت الجولة الخامسة لتدفع مقولةً ظالمةً ودعوى كاذبةً، دعوى بعض طوائف المشركين وعلى رأسهم النصارى أن لله ولدا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾: منكراً عظيماً وأمراً فظيعاً.

قال الراغب: « الإد المنكر فيه جلبة من قولهم: أدت الناقة تئد أي رجّعت حنينها ترجيعاً شديداً»[١].

وقال الألوسي: « وفي هذا ردٌّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريقِ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطابِ المنبئ عن كمالِ السخطِ وشدةِ الغضبِ المُفْصِحِ عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»[٢].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾: تكاد السموات حين تسمع من يردد هذا القولَ المنكرَ العجيبَ أن تتشققَ غيظاً وتسَّاقطَ غضبا، وتنشق الأرض من هول هذا القول وثقله وبشاعته، وتخر الجبال فتهوي كما يهوي البناء الشاهق غضبا لله وغيرةً.

« قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْب: لَقَدْ كَادَ أَعْدَاءُ اللهِ أَنْ يُقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ بِقَوْلِهِمْ هَذَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾، وَصَدَقَ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ عَظِيمٌ»[٣].

﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾: نفى سبحانه عن نفسه الولد، فالله تعالى هو الغني الباقي، وإنما يفتقر الناس إلى الولد ليكون لهم سنداً وعضُداً وذُخْراً وذِكْراً، يحملُ اسمَهم، ويرحمُ ضعفَهم، ويخلِّدُ ذكرَهم، ويواصِلُ مسيرَتَهم، ويعقبُهم ويرثُ أموالهم، فضلا عن الحاجةِ الفطريةِ للولدِ لإشباعِ عاطفةِ الأبوةِ، وإرواءِ عاطفةِ الأمومة.

أما الخالق جلا وعلا: فهو الغني فلا يفتقر إلى أحد، وهو الملك فكل ما سواه مملوك، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الوارث الباقي، وهو الأول والآخر، تعالَى ربُّنا وتقدس»[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني باب الألف مع الدال ص١٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ١٣٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٢٤١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٥٨ ويراجع لباب التأويل للخازن ٤/ ٣٦٣.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وفي التعبير باسم الله (الرحمن) في هذا المقام: إشارة إلى صبره تعالى على أذاهم وإمهاله لهم لعلهم يرجعون، ويتوبون عن هذا القول الشنيع.

وفي الصحيح: عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيسَ أَحَدٌ أَوْ لَيسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَداً وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)[1].

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ فكلهم عبيدٌ لله تعالى ومن لم يقرَّ بعبوديته لله تعالى وحده في الدنيا فسوف يقرُّ ويشهدُ حين يرى العذابَ وتنقطعُ الأسبابَ، ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ أي أحاطَ بهم وجَمَعَهُمْ وعدهم عداً، ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾أي واحداً متجرداً لا ينفعه إلا ما قدم.

كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الأنعام: ٩٤

فائدة لطيفة: قال النسفي رحمه الله: « وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، لأن أصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك غطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن»[2].

---

(١) الحديث : رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الْأَدَبِ بَاب الصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى حديث ٥٧٤٨، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، رقم: ٢٨٠٤.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٤٧.

الهدايات المستنبطة

* البعث حقيقة لا مراء فيها، فينبغي على العاقل أن يستعد له ويتأهَّب لما يتبعه من حساب وميزان وصراط.

* الصراط: جسر ممدود على ظهر جهنم: يمرُّ به المؤمن والكافر، فينجي الله الأتقياء، ويتساقط الأشقياء، فما أحوج كل عاقل إلا أن يتذكر هذا اليوم ويتزود له: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّهَا ذَكَرَتْ النَّارَ فَبَكَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُبْكِيك ؟ قَالَتْ ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَداً: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩]، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ [(١)]

* ليست العبرةُ بكثرةِ الأموالِ والبنينَ أو بالمجالس العامرة والأثاثات الفاخرة، فكلها من أعراض الدنيا التي لا بقاء لها، وإنما العبرة بتقوى الله تعالى والانتفاع بآياته.

* من عجيبِ أمرِ الكفارِ موقفُهم الغريبُ من آيات الله؛ إذ بدلاً أن من تُثير شجونَهم وترقَّ قلوبُهم فيخرون لله سجداً وبكياً كما أخبر تعالى عن عباده المصطفين من الأنبياء والصديقين تراهم يزيدون عتوّاً ونفورا واستعلاءً وغروراً.

* من كان ماضياً في غيِّه، غارقاً في ضلاله: أبقاه الله على ضلاله بل زاده ضلالاً وأمدَّ لَهُ في العطاءِ استدراجاً لَهُ.

---

(١) رواه أبو داود في سننه عَنْ عَائِشَةَ كتاب السنة باب في ذكر الميزان حديث ٤٧٥٥، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠١، والحاكم في المستدرك وقال « هذا حديث صحيح إسناده على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة، على أنه قد صحت الروايات أن الحسن كان يدخل وهو صبي منزل عائشة رضي الله عنها وأم سلمة » وأقره الذهبي. المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤ / ٦٢٢، وقال العراقي في المغني حديث ٤٤٦٩ « وإسناده جيد».

* في مقابل المد لأهل الضلال وإملائهم يزيد الله المهتدين هداية فيزدادون هداية على هداية، ويمضُون قُدُماً على هذا الطريق ويرتقون معالي رتبه ومدارج منازله.

* بيَّن تعالى ما عليه المشركون من انقلابِ الموازينِ واختلاطِ المفاهيمِ وانتكاسِ القيمِ، وذكَّر تعالى بجُملةٍ من سننِهِ الثابتَةِ، وأقدارِهِ النافذَةِ.

* من أسباب صدودِ المشركين وإعراضِهم عن الحق، وعدائهم لأهله؛ باستجابتهم لوساوس الشياطين ووقوعهم في شراكهم.

* المتقون يوم القيامة وفودٌ إلى الرحمن، ومن شأنِ الوفودِ أن يُحتَفَى بهم، ويقابلون بالتهاني والبشائر، ويُتحفون بالجوائزِ والمكرُمات، وينالُون الهدايا والمثوبات، فقد وفدوا على أكرم الأكرمين، وقدموا على الرحمن إخواناً متحابين، فهم في ظلال الرحمن وفي ضيافة خالق الأكوان.

* من المشاهد المروِّعةِ يوم القيامة، مشهد المجرمين وقد صفِّدوا بالسلاسل والأغلال وانحنت الظهور وتثاقلت الخطى، وهم يساقون إلى جهنم كما تساق الأنعام العطشى إلى موارد الماء ازدراء لهم ونكالاً بهم.

* لا يملك أحد في هذا اليوم شفاعة فهي لله تعالى وحده، يمنحها لمن يشاء ويرضى، كما قال سبحانه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

* نفى سبحانه عن نفسه الولد، فاللهُ تعالى هو الغني الباقي، وإنما يفتقرُ الناسُ إلى الولد ليكون لهم سنداً وعضداً وذخراً وذكراً، يحمل اسمهم ويخلد ذكرهم ويواصل مسيرتهم ويحلُّ مكانهم ويرث أموالهم.

* من لم يقرَّ بعبوديته لله تعالى وحده في الدنيا اختياراً، فسوف يقرُّ ويشهد حين يرى العذاب وتنقطع الأسباب إجباراً.

ختام السورة الكريمة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

المناسبة

خُتمت السورةُ بما بدأت به من بيان محبةِ الله تعالى وتكريمه لأوليائه، ثم بيان الحكمة من نزول هذا القرآن وتيسيره وهي البشارة والنذارة، وفي نهاية المطاف تطرح تساؤلاً عمن كانوا ملءَ الأسماعِ والأبصارِ وحديثَ الليلِ والنهارِ وقد صاروا في بطونِ اللحودِ ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

مودة في قلوب عباده بإيمانهم وصلاحهم، وفي الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)[(١)].

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

بيّناه بلسانك العربي وجعلناه سهلاً على من تدبَّره وتأمَّله ويسَّرنا تلاوته وحفظه وفهمه والعمل به والدعوة إليه، ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ وينذر كل ألد: أي شديد الخصومة أصمّ الآذان عند سماع الحق.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

أين من سبقهم إلى دار القرار ؟ أين من طوي ذكرهم وطمرت آثارهم بعد أن كانوا ملء

---

(١) صحيح البخاري كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، باب: ذكر الملائكة حديث ٣٠٣٧، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، رقم: ٢٦٣٧.

الأسماع والأبصار ؟ هل بقي منهم أحد ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ وهل تحس منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم صوتا خفياً ؟

كما قال قُسّ بن ساعدة الإيادي:

في الذّاهبين الأوّلين مِنَ القُرون لنا بَصَائرُ
لما رأيتُ مواردا لِلمَوْتِ ليس لها مَصَادرُ
ورأيتُ قَومي نَحْوَهَا يَمْضِي الأصاغرُ والأكابرُ
لا يَرْجِع الماضي إليَّ ولا من الباقين غابرُ
أيْقَنْتُ أنّي لا مَحَالةَ حَيث صار القَوْمُ صائرُ[1]

قال صاحب اللطائف: «أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك - لما شاء - أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وسَيُطَالبونَ - يومَ النشور - بالنقير والقطمير»[2].

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾: « صوتاً خفياً، أي لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرَى ولا صوت يسمع، يعني هلكوا كلهم، فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم»[3].

قال صاحب الظلال: « وتُخْتَمُ السورةُ بمشهَد يتأمله القلب طويلاً؛ ويرتعش له الوجدان طويلاً؛ ولا ينتهي الخيال من استعراضه ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾، وهو مشهد يبدؤك بالرجّة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق كأنما يأخذ بك إلى وادي الردى، ويقفك على مصارع القرون؛ وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد

---

(١) الأغاني للأصفهاني ١٥/ ٢٣٧.
(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٧٧.
(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٤٩.

بحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأماني والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.. ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثم، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نأْمَة. لا حس. لا حركة. لا صوت.. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ انظر وتلفت ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ تسمَّع وأنصت، ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب. وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت [(١)].

الهدايات المستنبطة من خاتمة السورة

* محبةُ اللهِ تعالى وتكريمُه لأوليائه، ونشرُ حبهم وودهم بين العباد.
* الحكمة من نزول هذا القرآن وتيسيره: البشارةُ والنذارةُ وما يتعلقُ بهما من بيانٍ.
* تختتمُ السورةُ بسؤال يلفتُ الأنظارَ ويُثيرُ الانتباهَ ويذكرُ بمن طُويَ ذكرُهُم وطُمِرَتْ آثارُهم بعد أن كانوا ملءَ الأسماعِ والأبصارِ ؟ هل بَقِيَ منهم أحدٌ ؟ وهل تُحِس منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم ولو صوتاً خفياً ؟

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٢، والنّأْمةُ الصوتُ نأم الرجلُ يَنْئِمُ ويَنْأَمُ نَئِيماً وهو كالأَنِينِ، وقيل هو الصوت الضعيف الخفيّ أيّاً كان، يراجع لسان العرب ١٢ / ٥٦٧ مادة (ن أ م).

سورة طه

المبحث الأول: بين يدي السورة:

أولا: اسم السورة:

الاسم التوقيفي للسورة: اسم السورة التوقيفي هو «طه» لما دلت عليه الأحاديث والآثار التي ستأتي -قريبا- في مبحث فضل السورة، وهو الاسم الذي أطلق عليها في المصحف، وبه بدئت السورة، وهو من الأحرف المقطعة، وقد جاءت تسمية بعض السور بما بدئت به من أحرف التهجي مثل: «يس» «ص» و«ق».

الاسم الاجتهادي: ذكر السيوطي في الإتقان عن كتاب «جمال القراء» للسخاوي أنها تسمى سورة **«الكليم»**، وعن كتاب الكامل للهذلي أنها تسمى سورة **«موسى»**، ثم علق عليه بقوله: «وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر»(١).

علاقة الاسمين بالسورة:

أما اسم «الكليم» أو «موسى» فعلاقته بالسورة جلية لأن قصة موسى عليه السلام قد بسطت في هذه السورة، فقد تناولت السورة أحداثا تتعلق بموسى عليه السلام من ميلاده إلى خروجه مهاجراً إلى مدين فارا من بطش فرعون وملئه، ثم عودته، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، والمواجهة بينه وبين السحرة، ثم نصر الله له، وخروجه ببني إسرائيل، وإهلاك فرعون وجنده، وما تخلل ذلك من فتنة السامري لهم بإخراج العجل، وعبادة قومه للعجل، وموقف موسى من عباد العجل وصانعه.

وأما تسميتها بـ«طه» فإن له صلة بالسورة إذا أخذنا في الاعتبار ترجيح بعض العلماء(٢)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي:١/ ١٥٧، وينظر: روح المعاني، للألوسي:١٦/ ١٤٧، والتحرير والتنوير:١٦/ ١٧٩.

(٢) رجح ذلك الإمام الطبري، وصححه القرطبي، وجوزه الشوكاني. ينظر: جامع البيان، =

بأن لحرفي «طه» معنى النداء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ورد في لسان العرب أنهما بمعنى «يارجل» أو «ياحبيبي» بما دلت عليه الشواهد من استعمالهم، وعلى هذا فإن الحرفين هما نداء بصيغة الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكرر الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا في هذه السورة [(١)]، كما كثر فيها -أيضا- الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومهمته في تذكير الناس بالقرآن، وعن القرآن المنزل إليه، وما قصه عليه من قصتي موسى وآدم، ثم ختمت بتوجيهات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيا: فضل السورة.

وردت أحاديث وآثار في فضل سورة طه، نوردها فيما يلي:

١- عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عز وجل قرأ طه وياسين قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة نزلت عليها هذا، طوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا» [(٢)].

= للطبري: ١٦/ ١٣٥-١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٣٥٥، ٣٥٦.

(١) اقرأ إن شئت: قوله تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان: ٦/ ٢٣٥، وذكره أبو المظفر السمعاني بنحو هذا، تفسيره:٣/ ٣١٨، وأخرجه الدارمي في مسنده: ٢/ ٥٤٧، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة طه ويس، برقم: ٣٤١٤، وفيه «... قبل أن يخلق الله السموات والأرض بألف عام»، والطبراني في الأوسط:٥/ ١٣٤، والبيهقي في الشعب: ٢/ ٤٧٧، باب ذكر سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، وفي الأسماء والصفات: ٢٣٢، وابن عدي في الكامل في الضعفاء: ١/ ٢١٦. =

وهذا الحديث ضعيف لأن مداره على إبراهيم بن المهاجر وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان، وكلاهما تكلم فيهما[1].

٢- عن زياد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه»[2].

= وينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٤، وعزاه ابن كثير إلى محمد بن إسحاق وابن خزيمة في كتاب التوحيد، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور: ٥/ ٥٤٨، إلى الديلمي، والعقيلي في الضعفاء، وهو فيه: ١/ ٦٦.

(١) قال ابن كثير: «هذا حديث غريب وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما» تفسيره ٥/ ٢٢٥٦، وعزا الشوكاني هذا القول إلى ابن خزيمة. فتح القدير: ٣/ ٣٥٤، وقال الذهبي: «هذا حديث منكر فابن مهاجر وشيخه ضعيفان» سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٦٩١، ونبه أبو المظفر السمعاني على غرابته. ينظر تفسيره:٣/ ٣١٨، وبهذا وقع الاتفاق على ضعفه، وذهب بعضهم إلى اعتباره حديثا موضوعا، إلا ابن حجر رد ذلك بقوله: «وقد زعم ابن حبان أنه موضوع وتبعه ابن الجوزي»، وذلك فيما نقله عنه تلميذه البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٦.

وأما إبراهيم بن المهاجر فقد قال فيه البخاري، وابن حبان «منكر الحديث جدا». كتاب المجروحين: ١/ ١٠٨، الضعفاء، للعقيلي: ١/ ٦٦، نقله عن البخاري، وقال يحيى بن معين: «ضعيف». العلل ومعرفة الرجال، لإمام أحمد:٣/ ٢٩، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار وضعفه البخاري بهذا الحديث ووثقه ابن معين» مجمع الزوائد:٧/ ٥٦، غير أنه سبق قريبا أن ابن معين ضعفه كما في العلل للإمام أحمد، وقال ابن عدي: « وإبراهيم بن مهاجر لم أجد له حديثا أنكر من حديث قرأ «طه ويس» لأنه لم يروه إلا إبراهيم بن مهاجر ولا يروي بهذا الإسناد ولا بغير هذا الإسناد هذا المتن الا إبراهيم بن مهاجر هذا وباقي أحاديثه صالحة» الكامل في الضعفاء: ١/ ٢١٦.

وأما عمر بن حفص بن ذكوان فقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس بشيء» وقال علي بن المديني: «ليس بثقة». وقال النسائي: «متروك الحديث» وقال الدارقطني: «ضعيف» وقال ابن حبان: «كان يشتري الكتب ويحدث بها من غير سماع»، وقال أحمد: «تركنا حديثه وحرقناه». الكشف الحثيث، لسبط ابن العجمي: ١/ ١٩٥، المغني في الضعفاء، للذهبي: ٢/ ٤٦٣، لسان الميزان، لابن حجر: ٤/ ٢٩٨، والميزان: ٥/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره قال: أخبرنا أبو عمرو الفراتي قال أبو نصر منصور بن عبد الله السرخسي عن محمد بن الفضل عن إبراهيم بن يوسف عن المسيب عن زياد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم...=

٣- عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع على أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئا إلا طه ويس، فإنهم يقرؤون بهما في الجنة»[(١)].

٤- عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلةً»[(٢)].

٥- عن أبي أمامة الباهلي ﷺ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: اسم الله الأعظم[(٣)] الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه»[(٤)].

= الحديث. الكشف والبيان: ٦/ ٢٣٥، وينظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٢، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٣/ ٧٣.

(١) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه: ٥/ ٥٤٨.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره: ٥/ ٢٦١، وفي سنده: أبوبكر الهذلي قال فيه ابن حجر: «أخباري متروك الحديث». التقريب: برقم: ٨٠٠٢، وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه. الدر المنثور: ٥/ ٥٤٨. وفيه «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسيم... الحديث.
وأخرجه الحاكم: ١/ ٧٥٧، كتاب فضائل القرآن، باب من قرأ القرآن وتعلمه وعمل بما فيه، عن معقل بن يسار ﷺ مرفوعا، قال البقاعي مستدركا على تصحيح الحاكم: «وليس كما قال، عبيدالله بن أبي حميد ضعيف جدا». مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧٧. وتعقب الذهبي الحاكم بقوله: «عبيدالله، قال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك، وقال دحيم: ضعيف». ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥، برقم: ٥٣٥٤.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٢٠/ ٢٢٥، وقال الهيثمي: وله إسنادان في أحدهما عبيدالله بن أبي حميد وقد أجمعوا على ضعفه وفي الآخر عمران القطان ذكره ابن حبان في الثقات:٧/ ٢٤٣، وضعفه الباقون». مجمع الزوائد:١/ ١٧٠، وأخرجه البيهقي في الشعب: ٢/ ٤٨٥، وقال: « عبيد الله بن أبي حميد تكلموا فيه». السنن: ١٠/ ٩.
وينظر: الجواهر الحسان، للثعالبي: ٣/ ٢٨، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ٨٧.

(٣) والاسم الأعظم هو «الحي القيوم» ينظر: مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧٥، ٢٧٦.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: ٢/ ١٢٦٧، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، برقم : ٣٨٥٦، والحاكم=

٦- عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ سورة طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»[(١)].

٧- عن عبد الله بن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي[(٢)].

٨- عن عائشة ﵂ قالت: «أول سورة تعلمت من القرآن كلها بأسرها «طه» فكنت إذا قرأتها عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾ قال: لا شقيت يا عائشة»[(٣)].

٩- عن شهر بن حوشب قال: «يرفع القرآن عن أهل الجنة إلا طه ويس»[(٤)].

١٠- **يقول البقاعي:** «ومن أعظم فضائلها أن قراءة أولها كان سببا لإسلام عمر بن الخطاب ﵁

= في المستدرك: ١/ ٥٠٥، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، والطبراني في المعجم الأوسط: ٨/ ١٩٢، ترجمة موسى بن سهل بن عمران الجوني، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن العلاء إلا الوليد تفرد به هشام»، وذكره البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٥.

(١) الكشاف، للزمخشري: ٣/ ١٠٠، تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٢. وقال المناوي: « موضوع من حديث أبي بن كعب» الفتح السماوي: ٢/ ٨٢٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسراء، برقم: ٤٤٣١.
والعتاق: جمع عتيق والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيق، يريد تفضيل هذه السور لما تضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد: ما كان قديما من المال يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام لأنها مكية وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن والله أعلم. شعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ٣٧٦.

(٣) ذكره القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار: ٢٥٠، وعزاه إلى الوائلي، ثم ختمه بقول الوائلي «هذا حديث غريب شامي الطريق حسن».

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن: ١٣٣، من طريق أحمد بن يونس، عن فضيل بن عياض عن هشام، عن العطار، وذكره البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٥، وعزاه إلى أبي عبيد في فضائل القرآن، وذكر نحوه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢.

وهو الفاروق الذي كان إسلامه فتحا أيدالله به هذا الدين ففرق به بين الحق والباطل، فعز به المسلمون فرغب في الإسلام بسب ذلك من وفقه الله له، وذلك هو عين مقصودها»[1].

١١- ويكفي في بيان إعزاز الله المسلمين بإسلام عمر ﷺ أن المسلمين ما كانوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة حتى أسلم عمر ﷺ، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب، وقال أيضا: إن إسلام عمر كان فتحا وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى صلينا»[2].

١٢- وقال صهيب الرومي ﷺ: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به»[3].

١٣- وقال ابن عباس ﷺ: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا»[4].

ثالثا: زمان ومكان نزول السورة، وترتيبها بين السور، وعدد آياتها.

أ- زمان نزول السورة

نزلت هذه السورة قبل إسلام عمر ﷺ، وكان إسلامه في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشه، فعلى هذا تكون السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة[5].

---

(١) مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧٩.

(٢) ينظر: صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، برقم: ٣٦٥٠، الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٠٧، والمعجم الكبير: ٩/ ١٧٨، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.

(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.

(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

ب- مكان نزولها:

ذهب جمهور المفسرين إلى أنها كلها مكية[(١)]، وذكر السيوطي[(٢)] أنه استثني منها قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾. [طه: ١٣٠]

ثم رأى أن يستثني هو منها قوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ لحديث أبي رافع الذي أخرجه البزار وأبو يعلى[(٣)]،

---

(١) روي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ. ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥/ ٥٤٨، والشوكاني في فتح القدير: ٣/ ٣٥٤.
وينظر: جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٥، بحر العلوم، للسمرقندي: ٢/ ٣٨٩، تفسير الوجيز، للواحدي، ٢/ ٦٩١، تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني: ٣/ ٣١٨، معالم التنزيل، للبغوي: ٣/ ٢١١، الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥١، المحرر الوجيز، لابن عطية: ٤/ ٣٦، زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٢٦٨، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٣، الجواهر الحسان، للثعالبي: ٣/ ٢٣.

(٢) الإتقان: ١/ ٥٠، ونقله ابن عاشور عنه في تفسيره، إلا أنه لم يرتض قوله في الآية الثانية فقال: «وعندي أنه إن صح حديث أبي رافع فهو من اشتباه التلاوة بالنزول. فلعل النبي ﷺ قرأها متذكرا فظنها أبو رافع نازلة ساعتئذ ولم يكن سمعها قبل، أو أطلق النزول على التلاوة. ولهذا نظائر كثيرة في المرويات في أسباب النزول كما علمته غير مرة. التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٠. ومع هذا فإن الحديث ضعيف لأن مداره على موسى بن عبيدة بن نشيط بن عمرو بن الحارث الربذي «ضعيف». التقريب: ٥٥٢، برقم: ٦٩٨٩.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير: ١/ ٣٣١، برقم: ٩٨٩، من طريق الحسين بن إسحاق التستري عن عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع.
وأخرجه البزار في مسنده: ٩/ ٣١٥، برقم: ٣٨٦٣، من طريق عمرو بن علي عن أبي عاصم عن موسى بن عبيدة به. وأخرجه الروياني في مسنده: ١/ ٤٦٢، برقم: ٦٩٥، من طريق محمد بن بشار عن أبي عاصم به، و١/ ٤٧٢، من طريق سفيان بن وكيع عن أبيه، عن موسى بن عبيدة الربذي به.

والذي فيه أن أبا رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفا فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض». فلم أخرج من عنده حتى نزلت ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه:١٣١]

ج- ترتيبها بين السور من حيث النزول، ومن حيث موضعها في المصحف.

نزلت هذه السورة بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة، وترتيبها في المصحف بعد مريم وقبل الأنبياء، وهي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب نزول السور، والسورة العشرون في ترتيب المصحف[1].

د - عدد آياتها: اختلف في عدد آياتها على أقوال:

١- ذهب أهل البصرة إلى أن عددها مائة واثنتون وثلاثون[2].

٢- ذهب أهل المدينة ومكة إلى أن عدد آياتها مائة وأربع وثلاثون آية[3].

٣- ذهب أهل الكوفة إلى أن عددها مائة وخمس وثلاثون[4].

(١) ينظر التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٠.

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٣) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، وتفسير البيضاوي: ٤/ ٣٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٥، الكشف والبيان، للثعلبي: ٦/ ٢٣٦، تفسير الوجيز، للواحدي: ٢/ ٦٩١، والكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥١، التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٣، وجمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٣/ ٤٨، مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

٤- ذهب أهل الشام إلى أن عددها مائة وأربعون[(١)] .

خامسا : المحور الذي تدور عليه السورة

إن المحور العام الذي تدور عليه السورة ويجمع بين موضوعاتها: هو **رعاية الله للمختارين لحمل الدعوة من الرسل وأتباعهم**[(٢)] ، والرفق بالمدعوين، والعناية بهم[(٣)] .

وإن المتتبع لهذه السورة يجد في ثناياها عبارات وإشارات تبين مدى عناية الله تعالى بالرسل وأتباعهم من المؤمنين، وبالمدعوين من غير المؤمنين أيضاً.

فأما الرسل فإن الله تعالى اعتنى بهم أكبر عناية حيث رباهم فأحسن تربيتهم، وأدبهم فأحسن تأديبهم، وصنعهم على عينه، فهم صفوته من خلقه ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾[الحج:٧٥] خصهم بحمل رسالاته على علم منه سبحانه أنهم لذلك أهلا ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[الأنعام: ١٢٤]، وتتابعت عنايته سبحانه بهم فأيدهم بالمعجزات الباهرة تصديقا لهم، وحفظهم من بطش أعدائهم، وعصمهم منهم﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[المائدة: ٦٧] وثبتهم على الحق حتى مكنهم من تبليغ رسالات ربهم، ثم أنهى مواجهتهم مع أقوامهم بالنصر على أعدائهم، والتمكين لدعوتهم، والخذلان لأعدائهم. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١]. ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٢) أشار سيد قطب رحمه الله تعالى إلى هذا المحور، واعتبر قصة موسى ﷺ نموذجا لذلك. ينظر: في ظلال القرآن:٤/ ٢٣٢٧، ٢٣٢٩.

(٣) يقول البقاعي: «ومقصودها: إعلام الداعي صلى الله عليه وآله وسلم بإمهال المدعوين، والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في شرفه صلى الله عليه وآله وسلم». مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧١، نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٥٥.

نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[يونس:١٠٣].

وأما المدعوون فإن الله تعالى قد أولاهم عنايته أيضا، حيث بعث إليهم رسله ليذكروهم ويعظوهم، ويبشرونهم وينذرونهم، لئلا تكون لهم حجة على الله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[النساء:١٦٥] وأمر أنبياءه باستعمال اللين والرفق في دعوتهم استمالة لقلوبهم، وحرصا على استجابتهم﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[النحل:١٢٥] وهنا في طه: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾، وشرع لهم ما يصلحهم في أولاهم وأخراهم، وأغدق عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل:١٨].

وهذه السورة لا يكاد يخلو مقطع من مقاطعها من إشارة إلى هذه العناية وتلك الرعاية، وسأذكر في نهاية كل مقطع العلاقة بين المقطع وهذا المحور التي تدور عليه السورة أثناء التعرض إلى تفسيرها إن شاء الله تعالى.

سادسا: المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هذه السورة اسمها «طه» وهو الاسم التوقيفي الذي جاء في الأحاديث والآثار، وبيان ارتباطه بمحور السور ينظر إليه من وجهين:

الأول: أنهما حرفان من الأحرف المقطعة التي لا يعلم معناها.

الثاني: **أنهما حرفان لهما معنى في استعمال العرب إذ يراد بهما «يارجل»، أو «يا حبيبي».**

فأما على الوجه الأول: فإن جمهور المفسرين يرون أن الحكمة من ورود الحروف المقطعة في أوائل بعض السور هو الدلالة على إعجاز القرآن، وعليه يمكننا القول بأن هذه التسمية في هذه السورة لها علاقة بمحورها، فقد تضمنت السورة جوانب متعددة من العناية بالرسل والمدعوين

بطريق التصريح أو التلميح، كما تكرر التنويه فيها بالقرآن، وتكرر فيها الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون في بيانها ومضمونها جزء من هذا القرآن المعجز إلى أنواع أخرى من الإعجاز القرآني التي يظهرها الله للبشر متى شاء وكيف شاء عبر القرون والأزمان.

وأما على الوجه الثاني: فإن العلاقة بينة جلية بين اسم السورة ومحورها الذي هو العناية بالدعاة والمدعوين؛ ذلك أن «طه» أول كلمة ابتدئت بها السورة وهي تعني خطابا لطيفا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ معناها في لسان العرب «يارجل» أو «ياحبيبي»، لتكون تمهيداً لما سيعقبها من ظلال اللطف والعناية في ثنايا آيات السورة سواء فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه[1]، أو فيما يحكيه له ربه من قصص الأنبياء التي تضمنت العناية بالرسل والمدعوين، أو فيما تخلل السورة من بيان رحمة الله تعالى بالبشر حيث أنزل إليهم منهجا من عنده، من تمسك به سعد ومن أعرض عنه خاب وخسر.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في آخر السورة أن يقول للمشركين قولا خاتما بعد الإنذار والإعذار، فقال له: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ «ولقد علموا يقينا ذلك يوم فتح مكة المشرفة، واشتد اغتباطهم بالإسلام، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم، ورهبة من السيف والنقم، وكانوا بعد ذلك يعجبون من توقفهم عنه، ونفرتهم منه، وهذا معناه أنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه هم السعداء الأغنياء الراضون في الدنيا والآخرة، وهو عين قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ فقد انطبق الآخر على الأول، ودل على أن العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل، والله أعلم»[2].

كما أن خاتمتها تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ هذا القرآن وذكر به فلما

(١) وقد سبق التنبيه على كثرة الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الكلام على علاقة الاسم بالسورة.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٧٧.

لم يكونوا من أهل الخشية تركهم وضلالهم، يقول ابن عاشور: «ومن محاسنها: أن فيها شبيه رد العجز على الصدر لأنها تنظر إلى فاتحة السورة، وهي قوله ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾، لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنه أدى الرسالة والتذكرة فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتى يتبين لهم أنه الحق»[1].

ويقول سيد قطب: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ «بذلك تختم السورة التي بدأت بنفي الشقاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تنزيل القرآن وحددت وظيفة القرآن ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق، فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة، وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله»[2].

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة السورة التي قبلها.

يقول البقاعي: «لما ختم الله تعالى سورة مريم بالإخبار عن إهلاك القرون وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللدّ[3] ولم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك كان ربما أفهم أنه انقضت مدتهم، وحل بوارهم، وأتى دمارهم، وأنه لا يؤمن منهم أحد -لما هم فيه من اللدد- إلا من قد آمن فحصل بذلك من الغم والحزن ما لا يعلم قدره إلا الله لأن الأمر كان في ابتدائه، ولم يسلم منهم إلا نفر يسير جدا فسكّن سبحانه الروع بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ بتعب قلبك بكونك من أقل المرسلين تابعا بعد استئصال قومك وشقائهم بإنذارك»[4].

وأرى من تمام الفائدة أن تذكر مناسبة خاتمة هذه السورة لمطلع سورة الأنبياء بعدها،

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٩٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٥٨.

(٣) قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾ (مريم:٩٨).

(٤) نظم الدرر: ١٢/ ٢٦٦، ٢٧٤.

وهي على ما ذكره السيوطي «أنه سبحانه لما قال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾ وقال قبله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ قال في مطلع هذه: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] إشارة إلى قرب الأجل ودنو الأمل المنتظر، وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه الحياة الدنيا لدنوها من الزوال والفناء"[١].

٤- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع، إن شاء الله تعالى.

٥- المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

سيأتي الحديث عنها في بداية كل مقطع، إن شاء الله تعالى.

٦- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

يقول السيوطي: «لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء وهم: زكريا ويحيى وعيسى، والثلاثة مبسوطة، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة مجملة وأشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالا ذكر في هذه السورة شرح قصة موسى التي أجملها فاستوعبها غاية الاستيعاب، وبسطها أبلغ بسط، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم الذي وقع في «مريم» مجرد ذكر اسمه.... فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، وبديع هذا الترتيب»[٢].

ونقل البقاعي عن ابن الزبير قوله في كتابه البرهان: «لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام

(١) أسرار ترتيب القرآن: ١١٠. وجاء عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاءه الرجل فقال إني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واديا ما في العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾.

(٢) تناسق الدرر، للسيوطي: ٩٤-٩٥.

وما منحه وأعطاه، وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به وأعقب ذلك بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾[مريم: ٥٨]. وكان ظاهر الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العلية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه الله تعالى بملاطفة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [1].

المبحث الثاني: تمهيد بين يدي التفسير

أرى من المناسب قبل الشروع في تفسير مقاطع هذه السورة أن أقدم بين يدي التفسير تمهيدا عن ملامح المجتمع في الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة، من خلال قراءة لبعض أحداثها، ثم أختمه ببيان الأهداف التي ترمي إليها السورة من خلال قراءة عامة لموضوعاتها حتى يتبين للقارئ الأمور التي عالجتها السورة في هذه المرحلة من النزول.

ملامح المجتمع في الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة:

نزلت هذه السورة في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة، وقد جاء أن قراءة عمر لمطلعها كانت سببا في إسلامه، وهي الفترة التي جهر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى الله تعالى [2]، استجابة لأمر الله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[الشعراء:٢١٤]، ولقوله ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[الحجر:٩٤] وكان ذلك في السنة الثالثة.

نزلت السورة والمسلمون في عناء شديد من أذى الكفار، خاصة بعد إعلانهم الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٧٣-٢٧٤، والآية من سورة طه:٢.

(٢) ومع أنه صلى الله عليه وآله وسلم جهر بالدعوة إلى الله تعالى إلا أن المسلمين لم يزالوا يتخفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم حرصا على أن يكون التنظيم سريا.

كما أن السورة مكية تتسم بطابع القرآن المكي الذي يعنى بتصحيح العقيدة المنحرفة، ويفصل في ذكر البلاء والابتلاء، ويأمر بالصبر عليه.

وبالرجوع إلى السورة في قراءة متأنية يمكن أن نلمح من خلالها ملامح المجتمع في وقت نزولها، ويمكن إجمال ذلك في الملامح التالية:

أولا: ملامح تتعلق بالاعتقاد، ودلالات السورة عليها.

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وقت بلغ الكفار فيه المنتهى في الكفر والإشراك، فقد شاع فيهم عبادة الأصنام والتقرب إليها، واعتقاد نفعها وضرها، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها شافعة لهم عند الله، وهم مع - توغلهم في الإشراك، وتعظيم الآلهة- إلا أن فطرتهم أبت عليهم إنكار الربوبية، فهم يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم[(١)] وخالق السموات والأرض[(٢)].

ومن عقيدة المشركين المتأصلة في نفوسهم إنكار ما يتعلق باليوم الآخر، من قيام الساعة والبعث، والحشر، والحساب حتى بلغ من أمرهم أنهم زعموا بأنهم لن يبعثوا[(٣)]، واستبعدوا وقوعه[(٤)] بل أقسموا على نفيه[(٥)].

ولم يقف بهم الأمر إلى هذا الحد بل تجرأوا على الله تعالى فافتروا عليه الكذب بتحليل ما

---

(١) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. الزخرف:٨٧.

(٢) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١.

(٣) ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ﴾ (التغابن: من الآية٧) .

(٤) ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ (قٓ:٣) .

(٥) ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(النحل:٣٨) .

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن: من الآية٧) .

حرم وتحريم ما أحل، فأحلوا ما لم يحله الله وحرموا ما لم يحرمه الله[1].

ونزلت سورة «طه» **لترسيخ مبادئ العقيدة في الله تعالى؛** من توحيد الله تعالى، وتنزيهه عما لا يليق به، وإثبات العبودية له من خلال ما أوحى الله به تعالى من قصة موسى ﷺ، فكان التوحيد أول الأسس التي أوحى الله بها إلى موسى ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾، وبه ختم موسى حواره مع عبدة العجل، والسامري لما قال لهم: {إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو}.

ووصف الله تعالى نفسه بصفات الكمال والجمال، ووصف أسماءه بأنها الأسماء الحسنى بقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ وهذا بيّن في مجموعة من الآيات الصريحة في السورة.

وأما الربوبية فقد جاء التأكيد عليها في السورة، حيث تكرر ذكر لفظ «الرب» ٢٧ مرة[2] عدا ما جاء في السورة من معاني الربوبية، وهذا -وإن كان المشركون لا ينكرونها- إلا أن التركيز على إثباتها إنما كان لأجل الاحتجاج عليهم؛ إذ كيف يقرون بربوبيته ثم يتركون عبادته وهو سبحانه المتصف بصفات الربوبية، فكانت هذه دعوة لهم إلى إفراد الله سبحانه بالعبادة، بعد أن أقروا له بالربوبية.

وهذا واضح فيما حكاه الله تعالى في حوار موسى مع فرعون لإثبات الربوبية لله تعالى وما حشده موسى من الأدلة على ذلك، لإقناع رجل قد تجاوز حد الانكار إلى ادعاء الربوبية لنفسه[3]، بل والألوهية أيضا[4].

---

(١) ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾. الأنعام:١٣٨.
﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (الأنعام:١٤٠).

(٢) الآيات: (١٢، ٢٥، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨٤، ٨٦، ٩٠، ١٠٥، ١١٤، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤).

(٣) ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾. النازعات:٢٤.

(٤) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾. القصص: من الآية٣٨.

هذا بالإضافة إلى ما في السورة من بيان معاني الربوبية كالرحمة بالخلق، وخلق السموات والأرض، ومنن الله تعالى على موسى، وتمهيد الأرض، وإنزال المطر من السماء، والإحياء والإماتة والبعث، ونصر المؤمنين، وتأييدهم، والمغفرة لهم، وإهلاك أعدائهم، ونسف الجبال، ونحو ذلك مما يشهد أنها ليست في مقدور أحد من الخلق.

واعتنت السورة عناية كبيرة بتقرير قيام الساعة[1]، والبعث[2]، والحشر[3] والحساب[4]، والجنة[5]، والنار[6]، وهو ما أصر على إنكاره المشركون في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيا: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسالة ودلالات السورة عليها:

اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لحمل القرآن وأمره بتبليغه للناس، فما كان من المشركين تجاه هذا الكتاب إلا الإنكار والمواجهة، والتعنت، فطلبوا الآيات الحسية، وجعلوها شرطا لإيمانهم، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾[7] [الإسراء:

---

(١) ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

(٢) ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

(٣) ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

(٤) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

(٥) ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

(٦) ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

(٧) الاسراء:٩٠.

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (الاسراء:٩٣).

٩٠]، تعجيزا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[العنكبوت:٥٠]، **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[العنكبوت:٥١]، **وهنا في هذه السورة يقول الله تعالى:** ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾، **واستعانوا باليهود للإتيان بأسئلة تعجيزية**(١).

ومن الشواهد على ذلك أن رسول الله **صلى الله عليه وآله وسلم كان** إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به **فأنزل** الله ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾(٢).

وكان بعضهم يحث بعضا على ترك الاستماع إلى القرآن الكريم، بل يدعون إلى التشويش عليه حتى لا يسمع(٣).

وفي محاولة يائسة لإيهام الناس بأن القرآن من كلام البشر، بعد وضوح إعجازه قال الوليد بن المغيرة إرضاء لقومه: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[المدثر:٢٥] بل نفى المشركون أن يكون الله قد أنزل شيئاً على رسله فحكى الله مقالتهم موبخاً لهم بقوله:﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنعام:٩١]، وأعرض المشركون عن الذكر واتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر، والافتراء.

ونزلت سورة «طه» في هذا الجو لتعالج الانحراف من خلال حكاية قصة إيمان السحرة

---

(١) فأشار اليهود عليهم بسؤالهم إياه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح.

(٢) صحيح البخاري، برقم: ٤٤٤٥، ولباب النقول، للسيوطي: ١/ ١٤٢.

(٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾. فصلت:٢٦.

إثر معجزة موسى الحسية بعد أن كانوا مستشعرين الثقة بالنصر، والغلبة على موسى، حتى كان من فرط ثقتهم أن أقسموا إنهم لهم الغالبون، ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤]،

وفي السورة تتجلى أثر المعجزة القرآنية غير الحسية حيث كان مطلعها سببا في إسلام عمر رضي الله عنه بعد أن كاد أن يكون ميؤساً منه.

وفي قصة موسى أيضاً: بيان إعراض فرعون وملأه عن الإيمان بما جاء به موسى من البينات، وتكذيب فرعون بآية موسى (١)، واتهامه بالسحر (٢)، وهو نفسه ما وقع من الكفار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعرضوا عن رسالته، واتهموه بالسحر، وكذبوه.

- ويبرز في السورة الاعتناء بمعجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأبانت الآيات أن القرآن منزل من عند الله تعالى الذي خلق السموات والأرض، وأنه تعالى قد صرف فيه من الوعيد، وأن متبعه ينال سعادة الدارين بعيداً عن الشقاء، وأن المعرض عنه هو الذي له المعيشة الضنك، وهو وحده الحامل لوزره يوم القيامة (٣).

ثالثا: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودلالات السورة عليها.

قست قلوب المشركين فقسوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يدعوا أسلوبا أو طريقة إلا سلكوها في إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجمعوا له بين الإيذاء النفسي

---

(١) ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(٢) ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾.

(٣) ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

والمعنوي والجسدي، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصا أشد الحرص، على إيمانهم وإنقاذهم، ويمكن إجمال ذلك في **المظاهر التالية:**

* السخرية والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، والضحك منهم والغمز واللمز[1].

* الإشاعة في الناس أنه إنما أنزل عليه القرآن ليشقى، وأنه كان سببا في شقائه.

* لقي من أبي جهل إيذاء وشتما إلا أنه لم يصل إليه الإيذاء بيده لمنع الله تعالى له منه ومن كل الناس[2].

* اتهموه باتهامات باطلة لصد الناس عنه، فاتهموه بالجنون[3]، والسحر، والكذب[4] والاتيان بالأساطير[5]، ونفوا أن يكون القرآن من الله تعالى[6]، واتهموا المؤمنين بالضلالة[7].

* هم أبو جهل أن يطأ رقبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي عند الكعبة فمنعه الله بملائكته[8].

* يغشاهم رسول الله في أسواقهم، وهو ينادي (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وأبو

---

(١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المطففين:٢٩-٣٠.

(٢) ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾. المائدة:٦٧.

(٣) ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ القلم: من الآية ٥١.

(٤) ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾. ص:٤.

(٥) ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾. الفرقان:٥.

(٦) ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾. النحل:١٠.

(٧) ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾. المطففين:٣٢.

(٨) قال صلى الله عليه وآله وسلم «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا». رواه مسلم في الصحيح، باب قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾، برقم: ٢٧٩٧.

جهل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبه وهو يقول «يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب»[(١)] . وهم ينهون الناس عنه، وأبو جهل خلفه يسفي عليه التراب.

* خنقه عقبة بن أبي معيط بردائه وهو يصلي، فدفعه عنه أبوبكر الصديق، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[(*)].

* ألقى المشركون على ظهره الشريف سلى بعير[(٢)] ، فأماطته ابنته فاطمة رضي الله عنها عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك، ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصرعوا يوم بدر.

* اجتمعت كلمة كفار قريش على النيل من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فطلبت إلى أبي طالب أن يخلي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو يأمره بالكف عن سب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، أو ينازلوه وإياه في ذلك، وكثرت مراجعتهم له في ذلك، ولكنه أبى عليهم ذلك، لعلمه بصدقه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مما قاله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم «اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا»[(٣)] .

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختاره: ٨/ ١٢٨، وقال: إسناده صحيح.

(*) صحيح البخاري (٣٦٧٨).

(٢) اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية المشيمة.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي(السيرة النبوية): ١٥٠.

وقال أبو طالب في ذلك شعرا:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم		حتى أوسد في التراب دفينا
فامض لأمرك ما عليك غضاضة		أبشر وقرّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي		فلقد صدقت وكنت قدما أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه		من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة		لوجدتني سمحا بذاك مبينا

* شق عتيبة بن أبي لهب قميصه وتفل في وجهه إلا أنه لم يقع البزاق عليه فدعى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسلط عليه كلبا فذبحه السبع وهو في الزرقاء في الشام.

* آذاه أهل الطائف، وسخروا منه، وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم.

ونزلت سورة «طه» **لتعبر تصريحا وتلميحا عما لقيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الآيات التي فيها التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأمر بالصبر**، فنفى الله في افتتاحيتها أن يكون تنزيل القرآن عليه شقاء، وإنما هو تذكرة لمن يخشى، وهي دعوة لهم للتذكر والخشية، كما تضمن إشعاره صلى الله عليه وآله وسلم بالأنس- في غمرة أهل الشرك- لأن الله تعالى معه بعلمه إذ يعلم الجهر والسر، بل يعلم ما هو أخفى من السر.

وفي حكاية الله تعالى لنبيه قصة موسى تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الفترة العصيبة التي اشتد فيها أذى الكفار بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه، وهم مع ذلك منعوا من القتال، بل أمروا بالكف والصبر والعفو، واتهموه بالسحر، وهو عين الاتهام لموسى، وتضمنت قصة موسى عليه السلام صوراً من بطش فرعون ببني إسرائيل واستعبادهم، مع عدم تكليفهم بقتال فرعون، ثم بيان ما آل إليه أمرهم – بعد ذلك- من النصر والنجاة من فرعون، وهزيمة فرعون، ثم غرقه، وأوضحت السورة أن موسى عليه السلام لم يكن ساحراً، وذلك من خلال وضوح معجزته التي ألقت السحرة سجداً، وجاء في القصة حكاية حال السحرة، وأن الساحر لا يفلح أبداً.

وفي السورة تهديد للمشركين المكذبين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم المفهوم من قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ إشارة إلى سوء عاقبة الكفار ذلك أنهم أسرفوا في الكفر وأوغلوا في الشرك، وإن لهم في قصص من قبلهم لعبرة، كما أن بذكر القرون الأولى إعذار لهم[(١)] .

(١) ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

رابعا: ملامح تتعلق بموقف المشركين من المؤمنين ودلالات السورة عليها

ولئن اشتد الأذى بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإن المسلمين قد نالهم أيضا من الأذى الجسدي والمعنوي والاقتصادي عناءً كثيراً، ويمكننا معرفة ذلك من خلال المظاهر التالية:

* كان الصحابة في خوف من قريش فإذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم.
* فر المسلمون بدينهم إلى أرض يتمكنون فيها من العبادة، حين اشتد إيذاء قريش لهم، بعد أن أعلنوا إسلامهم وجهروا بالدعوة إلى الله تعالى، فتركوا أوطانهم، ولم يستطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمنعهم.
* قام أبوبكر خطيباً في المسجد الحرام فضربه المشركون ضرباً شديداً.
* ضرب عبدالله بن مسعود ﷺ لما جهر بالقرآن، وكان أول من جهر بالقرآن من الصحابة.
* اعتدي على عمر لما أسلم حتى كاد يقتل.
* أوذي عثمان بن مظعون، وكان من ذلك أن ضربه رجل من كفار قريش على عينه فخضّرها.
* ضرب أبو ذر الغفاري لما جاء إلى مكة يسأل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أغشي عليه.
* عذبت قريش الموالي فألبسوهم الحديد وصهروهم في الشمس.
* كانوا يجرون في بطحاء مكة في اليوم الشديد الحر.
* كان آل ياسر يعذبون أشد العذاب.
* أعلنت قريش المقاطعة العامة، لبني هاشم، فتعاهدت قريش وكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على ألا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، فأصابهم الجهد

حتى أكلوا الخبط[(١)]، وورق السمر، وكان أبو طالب قد جمع بني هاشم وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعبهم ويمنعونه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعلة حمية، ومنهم من فعله إيماناً.

ونزلت سورة «طه» بدلالات وإشارات فيها تثبيت للمسلمين على الدين، ومن ذلك ما يلي:

* أمر الله تعالى بإقامة الصلاة في هذه السورة[(٢)] في الوقت الذي كان المسلمون يستخفون بها في الشعاب.

* حكى الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما يشير إلى خروجه إلى مدين، ثم رجوعه إلى وطنه بعد هجرته فراراً من بطش فرعون، ثم هجرته بعد ذلك مع بني إسرائيل فراراً بدينهم، وما أعقبه من نجاتهم من بطشه وجبروته وإهلاك عدوهم، وكأن في ذلك إيماء إلى هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وهجرة الصحابة قبله إلى الحبشة، ثم هجرتهم -من بعد- معه إلى المدينة.

* حكى الله تعالى خبر تعذيب فرعون لبني إسرائيل[(٣)] ونجاتهم بالخروج من مصر، في الوقت الذي كان المسلمون يعذبون بمكة، وكأن في ذلك إيماء إلى أن عاقبتهم ستؤول إلى النجاة، وعاقبة معذبيهم إلى الهلاك.

* في السورة تسلية للمؤمنين، وتثبيتا لهم، وإنذار ووعيد للمشركين، من خلال ما تخلل السورة من الترغيب والترهيب[(٤)]، وبيان عاقبة المجرمين[(٥)]، وإيضاح حال المؤمنين من السحرة الذين ثبتوا على إيمانهم غير آبهين بتوعد فرعون الشديد.

---

(١) الخبط: ورق العضاه يضرب بالعصي ليتناثر فتعلفه الإبل. غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام: ٢/ ٢٣٥.

(٢) ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾.

(٣) ﴿ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ ﴾.

(٤) ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾.

(٥) ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾.

أهداف السورة الأساسية

إن ما سبق من عرض ملامح المجتمع في وقت نزول السورة، وما سيأتي من بيان أهدافها يعطي الصورة الإجمالية لما سيقف عليه القارئ في ثنايا السورة من موضوعات قبل أن يدخل في مفرداتها، وإليك بيان أهم أهداف هذه السورة:

* إبراز عناية الله بالرسل وأتباعهم، والرفق بالمدعوين، وهذا الهدف قد تميزت به السورة عن كثير من السور المكية، مما دعانا إلى جعله المحور الذي تدور حوله السورة، وسيأتي في ثنايا مقاطع هذه السورة بيان العلاقة بين محورها ومقاطعها إن شاء الله تعالى.
* إثبات رسالة محمد ﷺ، وتأييده بالمعجزات، وأنها رسالة تماثل رسالة أعظم رسول قبله، شاع ذكره في الناس «موسى عليه السلام».
* التعريض - بما قصه الله من شأن موسى - بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه.
* الدعوة إلى استعمال اللين في الدعوة إلى الله تعالى مهما بلغ عتو المدعوين وعنادهم.
* تعميق معنى التوكل على الله، مع اتخاذ الأسباب، والثقة به، واستشعار معيته.
* الدعوة إلى الاهتمام بالصلاة وتخصيصها بالعناية من بين العبادات الأخرى.
* بيان عاقبة الأقوام المكذبين للمرسلين قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
* تسلية النبي ﷺ، وتثبيته على الدين، تسلية المؤمنين وتبشيرهم بحسن عاقبة المواجهة بين الرسل وأقوامهم.
* بيان أهمية الالتزام بالهدي الإلهي في تحقيق السعادة في الدارين.
* التنويه بشأن المسلمين، بأنهم من أهل الخشية لما تذكروا بالقرآن.
* بيان أهمية التذكير والوعظ بالقرآن في الدعوة إلى الله تعالى.

* بيان وظيفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدود تكاليفه.
* بيان ضرورة طلب العون من الله تعالى في أداء التكاليف.
* بيان أهمية الوفاء بعهد الله تعالى والتحذير من عاقبة نكثه.
* تهويل يوم القيامة ببيان ما يتقدمه من الحوادث والأهوال.
* التنبيه على خطورة الفتنة في الدين، والتحذير منها.
* تقرير قضية توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته.
* بيان أهمية التأدب مع الله تعالى، ومع مقدساته.
* بيان إعذار الله إلى الخلق بإرسال الرسل.
* بيان أثر الترهيب والترغيب في المدعوين.
* الدعوة إلى اتباع هدي الله سبحانه.
* ترسيخ الإيمان باليوم الآخر.
* التنويه بعظمة الله تعالى.
* التنويه بشأن القرآن.
* إثبات البعث.

وبعد هذا العرض الإجمالي لأهداف السورة، وبيان ملامح المجتمع في وقت نزولها، يمكننا الشروع في تفسير السورة تفسيراً موضوعياً، وقد رأيت أن أقسم السورة إلى افتتاحية وخاتمة وبينهما خمسة دروس لكل منها عنوان يعبر عن مضمونه.

الافتتاحية

- يقول الله تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى الإجمالي للافتتاحية:

افتتحت هذه السورة بحرفين من حروف الهجاء أعقبهما ذكر القرآن الكريم كما هو الشأن في السور التي بدئت بحروف الهجاء، وذلك بياناً لإعجاز القرآن، وإثباتا بأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها [(١)]، غير أن الإمام الطبري رجح بأن حرفي هذه السورة ليسا من الحروف المقطعة المجهولة المعنى وإنما هما حرفان لهما معنى في لغة العرب، إذ يعنيان في لغة عك «يا رجل» [(٢)]، أو «يا حبيبي» وهو ما روي عن

(١) وهو ما رجحه الشنقيطي واستدل عليه بالاستقراء بأن كل السور المبدوءة بحروف الهجاء يأتي بعدها ذكر القرآن أو الاحتجاج له. ينظر كتابه أضواء البيان: ٢/ ١٦٦-١٧٧، عند تفسير مطلع سورة هود.

(٢) وقيل: هي كذلك باللغة السريانية، أو النبطية، أو الحبشية، أو العبرانية، وقد روي نحو ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى وغيرهم. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٥-١٣٦، وتفسير ابن كثير:٣/ ١٤٢، وأضواء البيان:٤/ ٣، والكشف والبيان: ٦/ ٢٣٦، روح المعاني، للألوسي:١٦/ ١٤٨ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٥.
وقال القرطبي: «والصحيح أنها وإن وجدت في لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا وأنها لغة يمانية في عك وطيء وعكل أيضا». الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ١٦٦.
وقال الشوكاني: «ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل» فتح القدير: ٣/ ٣٥٥.
وقال أيضا: «وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة، وهكذا إذا كانت لهذا=

عبدالله بن عمرو أنها كذلك بلغة عك[(١)].

لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قومه العنت والمشقة بسبب إعراضهم عما جاء به من الذكر، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً أشد الحرص على إسلامهم، فكان يتحسر ويأسف عليهم أنهم لم يتبعوا الحق الذي جاء به، وكان مما لقيه منهم أن قال بعضهم: إنك شقي حين تركت دين آبائك وأن القرآن نزل عليك لتشقى، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾[(٢)] ملاطفة للنبي ﷺ وتسلية بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك بفرط التأسف عليهم وعلى كفرهم، والتحسر على أن يؤمنوا، وهو القائل له:﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[فاطر: ٨]، وبهذا يكون الله

= المعنى في لغة من لغات العجم واستعملها العرب في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب». فتح القدير: ٣/ ٣٥٦.

وقال ابن الأنباري: إن لغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا لأن الله تعالى لم يخاطب نبيه (ﷺ) بلسان غير لسان قريش. ذكره الألوسي في روح المعاني:١٦/ ١٤٨، ورجحه، وقيل: إنها معربة. ذكره ابن كثير عن أبي صالح. تفسيره:٣/ ١٤٢.

(١) ذكره الشنقيطي في أضواء البيان:٤/ ٣، وعزاه إلى الغزنوي.
وجاء في معنى هذين الحرفين أقوال أخرى ضعيفه. ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي: ٢/ ٣٨٩، والكشف والبيان، للثعلبي: ٦/ ٢٣٦-٢٣٧، ومعالم التنزيل، للبغوي: ٣/ ٢١١،، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٢٦٩-٢٥٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٥٦، وأضواء البيان: ٤/ ٤، وقد نبه الرازي على ترك الاعتماد عليها. التفسير الكبير: ٢٢/ ٤، وضعفها الشنقيطي، ووصف بعضها بالتعسف والبعد عن الظاهر. أضواء البيان:٤/ ٤.

(٢) وجاء أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورّمتْ قدماه، فأنزل الله ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة. فنكلفك ما لا طاقة لك له من العمل. ينظر: جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٧، وتفسير أبي السعود: ٦/ ٣، ولباب النقول، للسيوطي: ١/ ١٤٦، وأضواء البيان، للشنقيطي:٤/ ٤.

تعالى قد نفى عن نبيه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب سعادته [(١)].

ثم بين الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة لمن من شأنه أن يخشى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه، أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف، وأن مهمته صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي التذكير والبلاغ، وقد بين الله في آيات أخرى ما يؤكد بأنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا مذكراً بالقرآن، وأن ذلك هو غاية ما كلف به، وأنه لم يرسل جباراً يجبر الناس على الإيمان، قال سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، وقال:﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق:٤٥].

ثم ذكر الله تعالى أن هذا القرآن إنما نزل ممن [(٢)] خلق الأرض والسموات العلى [(٣)]، تنويها بعظمته، فإنه لما كان منزل القرآن بهذه العظمة، لا جرم أن القرآن شيئا عظيما [(٤)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٠، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦. وقال ابن عاشور: «ووقوع فعل (أنزلنا) في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله. لأن الفعل في سياق النفي بمنزلة النكرة في سياقه. وعموم الفعل يستلزم عموم متعلقاته من مفعول ومجرور، فيعم نفي جميع كل إنزال للقرآن فيه شقاء له، ونفي كل شقاء يتعلق بذلك الإنزال، أي جميع أنواع الشقاء فلا يكون إنزال القرآن سببا في شيء من الشقاء للرسول ﷺ».

(٢) يقول ابن عاشور: «والعدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من تحتم إفراده بالعبادة، لأنه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم مما هو أعظم منهم خلقا». التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٦.

ويقول البيضاوي: «والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه». تفسير البيضاوي: ٤/ ٤١.

(٣) وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها. الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٣، والتفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥-٦.

(٤) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥، تفسير أبي السعود: ٦/ ٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

ثم شرع سبحانه بالتعريف بنفسه بذكر بعض أسمائه وصفاته الدالة على سعة رحمته وعظمة ملكه، وإحاطة علمه فأثبت لنفسه الاستواء على عرشه، ودقة علمه بحيث لا يخفى عليه شيء بل هو يعلم السر وأخفى.

ولْيُعلم بأن الأصل فيما وصف الله نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم «أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ـ ﷺ ـ نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل... فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات: إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل"[1] .

---

(١) والفرق بين التمثيل والتكييف: أن **التمثيل**: ذكر كيفية الصفة مقيدة بمماثل، ومثاله: أن يقول قائل: يد الله كيد الإنسان. قال سبحانه:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(الشورى: من الآية١١)
والتكييف: ذكر كيفية الصفة غير مقيدة بمماثل، ومثاله: أن يتخيل ليد الله كيفية معينة لا مثيل لها في أيدي المخلوقين فلا يجوز هذا التخيل، وهذا لا يمكن للبشر لأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه، لأن الصفة تابعة للذات، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها. ولهذا لما سئل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ فقيل له:﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ كيف استوى فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وهذا يقال في سائر الصفات. شرح لمعة الاعتقاد، لمحمد بن صالح العثيمين:٧.
والتحريف: نوعان:
النوع الأول: تحريف اللفظ وهو العدول به عن جهته إلى غيرها إما بزيادة كلمة أو حرف أو نقصانه، أو تغيير حركة كقول أهل الضلال في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ أي: استولى، فزادوا في الآية حرفًا. وكقولهم في قوله تعالى:﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي: أمر ربك، فزادوا كلمة. وكقولهم في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ بنصب لفظ الجلالة فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب.
النوع الثاني: تحريف المعنى، وهو العدول به عن وجهه وحقيقته وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر كقول المبتدعة: إن معنى الرحمة: إرادة الإنعام. وإن معنى الغضب إرادة الانتقام.
والتعطيل: المراد به هنا نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى. =

وعليه فيجب الإيمان بأنه سبحانه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله على كيفية «لا نعقلها بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نتعمق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً"[(١)] ، وقد قال الإمام أحمد: «نحن نؤمن بأن الله تعالى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد"[(٢)] .

ثم أتبع الله تعالى بيانه لصفاته ببيانه بأنه مالك لما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى لا يشاركه في ملكه أحد، وهو مدبر ذلك كله ومصرف جميعه[(٣)] ، وبأن علمه محيط بجميع ما ملك سبحانه، يعلم ما أعلنوه من القول، وما أسروه لغيرهم أو في أنفسهم، وما هو أخفى من السر مما علم الله وأخفاه عن العباد ولم يعلموه مما هو كائن ولم يظهره لأحد، فهو مما

= والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التحريف هو نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص واستبداله بمعنى آخر غير صحيح.

والتعطيل: هو نفي المعنى الصحيح من غير استبدال له بمعنى آخر، كفعل المفوضة. فكل محرف معطل وليس كل معطل محرفًا.

(١) كتاب العلو، للذهبي: ١٠٤.، ونص على أنه قول أهل السنة قاطبة.

(٢) نقله القاسمي في محاسن التأويل: ٧/ ١٠٤، ١٠٥.

وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ومكحول ومالك، وإسحاق وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: أمروها كما جاءت بلا كيف. التمهيد، لابن عبدالبر: ٧/ ١٤٩، فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٤٠٧.

(٣) « وتقديم المجرور في قوله (له ما في السماوات) للقصر، ردا على زعم المشركين أن لآلهتهم تصرفات في الأرض، وأن للجن اطلاعا على الغيب، ولتقرير الرد ذكرت أنحاء الكائنات، وهي السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٨.

لا يعلمه إلا الله[(١)]. وكان ذلك بطريق الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم[(٢)] لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن، ويواجه الكافرين بلا سند[(٣)].

وهذا الذي هذه صفته هو الذي أنزل القرآن، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦].

ثم يختتم مطلع السورة بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه سبحانه وأن من اتصف بتلك الصفات الجليلة الذي له الأسماء الحسنى[(٤)] هو المستحق للعبودية المختص بالألوهية، وأن ما دونه من الآلهة والأوثان ليست أهلا للعبادة[(٥)].

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤١، وتفسير أبي السعود: ٦/ ٥. ويقول سيد قطب: «وينسق التعبير بين الظل الذي تلقيه الآية﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ والظل الذي تلقيه الآية بعدها ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ ينسق بين الظاهر الجاهر في الكون، والظاهر الجاهر من القول. وبين المستور المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء في الصدور: السر وأخفى على طريقة التنسيق في التصوير. والسر خاف. وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار، كما هو الحال تحت أطباق الثرى». في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٨.
ويقول ابن عاشور: (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) عطف على جملة ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته. التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٨.

(٢) فالخطاب في قوله (وإن تجهر) يجوز أن يكون خطابا للنبي ﷺ وهو يعم غيره. ويجوز أن يكون لغير معين ليعم كل مخاطب. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٩.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٢٨.

(٤) يقول ابن عاشور: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ تذييل لما قبله لأن ما قبله تضمن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته. التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩١.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤١، ويقول أبو السعود: « وقوله تعالى ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى، فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول يا الله يا رحمن قالوا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر» تفسير أبي السعود: ٦/ ٥-٦.

الإشارات والهدايات المستنبطة من الافتتاحية

* قوله تعالى: ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ «تنويه بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادّكروا بالقرآن[١]» وهو في الوقت نفسه دعوة لغيرهم ممن سمع هذا القرآن - بطريق الإيماء- أن يكونوا من أهل الخشية.

* إن الله تعالى عظم القرآن ببيان أنه نزل ممن خلق السموات العلى، وإنما عظم القرآن ترغيبا في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه، واستنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان[٢]، وهو خطاب لهم بما يسلمون به من خلق السموات والأرض، ليكون حجة عليهم في صحة إنزال القرآن منه.

* لما كان هذا القرآن من خالق قوي قدير اتصف بصفات الكمال والجلال فإن الذي يتخذ هذا التنزيل الكامل الخالد مرشداً وهادياً سوف يصل بإذن الله تعالى إلى سعادة الدارين «وأين من هذا التنزيل مذاهب أرضية قاصرة، تحمل في طياتها جهل واضعيها، وقصورهم، وأهواءهم التي تضطرب بها أحوال البشر فلا تستقر على حال من القلق»[٣].

* في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ **دلالات علمية يحسن الإشارة إليها هنا**؛ ذلك أن الآية جاءت في سياق تفخيم القرآن لكونه نزل ممن خلق الأرض والسموات العلى المالك لما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى، وهذه الدلالات تدل على عظمة خلق الله تعالى، وهذا فيما أدركه البشر منها بما هيأه الله له من الأسباب والوسائل العلمية، وما وراء ذلك أعظم مما استأثر الله بعلمه، حتى إذا شاء كشْفه، كشفه لمن يشاء متى يشاء، وكيف يشاء سبحانه.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

(٢) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥، تفسير أبي السعود: ٦/ ٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٣.

وقد توسع في بيانها الدكتور زغلول النجار[١] حفظه الله، فذكر القدر المدرك من السموات بالسنوات الضوئية[٢]، وذكر سرعة اتساعه[٣]، ودقة بنائه، ومكوناته، وكيفية تجمعها وتكونها[٤]، ومراحل حياة النجوم من الميلاد والطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار لتعود الى دخان السماء.

كما بين ما يتعلق بحجم الأرض[٥]، ومكونات كل أرض من الأرضين السبع، وتطرق إلى بيان ما بين الأرض والسماء، وما يتركب منه ذلك الفاصل من الغازات بنسب مختلفة وفق تقدير العزيز العليم[٦].

وختم بذكر ما يتضمنه تحت الثرى، من مجموعات من النباتات الدقيقة ومن البقايا الدقيقة

---

(١) http: //www. islamicmedicine. org/zaghlool/99. htm)

(٢) حيث قدره بأكثر من أربعة وعشرين بليونا من السنين الضوئية٢٤ بليونا ٩. ٥ مليون مليون كم=٢٢٨ الف مليون مليون مليون كم.

(٣) وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(الذاريات:٤٧)

(٤) وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة، وعلى نمط واحد، يبدأ بتجمعات عدد من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب، والنيازك حول كل نجم من النجوم التي تنتظم بملايين الملايين في مجرات، وتنتظم المجرات في مجموعات محلية، ثم في الحشود المجرية، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمى، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك في تصاعد إلى نهاية لايعلمها الا الله(سبحانه وتعالى).

(٥) حيث قدر بمائة وثمانية ملايين كيلو متر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي٥. ٥٢ جم/ سم٣، تقدر كتلتها بحوالي الستة آلاف مليون مليون طن، والأرض بداخلها ست أرضين.

(٦) فهو يتكون من جزيئات النيتروجين(بنسبة٧٨. ١٪ بالحجم)، والأكسجين(بنسبة٢١٪ بالحجم)، والأرجون(بنسبة٠. ٩٣٪ بالحجم)، وثاني أكسيد الكربون(بنسبة٠، ٠٣٪ بالحجم)، وذلك بالاضافة الي نسب ضيئلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كل من غازات الميثان، وأول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والأيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون. وهذا التركيب مغاير تماما لتركيب المادة بين الكواكب الأخرى والنجوم، ومغاير لتركيب الدخان الكوني الذي خلقت منه السماوات والأرض ابتداء.

للنباتات الكبيرة [(١)]، ومن مجموعات من الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات [(٢)].

وإن ازدهار الحياة فيها تحت الثرى من التربة حقيقة لم تكن معروفة في زمن تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، ووجود الإشارة إليها في القرآن الكريم يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، وبأنه كان موصولا بالوحي، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض.

* عرف الله تعالى بنفسه بذكر صفات الكمال والجلال والعظمة ليزداد المؤمن اطمئناناً وأنساً به سبحانه، لأنه متعلق بالله الرحمن الذي على العرش استوى، الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الذي له الأسماء الحسنى.

* لقد اختير وصف (الرحمن) لتعليم الناس به لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمن ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾[الفرقان: ٦٠] كما إن في ذكره هنا، وكثرة التذكير به في القرآن بعث على إفراده بالعبادة، وشكر على إحسانه بالرحمة البالغة [(٣)].

* إن وصف الله تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ للإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة، وللإشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما

---

(١) مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب والأنواع وحبوب اللقاح، وغيرها بمختلف أشكالها وهيئاتها، ومن البكتيريا ما يعمل علي تثبيت النيتروجين، أو الأيدروجين، أو ثاني أكسيد الكربون أو الكبريت، أو الحديد، أو المنجنيز أو غير ذلك من العناصر والمركبات التي تزيد من خصوبة التربة، ومنها مايقوم بتكسير المواد الكربوهيدراتية، أو السيليولوزية، أو البروتينية، أو الدهنية في البقايا العضوية الموجودة بالتربة فتثريها بما يحتاجه النبات النامي فوقها من غذاء.

(٢) منها الدقيقة مثل الأوليات(الطلائعيات)، والمتوسطة إلي الكبيرة مثل الديدان، والرخويات، والحشرات ويرقاتها، والعناكب، وبعض القشريات، والفقاريات الحفارة، وغيرها.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾[الرحمن:١-٢] [(١)].

* قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ دليل على إحاطة علمه بخفايا الذات الإنسانية ليرتدع المرء عن ارتكاب المعاصي الخفية، وليكون دائما على حذر ويقظة، ودوام الرقابة لله تعالى، وليزداد أنسا بقربه من ربه. «والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسره ونجواه يطمئن ويرضى، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين، ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له في العقيدة والشعور» [(٢)].

* ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ ﴾ توحيد ختم الله بها افتتاحية هذه السورة وحيا إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أول ما ابتدأ به -سبحانه- وحيه إلى موسى فقال له: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾.

علاقة الافتتاحية بمحور السورة:

المحور الذي تدور حوله هذه السورة، هو عناية الله تعالى بالرسل والمدعوين، وقد «افتتحت بملاطفة النبي ﷺ بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك» [(٣)] مع تضمن السياق الرد على كل زاعم يزعم بأن إنزال القرآن كان شقاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال سبحانه: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾ ومفهوم ذلك أن القرآن إنما أنزل لسعادته صلى الله عليه وآله وسلم، وسعادة من اتبعه [(٤)].

ثم بين تعالى أن هذا القرآن إنما أنزله تذكرة للمدعوين، رجاء أن يتذكروا فتلين قلوبهم لذكر الله تعالى وما أنزل من الحق، فكان هذا الإنزال للقرآن، وهذا الإرسال للرسول صلى الله عليه وآله

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

(٤) يقول ابن عاشور: «وفي هذا تنويه أيضا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادكروا بالقرآن». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

وسلم من عنايته تعالى ولطفه بالمدعوين حيث لم يتركهم يتخبطون في ظلمات الجاهلية والضلال [١] .

وإن في تعريف الله تعالى بنفسه بصفات الكمال والعظمة والجلال، والملك تحبيب للمدعوين، وتذكير لهم بأن الله تعالى عظيم جليل رحيم وسعت رحمته المؤمنين والكافرين فيزداد المؤمنون حبا لله تعالى، واستشعارا لمنته عليهم لما يرونه من مظاهر الرحمة الشاملة لهم.

وإن في اختيار لفظ «التنزيل» للقرآن الكريم لدلالة على الترفق بالمدعوين بتنزيل القرآن تدريجا «إزالة لشبههم، وشرحا لصدورهم، وتسكينا لنفوسهم، ومدا لمدة البركة فيهم بتردد الملائكة الكرام إليهم» [٢] .

الدرس الأول: قصة موسى عليه السلام

العلاقة بين قصة موسى والافتتاحية:

ذكر سيد قطب رحمه الله أن قصة موسى عرضت في القرآن بما يناسب موضوع السورة التي تعرض فيها، وجوها، وظلها، واتجاهها [٣] ، ثم ذكر مناسبة عرض قصة موسى هنا بمطلع

---

(١) اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الانبياء:١٠٧)، ﴿ وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(القصص: من الآية٤٦) ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (القصص:٨٦) ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ (الدخان:٥-٦).
﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (ابراهيم:١).
﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾ (الحديد:٩) .
﴿ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ (الطلاق:١١).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٦٧.

(٣) قال رحمه الله: «وقصة موسى أكثر قصص المرسلين ورودا في القرآن، وهي تعرض في حلقات تناسب=

السورة فقال: «أما هنا في طه: فقد سبقها مطلع السورة الذي يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى ﷺ، وتثبيته، وتأييده، وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة، فقد كانت ترافقه في طفولته، فتحرسه وتتعهده: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[(١)].

ويقول ابن عاشور رحمه الله: «أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أنزل عليه بذكر قصة موسى ﷺ ليتأسى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب[(٢)]. وتسلية له بأن الذين كذبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم

= موضوع السورة التي تعرض فيها، وجوها، وظلها... ففي المائدة كان حلقة واحدة: حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين.

وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة: حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة... وفي البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملأ الأعلى، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له، فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيرا لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم، وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه، واستقائهم وتفجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى، وذكر مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده، ثم غفرانه لهم، وعهدهم إليهم تحت الجبل، ثم عدوانهم في السبت، وقصة البقرة.

وفي الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى -ﷺ- فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين، ثم ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى، وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبي الأمي.

وفي يونس سبقها مصارع المكذبين. فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة، وعرض مشهد السحرة، ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل». في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٩.

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٩.

(٢) ويبدو أن ابن عاشور أخذ هذا القول عن البيضاوي فقد قاله في تفسيره: ٤/ ٤٢، وتعقبه أبو السعود=

من المكذبين، ولذلك جاء في عقب قصة موسى قوله تعالى ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ [1].

ولما كانت قصة موسى قد شغلت أكثر من نصف هذه السورة، حيث بلغ عدد آياتها ٩٠ آية من ١٣٥ آية رأيت أن أقسمها إلى مشاهد ستة: **مشهد** المناجاة في الوادي المقدس، **ومشهد** التكليف والرعاية، **ومشهد** الحوار والجدال مع فرعون، **ومشهد** المباراة بين موسى والسحرة **ومشهد** خروج موسى ببني إسرائيل، **ومشهد** المناجاة إلى جانب الطور الأيمن وموقف موسى مما أحدث قومه من بعده.

وفيما يلي عرض لتلك المشاهد، وبيان لما تضمنته من معان ودلالات وهدايات:

=رحمه الله بقوله: «وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبي ﷺ في الاتساء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق» تفسير أبي السعود: ٦/ ٦.

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩٣.

المشهد الأول: مشهد المناجاة في الوادي المقدس

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ
بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ
أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا
هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى
وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى
وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن
يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ
سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى
وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

يتضمن هذا المشهد أمر رجوع موسى بأهله من مدين، ورؤيته النار بجانب الطور والذهاب إليها اقتباسا من نورها، وتدفئة من برد الشتاء، إضافة إلى طهي شيء من الطعام، أو التماسا لهاد يهديه الطريق بعد أن ضل، ثم خبر نداء الله تعالى له، وما تضمن ذلك النداء من الأوامر لموسى بخلع نعليه والاستماع لما يوحى إليه من أمر التوحيد، والعبادة، وإقامة الصلاة، وشأن الساعة والإيمان بها، ومعجزتي العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية، وما

طلبه موسى من ربه من شرح صدره، وتيسير أمره، وفك عقدة من لسانه، وجعل هارون وزيراً له، ثم تذكيرالله له بمننه عليه، حيث حفظه صغيراً، وأحاطه بعنايته التي رافقته منذ ولادته إلى هجرته إلى مدين، ثم عودته ليلقى اليوم الذي قدره الله تعالى له، ليوحي إليه بالرسالة والتكليف بالذهاب إلى فرعون مع أخيه ليبلغاه ما أمرهما الله تعالى به بقول لين لعله يتذكر أو يخشى.

المعنى الإجمالي:

أخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الاستفهام بـ «هل أتاك» وهو **نوع من الاستفهام يستعمل في تشويق السامع إلى الخبر، وبفعل النداء «نودي» المبني للمجهول، الذي به يزداد الأمر تشويقا إلى استطلاع القصة**، فإبهام المنادي يشوق سامع الآية إلى معرفته فإذا فاجأه﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ علم أن المنادي هو الله تعالى فتمكن في النفس كمال التمكن[(١)] .

يحكي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ قصة موسى «مسليه عما يلقى من الشدّة من مشركي قومه، ومعرّفه ما إليه صائر أمره وأمرهم، وأنه معليه عليهم، وموهن كيد الكافرين، ويحثه على الجدّ في أمره، والصبر على عبادته، وأن يتذكر فيما ينوبه فيه من أعدائه من مُشركي قومه وغيرهم وفيما يزاول من الاجتهاد في طاعته ما ناب أخاه موسى صلوات الله عليه من عدوّه، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل وما لقي فيه من البلاء والشدّة طفلاً صغيراً، ثم يافعاً مترعرعاً، ثم رجلاً كاملاً»[(٢)] .

وهذا المقطع هو المشهد الأول من هذه القصة في هذه السورة إنه مشهد رجوع موسى من مدين إلى وطنه مصر، والآية تنبئنا عن سبب التماس موسى النار، فقد كانت ليلة باردة ضل فيها الطريق، وكل ذلك بقدر من الله تعالى حتى يصل موسى إلى الوادي المقدس حيث التكليف بالرسالة، فكانت هذه النار التي رآها موسى، واستبشر بها، فمنها يقتبس قبساً، أو

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٣، ١٩٥.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤١-١٤٢.

يجد هاديا يهديه الطريق، فأمر أهله بالمكوث، ومضى هو لوحده «فريدا في تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور» فإذا بنداء الله تعالى له بخلع نعليه «ليباشر بقدميه بركة الوادي [(١)] إذ كان مقدسا» [(٢)] استعدادا لتلقي أمر التشريف بالاختيار للرسالة، وأوامر التكليف بأسس الرسالة الثلاثة، وهي الاعتقاد بالوحدانية، والوحدانية هي قوام العقيدة، والتوجه له بالعبادة، والعبادة تشمل التوجه لله تعالى في كل نشاط الحياة [(٣)]، ويخص منها إقامة الصلاة، لأهميتها [(٤)]، ثم الساعة [(٥)]، والساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق [(٦)]، «وقد أبهم الله وقت الساعة فلم يطلع عليه أحد

---

(١) واسمه «طوى». جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤٧.

(٢) وهو ما رجحه الطبري، ورد قول من قال: لأنها من جلد حمار، وعلل ذلك بقوله: «لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعها من أجل أنها من جلد حمار ولا لنجاستها، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن في قوله {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ} بعقبه دليلاً واضحا، على أنه إنما أمره بخلعها لما ذكرنا». ينظر جامع البيان للطبري:١٦/ ١٤٤.

(٣) يقول ابن عاشور: « ثم فرع على ذلك الأمر بعبادته. والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من قول وفعل وإخلاص بالقلب». التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠.

(٤) «**وإقامة الصلاة: إدامتها، أي عدم الغفلة عنها**» التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠، والمعنى: «وأقم الصلاة لتذكرني فيها. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤٨، ورجح ابن جزي «أن المراد أقم الصلاة عند ذكري كقوله ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ أي عند دلوك الشمس، وذلك لأن النبي ﷺ استدل بالآية على وجوب الصلاة على الناسي إذا ذكرها». بقوله صلى الله عليه وآله وسلم ««إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: وأقم الصلاة لذكري». رواه الإمام أحمد. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١،

(٥) «وجملة (إن الساعة آتية) مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٠١.

(٦) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

حتى أنه كاد أن يخفي وقوعها لإبهام وقتها ولكنه لم يخفها إذ أخبر بوقوعها»[(١)] .

ثم أعقب سبحانه خبره عن الساعة بقوله:﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ والمعنى « فلا يردّنك يا موسى عن التأهّب للساعة، من لا يؤمن بها، أي: من لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً. ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي: اتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي: فتهلك إن أنت انصددت عن التأهّب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدّ من كفر بها»[(٢)] .

ثم يوجه الله تعالى سؤالا إلى موسى عليه السلام عما في يده فيفهم موسى عليه السلام أن السؤال إنما عن وظيفتها معه، فأجاب بأنها عصاه يتوكأ عليها، ويضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم، وقد كان راعيا.

ولكن ما وراء السؤال أن يقرره بأنها خشبة، ولينظر موسى بعينيه إلى قدرة الله تعالى في تحويل العصا حية تسعى، لتكون في يد موسى آية إلى فرعون، فانقلبت العصا حية، فخاف موسى، إلا أن الله أزال عنه ما عراه بأمره إياه ألا يخاف وأن يأخذها فإنه سعيدها عصا كما كانت بقدرته سبحانه، وبهذا عرف موسى كيف يتعامل مع العصا حين يريدها حية تسعى أوعصا في يمينه.

ثم أشفعه الله بآية أخرى فأمره أن يضم يده ويضعها تحت عضده لتخرج بيضاء من غير برص أو مرض، زيادة في أمنه واطمئنانه.

---

(١) وهو ما صححه ابن جزي، ونص أنه اختيار المحققين، ثم قال: « فالأخفى على معناه المعروف في اللغة وكاد على معناها من مقاربة الشيء دون وقوعه». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١-١٢.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٣، وقال ابن كثير: « المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين. أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر {فتردى} أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وما يغني عنه ماله إذا تردى}. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٦٢.

وكأن موسى يترقب من وراء ما شاهد أمراً ما يجهله، فإذا بالأمر تكليف بالذهاب إلى فرعون الذي طغى، وقد فارقه موسى، وهو يعلم طغيانه وجبروته، فأحس بعظم المسؤولية، فسأل ربه الذي أكرمه بالرسالة، وأكرمه بالمعجزات طمعا في مزيد كرمه أن يعينه في مهمته التي انتدب لها فبسط حاجته بين يدي ربه في مقام التكريم، فسأله بقوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وأجترىء به على خطاب فرعون[1].

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ أي: وسهل عليّ القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة[2]، وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله[3]، وطلب أن يعينه بمعين من أهله، هارون أخيه، لأنه يعلم عنه فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وهدوء الأعصاب[4] ليشد به ظهره، وطلب أن يشركه بالنبوة ليكون ذلك العطاء عونا لهما على تعظيم الله وتسبيحه، وكثرة ذكره، لأنهما مقدمان على أمر جليل يحتاج إلى التسبيح الكثير والذكر الكثير، والاتصال الكثير ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير.

فما أن انتهى موسى من طلبه حتى من عليه الكريم بالإجابة وهو في موقف التكريم والامتنان فناداه باسمه:﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾. وأي تكريم أكبر من أن يذكر

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٩، في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٤.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٩.

(٣) وقد روي أنه كانت بلسانه حبسة. «وإنما قال عقدة بالتنكير لأنه طلب حل بعضها ليفقهوا قوله ولم يطلب الفصاحة الكاملة» « ولو سأل أكثر لأعطي، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ أي يفصح بالكلام». ينظر التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٦٥، وفقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٦.

(٤) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

الكبير المتعال اسم عبد من عباده [١].

وبعد هذا العطاء يذكّر الله تعالى موسى عليه السلام بمننه عليه قبل أن يصير رسولا، وأنه إنما رعاه وهو صغير، ولم تفارقه عناية الله تعالى حتى بلغ أشده، واختير للرسالة، ليزداد موسى بذلك اطمئناناً، وأنساً، لأن ربه معه وهو صغير، ولن يتخلى عنه وهو اليوم رسول [٢]، وهو سبحانه الذي أوحى إلى أمه من قبل أن تقذفه في التابوت [٣]، وتلقيه في اليم، ليلقيه اليم بالساحل فيأخذه فرعون الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، وهو الذي ألقى عليه محبة منه هبة وعطاء، فلم تنله يد فرعون بالضر والأذى، وهو الذي أعاده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، ذلك حين منعه قبول الإرضاع إلا من أمه بتدبير من الله تعالى ليعيش موسى مع أمه آمناً مطمئناً، ولتقر عينها دون خوف من فرعون وبطشه، فبأمره أرضعته، وعلى مرأى من فرعون وبصره ترعرع ونما [٤].

وكان ختام ذلك الامتنان أن نجاه الله تعالى من الغم الذي أصابه بسبب قتله نفس [٥]، «فربه يذكره هنا بنعمته عليه إذ هداه إلى الاستغفار، فشرح صدره به، ونجاه من الغم، ولم يتركه

---

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

(٢) وآية ذلك اليقين بعون الله تعالى ورعايته، وتلك الثقة بتأيده أن قال لقومه واثقا: «إن معي ربي سيهدين» لما قالوا له {إنا لمدركون} بسبب قرب فرعون وجنده منهم، وقد كان أن أمره ربه أن يضرب بعصاه البحر، فنجوا جميعا، وأهلك الله فرعون وجنده فأغرقهم في اليم.

(٣) «وأطلق «القذف» هنا على الوضع في التابوت. تمثيلا لهيئة المخفي عمله، فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجرا ونحوه». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٦.

(٤) يقول ابن جزي: «ولتصنع على عيني» أي تربى ويحسن إليك بمرأى مني وحفظ. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٥) وهو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص:١٥).

مع هذا بلا ابتلاء[١] ليربيه، ويعده لما أراد فامتحنه بالخوف، والهرب من القصاص، وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم... وفي المقدر في علم الله تعالى جيء بموسى من أرض مدين، وهو يظن أنه هو الذي جاء﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي «ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون رسولاً ولمقداره»[٢].

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ «أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن اجتباء مني لك، واختيارا لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهيي»[٣]. ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ خالصا مستخلصا ممحضا لرسالتي ودعوتي... فامض لما اصطنعتك له ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ هارون ﴿ بِـَٔايَٰتِى ﴾ «أي: بأدلتي وحججي، اذهبا إلى فرعون بها إنه تمرّد في ضلاله وغيه، فأبلغه رسالاتي»[٤].

﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ «أي: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إيّاي يقوّي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مَنّي عليكما نِعَما جمّة، ومِننا لا تحصى كثرة»[٥].

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ[٦] يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾...

---

(١) يقول ابن جزي: ««وفتناك فتونا» أي اختبرناك اختبارا حتى ظهر منك أنك تصلح للنبوة والرسالة وقيل خلصناك من محنة بعد محنة لأنه خلصه من الذبح ثم من البحر ثم من القصاص بالقتل». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٧. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٩.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٩.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٩.

(٦) يقول الطبري: «معنى لعلّ ههنا كي. ووجّهوا معنى الكلام إلى ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ فادعواه وعظاه ليتذكر أو يخشى، كما يقول القائل: اعمل عملك لعلك تأخذ أجرك، بمعنى: لتأخذ أجرك». جامع البيان:١٦/ ١٦٩.

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته.. راجيين أن يتذكر ويخشى[(١)] . فيرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يوجِد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: {لمن أراد أن يذكر أو يخشى}[(٢)] ، وقال الحسن البصري: ﴿ لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه[(٣)] .

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* «في سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله»[(٤)] .

* ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ ﴾ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذي إليه ينتهي مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيها بين الأنبياء كابرا عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ وبه ختم عليه السلام مقاله

---

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٥-٢٣٣٦.

(٢) فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٦. ثم نقل شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: فاذهب وهارون فادعُوَا ... إلى الله فرعون الذي كان باغيا
فقولا له: هل أنت سويت هذه بلا ... وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له: أأنت رفعت هذه بلا ... عمد أرفق إذن بك بانيا
وقولا له: أأنت سويت وسطها منيراً ... إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له: من يخرج الشمس بكرة ... فيصبح مامَسّت من الأرض ضاحيا
وقولا له: من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبة في رؤوسه ؟ ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

(٤) فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٣٥٨.

بعد إبطال ألوهية العجل بإحراقه، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[(١)] .

* إن اجتلاب موسى إلى الوادي المقدس لتلقي الوحي باستدعائه بنور في ظلمة رمز على أنه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد»[(٢)] .

* «أجرى الله على لسان موسى معنى قوله ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ إلهاما إياه أنه سيجد عند تلك النار هدى عظيماً، ويبلغ قومه منه ما فيه نفعهم[(٣)] ، «أتى النار ليُقبس أهله منها ناراً أو يجد عندها هدى، فمنح من هدى الدارين والنصرة على الأعداء»[(٤)] .

* إن الإخبار عن ضمير المتكلم بأنه رب المخاطب[(٥)] لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبه فإن شأن الرب الرفق بالمربوب[(٦)] .

* قوله: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله: ﴿ فَٱسْتَمِعْ ﴾ يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف[(٧)] .

* لله سبحانه أن يقدس ما شاء من الأمكنة والأزمنة، وعلى المسلم أن يعظم ما عظمه الله تعالى، وأن يراعي الأدب مع الله تعالى ومقدساته، وهاهو موسى يأمره ربه بخلع نعليه «تعظيما منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي»[(٨)] ، و«ليتأدب ويعظم البقعة

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٥. وتدبر كيف أجرى الله على لسانه التعبير بلفظ «هدى» ولم يقل «هاديا» فكان أن قد وجد الهدى.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٧١.

(٥) ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾.

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٦.

(٧) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ١٧.

(٨) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٦-١٩٧.

المباركة ويتواضع في مقام مناجاة الله»[(١)] . فيفعل.

* إن في تعريف الله تعالى بنفسه لموسى «إشارة إلى أن أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم. فأشار الله إلى أنه عالم باسم كليمه[(٢)] وعلّم كليمه اسمه[(٣)] ، وهو الله»[(٤)] ، ثم إن «الأخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلم الدال على الذات[(٥)] الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله علما عليه لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربهم[(٦)] .

* ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ ومن كان هو اختيار الله تعالى فقد نال أعلى مراتب التشريف والتكريم، لأن الله إنما يختار من عباده المصطفين الأخيار ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[الحج: من الآية٧٥] ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[الأنعام: من الآية١٢٤].

* ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ «إن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يعبد»[(٧)] .

* **﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ تخصيص للصلاة بالذكر مع كونها داخلة في العبادة المأمور بها[(٨)] ، لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها**

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية: ٤/ ٣٩، « واستحسنه ابن جزي». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١.
(٢) ﴿ نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾.
(٣) ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾.
(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠. ثم قال: وجملة (لا إله إلا أنا) خبر ثان عن اسم (إن). والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.
(٥) حيث قال له: «إنني أنا الله».
(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩.
(٧) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠.
(٨) في قوله سبحانه:﴿ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ .

تتمحض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده، وتتجمع للاتصال بالله[(١)]، «ولأنها تجمع أحوال العبادة»[(٢)].

* التأكيد على الإيمان بالساعة وما يترتب على قيامها من الجزاء العادل، لما فيه من انعكاس إيجابي على الفرد بدوام الاستعداد لمستقبل حتمي وهو الحساب والجزاء، ولأن «الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب، وتحاسب، وتخشى الانزلاق»[(٣)].

* إن إخفاء الساعة يغرس في نفس العبد أنها من اختصاص الله تعالى، فهو الذي يقيمها متى شاء[(٤)] ﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾، وليس على العبد إلا العمل، وقد سأل سائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: متى الساعة؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «ما أعددت لها»[(٥)].

* ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ « وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله»[(٦)].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠.

(٣) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

(٤) واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ (لأعراف: من الآية١٨٧) ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأحزاب:٦٣) ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النازعـات:٤٢-٤٤)

(٥) البخاري في صحيحه، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، برقم: ٣٤٨٥، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، برقم: ٢٦٣٩، وفي مواضع أخرى من صحيحه.

(٦) الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٨، ونظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٧٩.

* **سأل الله تعالى موسى عما في يمينه ليعرفه بعظيم قدرته سبحانه على قلب العصا حية[(١)] وفيه إيناس له، وبسطه بالكلام[(٢)].**

* **بسط موسى الكلام في بيان منافع العصا استئناسا بلذيذ المخاطبة، وخوفا من الأمر بإلقائها كالنعل[(٣)] الذي أمر بخلعه في أول اللقاء.**

* «ولما كان موسى أكمل أهل ذلك الزمان، خاف التطويل على الملك فقطع على نفسه ما هو فيه من لذة المخاطبة كما قيل: «اجلس على البساط وإياك والانبساط»، وطمعاً في سماع كلامه سبحانه وتعالى، فقال مجملاً: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ أي حوائج ومنافع يفهمها الألبّاء»[(٤)]. أو أنه إنما **«فصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده»**[(٥)].

* إن الغرض من إظهار قلب العصا حية لموسى أن يعرف أن **العصا** تطبعت بالانقلاب حية فيتذكر ذلك عند مناظرة السحرة لئلا يحتاج حينئذ إلى وحي»[(٦)].

* **طلب موسى من ربه أربعة عوامل من دواعي أداء الرسالة، لما كلفه بالذهاب إلى فرعون الطاغية «بدأها بشرح الصدر﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾، ثم تيسير الأمر﴿ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ وهذان عاملان ذاتيان[(٧)]، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون، وهو اللسان في الإقناع﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً**

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٤.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٢.
(٣) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٨٠.
(٤) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٨٠.
(٥) لتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٠٥.
(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٠٧.
(٧) «وزيادة (لي) بعد (اشرح) وبعد (يسر)... لأن الشرح والتيسير متعلقان به فكان قوله (لي) فيها زيادة بيان كقوله (ألم نشرح لك صدرك) وهو هنا ضرب من الإلحاح في الدعاء لنفسه». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١١.

﴿مِن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ (١) ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا ﴾ (٢) .

* إن «انشراح الصدر ينسجم به الإنسان مع وظيفته، فإذا هي أمر محبب إليه، أثير لديه، فإذا ما زاول هذه الوظيفة لم يبال بما يواجهه من صعاب، وما يتحمل من أثقال، لأنه لا ينهض بهذه الأعمال بساعده وطاقته المادية، ولكن بهذا المدد الوارد إليه من الله سبحانه وتعالى» (٣) .

* إن انشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه إلى لذة ويجعله دافعا للحياة لا عبئا يثقل خطى الحياة (٤)

* إن انشراح الصدر مدد إلهي «يحرك الجسم إلى ما يريد الله، وانقطاعه يسخر الجسم إلى ما يريد

---

(١) لم يقل هنا: «واحلل لي عقدة من لساني، «لأن ذلك سؤال يرجع إلى رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتها راجعة إليه حتى يأتي لها بلام التبيين». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٢.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٠. ويبدو أن عمارة أفاد هذا من كلام الإمام الشنقيطي حيث قال رحمه الله» فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل بدأها بشرح الصدر ثم تيسير الأمر وهذان عاملان ذاتيان ثم الوسيلة بينه وبين فرعون وهو اللسان في الإقناع واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته لأنه به يقابل كل الصعاب ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي كقوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وكقوله والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر وفعلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة وتلقى كل ذلك بصدر رحب، وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله أن يكون رحب الصدر هادىء النفس متجملا بالصبر أضواء البيان - الشنقيطي ج٨/ ص٥٧٤- ٥٧٥.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٩.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

الجسم، ويجعله عبدا لشهواته... وضيق القلب المحروم من نور الله يشوش على الخواطر ولا يمكن صاحبه من إصابة الهدف»[(١)].

* إن تيسير الأمر، إنما هو التوفيق، وكل مجتهد مسلوب التوفيق لا محالة أنه لا يفلح ولا ينجح في الوصول إلى مراده، وإنما الفلاح لمن صاحبه توفيق الله تعالى وتيسيره، لذلك كان هذا الدعاء من موسى في هذه المهمة الصعبة، ومثله أيضا لكل من يتصدى للدعوة إلى الله فإن من لم ييسر الله له أمره خاب.

إذا لم يكن عون من الله للفتى		فأول ما يجني عليه اجتهاده[(٢)].

* إن تيسير الله لعباده هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول؟![(٣)].

* لما كان البيان من لوازم التبليغ حتى يفهم عن الداعية ما يريد تبليغه سأل موسى أن يحل الله عقدة من لسانه، لتصل الكلمة إلى «قلب فرعون موزونة خالية مما يثير سخريته في نبرة تحمل على التأثير»[(٤)]، ولتحقيق كمال التبليغ طلب موسى من ربه أن يرسل إلى هارون، وبين العلة في ذلك لما قال: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾[القصص:٣٤].

* إن للفصاحة في بيان الحق وتبليغه أهمية كبرى، لذا كان واجبا على الداعية أن يأخذ من اللغة ما يقيم به لسانه ويعينه على بيان الحق الذي معه، وقد أرسل الله الرسل بألسنة أقوامهم ليبينوا لهم ما أمروا بتبليغه، قال سبحانه:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾[ابراهيم:٤]، وإن هذا القرآن بيان عربي لا يتسنى حسن إبلاغه إلا باللفظ العربي المبين، فمطلوب لنجاح

(١) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٠.
(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١١.
(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.
(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١١.

الداعية» طيب الكلام، وصدق النوايا، وسلامة في التعبير، ورقة في الأسلوب... ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[(١)].

* طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه، وأن يشركه في أمر النبوة، حبا منه لأخيه ما أحبه لنفسه، وشعوراً بأهمية أن يكون معه من يعينه في مهمته الصعبة هذه، فكلما كثر الأنصار كلما قوي الرجاء في بلوغ الغاية، ولذا يكاد أن يكون الاجتماع على الدعوة لنصرة الدين والحق أمر لازم، خاصة في ظل اجتماع الباطل المنظم ضد الحق وبالضدين تتحقق سنة التدافع، ليحق الله الحق، ويبطل الباطل، ويتحقق بإذن الله وعد الله الحق﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، ولا بد من الصحبة على طريق الدعوة، لأن حملها ثقيل يخففه الرفقة الصالحة المتجانسة في الفكر والهم، وتشتد الحاجة إليها حين يكون العدو طاغية مستبدا، «وإن في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسما العمل الضروري لحياتهما فيقل زمن اشتغالهما بالضروريات وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ»[(٢)].

* إن في طلب موسى وزارة أخيه حتى يتكامل الاثنان في طباعهما بين شدة موسى وحدة طبعه وسرعة تأثره، وبين سعة صدر هارون وترويه، وكل منهما له مكانه في وسط الدعوة. «لأن المزاج الحاد يحقق نجاحا ولا شك.. وهو أمر مطلوب في زمان تضغط فيه الرذائل بثقلها البغيض، ولا يفل حديدها إلا دفاع قوي، بيد أن مصلحة الدعوة تفرض ألا ينفرد هذا المزاج بتصريف الأمور-التي لا غنى لها عنه- بل لا بد مع ذلك من وجهة النظر الهادئة المعتدلة تستثمره لصالح الدعوة، وتوجهه إلى حيث يفيد، وبذلك يتكامل الدعاة على الطريق.. بلا نزاع أو تصادم، وما أحوجنا إلى أن نعي هذا الدرس جيدا»[(٣)].

(١) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٤.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام: ١٢٤.

* إن الاستعانة بالمخلصين الأكفاء أمر مطلوب لإبلاغ الدعوة، وقد طلب موسى من ربه معينا فقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ ﴾، ليكون ذلك سببا في إقامة الشعائر: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

* إن «فيما سأله موسى لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضاً على الدعوة. ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح»[(١)]. ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

* ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ هذه استجابة فورية لطلبه عليه السلام، والله سبحانه لا يرد سائلا مخلصا في دعائه، فهو الذي أمر بالدعاء ووعد بالاستجابة بقوله: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فكان لا بد للداعية أن يعي أهمية الدعاء، ويدرك أثره في إنجاح دعوته، مع ما يتضمنه الدعاء من معاني العبودية والتذلل لله تعالى، ولذا كان الدعاء هو العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الدعاء هو العبادة»[(٢)].

* «إن جملة ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده بقوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيداً في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٣/ ١٧٢، برقم: ٨٩٠، والنسائي في سننه الكبرى: ٦/ ٤٥٠، ١١٤٦٤، وأبوداود في السنن: ٢/ ٧٦، برقم: ١٤٧٩، والترمذي في سننه: ٥/ ٢١٢، برقم: ٢٩٦٩، وقال: حسن صحيح.

يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٥-٨]، ثم إن تأكيد الخبر بـ «لام القسم» و«قد» في قوله: «ولقد» إنما هو لتحقيق الخبر، لأن موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾[1].

* **ذكّر الله تعالى موسى بصور العون والرعاية له منذ طفولته وصباه، ليزداد ثقة بربه، وليزداد شكراً له، ولينشط للدعوة، ويشتد عزمه على تبليغ التكليف، فإن الذي حفظه ورعاه قبل التكليف، هو القادر على نصره وتأييده بعد التكليف، ولذا لما ضاق السبيل بقومه فقالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ قال لهم موسى واثقاً بهداية ربه له: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾، فهداه بضرب البحر بعصاه.**

* **إن فيما أوحاه الله تعالى إلى أم موسى من وضعه في التابوت وقذفه في اليم، تعليم للعباد أن يعتقدوا بأن عاقبة ما أمر الله به خير لهم، وإن لم يتبين ذلك في أول الأمر، وهو أيضا حث للعباد أن يتوكلوا على الله بعد أن يتخذوا لذلك ما تيسر لهم من الأسباب، ويتركوا الأمر من بعد لله تعالى، ثقة به، فإن من توكل على الله كفاه، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾.**

* **إن في جعل اليم مأموراً بإلقاء موسى هو أحد جوانب العناية حيث سخره الله ليلقيه على ساحل فرعون، فيلتقطه آل فرعون، ليتربى في كنف فرعون - بلا خوف ولا وجل - فيكون لهم عدواً وحزناً.**

* إن من دلائل إلقاء الله المحبة على موسى أن حببه إلى «آسية» امرأة فرعون، حتى تبنّته وغذّته وربّته، وإلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه. وقد قيل: «إنما قيل: وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه»[2]. **ولعل من إلقاء المحبة عليه أن أعجبت بنت شعيب بقوته**

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٥.

(٢) وهو اختيار الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٢.

وأمانته، فأومأت إلى رغبتها فيه، فآواه شعيب وزوجه إحدى ابنتيه.

* ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ تعبير عن «الكرامة والتقريب؛ أي: استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني»[(١)].

* «بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى كيف حفظ موسى في التابوت رضيعاً، وما يثمره ذلك من يقين ثابت بالله تعالى وبنصره يكلفه الله سبحانه وتعالى بمواجهة فرعون في صحبة هذه الثقة الوطيدة الناشئة عن سابق فضله تعالى عليه﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾»[(٢)].

* «إن أمر الله تعالى لموسى وهارون بألا يفترا في ذكر الله، وخاصة في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له»[(٣)].

* **إن طغيان فرعون وجبروته، لم يمنع من الذهاب إليه لتبليغ الدعوة، بل إن هذا الطغيان أقوى دواعي المبادرة إذ جعله الله علة للذهاب حيث قال ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾**[(٤)].

* **قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ احترام للعقل الإنساني، «فهذا تعليل للأمر بالذهاب، أي أن الأمر لا ينصب حاسما لينفذ بلا أسباب ولا مناقشة، وإنما هو المنهج القرآني الذي يحترم العقل الإنساني ويقدره، وآية هذا الاحترام أن يعرض عليه القضية مشفوعة بدليلها، لتنشط أجهزة الإنسان كلها عاملة داعية إليها، وليكون لنا درساً يفيدنا في عرض قضايانا على الآخرين عرضاً يدخل في حسابنا أن للآخرين عقولاً وقلوباً لها ذاتيتها، ولها اعتزازها بآرائها، ولها أيضا طبعها الذي ينفر من كل عرض تشم منه رائحة الضغط أو الإكراه، وإنما هو تجلية الحق وتوضيح الدليل، وبعد ذلك ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾**[(٥)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٢٧٥.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة:١٠٨.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٩.

* ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ ﴾ «لأن القول اللين لا يثير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان»(١).

* «واللين من شعار الدعوة إلى الحق، أمر الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدعو عتاة قريش وطغاتهم، فقال له: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[النحل:١٢٥] وقال ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾[آل عمران: من الآية١٥٩]، ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى ﴿ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ ﴾[النازعات:١٨-١٩]. وقوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى، فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾، وقال تعالى عن موسى ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨ ﴾»(٢).

* **إن من حكمة الله تعالى في أمره موسى عليه السلام بمخاطبة فرعون بالقول اللين، أنه رباه، وقد قال له: ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ ﴾[الشعراء:١٨]، فكان من رعايته لحقه ألا يغلظ عليه في القول، هذا بالإضافة إلى أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا، فيكون ذلك سبباً في أن ينهي حياة الداعية في غمضة عين، لأنه يملك من وسائل القوى ما يمكنه من ذلك، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر**(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٦،

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٢٥.

(٣) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥١، وفقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٦.

* «إن هذه الآية[١] فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[٢].

* على الداعية أن يعي أهمية القول اللين، ليلتزمه في دعوته إلى الله تعالى، «فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينا، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه»[٣]. «وعليه أن يفهم أيضا نفوس العصاة الذين يعنى بدعوتهم، وأنه سيواجه نفوسا تطبعت بطبائع تحجب النفوس فلا ترى الحق، وتصرف القلوب فلا تتجه إليه، فيصعب حينها الدخول إلى نفوسهم وإقناعهم بالحق الذي معه، ما لم يستعمل اللين في دعوتهم، وقد قيل: «ولا تخاشن العاصي وأنت تدعوه إلى الحق فتجمع عليه مرارتين: مرارة التخلي عن عادة أنس بها زمنا، ثم مرارة الشدة المزعجة له»[٤].

ومما ينبغي أن يعيه الداعية في دعوته العصاة[٥]:

* أنه يقف ضد ميولهم ونزعاتهم المندفعة نحو الشر، وأن عوامل الشر أظهر من دواعي الخير.

* أنه يعدهم بحياة أبدية، لكنها متوقعة، وليست بواقعة، وانتظار المتوقع مقلق للنفوس.

* سهولة الحصول على المتع الدنيوية المتاحة، والنفوس أقرب إلى المحسوس منها إلى المعقول.

إن القول اللين أثمر في دعوة فرعون ثمرات هي[٦]:

* تراجع فرعون، فبعد أن كان يقول «أنا ربكم الأعلى» اتسع صدره ليتصور إلهاً غيره، فصار يخاطب موسى وهارون بأسلوب الحوار ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ

---

(١) ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٢٠٠.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١٤٧.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١٤٣.

(٦) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١٧١.

ٱلۡأُولَىٰ ﴾.

* **أنه لم يبطش بموسى وهارون ولم يبدأهما بالعدوان، واستعمال القوة، وهو ما كان يخافان منه﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾**

* **أنه قد تحقق التذكر والخشية من فرعون، وإن كان بعد فوات الأوان. يقول القرطبي:** « وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[يونس: ٩٠]، ولكن لم ينفعه ذلك »[(١)].

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة: محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم.

ومن مظاهر تلك الرعاية والعناية في هذا المشهد ما يلي:

* التلطف مع موسى - عليه السلام - بإيناسه حين أخبره الله بأن الذي يخاطبه هو ربه، ثم أمره بلزوم الأدب معه بخلع نعليه، ليباشر بهما الوادي المقدس، ثم تفضل عليه باختياره للرسالة، وتأييده بمعجزتي العصا واليد، وتعليمه كيفية استخدامهما عند الحاجة إلى ذلك.

* إن من عناية الله تعالى برسوله موسى - عليه السلام - أن أذهب عنه ما في نفسه من الخوف حين انقلبت العصا حية تسعى حين أمره أن يأخذها وألا يخاف، وبين له بأنه سيعيدها كما كانت، فقال له في غير هذه السورة: ﴿ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

* «والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولى مدبراً ولم يعقب. إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى - عليه السلام - من خوف: ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيداً، واطمأن موسى - عليه السلام - والتقط

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٢٠١.

الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا"[١] .

* أن الله تعالى آتى موسى – عليه السلام – ما طلبه من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفك عقدة من لسانه، ووزارة أخيه هارون، فقال له:﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ وهي أمور لا بد منها في تبليغ دعوته على الوجه الأكمل.

* **ذكّر الله تعالى موسى – عليه السلام – بصور العون والرعاية له منذ طفولته وصباه، ليزداد ثقة بربه، وشكرا له، ولينشط للدعوة، ويشتد عزمه على تبليغ التكليف، فإن الذي حفظه ورعاه قبل التكليف، هو القادر على نصره وتأييده بعد التكليف، ولذا لما خاف قومه أن يدركهم فرعون وجنده قالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فقال لهم موسى –واثقا بهداية ربه له–: قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، فهداه بضرب البحر بعصاه.**

* «إن جملة ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده بقوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيداً في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد ﷺ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٥ -٨]، ثم إن تأكيد الخبر بـ «لام» القسم و«قد» في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ إنما هو لتحقيق الخبر، لأن موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[٢] .

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٥.

* **إن في جعل اليم مأموراً بإلقاء موسى - عليه السلام - هو أحد جوانب العناية حيث سخره الله ليلقيه على ساحل فرعون، فيلتقطه آل فرعون ليتربى في كنف فرعون، ليكون لهم عدوا وحزنا، ولعل من عناية الله به أن أوحى إلى أم موسى - عليه السلام - أن تلقيه في اليم حتى يبقى التردد في نفس فرعون في قتله، لعدم تيقنه أهو من القبط أم من بني إسرائيل، لأنه لو علم أنه من بني إسرائيل لقتله.**

* إن الله تعالى ألقى المحبة على موسى، فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنّته وغذّته وربّته، وإلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه. وقد قيل: إنما قيل: «وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه»(١) ، **وأعجبت بنت شعيب بقوته وأمانته، فأومأت إلى أبيها بالإفادة منه في العمل، فآواه شعيب وزوجه احدى ابنتيه.**

* تهيئة الله تعالى موسى وهارون بتعريفهما بطغيان فرعون وتجبره، وأنهما إنما أرسلا إليه من أجل ذلك﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾، ومن لطفه بهما أنه سبحانه علمهما أسلوب مخاطبة فرعون، فأمرهما باستعمال القول اللين، استمالة لقلبه، ودرءا لبطشه، ورجاء أن يتذكر أو يخشى.

---

(١) وهو اختيار الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٢.

المشهد الثاني: مشهد التكليف والرعاية

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد: حكاية الله تعالى لخطاب موسى وهارون ربهما بإبداء ما في نفوسهما من التخوف من بطش فرعون، استجلابا لتأمينه سبحانه لهما، فكان أن من الله عليهما بالأمن حين نهاهما عن الخوف، لأنه سبحانه معهما، يسمع شكواهما، ويرى مكانهما، فاطمأنت -عندها- أنفسهما، ثم أعقب الله لهما بالوحي إليهما بما يتضمنه إرسالهما من إعلام فرعون بأنهما رسولا ربه، يطلبان منه إرسال بني إسرائيل معهما، والكف عن تعذيبهم، مبينَين أنهما قد جاءا بآية تدل على صدقهما، ثم استعملا مع فرعون أسلوب الترغيب والترهيب بعيداً عن الخطاب المباشر له بقولهما: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

بعد ما أتم الله تعالى لموسى - عليه السلام - المناجاة، وختمها بالأمر بالذهاب إلى فرعون الطاغية لدعوته إلى التذكر والخشية، أعقبه بحكاية ما رفعه موسى وهارون -إلى ربهما- من التخوف من طغيان فرعون وبطشه، فكان فزعهما إلى الله تعالى مناسباً لما سبق من بيان الله تعالى لهما بأن فرعون طغى، لأن من شأن الطاغية أن يفرط ويطغى، فخافا أن «يفرط» عليهما فرعون بتعجيل العقوبة قبل إبلاغ ما كلفا به، أو أن يطغى فيستكبر، فخاطبا ربهما بذلك استجلاباً لتأمينه لهما، فأمنهما حين قال لهما: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

المعنى الإجمالي:

هذا هو المشهد الثاني[(١)] من مشاهد قصة موسى - عليه السلام - في هذه السورة: مشهد التكليف، فقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون الطاغية، فكان لا بد من الذهاب إلى فرعون الطاغية، على خوف منه، وقبله كان لا بد أن يتوجها إلى الله بما في نفوسهما من الخوف.

« يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرَين بالله تعالى شاكيَين إليه: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك... فكان الرد من الله تعالى بتأمينهما ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي»[(٢)]. وابتدآه بإيضاح قاعدة رسالتهما ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسِلْهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة[(٣)]، ليشعر فرعون منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه، ثم إيضاح لموضوع رسالتهما بإرسال بني إسرائيل معهما، ورفع العذاب عنهم ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾ معجزة ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾[(٤)] على أنه أرسلنا

---

(١) «وهنا يطوي السياق المسافات والأبعاد والأزمان، فإذا هارون مع موسى. وإذا هما معا يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون... والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس". في ظلال القرآن:٤/ ٢٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٧. وينظر جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٠.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١.

(٤) «وإنما وحدها وهما آيتان لأنه أراد إقامة البرهان وهو معنى واحد». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

إليك بذلك، إن أنت لم تصدّقنا فيما نقول لك أريناكها[١].

ثم ترغيب واستماله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي: «والسلامة لمن اتبع هدى الله وهو بيانه»[٢]، ثم تهديد وتحذير غير مباشر ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾[٣]. «أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته»[٤].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* **إن تأمين الله تعالى لموسى وهارون بقوله:{لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} منحهما الثقة في الانطلاق في الدعوة، وأزال عنهما الخوف من بطش فرعون، لأن من كان الله معه أمن واستغنى عمن سواه، ولْيأمن السالكون سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فهم على هدى الأنبياء ماضون.**

* **«إن في تكرار لفظ الربوبية مضافا إلى فرعون كما في قوله سبحانه:﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ترغيب وتحبيب في جو من السلام والأمن لا يسمح لخواطر الانتقام أن تثور في نفس فرعون»[٥].**

* يظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم. وفي سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير. ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل، ويذلهم بقتل المواليد الذكور. واستبقاء الإناث؛ وتسخير الكبار في الشاق المهلك

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١.

(٣) في ظلال القرآن:٤/ ٢٣٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٨.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١٩٦.

من الأعمال»[١].

* ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾ **استعداد الداعية بحجته في الجدل والحوار ليدحض حجة خصمه.**

* إن في قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ بعد قولهما ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ ترغيب يسبق الترهيب، ثم هو ترهيب بأسلوب غير مباشر، فلم يواجه فيه موسى - عليه السلام - فرعون بالخطاب، وإنما استعمل الاسم الموصول الذي يفيد الإبهام والعموم، وهذا متسق مع ما أُمِرَا به من استعمال اللين مع فرعون، استمالة لقلبه، وسنة القول اللين وتقديم الترغيب على الترهيب سنة ينبغي على الدعاة الحرص عليها لإنجاح دعوتهم.

* فزع موسى وهارون إلى ربهما خوفا من سرعة بطش فرعون وطغيانه، وكان لذلك الخوف مسوغاته، وأسبابه، منها:[٢].

أ- أن موسى عليه السلام تربى في قصر فرعون، ورأى بعينه صور النكال بأفراد الشعب داخل القصر.

ب- أنه قاس قدرته كداعية إزاء قدرة المدعو، وما يملك من قوى وطاقات... فهو وأخوه هارون في جانب، والدولة كلها في جانب آخر.

ج- كان فرعون وقومه على غاية ما تكون العنجهية والاستكبار في الأرض.

د- أن فرعون وملأه منعمون بنعم يتقلبون فيها، مما يثير في أنفسهم مشاعر الزهو والخيلاء.

هـ- أن موسى وهارون كانا من طبقة الأتباع، فكيف يرضخ لهما فرعون فيكون تابعاً لهما.

و- تفرد فرعون بالرأي، واعتبار رأيه هو الحق، وهو القائل: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٠.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٨٧-١٨٨، ١٩٢.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم.

ومن مظاهر تلك العناية والرعاية في هذا المشهد ما يلي:

* بعد أن فزع الرسولان إلى ربهما جاءهما تأمين ربهما من طغيان فرعون﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وقد قال لهما في موضع آخر﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[القصص:٣٥].
* تأييد الله تعالى الرسولَين بالمعجزة ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾.
* أعقبا التصريح برسالتهما الإدلاء ببينتهما على صدق ما صرحا به من الرسالة، احتراماً لعقله وإلزاماً للحجة، فقالا: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾.
* من عناية الله تعالى بفرعون أنه أمر موسى وهارون أن يخاطباه بأسلوب الاستعطاف بالربوبية، حيث قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، ليتذكر أن ما هو فيه من الملك والنعيم إنما هو من عطاء ربه الذي أرسلهما.
* مخاطبته بلفظ السلام استعطاف وترغيب له:﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾
* تخويفه بالعذاب بلفظ الموصول «من»، وعدم مواجهته بالخطاب لئلا يستفز فيستكبر عن الحق، فقالا:﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾، وبهذا الأسلوب اللين جمعا له بين الترغيب والترهيب استمالة لقلبه، ورجاء أن يتذكر أو يخشى.
* إن من أهم أولويات موسى وهارون إنقاذ بني إسرائيل، ورفع العذاب عنهم، لذا ضمنا حديثهما إلى فرعون أن يرسل بني إسرائيل معهما، ويرفع عنهم العذاب.

المشهد الثالث: مشهد الحوار والجدال مع فرعون

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ
ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ
أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ
﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾
فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ
مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد الحوار والجدل بين موسى وهارون من جانب، وفرعون من جانب آخر، وقد تناول هذا الحوار الربوبية، وما رافق ذلك من الأدلة والحجج البينة على إثباتها وشأن القرون الأولى التي علمها عند الله، والتحدي بالمعجزة من قبل فرعون، وطلبه موعد المباراة، وتحديد موسى - عليه السلام - الموعد مكاناً وزماناً.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

لما تضمن المقطع السابق إبلاغ موسى وهارون لفرعون بمهمتهما، وأنهما رسولا ربه يطلبان إليه إرسال بني إسرائيل، ورفع العذاب عنهم، ناسب أن يعقب ذلك جواب فرعون عن قولهما هذا، فكان هذا المشهد الذي ابتدأه فرعون بالسؤال عن الرب الذي أرسلهما، وهو ما كان ينكره فرعون حتى قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ وقال: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ وهذا المشهد يعرض الحوار والجدل المشفوع بالأدلة الدامغة الدالة على ربوبية الله تعالى مما هو مشاهد معاين عنده، من الأرض وسبلها، والماء المنبت للنبات، والأنعام وأقواتها، وهو ما لم يستطع فرعون إنكاره، لينتهي المشهد بالتحدي من قبل فرعون، فيطلب من موسى - عليه السلام - تحديد زمان ومكان المباراة، فكان التحديد من قبل موسى يوم عيدهم في ضحوة من النهار.

المعنى الإجمالي:

ذهب موسى وأخوه هارون بما أمرهما الله أن يذهبا به إلى فرعون فبلغاه ما كلفا به، وهنا يحكي الله تعالى ما دار بين موسى وفرعون من حوار، ومن ذلك أن فرعون وجه سؤالا إلى موسى عن رب موسى وهارون[١] **، فأجابه بما لا يستطيع إنكاره أو ادعائه فقال:** «ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها»[٢] . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها[٣] .

وثنى فرعون بسؤال آخر عن شأن القرون الأولى.. أين ذهبت؟ ومن كان ربها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت وهي لا تعرف إلهها هذا ؟

وعندها أحال موسى -ﷺ- ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء، ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله. في ماضيها وفي مستقبلها. والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله[٤] .

«أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى -ﷺ- بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا الله؛ أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره[٥] ، فقال له موسى في جواب ذلك،

---

(١) فقال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾وأفرد موسى بالنداء بعد جمعه مع أخيه هارون، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، أو لأن موسى الأصل في النبوة وأخوه تابع له. ينظر: جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

(٢) وقيل: « المعنى أن الله أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه فخلقه على هذا المعنى بمعنى المخلوقين، أي أعطى مخلوقاته، واستحسنه ابن جزي. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٣) أو هداهم إلى التوصل لما أعطاهم وعلمهم كيف ينتفعون به. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٥) «يحتمل أن يكون سؤاله عن القرون الأولى محاجة ومناقضة لموسى أي ما بالها لم تبعث كما يزعم موسى،=

هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً؛ يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، وتنزه، علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك»[(١)] .

ثم يستطرد موسى[(٢)] ليعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون، المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزرع والأنعام[(٣)] .

ويختم الاستطراد ببيان أنها آيات عظيمة، ولكن المعتبر بها هم أولو النهى.. أصحاب العقول السليمة الذين يتأملون بها هذا النظام العجيب ليطلعوا فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ويكمل السياق حكاية قول موسى -عليه السلام- بقول مباشر من الله جل وعلا.. من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهداً وسلكنا لكم فيها سبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى، للأكل والمرعى.. "أخرجناكم ولم تكونوا شيئا خلقا سويا، وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرّة أخرى، كما أخرجناكم منها أوّل مرّة"[(٤)] .

= أو ما بالها لم تكن على دين موسى، أو ما بالها كذبت ولم يصبها عذاب كما زعم موسى في قوله ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٢) يقول ابن عاشور: « ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله (فأخرجنا به أزواجا)». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٣٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٥.

ثم «يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناس من طيب ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاق بهائمكم منه وأقوات أنعامكم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ﴾ أي: إن فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره ﴿ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾يعني: أهل الحجى والعقول» [(١)] .

ويخبر الله تعالى عن موقف فرعون من الآيات كلها آيتي العصا واليد، والآيات الكونية التي حاجه فيها موسى عليه السلام، بأنه كذب بها وأبى: «فيقول تعالى ذكره: ولقد أرينا فرعون آياتنا كلها، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولَينا، موسى: وهارون إليه ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ أن يقبل من موسى وهارون ما جاءا به من عند ربهما من الحقّ استكبارا وعتوّا» [(٢)] . «كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ الآية» [(٣)] .

وبعد أن أخبر الله تعالى أنه أرى فرعون آياته كلها أتبعه بحكاية قول فرعون لموسى عقبه، فقال: "أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ لا نتعدّاه، لنجيء بسحر مثل الذي جئت به، فننظر أينا يغلب صاحبه، لا نخلف ذلك الموعد ﴿ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ أي: بمكان عدل بيننا وبينك ونَصَف" [(٤)] .

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٥. وقال: « وخصّ تعالى ذكره بأن ذلك آيات لأولي النّهَي، لأنهم أهل التفكّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ».

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٥، «وتأكيد الكلام بلام القسم و(قد) في «ولقد» مستعمل هنا في التعجيب من تصلب فرعون في عناده، وقصد منها بيان شدته في كفره وبيان أن لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون فلم تجد في إيمانه، وأجملت وعممت فلم تفصل، لأن المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفره». التحرير والتنوير، لابن عاشور:١٦/ ٢٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٦.

وكان جواب فرعون عن آية العصا واليد بأن ذلك سحرا، لأن السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر، فلذلك طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة.. وترك له اختيار ذلك الموعد: للتحدي، وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي... وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف مبالغة في التحدي [(١)]!.

وقبل موسى - عليه السلام - تحدي فرعون له؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة، وطلب أن يجمع الناس ضحى، ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحي، فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية [(٢)].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* **لما قال موسى وهارون ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ لم يستفهم فرعون عن ربه، فلم يقل لهما «فمن ربي» وإنما قال: «فمن ربكما»** «إعراضا عن الاعتراف بالمربوبية ولو بحكاية قولهما، لئلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له ربا» [(٣)]. **وهو الذي كان يقول:** ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

* بادر فرعون موسى وهارون بطرح الشبهات عليهما، فسألهما عن ربهما، وعن القرون الأولى، وكان الجواب من موسى مباشرة، ما حكاه الله تعالى هنا، وفي ذلك ما يدعو الدعاة أن

---

(١) وهو ما عبر عنه بـ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ والمراد: مكان مستوى في القرب منا ومنكم وقيل: مستوى الأرض ليس فيه انخفاض ولا ارتفاع». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٣٢.

يكونوا دائما على أتم الاستعداد للإجابة عن شبه الجاحدين الذين يتكررون عبر الأزمنة والأعصار.

* ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ بهذا الوصف « يلخص موسى -عليه السلام- أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود:هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها. وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها"[1] ، والعلم الحديث اليوم يكشف ما في هذه الآية من إعجاز علمي يأخذ بالألباب، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى كل شيء (من إنسان ونبات وحيوان وكائنات حية دقيقة وجماد) صورته اللائقة بخاصته ثم أرشده إلى ما يصلح له، وقد بين الدكتور نظمي خليل أبو العطا ما تضمنته هذه الآية من إشارات لطيفة تتعلق بها أثبته العلم الحديث في عالم النبات مما يدل على أنه سبحانه خلق النبات في أحسن صورة وأكمل خلقة ثم هدى كل نبات إلى ما يصلح له معيشته، ومن ذلك: التزاوج والتكاثر والحفاظ على الحياة في عالم النبات، ومواجهة الأخطار، والتعامل مع تقلبات البيئة وتغير الطقس من برودة أو حرارة، كما أن الله تعالى خلقها على هيئة تساعدها على الانتشار بحثا عن الرزق، وأودع فيها أحاسيس ومشاعر، فهي تحس بتغير البيئة من حولها، فتشعر بالحرارة والبرودة، وتتكيف معها، وتشعر بالشمس ونور الصباح، وتشعر بالظلام، فتراها حين تشرق الشمس تستيقظ، وحين تغيب تنام، إنه عالم جدير بالتدبر تحققت فيه هداية الله تعالى لخلقه إلى ما يصلحه، فسبحان الله رب العالمين الذي خلق فسوى وقدر فهدى، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[2] .

* **إن انتقال فرعون من السؤال عن الرب إلى السؤال عن القرون الأولى كان يرمي منه إشغال موسى -عليه السلام- عن الدعوة إلى التوحيد لأنه أخوف ما يخافه هو التوحيد خشية أن يحرك**

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٢) ينظر موقع: www. 55a. net عن كتاب «آيات معجزات من القرآن وعالم النبات» للدكتور نظمي خليل أبو العطا.

قلوب الحاضرين نحوه، أو ربما أراد أن يكسب ود الحاضرين، ويثير حميتهم الجاهلية لتوقعه أن موسى -عليه السلام- سيجيب بذكر مصيرهم وهو النار، فيثير ذلك سخط الحاضرين عليه، أو أنه يجاملهم ببيان أنهم يستحقون الاحترام، وعليه يحتج فرعون بأنهم كانوا على عقيدتي، وأنت معترف باحترامهم(١)**، ولكن جواب موسى -عليه السلام- لم يحقق توقع فرعون حيث أجابه بقوله: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ ثم استمر يعدد صفات الله التي كان يتهرب منها فرعون، فهو سبحانه الذي جعل الأرض مهدا وسلك فيها السبل وأنزل من السماء ماء فأحيى به الأرض، وأنبت به الزرع مما يأكلون منه هم وأنعامهم**(٢)**.**

* قطع موسى -عليه السلام- على فرعون أي إمكانية في المغالطة أو الإيهام حين «وصف الله تعالى بأوصاف لا يمكن فرعون أن يتصف بها لا على وجه الحقيقة ولا على وجه المجاز ولو قال له هو القادر أو الرازق وشبه ذلك لأمكن فرعون أن يغالطه ويدعي ذلك لنفسه»(٣).

* إن الإنسان مرتبط بهذه الأرض فهو» مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالا، ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس. وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتا يختلط بترابها، وغازا يختلط بهوائها. ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق في النشأة الأولى"(٤).

* قوله تعالى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ «دليل على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية

---

(١) «ويحتمل أن يكون قال ذلك قطعا للكلام الأول وروغانا عنه وحيرة لما رأى أنه مغلوب بالحجة ولذلك أضرب موسى عن الكلام في شأنها فقال علمها عند ربي ثم عاد إلى وصف الله رجوعا إلى الكلام الأول». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٢) ينظر: فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ٢١٠-٢١١، عن كلام الندوي بتصرف.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

لمواراة الموتى سواء كان شقا في الأرض أو لحدا، لأن كليهما إعادة في الأرض؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته، لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ ﴾ [المائدة:٣١] فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض»[(١)] .

* ليس على الداعية إلا البلاغ، ومن أنذر فقد أعذر، ولا يشغلن الداعية نفسه -كثيرا- بالنتائج، وليترك أمرها إلى الله، فهو سبحانه يحققها متى شاء وكيف شاء، ألا ترى أن موسى وهارون قد بلغا، وأرى الله فرعون على أيديهما آياته:﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ ومع ذلك كذب وأبى.

* قول فرعون ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ استثارة لنفوس الحاضرين واستفزازها بتذكيرهم بالانتماء إلى وطنهم وخطورة إخراجهم منه حتى يزدادوا تمسكا به[(٢)]، وكم هو ثقيل على النفس أن تنتزع من أرضها، بسبب سحر هم أعلم الناس به وأقدر عليه، «وحتى يزيل -بقوله ذلك- ما يخالج نفوس الناس من تصديق موسى -عليه السلام- وكونه على الحق، لعل ذلك يفضي بهم إلى الثورة على فرعون وإزالته من ملك مصر»[(٣)] . وليظهر لهم حرصه عليهم.

* ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ قالها فرعون إيهاما للسامعين بأن ما جاء به موسى -عليه السلام- ليس إلا سحر، يمكن أن يقابل بمثله، ثم خير موسى -عليه السلام- في تحديد الموعد المناسب

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ٢٢١.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤٥.

للمناجزة والمبارزة، وكأنه أراد أن يوهم السامعين بقوة سحره، وثقته به، بيد أن ثقة موسى -عليه السلام- بربه وبنصره فاقت ثقة فرعون بسحره حيث قبل موسى -عليه السلام- تحدي فرعون مباشرة، «وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية"[(١)] ، وكان هذا **الاختيار لهذا الوقت** « ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى»[(٢)] ، «وقصد موسى أن يكون موعدهم عند اجتماع الناس على رؤوس الأشهاد لتظهر معجزته ويستبين الحق للناس»[(٣)] . وهذا كله يؤكد ثقته العظيمة بنصر الله تعالى.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة

تتجلى في هذا المشهد عناية الله تعالى بموسى وهارون حيث منعهما من بطش فرعون وطغيانه حتى بلغا ما كلفا به، وألهمهما الأجوبة الدامغة على شبهات فرعون، الداحضة لحججه، ومنحهما الثقة بتأكيد التحدي لفرعون حين بادرهما بالتحدي، ليكون ذلك كله لطفا آخر بفرعون ومن معه، حيث أزال عنهم الشبهات، وأقام عليهم الحجة، فكان المعقول منهم أن يعودوا إلى الحق ويرعووا إليه، هذا بالإضافة إلى ما يحمله التذكير بمنن الله تعالى من اللطف والعناية بهم، فالله سبحانه هو جعل لهم الأرض مهداً، وسلك لهم فيها سبلاً، وأنبت فيها الزرع، لهم ولأنعامهم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٥.

المشهد الرابع: مشهد المباراة بين موسى -عليه السلام- والسحرة

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ
ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾
قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ
﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا
يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ
أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى
جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ
فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن
يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد موعظة موسى -عليه السلام- للسحرة، وإصرار السحرة على المواجهة مع قوة الموعظة، ثم وقوع المنازلة، والنتيجة التي أسفرت عنها المباراة، وأثر هذه النتيجة في صفوف المهزومين، وتهديد فرعون وتوعده للسحرة المؤمنين بالقتل والصلب، وبيان قوة إيمانهم في إصرارهم على الموت على الإيمان، طمعا في أن يغفر الله لهم ما قد أكرهوا عليه من السحر، مع ما تضمنه السياق من وصف الوقوف أمام الله تعالى لمن أتاه مجرما ولمن أتاه مؤمنا، وجزاء كل منهما.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

بعد أن انتهى المشهد السابق من الإجابة عن شبهات فرعون، وختم بتحدي فرعون وقبول موسى -عليه السلام- التحدي وتحديد الموعد، ناسب أن يعقبه بيان موقف فرعون من تلك

الحجج وذلك التحدي، أيرعوي فيسلّم، أم يعرض ويأبى، فكان من بيان حاله أنه اختار التولي عن قبول الحق، والاستعداد لمواجهة موسى، ثم مضى المشهد يحكي قصة المباراة، والمبارزة ونتائجها.

المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أي: فأدبر فرعون معرضا عما أتاه به من الحقّ ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ أي: فجمع مكره، وذلك جمعُه سحرتَه بعد أخذه إياهم بتعلمه، ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته" [(١)].

تصوِّر هذه الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون، وجمع كيده، والإتيان به، وهي آية تضمنت بإجمال كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه" [(٢)].

رأى موسى - عليه السلام - قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله، لعلهم يثوبون إلى الهدى، ويدعون التحدي بالسحر، والسحر افتراء.

"يقول تعالى ذكره: قَالَ مُوسَى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾، أي لا تختلقوا على الله كذبا، ولا تتقوّلوه ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أي: فيستأصلكم بهلاك فيبيدكم... ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾، فلم يظفر بحاجته التي طلبها به، ورجا إدراكها به" [(٣)].

ويبدو أن الموعظة أثرت فيهم فصار أمرهم إلى التنازع في شأن موسى وهارون،

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤١.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٨-١٧٩.

فتنازعوا أمرهم بينهم، وأسروا النجوى وكانت تلك النجوى قولهم: «إن كان هذا ساحرا فإنا سنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، أو أن قولهم: ما هذا القول بقول ساحر، أو قولهم الذي ذكر الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[(١)].

وإنما أردوا بقولهم هذا: «أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم[(٢)] أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب»[(٣)].

وفي هذه النجوى تحميس من المصرين على المواجهة للمترددين فيها، ثم تابعوا تحميسهم بدعوتهم إلى إحكام كيدهم والعزم عليه وأفصحوا عن طريقتهم في المواجهة فقالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ وفرعون معهم يعدهم ويمنيهم مبشراً إياهم بالفلاح وهم في غمرة الاغترار بسحرهم وأمل الفوز بجائزة فيقول لهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره"[(٤)].

ولم يكن بد من المواجهة بعد هذا التحميس وذاك الغرور، فتقدم السحرة إلى موسى -عليه السلام- بتخييره بين أن يبدأ أو أن يبدؤوا، فأذن لهم بأن يبدؤوا، «فكان أوّل ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كلّ رجل منهم ما في يده من العصي

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) نقل الشوكاني عن الفراء قوله: العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم» فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢١.

(٣) والمثلى: تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، يقال فلان أمثل قومه: أي أفضلهم، وهم الأماثل. فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢١، وينظر جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٢. وقيل: المعنى: ويغيرا سنتكم ودينكم الذي أنتم عليه»، وهو قول لم يستجز الإمام الطبري القول به وإن كان له وجه في لغة العرب. ينظر تفسيره: ١٦/ ١٨٣.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٤.

والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا»[(١)] .

«فأوجس في نفسه خيفة موسى» أي أحس، أو وجد، أو أضمر، أو خاف، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه، وقيل خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه، وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا»[(٢)] ، «وقال: والله إن كانت لعصياً في أيديهم، ولقد عادت حيات، وما تعدو عصاي هذه»[(٣)] .

فأذهب الله ما به من الخوف لما قال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على هؤلاء السحرة وعلى فرعون وجنده، والقاهر لهم»[(٤)] ، لأن معك الله الذي هو الأعلى ولا يعلى عليه.

ثم أمره أن يدخل في المباراة بأن يلقي عصاه التي في يمينه، ليشهد مشاهد العلو والمعجزة فألقاها «فإذا هي تلقف ما صنعوا، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها حية حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: ولا يظفر الساحر بسحره بما طلب أين كان»[(٥)] . «ووقع السحرة سجدا، قالوا: آمنا بربّ هارون وموسى، لو كان هذا سحر ما غلبنا»[(٦)] .

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٣/ ٢٢، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٢.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٧-١٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٦.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٢.

(٦) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨.

فتثور ثائرة فرعون وينكر على السحرة إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم ويتهمهم بالتواطؤ مع موسى وأخذهم السحر عنه فقال: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي أصدّقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أطلق ذلك لكم ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي: إن موسى لعظيمكم ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾[1] ، وإنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٣]»[2] .

فتوعد وهدد وقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾[الأعراف:١٢٤] أي: فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم مخالفا بين قطع ذلك، وذلك أن يقطع يمنى اليدين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعا من خلاف، وكان فيما ذُكر أوّل من فعل ذلك فرعون»[3] . «ولتعلمنّ أيها السحرة أينا أشدّ عذابا لكم، وأدوم، أنا أو موسى»[4] .

وبالرغم من قوة التهديد والوعيد إلا إنهم لم يأبهوا بوعيده لعلمهم بأن قضاء فرعون فيهم لا يتعدى هذه الحياة الدنيا، وليس لهم الآن وقد تجلت لهم الحقيقة، أن يؤثروه على ما جاءهم من البينات فقد رأوا شواهد الحق بأعينهم، وهم بإيمانهم يطمعون أن يغفر الله لهم خطاياهم.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[الشعراء:٥١] ويرجون أن يلقوا الله على الإيمان لينالوا ما وعدهم الله تعالى من الجزاء، الذي قالوا عنه في سياق موعظتهم لفرعون وملئه: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٤.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٩.

«يقول تعالى ذكره: قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعّدهم به: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ فنتبعك ونكذّب من أجلك موسى عَلى الذي جاءنا من البينات يعني من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى، ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: ولن نؤثرك على الذي فطرنا: أي خلقنا.

ويحتمل أن يكون معنى قوله «والذي فطرنا» قسم فيكون المعنى: والله فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ أي: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك إنما تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدّنيا يقول: إنما تقدر أن تعذّبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى»[(١)].

ثم إنهم أفصحوا عن علة إيمانهم بالله تعالى بقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي: إنا أقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا بوعده ووعيده، وأن ما جاء به موسى حقّ ليغفر لنا ذنوبنا، وتعلّمنا ما تعلمناه من السحر، وعملنا بالسحر الذي أكرهتنا على تعلّمه والعمل به. «وذُكر أن فرعون كان أخذهم بتعليم السحر»[(٢)]. أو أن المعنى: «أنه أكرههم على تحديهم موسى بسحرهم فعلموا أن فعلهم باطل وخطيئة لأنه استعمل لإبطال إلهية الله، فبذلك كان مستوجبا طلب المغفرة»[(٣)].

«وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ يقول: والله خير منك يا فرعون جزاء لمن أطاعه، وأبقى عذابا لمن عصاه وخالف أمره»[(٤)].

ثم يخبر الله تعالى عما قالته السحرة لفرعون: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ من خلقه ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مكتسبا الكفر به، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ مأوى ومسكنا، جزاء له على كفره ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتخرج نفسه ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فتستقرّ نفسه في مقرّها فتطمئنّ، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم، ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ موحداً لا يُشرك به ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: قد عمل ما أمره به ربه،

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٩.
(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٩.
(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦٧.
(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٠.

وانتهى عما نهاه عنه ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي درجات الجنة العُلَى»[(١)].

وقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي: وهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله ثواب من تزكى، أي: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه»[(٢)].

وهكذا انتهت المعركة بعلو موسى وهارون، وهزيمة فرعون وجنده، وظهور الحجة البالغة، التي ألقي بسببها السحرة ساجدين إيمانا بالله رب موسى وهارون، ثم استقبالهم للابتلاء بالرضى والصبر، راجين أن يغفر الله لهم ما قد سلف، وطامعين في نيل ما عند الله فإن ما عند الله خير وأبقى، وقد كان، فإنهم أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، **يقول ابن كثير**» والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»[(٣)].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* إن موقف فرعون الرافض للحق، والمصر على المواجهة –مع وضوح الحق- يشير إلى عمق الاستكبار الذي استولى على نفس فرعون، ولم يكن رفضه ذلك إلا علوا واستكبارا، وقد قال تعالى في حقهم: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤].

* تقدم موسى عليه السلام بالموعظة للسحرة، والإنذار بعذاب الله تعالى، وحذرهم من الخيبة إن هم افتروا على الله الكذب، وبذلك يكون أعذر إلى الله تعالى، حتى إذا ما وقع عليهم العذاب لم يكن لهم حجة عليه، ومن أنذر فقد أعذر، وسرى أثر هذا الترهيب إلى قلوب بعض السحرة، وكذا شأن الكلمة الصادقة حين تلمس القلوب وتنفذ فيها، فقد تأثر بعضهم بالكلمة المخلصة،

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٠.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٥.

فتلجلج في الأمر[(١)]، وحصل التنازع في صفوفهم قبل دخول حلبة الصراع﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ وحتى أولئك المصرين من السحرة على المواجهة بقي أثر الموعظة في قلوبهم، فلما غلبوا وتحقق النصر لموسى ﷺ آمنوا، وثبتوا على الإيمان.

* إن من عوامل التأثير في موعظة موسى أنه ﷺ استعمل اللين في موعظتهم، فلم يوجه الخطاب إليهم بالخيبة، فلم يقل "وقد خبتم" مع أنه معلوم لديه أنهم مفترون، وهذا من حسن الإنذار، حيث لم يباشرهم به، وإنما قال:﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾[(٢)].

* ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ «إعلان بأنه-ﷺ- لا يتقول على الله ما لم يأمره به لأنه يعلم أنه يستأصله بعذاب، ويعلم خيبة من افترى على الله، ومن كان يعلم ذلك لا يقدم عليه»[(٣)].

* ﴿ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ كلمة قالها فرعون، ورددها أتباعه أسوة به فقال بعضهم لبعض ﴿ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾ وكلمة أخرى قالها فرعون: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[غافر:٢٩] ومثلها ردد الأتباع هنا حين قالوا في التحذير من موسى وهارون: ﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ ليُعلم بهذا أن الأتباع المنتفعين يتأسون بمتبوعهم في التأكيد على أن النظام القائم هو الأصلح والأفضل، وأن الخروج عليه شطط عن الحق يجب الوقوف أمامه، ومواجهته.

* أراد السحرة إرهاب الناس وإرهاب موسى وهارون، **فحمس بعضهم بعضا بأن يأتوا** صفا، «لأن ذلك أهيب لهم، ولم يزل الذين يرومون إقناع العموم بأنفسهم يتخيرون لذلك بهاء الهيئة وحسن السمت وجلال المظهر. فكان من ذلك جلوس الملوك على جلود الأسود وربما لبس الأبطال جلود النمور في الحرب»[(٤)]، كما أن الإتيان صفا يشير إلى أهمية توحيد

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤١.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٦.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٠.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٦.

الجهود، وأنه ذو أثر قوي في تحقيق النصر.

* ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ هذه تمنية بالجوائز إن هم علوا وغلبوا، وهكذا شأن المتسلطين يمنون أنصارهم بالمكافآت والجوائز، والعطايا.

* إن أمر موسى -عليه السلام- لهم بالإلقاء ربما للتعرف على قوة سحرهم، أو لإبراز قوة معجزته أمام سحرهم العظيم وهو أقصى ما علموه من السحر، فإنه لو سبقهم لربما أحجموا عن الإلقاء بسبب قوة معجزته، فتضيع فرصة إقامة الحجة البينة عليهم أمام الناس.

* أذن الله تعالى للسحرة أن يؤثروا بسحرهم على موسى -عليه السلام- حتى خيل إليه حبالهم وعصيهم من سحرهم أنها تسعى، وربما كان ذلك ليعلم هو أن الناس قد رأوا ما رآه فيستشعر منة الله عليه وعلى الناس حين تعلو معجزته على سحر السحرة.

* ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ هذا دليل على عظمة هذا السحر حتى بلغ إلى أن أوجس موسى في نفسه خيفة، ليري الله موسى من بعد أن قوة المعجزة أعظم مما جاءوا به من السحر، وهذا أيضا "من أقوى الدلائل على صدقه -عليه السلام- في النبوة لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة"[(١)] فلما لم يكن موسى عليه السلام ساحرا وقع الخوف في نفسه، أو «إنما خاف موسى من أن يظهر أمر السحرة فيساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعبانا، لأنه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاقوه بالكثرة»[(٢)]، فأوحى إليه ربه أن يلقيها ليرى كيفية فعلها بحياتهم، فيستشعر منة الله تعالى عليه، ويطمئن إلى نصره.

* ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ هذه الجملة رد على كل من يعتقد في السحر الفلاح والغلبة وهي في سياق القصة هنا إشعار بأن السحر مهما بلغ في القوة والتأثير فمآله إلى الهزيمة والخذلان، فكان كما قال الله تعالى، ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ

(١) نقله الرازي عن أبي القاسم الأنصاري. التفسير الكبير: ٢٢/ ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٩.

سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[الأعراف: ١١٩-١٢١].

* ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ **بني الفعل للمجهول ليشعر بقوة المعجزة، وكأن ملق قد ألقاهم سجدا، ليعلنوا إيمانهم -على الفور- برب موسى وهارون لما عرفوا الحق، فلم يتنازعوا كما تنازعوا من قبل.**

* لقد كان «تعبيرهم عن الرب بطريق الإضافة إلى هارون وموسى، لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة لأن لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون»[1].

* «لما رأى فرعون إيمان السحرة تغيظ ورام عقابهم ولكنه علم أن العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة فاختلق للتشفي من الذين آمنوا علة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾، فعد ذلك جرأة عليه وأوهم أنهم لو استأذنوه، لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾.

* ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأن موسى -عليه السلام- لم يأت بما يعجز السحرة إدخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات. وهذه شنشنة من قديم الزمان اختلاق المغلوب بارد العذر. ومن هذا القبيل اتهام المحكوم عليهم الحاكمين بالارتشاء، واتهام الدول المغلوبة في الحروب قواد الجيوش بالخيانة»[2].

* هدد فرعون وتوعد بالقتل والصلب، وهكذا هو فعل الطغاة حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح، وعن إقناع الناس بباطلهم يلجؤون إلى التهديد بالعذاب الغليظ على الجسوم والأبدان[3]، ولكن جواب السحرة المؤمنين، كان جواب الثابت على الحق، فعلى

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦١.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٣.

قدر وضوح المعجزة لهم كانت قوة إيمانهم ويقينهم بالله فأجابوه بقولهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ ثم بينوا علة إصرارهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾[1]، وأظهروا بقولهم هذا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. «ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد ﷺ مثل صدق»[2]، ثم ألقوا موعظتهم على السامعين فقالوا[3]: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ وهي موعظة نابعة من قلوبهم يوقنون بها، ويطمعون أن ينالوا الدرجات العلى، وقد حقق الله لهم ذلك، فقد أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة: محور السورة العناية بالرسل والمدعوين والرعاية لهم، وإن من عناية الله تعالى بموسى عليه السلام **أن أذهب عن موسى الخوف، حين نهاه عن الخوف، وأنزل السكينة على قلبه حين بشره بأنه هو الأعلى، وكان الأمر كما بشره ربه، فعلت قوة المعجزة على كيد الساحرين علوا بينا، وأقر الله عينه بإيمان السحرة على مرأى من فرعون وملئه، وحماه من فرعون وبطشه رغم شدة تغيظه في هذا الموقف.**

كما تجلت عناية الله تعالى بالمدعوين حين ألهم نبيه موسى عليه السلام أن يتقدم إلى السحرة بالموعظة التي أثرت فيهم، فأوقعت في نفوسهم التردد قبل المباراة، فتنازعوا في شأن موسى

---

(١) حين قال لهم من قبل: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦٧.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦٦.

(٣) يستبعد ابن عاشور أن يكون هذا القول من كلام أولئك المؤمنين، لأنه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصة. التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٨.

-عليه السلام- بين التصديق والتكذيب، فلما تبين صدقه بالغلبة والنصر، أيقنوا حينها أن ما جاء به موسى -عليه السلام- هو الحق فآمنوا إيماناً صادقاً، واتصلت رعاية الله لهم بعد إيمانهم بتثبيتهم على الإيمان مع قوة تهديد فرعون، وكذلك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[ابراهيم:٢٧].

المشهد الخامس: مشهد خروج موسى ببني إسرائيل

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد تذكير الناجين من بني إسرائيل بمنة الله عليهم، وتحذيرهم من الطغيان، وقصة إهلاك فرعون وجنوده، ونجاة بني إسرائيل، ثم المواعدة جانب الطور، وإنزال المن والسلوى عليهم، وختمه بالترهيب بالتهديد بالغضب على من طغى من بني إسرائيل وبسط الأمل بالمغفرة ﴿ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ليعتبر المؤمنون، ويستمروا على شكر المنعم.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

«إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة. فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود.

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول. فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تأكدت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم في القلب، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى - عليه السلام - من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه. ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة»[(١)].

إن السامع للمشهد السابق بما فيه من غلبة القلة المؤمنة الضعيفة، وبما فيه من التهديد والوعيد من قبل فئة متسلطة متغطرسة ليترقب الخبر عما يحدث بعد، فكان هذا المشهد الذي يحكي الله تعالى فيه نجاة بني إسرائيل، وهلاك فرعون وقومه، فتكتمل الصورة لدى السامع من بداية المعركة إلى هزيمة الطغاة ونصر المؤمنين، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[يونس:١٠٣].

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ ﴾[(٢)] إلى نبينا ﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ إذ تابعنا له الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيب لأمر ربه، وطغى وتمادى في طغيانه ﴿ أَنۡ أَسۡرِ ﴾ ليلاً ﴿ بِعِبَادِي ﴾ أي بعبادي من بني إسرائيل ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا ﴾ أي: فاتخذ لهم في البحر طريقا

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٤.

(٢) يقول ابن عاشور: «افتتاح الجملة بحرف التحقيق للاهتمام بالقصة ليلقي السامعون إليها أذهانهم». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٩.

يابساً»[1] ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ أي: لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك ولا تخشى غرقاً من بين يديك ووَحَلاً»[2]. «وهو وعد لموسى دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى»[3].

«فسرى موسى ببني إسرائيل إذ أوحينا إليه أن أَسْرِبهم، فأتبعهم فرعون بجنوده في الطريق الذي سلكوا حين قطعوا البحر، فغشي فرعون وجنده من اليم ما غشيهم، فغرقوا جميعا ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩ ﴾ أي: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ أي: وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه»[4].

«فلما نجا موسى بقومه من البحر، وغَشِيَ فرعون وقومه من اليم ما غشيهم، قلنا لقوم موسى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾ فرعون ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أي: كلوا يا بني إسرائيل من شهيات رزقنا الذي رزقناكم، وحلاله الذي طيبناه لكم ﴿ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ أي: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضكم بعضا»[5]. «... فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به»[6]، أو أن المراد «النهي

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩١.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩١.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٠.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٢.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٣.

« ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٧.

عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم»[١]. ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي: فتنزل عليكم عقوبتي... ومن يجب عليه غضبي، فينزل به ﴿ فَقَدْ هَوَىٰ ﴾، أي فقد تردّى فشقي»[٢].

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ أي: وإني لذو مغفرة لمن تاب من شركه، فرجع منه إلى الإيمان لي ﴿ وَءَامَنَ ﴾، أي: وأخلص لي الألوهية، ولم يشرك في عبادته إياي غيري[٣]. ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: «وأدّى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنب معاصيّ. ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي: ثم لزم ذلك، فاستقام ولم يضيع شيئا منه»[٤].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* أيد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بمعجزة العصا حين أمره أن يضرب بها البحر ليسلكوه في أمان من الدرك بعد أن قالوا إنا لمدركون.

* إن «الإضافة في قوله ﴿ بِعِبَادِي ﴾ لتشريفهم، وتقريبهم، والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسوا عبيدا لفرعون»[٥].

* «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٥.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٣-١٩٤.

(٣) حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٤-١٩٥. وقد اختار الطبري هذا القول في معنى {ثم اهتدى} ثم قال: « وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك، من أجل أن الاهتداء هو الاستقامة على هدى، ولا معنى للاستقامة عليه إلا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه، فلا شكّ في اهتدائه» وقيل: ثم اهتدى: أي ولزم الإيمان والعمل الصالح، وقيل: لم يشكك في إيمانه، وقيل: ثم استقام. وقيل: أصاب العمل، وقيل: عرف أمر مثيبه: إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا». جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٤-١٩٥

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٠.

لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفاً. فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب... هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال، وبتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات. ليستيقنها أصحاب الدعوات ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض. والطغاة يملكون المال والجند والسلاح"[(١)].

* «هكذا يجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه، ولا يفصله، ليبقى وقعه في النفس شاملا مهولا؛ لا يحدده التفصيل.

* وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر، وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار"[(٢)].

* إن في إيمان السحرة وثباتهم على الحق درس بليغ للدعاة إلى الله في الثبات، وقد كان من قبل تثبيت لأولئك المؤمنين في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقت نزول هذه السورة.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم، وتأمل حال القوم الذي حكاه الله بقوله:﴿ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الشعراء:٦١].. ولك أن تستشعر ما تحمله جملة «إنا لمدركون» من قوة التأكيد إذ اجتمع فيها حرفا التأكيد «إن» و«اللام»، ولك –أيضا– أن تتصور بعد ذلك حجم الهم والغم الذي غشي القوم وهم يظنون

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٤.

أنهم مدركون من قبل فرعون الطاغية، فإذا بلطف الله تعالى يدركهم قبل أن يدركهم بطش فرعون وجنوده، فألهم الله موسى -عليه السلام- أن يطمئنهم بلسان الواثق بالله ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ ﴾[الشعراء:٦٢]، وقد هداه. وهنا في هذه السورة يخبرنا الله تعالى بما أوحاه إلى موسى من الأمن والاطمئنان حين قال:﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧ ﴾، « وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله - بني إسرائيل - ليلا. فيضرب لهم طريقا في البحر يبسا... مطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه»[1] ، ليقر الله أعينهم بإغراق فرعون وقومه.

«لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسري ليلاً. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع.. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها. فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا. هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة. ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها. بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده»[2] .

وتتابع منن الله تعالى على بني إسرائيل عناية بهم ورعاية لهم، فواعدهم الله جانب الطور «ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر واقع؛ وكانت مواعدة لموسى عليه السلام -بعد خروجهم من مصر- أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربه، ليسمع ما يوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة، المنظمة لهذا الشعب الذي كتب له دورا

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر"[١]. ونعمة نزول الشريعة نعمة عظيمة وردت هنا في موضع التذكير بها إذ هي منة من الله تعالى عليهم.

وأنزل عليهم المن والسلوى: «وتنزيل المن؛ وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر. والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل التناول، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء. وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد"[٢].

المشهد السادس: مشهد المناجاة إلى جانب الطور الأيمن
وموقف موسى -عليه السلام- مما أحدث قومه من بعده

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ
﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ
فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ
مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ
هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ
عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ
أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾﴾

تضمن هذا المشهد عتاب الله لموسى -عليه السلام- لتعجله لقاء ربه، وتركه قومه، وفتنة السامري حين صنع لهم عجلا جسدا له خوار، ودعاهم إلى عبادته، فعبدوه بعد فراق موسى -عليه السلام- لهم، وموقفه من قومه بعد رجوعه إليهم غضبان أسفا، ولومه لهم على عبادتهم العجل، وموقفه مع أخيه، ولومه على عدم اتباعه حين تيقن ضلال قومه، وحواره مع السامري، ثم ما صار إليه السامري من العقوبة بالإبعاد، وما آل إليه العجل المصنوع من الإحراق والنسف في اليم، ليختم المشهد بالتأكيد على ألوهية الله تعالى بعد إثبات أن العجل لا يستحق أن يعبد من دون الله وقد نسف في اليم نسفا.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله.

الاستفهام بقوله ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ «استفهام مستعمل في اللوم، وذلك أن موسى -عليه السلام- تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبان الذي عينه الله له، اجتهاداً منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحف بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذرهم مكر من يتوسم فيه مكراً»[1] . ولما كان الأنبياء أعلى مقاماً وقع اللوم لموسى عليه السلام في أمر اجتهد فيه مريداً الخير، فاحتاج اجتهاده ذلك إلى الاستغفار، إذ لم يقع على ما أراده الله منه، فناسب أن يساق هذا اللوم هنا بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ﴾ ليشعر السامع بأن الله تعالى غفر لنبيه، لأنه غفار لمن استغفره، وقد

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٧.

استغفره موسى من بعد حيث قال: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى ﴾.

هذا بالإضافة إلى أن هذا السؤال «عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى -عليه السلام- بأنهم يأتون على أثره، فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل» (١). والذي أفاض المشهد ببيان أحداثه.

ولما كان المشهد السابق تضمن عرض المنن الكثيرة التي من الله بها على بني إسرائيل، وختمها بالوعيد بغضب الله لمن لم يشكرها ناسب أن يعقبه هذا المشهد الذي تحقق فيه ذلك الوعيد لما طغى القوم، وكفروا بنعم الله تعالى، ولم يرعوها حق رعايتها، فعبدوا العجل واتخذوه إلها، فحق عليهم اللوم والتبكيت، وحقت على السامري العقوبة، وباجتماع المشهدين درس للسامع بأن يلازم الشكر، فبالشكر تدوم النعم، وبكفرها تحل العقوبة والنقم، والله أعلم.

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: وما أعجلك؟ وأيّ شيء أعجلك عن قومك يا موسى، فتقدمتهم وخلّفتهم وراءك، ولم تكن معهم؟ ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾، أي: قومي على أثري يَلْحَقُون بي. ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي: وعجلت أنا فسبقتهم ربّ، كيما ترضى عني» (٢).

ثم « قال الله تعالى ذكره لموسى: فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك، -أي: من بعد فراقك إياهم- بعبادة العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى. ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل. ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾أي: فانصرف موسى -عليه السلام- إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة ﴿ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ متغيظاً

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٥. ثم قال الطبري: «وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك؟ لأنه جلّ ثناؤه، فيما بلغنا، حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجّل موسى إلى ربه، وأقام هارون مع بني إسرائيل، يسير بهم على أثر موسى».

على قومه، حزيناً لما أحدثوه بعده من الكفر بالله»[١]. « وهو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه، وسخافة عقولهم وأذهانهم"[٢].

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ ﴾ ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم المنّ والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم»[٣].

أو أن المعنى «أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله»[٤].

﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، أي: أفطال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم[٥]، أم[٦] أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم: أي: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافهم موعده، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى -عليه السلام- للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾[٧]، فقال قوم

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.
(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.
(٥) يقول ابن جزي: وهذا الكلام توبيخ لهم. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٧.
(٦) « أم ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.
(٧) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٦-١٩٧.

موسى لموسى: ﴿ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ ﴾، يعنون بموعده: عهده الذي كان عهده إليهم»[1].

وقولهم: ﴿ بِمَلۡكِنَا ﴾ يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة[2].

«ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر»[3]. فقالوا: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ أي: ولكنا حملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم، يعنون من حليّ آل فرعون وذلك أن بني إسرائيل لما أراد موسى -عليه السلام- أن يسير بهم ليلاً من مصر بأمر الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعيروا من أمتعة آل فرعون وحليهم، وقال: إن الله مغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليّ نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى -عليه السلام- حين قال لهم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾[4].

«وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا ؟ فقال ابن عمر رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة»[5].

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٧.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٧، ١٩٨. وقال: أيضا: وقيل: بأمرنا، وقيل: بطاقتنا، وقيل: بهوانا. «وكلّ هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقاربات المعنى، لأن من لم يهلك نفسه، لغلبة هواه على ما أمر».

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/١٩٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

«وقوله: ﴿ فَقَذَفْنَهَا ﴾ يقول: فألقينا «فنبذنا» تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

أي: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامريّ ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل (١).

ثم «يقول تعالى ذكره موبخا عَبَدة العجل، والقائلين له ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (٢)، وعابهم بذلك، وسفّه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه: أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلهكم وإله موسى لا يكلمهم، وإن كلّموه لم يردّ عليهم جوابا، ولا يقدر على ضرّ ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلها» (٣).

و«لما فرغ موسى -عليه السلام- من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فعلهم انتقل إلى خطاب أخيه هارون، فقال: يا هارون أيّ شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٩. « وقيل بل خلق الله منه العجل من غير أن يصنعه السامري ولذلك قال لموسى قد فتنا قومك من بعدك». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.
وقال الطبري: «والذي هو أولى بتأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن هؤلاء، وهو أن ذلك خبر من الله عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامريّ عنه بذلك أشبه من غيره» جامع البيان:١٦/ ٢٠١.

(٢) وإنما «صنع لهم السامري صنما على صورة عجل لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل «ابيبس»، فلما رأوا ما صاغه السامري في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا رسخ في أوهامهم الآفنة أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبروا عنه بقولهم ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾، لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنه أفضل من العجل «إيبيس»، وإذ قد كانوا يثبتون إلها محجوبا عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا لموسى: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٨٧.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني»[(١)].

قيل: عذله على تركه السير بمن أطاعه في أثره على ما كان عهد إليه. وقيل: بل عذله على تركه أن يصلح ما كان من فساد القوم»[(٢)].

وقيل: «ألا تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر لمن عبد العجل، وقتالهم بمن لم يعبده»[(٣)].

وقيل: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع[(٤)].

﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[(٥)].

فقال هارون عليه السلام: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ «أي لو قاتلت من عبد العجل منهم بمن لم يعبده لقلت فرقت جماعتهم وأدخلت العداوة بينهم»[(٦)].

وقيل المعنى: خشيت أن نقتتل فيقتل بعضنا بعضاً.

وقيل: كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد قالُوا له ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ -فعندها- يقول له موسى:

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٣.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٣. ثم قال الطبري: «وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي قاله ابن عباس من أن موسى عذل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول، فرّقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بيّن في قول هارون للقول ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ وفي جواب القوم له وقيلهم ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ جامع البيان:١٦/ ٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ بسيرك بطائفة، وتركك منهم طائفة وراءك[(١)].

«وقوله: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ أي: ولم تنظر قولي وتحفظه»[(٢)].

والقول الذي لم يرقبه هو قوله له: «اخلفني في قومي وأصلح»[(٣)].

ولما اشتد غضب موسى وحصل منه أن أخذ برأسه ولحيته يجره إليه «ترقق هارون له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى -عليه السلام- في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له»[(٤)].

«وقوله: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾: أي: لقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون من قبل رجوع موسى -عليه السلام- إليهم، وقيله لهم ما قال، مما أخبر الله عنه: ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل، الذي أحدث فيهم الخوار ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاكّ في دينه»﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾: أي: وإن ربكم الرحمن الذي يعمّ جميع الخلق نعمه، فاتّبعوني على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له.

وقوله: قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ يقول: قال عَبَدة العجل من قوم موسى: لن نزال على العجل مقيمين

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٤.

(٢) «من مراقبة الرجل الشيء، وهي مناظرته بحفظه». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

نعبده، حتى يرجع إلينا موسى»[(١)] . «ونسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه»[(٢)] .

ولما اتجه موسى -عليه السلام- بالخطاب إلى السامري، وقال له ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ قال له:»﴿ بَصُرْتُ[(٣)] بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أي: قال السامريّ: علمت ما لم يعلموه أي: صرت بها عملت بصيراً عالماً»[(٤)] .

وقيل: « ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ يعني فرس جبرائيل عليه السلام»[(٥)] .

«وأما قوله: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: فأخذت بكفي تراباً من تراب

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

(٣) من البصيرة.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٤.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٥.

قال الطبري: «واختلف القرّاء في قراءة هذين الحرفين، فقرأته عامّة قرّاء المدينة والبصرة ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ بالياء، بمعنى: قال السامريّ: بصرت بها لم يبصر به بنو إسرائيل. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ} بالتاء على وجه المخاطبة لموسى ﷺ وأصحابه، بمعنى: قال السامريّ لموسى: بصرت بها لم تبصر به أنت وأصحابك.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء مع صحة معنى كل واحدة منهما، وذلك أنه جائز أن يكون السامريّ رأى جبرائيل، فكان عنده ما كان بأن حدثته نفسه بذلك أو بغير ذلك من الأسباب، أن تراب حافر فرسه الذي كان عليه يصلح لما حدث عنه حين نبذه في جوف العجل، ولم يكن علم ذلك عند موسى، ولا عند أصحابه من بني إسرائيل، فلذلك قال لموسى: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ» أي علمت بها لم تعلموا به. وأما إذا قرىء بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ بالياء، فلا مؤنة فيه، لأنه معلوم أن بني إسرائيل لم يعلموا ما الذي يصلح له ذلك التراب» جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٥-٢٠٦.

أثر حافر فرس الرسول، أي: جبرائيل»[(١)].

«وقوله:﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي: فألقيتها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلاً جسدا له خوار ﴿ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك»[(٢)].

وعندها «قال موسى -عليه السلام- للسامريّ: فاذهب فإن لك في أيام حياتك أن تقول: لامساس: أي لا أمسّ، ولا أُمسّ.. وذُكر أن موسى -عليه السلام- أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إن لك في الحياة أن تقول لامساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته»[(٣)].

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ «بمعنى: وإن لك موعدا لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومي حتى عبدوا العجل من دون الله، لن يخلفكه الله، ولكن يذيقكه»[(٤)].

«وقوله: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي: وانظر إلى معبودك الذي ظلت

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٥، ٢٠٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨. وقال الطبري: ورويت القراءة بالصاد «فقبصت قبصة» والمعنى: «بمعنى: أخذت بأصابعي من تراب أثر فرس الرسول، والقبضة عند العرب: الأخذ بالكفّ كلها، والقبصة: الأخذ بأطراف الأصابع»

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٦. وقيل: ألقاها على العجل فصار له خوار. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٦. وقيل: « وجعل له مع ذلك أن يقول طول حياته لا مساس أي لا مماسة ولا إذاية وروي أنه كان إذا مسه أحد أصابت الحمى له وللذي مسه فصار هو يبعد عن الناس وصار الناس يبعدون عنه» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٦-٢٠٧. وقرئ « لَنْ تُخْلِفَهُ». قال الطبري: «والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا شكّ أن الله موف وعده لخلقه بحشرهم لموقف الحساب، وأن الخلق موافون ذلك اليوم، فلا الله مخلفهم ذلك، ولا هم مخلفوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب الصواب في ذلك».

عليه مقيما تعبده»[1]. ﴿ لَنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾[2]. « والمقصود بإحراقه بالنار إذابته وإفساد صورته»[3]. ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ أي: ثم لنذرّينه في البحر تذرية»[4].

ثم ختم كلامه بإثبات ألوهية الله تعالى، واستحقاقه للعبادة، بعد إبطال ألوهية العجل بنسفه في اليم نسفاً، فقال:﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: ما لكم أيها القوم معبود، إلا الذي له عبادة جميع الخلق لا تصلح العبادة لغيره، ولا تَنبغي أن تكون إلا له ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ أي: أحاط بكل شيء علما فعَلِمَه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك»[5].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد

* يبدو أن سؤال الله لموسى -عليه السلام- «عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى -عليه السلام- بأنهم يأتون على أثره فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل، أو أن سؤاله كان على وجه الإنكار لتقدمه وحده دون قومه»[6].

* انشغل بنو إسرائيل بعبادة العجل، بعد أن ألقوا الحلي التي حملوها معهم في النار -تورعا- لأنهم سرقوها من القبط، وبذلك انشغلوا بالذنب الحقير عن الذنب العظيم، وكم نرى -في

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٧.

(٢) بضم النون وتشديد الراء، بمعنى لنحرقنه بالنار قطعة قطعة، وقرئ بضم النون، وتخفيف الراء، بمعنى: لنحرقنه بالنار إحراقة واحدة، وصوب الطبري قراءة التشديد. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٨.

(٣) وهو ما صححه ابن جزي: ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٨. يقال: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فطير عنه قشوره وترابه باليد أو الريح.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٩. يقال: فلان يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقوي عليه، ولا يسع له: إذا عجز عنه فلم يطقه ولم يقو عليه.

(٦) «فاعتذر موسى بعذرين أحدهما أن قومه على أثره أي: قريب منه فلم يتقدم عليهم بكثير فيوجب العتاب، والثاني أنه إنما تقدم طلبا لرضى الله» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.

حياة الناس- من منشغل بكبائر الذنوب، متورعا عن صغائرها، وما ذاك إلا بتلبيس إبليس عليهم.

* **عكف بنو إسرائيل على العجل الذي ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾**[(١)] **وقالوا عن نبيهم ﴿ هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ وهذا القول** « يضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده. اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه»[(٢)].

* لم يتوجه موسى -عليه السلام- باللوم إلى السامري منذ البدء[(٣)]، مع أنه هو الذي أضل قومه، وذلك «لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول، ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا»[(٤)].

---

(١) « وقدم الضر على النفع قطعا لعذرهم في اعتقاد إلهيته، لأن عذر الخائف من الضر أقوى من عذر الراغب في النفع». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٨٩.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٨.

(٣) يقول ابن عاشور: « ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنه كان جاهلا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب. ولعل هذا يؤيد ما قيل: إن السامري لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القبط أو من كرمان فاندس في بني إسرائيل. ولما كان موسى مبعوثا لبني إسرائيل خاصة ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل، كان اتباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرا غير واجب على غير الإسرائيليين ولكنه مرغب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يعنفه موسى لأن الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٣.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٨.

* قوله ﴿ فَٱذۡهَبۡ ﴾ الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة» [(١)] .

* مع أن هارون شقيق لموسى إلا أنه ناداه بأمه فقال: {يا ابن أم} «**لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ** في الحنو والعطف» [(٢)] ، وفيه إشارة إلى أهمية اختيار الألفاظ المؤثرة في أوقاتها المناسبة طمعا في التأثير على المخاطب، وقد نتج -هاهنا- عن ذلك تأثر موسى -عليه السلام- بذلك، فتراه يطلب لنفسه ولأخيه المغفرة «رب اغفرلي ولأخي».

* قال هارون معتذرا لموسى﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾ « وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجماعة من الهرج. وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة فرجح الثانية. وإنما رجحها لأنه رآها أدوم فإن مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى -عليه السلام- وإبطاله عبادة العجل حيث جعلوا غاية عكوفهم على العجل برجوع موسى. بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها» [(٣)] .

---

(١) «إما لأنه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإما لأن موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحه، فيكون ممن حقت عليه كلمة العذاب، مثل الذين قال الله تعالى فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)، ويكون قد أطلع الله موسى على ذلك بوحي أو إلهام، مثل الذي قاتل قتالاً شديداً مع المسلمين، وقال النبي ﷺ (أما إنه من أهل النار)، ومثل المنافقين الذين أعلم الله بهم محمدا ﷺ وكان النبي عليه الصلاة والسلام أعلم حذيفة بن اليمان ببعضهم. فقوله فاذهب الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٣) ذكر ابن عاشور هذا الاجتهاد، ثم تعقبه بقوله: «وكان اجتهاده ذلك مرجوحا لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه. لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع... ولذلك لم يكن موسى خافيا عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها =

* إن لنوازع الشر في النفس البشرية أثر في تصرفات البشر، خاصة حين لا يوجد فيها من الإيمان والتقوى ما يردعها ويكفها عن الشر، وها هنا السامري نموذج لذلك، فقد صرح بأن نفسه هي التي سولت له صناعة العجل الذي عبده بنو إسرائيل في غياب موسى، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾، ومن قبل طوعت نفس ابن آدم له قتل أخيه، فيما أخبر الله في كتابه حين قال: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة: ٣٠].

* ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ أضاف موسى -عليه السلام- الإله إلى ضمير السامري تهكما به، وتحقيرا له، واستدل على بطلان إلهيته بالدليل الحسي الذي لا يحتاج إلا إلى المشاهدة، لأن دلالة المحسوسات أوضح من دلالة المعقولات [(١)].

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وهنا يحكي الله تعالى لنا إضلال السامري لقوم موسى **بصناعة العجل، فكان من لطف الله تعالى بهم أنه لم يتركهم في ضلالهم، فألهم هارون أن يعظهم ويذكرهم بأن ما وقعوا فيه فتنة، وأن ربهم هو الرحمن بما تحمله هذه الصفة من ظلال اللطف والرعاية، ويتصل لطف الله بهم حين عاتب الله موسى -عليه السلام- على استعجاله اللقاء، ليعود إليهم موسى، فينكر عليهم هذا الفعل الشنيع، ويثبت لهم بطلان عبادة العجل، وليشاهدوا بأعينهم تحريق العجل الذي اتخذوه إلها، فيوقنوا عندها أنه غير مستحق للعبادة البتة، وأنه كما قال الله ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ثم يصحح لهم موسى -عليه السلام- عقيدتهم، فيثبت الألوهية لله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ**

= وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعمل بها كما بينته في كتاب مقاصد الشريعة. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٩٣-٢٩٤.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٩٩.

﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾.

« وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف، يعلن موسى - عليه السلام - حقيقة العقيدة. ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾.. وينتهي بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى -عليه السلام- في هذه السورة تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده. حتى عندما يبتلون فيخطئون. ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا، لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بني إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان. وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين. فمن الحكمة أن لا يكون عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل» [(١)].

الدرس الثاني: جزاء المعرضين عن القرآن الكريم

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾

تضمن هذا المقطع إنباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخبار السابقين مما قصه عليه في كتابه الكريم، وتضمن بيان جزاء المعرضين عن الذكر الذين يحملون أوزارهم وحدهم يوم القيامة، وساء لهم حملا، وبيان كيفية حشرهم، وما يتسارون به بينهم من **تذاكر قدر مدة لبثهم في الحياة الدنيا، وإقرارهم بسرعة مرورها حتى قال أعدلهم «إن لبثتم إلا يوما»**.

المناسبة بين هذا المقطع والمشهد الذي قبله.

«ولما تمت قصة موسى -عليه السلام- على هذا الأسلوب الأعظم، والسبيل الأقوم، متكفلة

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٩.

بالدلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة أول السورة بتكثير هذه الأمة ورد العرب عن غيهم بعد طول التمادي في العناد، والتنكب عن سبيل الرشاد، إلى ما تخللها من التسلية بأحوال السلف الصالح والتأسي بهم، مفصلة من أدلة التوحيد والبعث، وغير ذلك من الحكم، بما يبعث الهمم، على معالي الشيم، كان كأنه قيل: هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرفيع؟ فقيل: نعم ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل هذا القص العالي، في هذا النظم العزيز الغالي لقصة موسى -عليه السلام- ومن ذكر معه ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء؛ وأشار إلى جلالة علمه بقوله: ﴿ مِنْ أَنبَآءِ ﴾ أي أخبار ﴿ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الأزمان والكوائن الجليلة، زيادة في علمك، وإجلالاً لمقدارك، وتسلية لقلبك، وإذهاباً لحزنك، بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيراً لأتباعك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتأكد الحجة على من عابه»[(١)].

ولما كانت قصة موسى -عليه السلام- من القصص التي ما كان لرسول الله ﷺ أن يعلمها من قبل هذا القرآن ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾ [هود:٤٩] **ناسب أن يذكر القرآن الكريم الذي قص الله به على نبيه أخبار ما قد سبق، وإن اختيار اسم الذكر للقرآن الكريم -هنا- له دلالته في السياق،** «فهو ذكر لله ولآياته، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى"[(٢)]. و«إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها»[(٣)].

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٢.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٠٢.

المعنى الإجمالي [(١)]:

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك يا محمد نبأ موسى وفرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل مع موسى -عليه السلام- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: كذلك نخبرك بأخبار الأمم التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعاينها» ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾. أي: وقد آتيناك يا محمد من عندنا ذكرا يَتذكر به، ويتعظ به أهل العقل والفهم، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين» ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: من ولّى عنه فأدبر فلم يصدّق به ولم يقرّ، ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: فإنه يأتي ربه يوم القيامة يحمل حملاً ثقيلاً، وذلك الإثم العظيم، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: وساء ذلك الحمل والثقل من الإثم يوم القيامة حملاً، وحقّ لهم أن يسوءهم ذلك، وقد أوردهم مهلكة لا منجي منها» [(٢)].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: وساء لهم يوم القيامة، يوم ينفخ في الصور، ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: ونسوق أهل الكفر بالله يومئذٍ إلى موقف القيامة زرقا، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق [(٣)].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتهامسون بينهم، ويسرّ بعضهم إلى بعض: إن لبثتم في الدنيا، يعني: أنهم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشراً [(٤)]. لاستقلالهم مدة الدنيا.

ثم يقول تعالى ذكره: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقيلهم: ﴿إِن

---

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٠.

(٣) وقيل: أريد بذلك أنهم يحشرون عميا، كالذي قال الله {وَنحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْيا}». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٠.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١١. وقيل يعنون لبثهم في القبور. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٩.

﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ لا يخفى علينا مما يتساررونه بينهم شيء ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: حين يقول أوفاهم عقلاً، وأعلمهم فيهم: إن لبثتم في الدنيا إلا يوماً».

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع

* ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ هذا إثبات بأن القصص وحي من عند الله تعالى وفيه رد على زعم الكفار قديماً لما قالوا ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥]، ودحض لكل شبهة تزعم أن هذا القرآن من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

* ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ﴾ إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها[(١)].

* أخبر الله تعالى عن الكفار حين يختلفون يوم القيامة في تقدير مدة لبثهم في الدنيا، «وإنما عنى جلّ ثناؤه بالخبر عن قيلهم هذا القول يومئذٍ، إعلام عباده أن أهل الكفر به ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة، وشدّة جزعهم من عظيم ما يردون عليه ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذّات، ومبلغ ما عاشوا فيها من الأزمان، حتى يخيل إلى أعقلهم فيهم وأذكرهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا فيها إلا يوما»[(٢)].

* في الآيات إثبات وقوع القيامة، والجزاء، والنفخ في الصور، والحشر، وهي أمور كان الكفار ينكرونها وقت نزول هذه السورة.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٠٢.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١١.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ تثبيت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لما في القصص من التثبيت ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[هود: ١٢٠] وهذا القدر الذي قصه الله في هذه السورة المشار إليه في هذا الموضع «تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده. حتى عندما يبتلون فيخطئون. ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا... لأن جو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين. فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل"[١].

وهذا القرآن رحمة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنزل عليه القرآن، وبالأمة التي أنزل عليها القرآن، لأنه إيتاء من الله تعالى فهو «عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده»[٢].

ويجيء القصص القرآني ليلقي في قلوب المؤمنين الطمأنينة والتسلية في وقت يعاني في المؤمنون أقسى أنواع الابتلاء، وهنا رحمة أخرى بأولئك الكفرة العتاة لما يقص الله عليهم من أنباء ما قد سبق ليكون لهم عبرة، وعظة، وزجراً وإنذاراً، وكثيراً ما يرد في القرآن الكريم عقب القصص قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾[٣].

ومن لطف الله تعالى بالمعرضين عن القرآن أنه تلطف معهم بالتعريض لهم بالإنذار عن إعراضهم عن القرآن باستخدام اسم الموصول المفيد للعموم والإبهام، ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ ولم يواجههم بالخطاب، استمالة لهم، واتساقا مع جو الرعاية والعناية التي تتسم به السورة.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٩.

(٢) التحرير والتوير: ١٦/ ٣٠٢.

(٣) واقرأ بتدبر القصص القرآني في سورة الشعراء، وغيرها.

الدرس الثالث: عنوانه: مشاهد يوم القيامة.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

تضمن هذا المقطع الإجابة عن أسئلة المشركين بشأن الجبال، وبيان حالها يوم القيامة وحال الناس يوم القيامة، من اتباعهم الداعي إلى الحشر، وخشوع الأصوات للرحمن، وانقطاع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا، وخضوع الوجوه للحي القيوم، وجزاء الظالمين، وثواب المحسنين، فهو سبحانه لا يظلم أحدا.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله:

«لما أخبر عن بعض ما سبق ثم عن بعض ما يأتي من أحوال المعرضين عن هذا الذكر فيما ينتجه لهم إعراضهم عنه، وختم ذلك باستقصارهم مدة لبثهم في هذه الدار، أخبر عن بعض أحوالهم في الإعراض فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ ما يكون حالها يوم ينفخ في الصور»[1].

و«لما جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذر إعادة الأجسام بعد تفرق أجزائها، ذكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون بها النبي ﷺ سؤال تعنت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها... وسواء كان سؤالهم استهزاء أم استرشادا. فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلما للمؤمنين»[2].

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٤٤.

(٢) وروي أن رجلا من ثقيف سأل النبي ﷺ عن ذلك، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف وفيه جبل =

المعنى الإجمالي (١):

«يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمد قومك عن الجبال، فقل لهم: يذريها ربي تذرية ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها، ودكّ بعضها على بعض، وتصييره إياها هباءً منبثاً ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ أي: فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها نسفاً، قاعاً: يعني: أرضاً ملساء، صفصفا: يعني مستويا لا نبات فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع»، ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ أي: لا ترى فيها ميلاً عن الاستواء، ولا ارتفاعاً، ولا انخفاضاً، ولكنها مستوية ملساء، كما قال جلّ ثناؤه: قاعا صَفْصَفا»، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ أي: لا عوج لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه ينحشرون» (٢). ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي: وسكنت أصوات الخلائق للرحمن... فلا تسمع لناطق منهم منطقا إلاّ من أذن له الرحمن» (٣). ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي: وطء الأقدام إلى المحشر (٤)، ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ أي عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ كقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾، وقوله: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾. وقال: ﴿ وَلَا

= كرى. التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٠٦-٣٠٧.

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧.

(٢) وقيل: لا عوج له، والمعنى: لا عوج لهم عنه، لأن معنى الكلام ما ذكرنا من أنه لا يعوجون له ولا عنه. ولكنهم يؤمونه ويأتونه، كما يقال في الكلام: دعاني فلان دعوة لا عوج لي عنها: أي لا أعوج عنها. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٤.

(٣) فوصف الأصوات بالخشوع. والمعنى لأهلها إنهم خُضّع جميعهم لربهم. جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢١٤.

(٤) مروي عن ابن عباس: جامع البيان:١٦/ ٢١٤-٢١٥. يقول الطبري: وأصل الهمس: الصوت الخفيّ، يقال همس فلان إلى فلان بحديثه إذا أسرّه إليه وأخفاه... وقيل: تخافت الكلام: خفض الصوت»

تنفع الشفعة عنده إلا لمن أذن له ﴾، وقال: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨]»(١).

ثم يقول سبحانه: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي: يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمر القيامة، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب ﴿ وما خلفهم ﴾ أي: ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ أي: ولا يحيط خلقه به علما، ومعنى **الكلام**: أنه محيط بعباده علما، ولا يحيط عباده به علما»(٢).

﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ يقول تعالى ذكره: استسرّت وجوه الخلق، واستسلمت للحيّ القيوم الذي لا يموت، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم، وتصريفهم لما شاءوا»(٣). ﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ أي: ولم يظفر بحاجته وطلبته من حمل إلى موقف القيامة شركا بالله، وكفرا به، وعملاً بمعصيته.

ثم يقول تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه: ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ أي: ومن يعمل من صالحات الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده.

﴿ وهو مؤمن ﴾ أي: وهو مصدّق بالله، وأنه مجازٍ أهل طاعته وأهل معاصيه على معاصيهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٥.

(٢) كقوله: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء}» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٥.
يقول ابن جزي: « والصحيح عندي أن المعنى لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله ولو أراد المعنى الأول لقال ولا يحيطون بعلمه ولذلك استثني إلا بما شاء هناك ولم يستثن هنا». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ٢٠.

(٣) وأصل العنو: الذلّ، يقال منه: عنا وجهه لربه يعنو عنوا، يعني خضع له وذلّ، وكذلك قيل للأسير: عان لذلة الأسر، وقيل: وضع الجبهة والأنف على الأرض. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٥-٢١٧.

﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ أي: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليه.

﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع.

* إن التعبير بالنسف للجبال بعد التعبير بنسف العجل دلالة على قدرة الله الذي ينسف الجبال نسفاً، وعجز العجل عن دفع النسف عنه، فكانت هذه القدرة وذلك العجز دليل على استحقاق الله تعالى الألوهية، وامتناعها عن العجل.

* وكأنها تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة، وتخفت كل حركة وكل نأمة، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يتلفتون ولا يتخلفون - وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون - ويعبر عن استسلامهم بأنهم ﴿ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ تنسيقا لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء[1].

* إن التعبير بنفي العوج عند اتباع الداعي، ليذكرهم باعوجاج أنفسهم عن اتباع داعي الحق فكأن اتباع الداعي بلا اعوجاج في الآخرة جزاء لامتناعهم عن اتباع داعي الحق في الدنيا.

* إنهم كانوا في الدنيا يقولون ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] وهاهم يوم العرض في خشوع الأصوات لا تسمع منهم إلا همسا.

* إنهم كانوا يعبدون مع الله آلة أخرى يعتقدون فيها الشفاعة عند الله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾[يونس:١٨] وأما اليوم فقد انقطعت شفاعة الشافعين إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة، ورضي له بالقول، ولا يأذن الله إلا لمن ارتضى، وهؤلاء الآلهة ليسوا أهلاً للرضى.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٢.

* أحاط الله بكل شيء علما، وامتنع أن يحيط أحد بالله علما.

* المؤمنون يوم القيامة أولئك لهم الأمن، اطمأنت نفوسهم إلى عدل الله تعالى فلا يخافون ظلما ولا هضما.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وإن من العناية بالخلق والرحمة بهم أن يبين لهم من الحجج والآيات على قدرته تعالى المطلقة، ليقروا له باستحقاق العبادة وحده، فإن الذي نسف الجبال نسفا هو المستحق للعبادة، وليس العجل الذي نُسف في اليم نسفاً.

ومن الرحمة بالخلق أن أخبرهم بيوم الحساب، وأن الملك فيه لله وحده، ولا شفاعة إلا لمن أذن له ورضي له قولاً، ليجتهد العبد أن يكون من أهل الشفاعة والرضى، ويختم المشهد ببيان عدله سبحانه، ليطمئن العبد بأنه أمام رب رحيم عادل، لا يظلم أحداً مثقال ذرة، فعندها لا يخاف ظلماً ولا هضماً.

الدرس الرابع: محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

تضمن هذا المقطع تقرير عروبة القرآن، وبيان الحكمة من تضمينه الوعيد، ثم إرشاد الله نبيه إلى كيفية تلقي القرآن، وأمره بطلب زيادة العلم.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله

«يقول الله تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربي مبين، فصيح لا لبس فيه ولا عي»[(١)]، و«كما رغبنا أهل الإيمان في

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

صالحات الأعمال، بوعدنا إياهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمُقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا، فأنزلنا هذا القرآن عربيا، إذ كانوا عَرَبا» [١].

ولما اشتملت الآيات السابقة على حسن المعاني، فبشرت ويسرت، وأنذرت وحذرت، وبينت الخفايا، وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلالة السبك وبراعة النظم، كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالتها: أنزلناها على هذا المنوال العزيز المثال ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي ومثل هذا الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي هذا الذكر كله بعظمتنا ﴿ قُرْءَانًا ﴾ جامعاً لجميع المعاني المقصودة ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ مبيناً لما أودع فيه لكل من له ذوق في أساليب العرب» [٢].

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: كما رغبنا أهل الإيمان في صالحات الأعمال، بوعدنا إياهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمُقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا، فأنزلنا هذا القرآن عربياً، إذ كانوا عَرَبا ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ فبيناه: أي: وخوّفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي: كي يتقونا، بتصريفنا ما صرّفنا فيه من الوعيد «فيتركون المآثم والمحارم والفواحش» [٣] ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [٤] أي: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذّبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله [٥].

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق ورسله حق، والجنة حق والنار حق وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٩.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٤٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

(٤) «وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات». تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٩.

أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة»[(١)] .

ثم يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أي: «ولا تعجل يا محمد بالقرآن، فتقرئه أصحابك، أو تقرأ عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، فعوتب على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه مَنْ كان يُكْتِبه ذلك من قبل أن يبين له معانيه، وقيل: لا تتله على أحد، ولا تمله عليه، حتى نبينه لك»[(٢)] .

وقيل: المعنى: «إذا أقرأك جبريل القرآن فاستمع إليه واصبر حتى يفرغ وحينئذ تقرأه أنت فالآية كقوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾»[(٣)] .

ويشهد لهذا التفسير ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ أي أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[(٤)] .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة رحمه الله: «ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل»[(٥)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦، ونص ابن جزي على أنه الأشهر. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ٢٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾، برقم: ٤٦٤٥، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، باب الاستماع للقراءة، برقم: ٤٤٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع:

* إن قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ إشارة إلى أن القرآن قانون ذلك الملك، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعيه في الدنيا والآخرة[(١)].

* كما أن في وقوع جملة ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ وبين جملة ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾. «إنشاء ثناء على الله منزل القرآن، وعلى منة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بيّن لعباده من وسائل الإصلاح، وحملهم عليه بالترغيب والترهيب، وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام وأحسن أسلوب»[(٢)].

* إن في وصفه سبحانه نفسه بأنه الملك الحق «إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص كما قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾»[(٣)]. وانتفاء أي منازع له في ملكه سبحانه يوم القيامة، وقد كانوا يدعون الملك في الدنيا.

* إن النهي عن التعجل بالقرآن ليشعرنا بأهمية التأني في تلاوته، والتمعن في قراءته، وتمكين القلب من فهمه وتدبره. وقد جاء عن مجاهد وقتادة أن معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تمله عليهم حتى تتبين لك معانيه[(٤)].

* ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ «فيه تلطف مع النبي ﷺ؛ إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن، أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً، إيماءً إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة»[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٧.

(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور االسورة الرعاية والعناية، وإن من عناية الله تعالى بالمدعوين أن أنزل عليهم هذا القرآن بلسان عربي مبين، لئلا يكون لهم حجة في دعوى عدم فهمه، وكذا من رحمته بهم أن ضمن كتابه صنوفا من الترغيب والترهيب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ بعد ذكر الإنزال والتصريف ليتبين لك «أن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كل ذلك ناشئ عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة»[(١)].

الدرس الخامس: آدم وعداوة إبليس له ولذريته:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾

تضمن هذا المقطع حكاية نسيان آدم لعهد الله، واجتباءه له بعد توبته، وتكريم الله له

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

بإسجاد الملائكة له، والتصريح له بعداوة إبليس له، ومكره به، وسعيه إلى إخراجه وزوجه من الجنة، والتفصيل بما أعد الله لآدم في الجنة من نعيم، وإغراء إبليس لآدم وزوجه بالملك الدائم إن هما أكلا من الشجرة، حتى وقعا في المعصية، وبيان ما نتج عن المعصية من العقوبة، من بدو سوآتها، وإهباطهما إلى الأرض، ثم ما كان من لطف الله تعالى بآدم بالاجتباء والتوبة، لينتهي المقطع ببيان جزاء من أعرض عن منهج الله وثواب من اتبعه.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله:

لما سبق ذكر القرآن وتصريف الله فيه من الوعيد للمشركين الذين لم ينتفعوا بذلك الوعيد ولم يتذكروا بهذا القرآن، أعقب الله تعالى هنا بذكر قصة آدم، فكأن الله يقول: «وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي ويتبعوا أمر عدوّهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديما ما فعل ذلك أبوهم آدم»[(١)].

«ولما كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذبين والمعاندين الذين كذبوا النبي ﷺ وعاندوه، وذلك المقصود من قصصها... فكأن النبي ﷺ استحب الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أن قومه يفيقون من ضلالتهم[(٢)] ... أعقبت تلك القصة بقصة آدم عليه السلام وما عرض له به الشيطان، تحقيقا لفائدة قوله ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. فالجملة عطف قصة على قصة»[(٣)].

«وبمناسبة حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٠.

(٢) «فلما كان النبي ﷺ حريصا على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة أو طلبة في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم» فنهاه الله بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وأن يكل الأمر إليه فإنه أعلم بحيث يناسب حال الأمة العام». التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٨.

الوحي خشية النسيان يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله"[(١)] .

«ولما قرر سبحانه بقصة موسى ﷺ ما أشار إليه أول السورة بما هو عليه من الحلم والتأني على عباده، والإمهال لهم فيما هم عليه من النقص بالنسيان للعهود والنقض للمواثيق، وأتبعها ذكر مدح هذا الذكر الذي تأدت إلينا به، وذم من أعرض عنه، وختمه بما عهد إليه ﷺ في أمره نهياً وأمراً، أتبع ذلك سبحانه قصة آدم ﷺ تحذيراً من الركون إلى ما يسبب النسيان، وحثاً على رجوع من نسي إلى طاعة الرحمن، وبياناً لأن ذلك الذي قرره من حلمه وإمهاله عادته سبحانه من القدم، وصفته التي كانت ونحن في حيز العدم، وأنه جبل الإنسان على النقص، فلو أخذهم بذنوبهم ما ترك عليها من دابة»[(٢)] .

«وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان. وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه. ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة. وكأنما هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه"[(٣)] .

وقصة آدم هنا معطوفة على قصة موسى -ﷺ- من قبل، لما بينهما من التناظر من حيث: «التفريط في العهد، لأن في القصة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله، كما قال فيها ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾، وفي قصة آدم تفريط في العهد أيضا. وفي كون ذلك من عمل الشيطان كما قال في القصة الأولى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ وقال في هذه ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾. وأن في القصتين نسيانا لما يجب الحفاظ عليه وتذكره

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥١.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٣.

فقال في القصة الأولى ﴿ فَنَسِيَ ﴾ وقال في هذه القصة ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [(١)].

المعنى الإجمالي [(٢)]:

« يقول تعالى ذكره: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدوّهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديماً ما فعل ذلك أبوهم آدم ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ ﴾ إِلَيْهِ أي: ولقد وصينا آدم وقلنا له: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى جلّ ثناؤه بقوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ هؤلاء الذين أخبر أنه صرف لهم الوعيد في هذا القرآن وقوله:

﴿ فَنَسِيَ ﴾ يقول: فترك عهدي» [(٣)]. ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أي: «ولم نجد له عزم قلب على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه» [(٤)].

ثم يقول تعالى ذكره معلماً نبيه محمداً ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومعرّفه بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم: واذكر يا محمد ﴿ وَإِذْ

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/٣١٨.

(٢) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) وقيل: ﴿ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ٢٠.

(٤) وهو ما اختاره الطبري، واستدل له بلسان العرب فقال: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْما فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٢.

قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ أن يسجد له.

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ «ولذلك من شنآنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له ﴿ مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أي: فيكون عيشك من كدّ يدك، فذلك شقاؤه الذي حذّره به»[1]. ﴿ إِنَّ لَكَ ﴾ يا آدم ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ ﴾ أي: لا تعطش في الجنة ما دمت فيها ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾، يقول: لا تظهر للشمس فيؤذيك حرّها. ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: فألقى إلى آدم الشّيطان وحدّثه، ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكا لا ينقضي فيبلى، ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ أي: فأكل آدم وحوّاء من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أي: فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: أقبلا يشدّان عليهما من ورق الجنة، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ أي: وخالف أمر ربه، فتعدّى إلى ما لم يكن له أن يتعدّى إليه، من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها.

ثم قال الله تعالى لآدم وحوّاء: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ إلى الأرض ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي: أنتما عدوّ إبليس وذرّيته، وإبليس عدّوكما وعدوّ ذرّيتكما، ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ أي: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه. وقوله: ﴿ وَهَدَىٰ ﴾ يقول: وهداه

---

(١) «وقال تعالى ذكره: ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ولم يقل: فتشقيا، وقد قال: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ لأن ابتداء الخطاب من الله كان لآدم عليه السلام، فكان في إعلامه العقوبة على معصيته إياه، فيما نهاه عنه من أكل الشجرة، الكفاية من ذكر المرأة، إذ كان معلوما أن حكمها في ذلك حكمه، كما قال: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ اجتزىء بمعرفة السامعين معناه، من ذكر فعل صاحبه». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٢.
وقيل «لأن الشقاء في معيشة الدنيا مختص بالرجال». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ٢٠.

للتوبة، فوفّقه لها، ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ أي: فإن يأتكم يا آدم وحوّاء وإبليس مني هدى: أي: بيان لسبيلي، وما أختاره لخلقي من دين ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ أي: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزغ منه ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ أي: فلا يزول عن محجة الحق، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ في الآخرة بعقاب الله، لأن الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ الذي أذكره به فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: فإن له معيشة ضيقة»[1].

قيل: الضنك المراد هو الضيق أوالشقاء، وقيل: في جهنم، وقيل: المعيشة الحرام في الدنيا، وقيل: الرزق في معصيته، وقيل: الكسب الخبيث، وقيل: في البرزخ بعذاب القبر يضيق بهم حتى تختلف أضلاعه ورجحه الطبري[2].

---

(١) والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيقا، وعيش ضنك، الذكر والأنثى والواحد والاثنان والجمع بلفظ واحد ومنه قول عنترة:

وإنْ نَزَلُوا بضَنْكٍ أنْزلِ.

جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٥.

(٢) فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، وساق بسنده إلى أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَتَدْرُونَ فِيمَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكا وَنحْشُرُهُ يَوْمَ القيامَةِ أعْمَى أتَدْرُونَ ما المَعِيشَةُ الضَّنْكُ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عَذَابُ الكافرِ في قَبْرِه، والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنّه لَيُسَلّطُ عَلَيْهِ تَسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنّينا، أتَدْرُونَ ما التِّنِينُ: تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَيّة، لكلّ حَيّة سَبْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْفُخُونَ في جِسْمِهِ وَيَلْسَعُونَهُ ويَخْدِشُونَهُ إلى يَوْمِ القِيامَةِ». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٨.

[قال ابن كثير: «رفعه منكر جدا» ثم أورد رواية أخرى تذكر أن المراد بها: عذاب القبر، وقال عقبه: «إسناده جيد»]. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٠.

وأضاف الطبري فقال: وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فكان معلوما بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدّ وأبْقَى معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدّ وأبْقَى. فإذ كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في=

وفسره ابن كثير بقوله: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي «ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة»(١) ، ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أي: «يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء كما أخبر جلّ ثناؤه، فعمّ ولم يخصص»(٢) ، ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾... أي: قال: ربّ لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء، وقد كنت في الدنيا ذا بصر بذلك كله»(٣) . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ قال الله حينئذٍ للقائل له: ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾: فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيّنه في كتابه، ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾: أي: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل. وعنى بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ﴾ هكذا أتتكَ.

= قبورهم قبل البعث، إذ كان الأوجه أن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كُلّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٨.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٢٩٩. يقول الطبري: « وإنما قيل لمعيشة الدنيا ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم ينفقون ما ينفقون من أموالهم على تكذيب منهم بالخلف من الله، وإياس من فضل الله، وسوء ظنّ منهم بربهم، فتشتدّ لذلك عليهم معيشتهم وتضيق». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٧.

(٢) وهو ما صوبه الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٩، وقيل: أعمى البصر. ينظر المرجع نفسه.

(٣) وهو ما صوبه الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٩.

« فإن قال قائل: وكيف قال هذا لربه: لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى مع معاينته عظيم سلطانه، أجهل في ذلك الموقف أن يكون لله أن يفعل به ما شاء، أَم ما وجه ذلك؟ قيل: إن ذلك منه مسألة لربه يعرّفه الجرم الذي استحقّ به ذلك، إذ كان قد جهله، وظنّ أن لا جرم له، استحق ذلك به منه، فقال: ربّ لأيّ ذنب ولأيّ جرم حشرتني أعمى، وقد كنت من قبل في الدنيا بصيرا وأنت لا تعاقب أحدا... بدون ما يستحق منك من العقاب». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٩-٢٣٠.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ «أي: فكما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضت عنها فكذلك اليوم ننساك، فنتركك في النار»(١) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ﴾ وهكذا نجزي: أي نثيب ﴿ مَنْ أَسْرَفَ ﴾ فعصي ربه، ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ. ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي: ولعذاب في الآخرة أشدّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى، أي: وأدوم منها لأنه إلى غير أمد ولا نهاية.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع:

* ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ ﴾ «إنما قرن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩ ﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحي حر الظاهر»(٢) .

* إن «عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة يمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها. وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري. فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري. وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى.

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب

(١) وهذا كقوله: «﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٧-٢٢٩٨.

التي يزينها الشيطان، وإرادته وعهده للرحمن»[(١)] .

* «إن في تذكيرنا هنا بنسيان أبينا آدم العهد بسط الأمل لنا نحن بني آدم في العذر في نسيان الالتزام بالتكاليف، وقد رفع الله عنا الخطأ والنسيان»[(٢)] .

* «﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ بهذا لمس الشيطان في نفس آدم الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. ومن ثم نسي العهد، وأقدم على المحظور»[(٣)] .

* « اعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة، وانتظام المعيشة بقوله: ﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾، ورغبه إبليس أيضا في دوام الراحة بقوله: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم ﷺ مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنت بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي. ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

(٢) وقد قال الله عقب قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ قد فعلت. مسلم في الصحيح، باب أنه سبحانه وتعالى لا يكلف إلا ما يطاق، برقم: ١٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره»[(١)].

* ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، بذلك أعلنت الخصومة في الثقلين، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدري. فقد درى وعلم؛ وأعلن هذا الأمر العلوي في الوجود كله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

* ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرضون، وشهده الملائكة أجمعون. شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه، فمجاز كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[(٢)].

* «إن إثبات العصيان لآدم دليل على أنه لم يكن يومئذ نبياً. ولأنه كان في عالم غير عالم التكليف وكانت الغواية كذلك، فالعصيان والغواية يومئذ: الخروج عن الامتثال في التربية كعصيان بعض العائلة أمر كبيرها، وإنما كان شنيعاً لأنه عصيان أمر الله، وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف»[(٣)].

* ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ هذا إثبات العصيان لآدم

---

(١) التفسير الكبير، للرازي:٢٢/ ١٠٩.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٢٧.

دون زوجه، وهو يدل على أن آدم كان قدوة لزوجه فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه»[(١)].

كما أن فيه بسط لأمل العاصي في قبول توبته، وقد قبلها من أبيه، فإنما نحن أبناؤه، ويعترينا من النسيان والعصيان ما اعترى أبونا وزيادة، والله سبحانه ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الشورى:٢٥].

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة الرعاية والعناية، ولقد خلق الله آدم عليه السلام ليجعله خليفة في الأرض، فاعتنى به عناية عظيمة منذ بدء خلقه، حيث أسجد الملائكة، وعلمه الأسماء، وأنعم عليه بنعيم الجنة، ولما عصاه تاب عليه فاجتباه، وفي هذه السورة تتجلى مظاهر العناية الربانية بآدم عليه السلام، من وجوه:

أ- **عرضه لتجربة الابتلاء بالأمر بالأكل، والنهي عنه**[(٢)] «لاختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان، وإرادته، وعهده للرحمن. وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى:﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾»[(٣)].

ب- تذكيره بنعمة التفضيل بإسجاد الملائكة له: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾«هكذا في إجمال يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية.. فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية»[(٤)].

ج- **حدد له عدوه، وحذره منه**: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٢٧.

(٢) ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾. البقرة:٣٥.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٣.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٣-٢٣٥٤.

عقب نشوزه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه"[١].

د- تذكيره بنعمه عليه في إسكانه الجنة ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

هـ- «الاجتباء والهداية إلى التوبة، ثم قبولها: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله، بعدما عصاه، فقد كانت هذه هي التجربة الأولى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ بعدما استغفر آدم وندم واعتذر. ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في الجو وحدها "[٢]، وخاصة أن جو السورة جو الرحمة والرعاية «لمن يجتبيهم من عباده، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه»[٣].

- وفي جو من الرعاية واللطف والرحمة يذكر الله تعالى عقب الحكم بإنزال آدم وحواء وإبليس إلى الأرض أنه منزل منهجا من عنده فمن اتبعه فلا يضل ولا يشقى، ومن يعرض عنه فله معيشة ضنكا، وهو هنا تذكير لأولئك الذين تنكبوا منهج الله وأبوا اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الوقت نفسه تبشير للذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتزموا منهج الله تعالى في وقت نزول السورة وما بعدها.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٥.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٣.

الخاتمة: إنذار للمشركين وإعذار، وتوجيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاد

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ
﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ
تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ
مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

تضمنت هذه الخاتمة إنذار وتهديد لأهل مكة بالإهلاك، بذكر إهلاك من سبقهم، وإعذار لهم، حيث أرسل الله إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، فبشرهم وأنذرهم، وما بين الإنذار والإعذار توجيهات ربانية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يتعلق بتعامله مع المشركين، أو ما يتعلق بخصوص نفسه من التسبيح والصلاة.

المناسبة بين الخاتمة وما قبلها:

«ولما كان ما مضى من هذه السورة وما قبلها من ذكر مصارع الأقدمين، وأحاديث المكذبين بسبب العصيان على الرسل، سبباً عظيماً للاستبصار والبيان، كانوا أهلاً لأن ينكر عليهم لزومهم لعماهم فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي يبين ﴿ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن تقدمهم ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ بتكذيبهم لرسلنا، حال كونهم ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ ويعرفون خبرهم بالتوارث خلفاً عن سلف أنا ننصر أولياءنا ونهلك أعدائنا ونفعل ما شئنا»(١).

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٦٤-٣٦٥.

المعنى الإجمالي[(١)] :

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما صابهم»[(٢)] . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي: إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذّبة رسلها قبلهم، وحلول مُثْلاتنا بهم لكفرهم بالله لآياتٍ أي: لدلالات وعبراً وعظات لأُولي النّهَى: وهم أهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواقعة ما يضره». ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يا محمد أن كلّ من قضى له أجلاً فإنه لا يخترمه قبل بلوغه أجله ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي: ووقت مسمى عند ربك، سماه لهم في أمّ الكتاب وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه﴿ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ أي: للازمهم الهلاك عاجلاً.

ثم يقول جلّ ثناؤه لنبيه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذّبون بآيات الله من قومك لك إنك ساحر، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من القول ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: وصل بثنائك على ربك[(٣)] .

وقوله: ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ وذلك صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهي العصر ﴿ وَمِنْ

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣١. ثم قال الطبري: «وقد كانت قريش تتجر إلى الشأم، فتمرّ بمساكن عاد وثمود ومن أشبههم، فترى آثار وقائع الله تعالى بهم، فلذلك قال لهم: أفلم يحذّرهم ما يرون من فعلنا بهم بكفرهم بنا نزول مثله بهم، وهم على مثل فعلهم مقيمون».

(٣) وقال: بحمد ربك. والمعنى: بحمدك ربك، كما تقول: أعجبني ضرب زيد، والمعنى: ضربي زيدا. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٣.

ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ ﴾ وهي ساعات الليل[١] ... والمراد: صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضيّ آناء من الليل. وقوله: ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾: يعني صلاة الظهر والمغرب»[٢]. ﴿ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾[٣] أي: كي ترضى.

ثم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضُرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، مُتْعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها، من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها ﴿ لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي: لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك، ونبتليهم، فإن ذلك فانٍ زائل، وغُرور وخُدَع تضمحلّ ﴿ وَرِزۡقُ رَبِّكَ ﴾ الذي وعدك أن يرزقكه في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه ﴿ خَيۡرٞ ﴾ لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا. ﴿ وَأَبۡقَىٰ ﴾ أي: وأدوم، لأنه لا انقطاع له ولا نفاذ[٤].

---

(١) واحدها: إنْيٌ. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٣.
«ووجه الاهتمام بآناء الليل أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة فيخشى أن تتساهل في أداء الصلاة فيه» التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٣٨.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٣. وقيل: أطراف النهار، والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا، لأن صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأوّل، وفي أوّل طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلى المغرب، فلذلك قيل أطراف، وقد يحمل أن يقال: أريد به طرفا النهار. وقيل: أطراف، كما قيل صَغَتْ قُلُوبُكما فجمع، والمراد: قلبان، فيكون ذلك أوّل طرف النهار الآخر، وآخر طرفه الأول.

(٣) قرئت بفتح التاء من «ترضى» وبضمها، « والصواب من القول في ذلك عندي: أنهما قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، وهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأَة الأمصار، متفقتا المعنى، غير مختلفين وذلك أن الله تعالى ذكره إذا أرضاه، فلا شكّ أنه يرضى، وأنه إذا رضي فقد أرضاه الله، فكل واحدة منهما تدلّ على معنى الأخرى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب الصواب». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٤-٢٣٥.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٥. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٢. وقال الطبري: وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، من أجل أن رسول الله ﷺ بعث إلى يهوديّ يستسلف منه طعاما، فأبى أن يُسْلفه إلاّ برهن، فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ أي: ﴿ وَأۡمُرۡ ﴾ يا محمد ﴿أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ أي: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ ﴾ أي: لا نسألك مالاً، بل نكلفك عملاً ببدنك، نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً ﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ﴾أي: نحن نعطيك المال ونكسبكه، ولا نسألكه. ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ أي: والعاقبة الصالحة من عمل كلّ عامل لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقاباً، ولا يرجو له ثواباً.

ويقول ابن كثير: « وقوله: ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذاريات: ٥٦]- إلى قوله -﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذاريات: ٥٨] ، ولهذا قال: ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ﴾ »(١).

ثم يختم الله تعالى السورة بالرد على الكفار، وإنذارهم بسوء العاقبة، لما أبوا أن يتذكروا بهذا القرآن، وتبشير المؤمنين بحسن العاقبة لما كانوا من أهل الذكر، فيقول سبحانه مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ ﴾ والمعنى: هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله(٢) ؟ قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ والبينة: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين(٣) بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٣٠٣.

(٢) كما أتى قومه صالح بالناقة وعيسى بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٨.

(٣) من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجّلنا لهم العذاب، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها، فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أولئك. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٧.

الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين الخطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]»(١).

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذّبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يوم القيامة، إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك، فنتبع آياتك يقول: فنتبع حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذلّ بتعذيبك إيانا ونخزى به.

﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي منا ومنكم منتظر لمن يكون الفلاح مصيره، وإلى ما يؤول أمري وأمركم كل متوقف ينتظر دوائر الزمان ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ ﴾ أي فارتقبوا وانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ فستعلمون من أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، أنحن أم أنتم؟ ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي: وستعلمون حينئذٍ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم.

«وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾»(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٥.

الإشارات والهدايات المستنبطة من الخاتمة:

* ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ « هذا الاستفهام استفهام إنكاري تعجيبي، تعجيبا من حال غفلة المخاطبين المشركين عما حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرسل فضمائر جمع الغائبين عائدة إلى معروف من مقام التعريض بالتحذير والإنذار بقرينة قوله ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾، فإنه لا يصلح إلا أن يكون حالاً لقوم أحياء يومئذ»[(١)].

* قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ جاء في موضع التعليل، وذلك للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون. فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيذان بالتعليل... وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم عديمو العقول»[(٢)].

* لما كانت الدنيا حلوة نضرة، وما فيها من النعم نعم زائلة «شبهها الله بالزهر، وهو النوار، لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل»[(٣)].

* ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾. «فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم؛ وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة. وما أروح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله»[(٤)].

* ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.. على إقامتها كاملة؛ وعلى تحقيق آثارها. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهذه هي آثارها الصحيحة. وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك. وإلا فما هي صلاة مقامة. إنما هي

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٣٤.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٣٥.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ٢١.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

حركات وكلمات"[(١)].

* ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئاً. فالله غني عنك وعن عبادة العباد، إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾. فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وأخراه. يعبد فيرضى، ويطمئن ويستريح. ويعبد فيجزى بعد ذلك، الجزاء الأوفى. والله غني عن العالمين"[(٢)].

المناسبة بين هذه الخاتمة ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وفي الخاتمة هنا نلمح العناية بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في توجيه الله تعالى له إلى ما يعينه في دعوته إلى الله تعالى، وإلى ما يقوي قلبه وإيمانه فأمره أولا بالصبر على ما يقوله الكفار، والصبر صفة أولي العزم من الرسل، وأمره بالتسبيح، والتسبيح تنزيه لله تعالى عما لا يليق به تعالى مما يقوله الكافرون، وأمره بالاصطبار على الصلاة ودعوة أهله إلى المحافظة عليها، والصلاة صلة بينه وبين ربه، وهو الذي كان يقول من بعد: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»[(٣)].

وللمدعوين من أهل الشرك لطف آخر، فقد لطف الله بهم، إذ قدم لهم بين أيديهم من نذر السابقين من القرون الأولى ما يغنيهم لو كانوا يؤمنون ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١]، «وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله»[(٤)].

وقطع عليهم دعوى الاحتجاج بعدم إرسال الآيات بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ومن عليهم مرة أخرى إذ سبقت كلمته ألا يعاجلهم بالعذاب قبل انقضاء آجالهم.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.
(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.
(٣) أخرجه أبوداود في السنن، باب في صلاة العتمة، برقم: ٤٩٨٥.
(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٨.

الفهرس

السـورة	الصفحة
إبراهيم	١
الحجر	٩٣
النحل	١٣١
الإسراء	٢٠٥
الكهف	٢٨٣
مريـم	٤٠٣
طـه	٤٨٥

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com